الدكتور محمد رضوان الداية

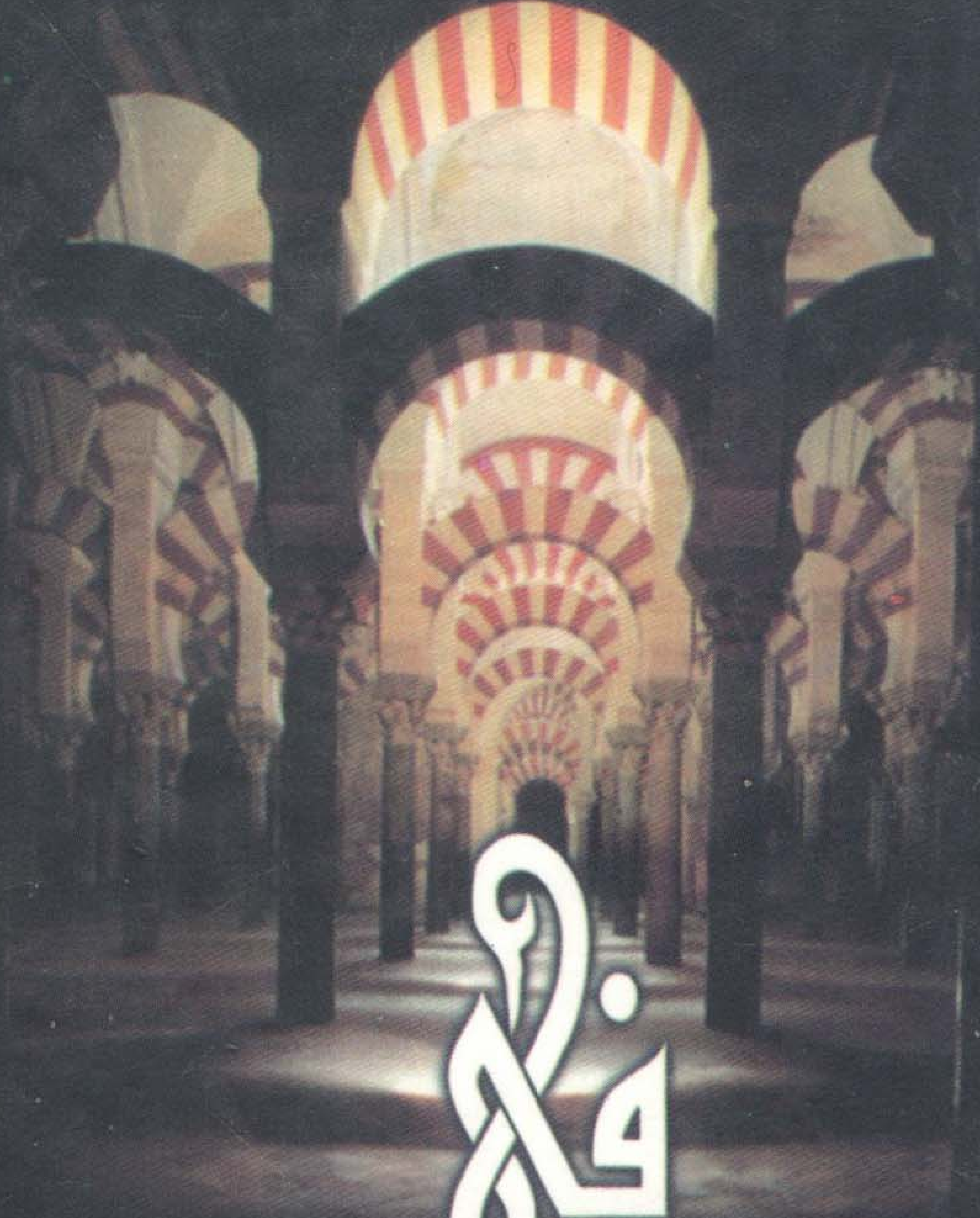

في الأدب الأندلسي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

في
الأدب الأندلسي

في الأدب الأندلسي / تأليف محمد رضوان الداية . - دمشق : دار الفكـــر ، ٢٠٠٠ . - ٣٨٤ ص ؛ ٢٥ سم .

١- ٨١٠,٩٦٠٠٩ داي ف ٢- ٩٢٨,٢ داي ف
٣- العنوان ٤- الداية
مكتبة الأسد

ع: ١٤٨١ / ٩ / ٢٠٠٠

الدكتور
محمد رضوان الداية

في
الأدب الأندلسي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان
دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي: ١٣٩٥,٠٣١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-815-3
الرقم الموضوعي: ٨١١
الموضوع: دراسات أدبية
العنـوان: في الأدب الأندلسي
التأليف: د. محمد رضوان الداية
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٣٨٤ ص
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

الطبعة الأولى
جمادى الآخرة ١٤٢١ هـ
أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠م

المحتوى

الموضوع	الصفحة
استهلال	٩
الفصل الأول ـ التعريف بالأندلس	١٥
الأندلس	١٧
السكان	٢١
من تاريخ الأندلس	٢٦
عصر الولاة	٢٨
الدولة الأموية المروانية بالأندلس	٢٩
عصر الطوائف	٣٤
دخول المرابطين	٣٥
دخول الموحدين	٣٧
من الموحدين إلى بني الأحمر	٣٨
الحضارة والعمران	٤١
الثقافة والعلوم والآداب	٤٣
الفصل الثاني ـ الشعر الأندلسي	٥١
الغزل	٥٣
المديح	٦١
الهجاء	٧٢
الفخر	٧٧
الزهد	٨١
المدائح النبوية	١٠٠
شعر الطبيعة	١١٢
الحنين إلى الوطن	١٣١
الرثاء	١٤٠
شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم	١٦٠
ـ الموشحات الأندلسية	١٧٨

الموضوع	الصفحة
متى ظهر الموشح	١٧٩
أصل الموشح	١٨٠
تطور الموشح	١٨٢
في نظام الموشحة	١٨٦
مصطلحات في الموشح	١٨٧
أغراض الموشحات	١٩٠
في فنية التوشيح	١٩١
أشهر الوشاحين	١٩٢
ـ الزجل في الأندلس	٢٠١
الزجالون في الأندلس	٢٠٣
الفصل الثالث ـ النثر الفني	٢١١
الكتابة الديوانية	٢١٣
الرسائل الإخوانية	٢٢٧
الرسائل الأدبية	٢٣٤
المقامة في الأندلس	٢٥٦
أدب الرّحلة	٢٦٧
الفصل الرابع ـ تراجم أندلسية	٢٨٧
يحيى بن حكم (الغزال)	٢٨٩
سعيد بن جودي	٢٩٥
ابن عبد ربه	٣٠٠
ابن زيدون	٣١١
ابن خفاجة	٣٣١
ابن أبي الخصال	٣٤٢
أبو البقاء الرّندي	٣٥٦
لسان الدين بن الخطيب	٣٦٧
الخاتمة	٣٧٥

إهداء

في ٣١ تموز (يوليه) من صيف ١٩٧٦ كنّا في طريقنا من مدينة تولوز (طُلُّوشة في المُسمّى العربيّ) من أقصى غرب فرنسة متجهين إلى شبه جزيرة إيبرية. اخترقنا الحدود وتوقّفنا ظهيرة ذلك اليوم في بعض الطريق الجبلي الوعر. وحين خيّمنا لبعض الوقت لامسنا البرد الشديد، وجاورنا كتل الثلج المتناثرة، وقاسينا من وعورة المكان ووحشته؛ وإن كان المنظر رائعاً.

قلت لابني الفتى - ونحن في ذلك الموقع، وفي ظلال تلك الظروف -: من هذا الممر، وأربعة منافذ أخرى عُرفت بالأبواب، نفذ أجدادنا، واندفعوا يبشّرون بالرسالة، آخر الرّسالات؛ لم يقف دون أداء الواجب: ارتفاع الجبال، ووعورة المسالك، وقسوة الجوّ، وبُعد المسافة.

لقد جعلوا الأندلس على مدى ثمانية قرون مركزاً حضارياً متقدّماً، ومنارةً علميةً وثقافيةً وأدبيةً، ذات إشعاع اخترق المكان والزّمان...

فإلى ابني: لؤي، والسّيدة والدته رفيقة الدرب ومرافقة تلك الرّحلة، وإلى سائر إخوة لؤي وأخواته؛ وهم يعايشون أحداث حياتنا المعاصرة، ويعاينون ظروف الأمة وأحوالها الآنيّة أهدي هذا الكتاب، ليتذكّروا مجريات رحلتنا إلى الأندلس، ويسترجعوا من عَطاء الأمّة في ذلك القُطر النائي.

وإلى القارئ الكريم

وهو يقلّب صفحاتٍ من الجانب الأدبي في حياة ذلك البلد الذي خلّد هو وأهله في تاريخ الأمّة في المشرق والمغرب، وخلّد في سجل حضارة العالم أيضاً.

محمد رضوان الداية

استهلال

من الظواهر التي تلفت النّظر أنّ العناية بالتراث الأندلسي، وبحياة العرب والمُسلمين في الأندلس لم تنقطع، على الرغم من مرور أكثر من خمسة قرون على الغياب العربيّ عن تلك البلاد. لقد اهتم العرب في أقطارهم القريبة من الأندلس والبعيدة عنها بذلك التراث، وتلك الحضارة المتألقة، ولم يلبث المستشرقون أن انتبهوا إلى الثراء العظيم في التراث الأندلسي الباقي من المخطوطات العربية الأندلسيّة.

ولئن ضاع من ذلك التّراث الأندلسي الكثير لقد بقي منه ما يُسهم في البناء الثّقافي والحضاري من جهة، وما يدلُّ على عظمة دور الأندلس في أرض أوربّة من جهة أُخرى. والذي صدر من الكتب الأندلسية في الموضوعات المختلفة يضع ذلك القُطر في الأقطار ذات الأهميَّة الحضاريّة باعتبار ما مضى أولاً، وباعتبار ما نستفيد منه ونرجع إليه إلى اليوم ثانياً.

ويُسْعد النفسَ أنّ جمهرةَ المستشرقين الإسبان، والبرتغاليّين، وكثرةً من المثقّفين والباحثين صاروا يَعُدّون المدّة العربية الإسلامية جزءاً مكمّلاً لشخصيّتهم، وجُزءاً من ثقافتهم وحضارتهم. وهذا اعتراف حضاري تأخر كثيراً، ولكنّ ظهوره يُعَدُّ تطوّراً إيجابياً ونظرة، تقترب من الموضوعية عن الحضارة العربية والثقافة الإسلامية.

* * *

واستطاع هذا القطر النائي أن تكون له خصوصيّة في أكثر من جانب من جوانب الفكر والفن والعلم والأدب، ووجوه الثقافة المختلفة، ووصلت تلك الخصوصية إلى أشياء في العادات والتّقاليد.

وأثّر الأندلسيّون على امتداد تاريخ الحضارة العربية الإسلاميّة مثلما تأثّروا، وأثبتوا هويّتهم الشخصيّة ـ عند أهل المشرق ـ بل كانوا مرجعاً مهمّاً في أُمورٍ مختلفة كثيرة في جوانب العلوم والفنون والآداب وسائر المناشط الثقافية والفكرية والحضارية.

* * *

وكان للأدب مكانةٌ في هذه الهالة الأندلسية الباهرة في جوانب المنظوم والمنثور.

ـ فمضى الأندلسيّون على آثار المشارقة، وأتقنوا إتقانهم وشاركوا في قضايا الأدب، وموضوعاته في قطرهم النائي البعيد؛

ـ وكان لهم، أحياناً رؤًى وملاحظات من خلال تلك المتابعة والمجاراة، والمنافسة أيضاً؛

ـ وأسْهَمُوا بالجديد ممّا يُنسب إليهم، وبقي اسمهم لاصقاً به، ودالاًّ، مع مرور الزمن، عليهم.

ـ وألْبَسُوا بعض الأغراض والموضوعات حلّةً أندلسيّةً فيها الإبداع والتجديد، وفيها التميُّز والخصوصيّة.

واشتهر من أهل الأندلس أعلامٌ في فنون النظم والنثر يُعَدُّون في كبار أُدباء العربية.

ويمكن أن نقول: **إنّ بُعد الأندلس عن** المشرق من جهة، **وتخييم المحلّي المشرقي** على السّاحة الأدبيّة من جهة أخرى، حجَب عن النّاس كثيراً من ذلك النّتاج الأدبي الأندلسي؛ فعرفه الخاصّة أو القلّة، وغفل عنه الكثرةُ الكاثرة؛ في القرون الأُولى. ولم يلبث المشرق أن عَرف فضل الأندلسيين ووجوهاً من جوانب عطائهم ومشاركتهم وإبداعهم. وقد روي أن المتنبي لما سمع بعض شعر ابن عبد ربّه من أحد الأندلسيّين أعجبه شعره، وقال: يا ابن عبد ربّه لقد يأتيك العراقُ حَبْواً!

ومغزى العبارة يدل على طبقة هذا الشاعر الأندلسي في فن الشعر، ويدل أيضاً على عدم شيوع آثار الأندلسيين في المشرق، إلا في القليل الذي ينقلُه العلماء والرّحالة وطلبة العلم الوافدون من الأندلس إلى المشرق(١).

على أنّ الأبواب انفتحت في المشرق على كثير من النّتاج الأندلسي مع القرن الرابع الهجري، وهلم جرّاً مع توالي الأعوام والعصور، بل إن الموشحات والأزجال الأندلسية ـ على خُصوصيّتها ومحلّيتها المغرقة أحياناً ـ انتقلت إلى المشرق، وأَعْجَبَت النّاس، حتى إنّهم حاكوها، وجَروا على آثار الأندلسيين فيها، بل إن أوّل كتاب وصل إلينا ـ في ما نعرف ـ عن فَنّ التوشيح ـ هو كتاب (دار الطراز في عمل الموشحات) لابن سناء المُلك(٢)، وهو مشرقيّ.

* * *

وإذا وصلنا إلى القرن الحادي عشر الهجري قرأنا ما سجّله المقرّي في (نفح الطيب) لأهل دمشق والشام من رغبة عارمة لمعرفة الأندلس وثقافتها وآدابها ورجالها، ومن ثم وقفوا عند شخصيّة لسان الدين بن الخطيب(٣) خاصة، فقد كان لأشعاره ومؤلفاته وموشحاته صدى واسع لديهم. وقد ألّف أبو العبّاس المقّري انطلاقاً من رغبة أهل الشام كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذِكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) الذي عُرِف بعنوان مختصر(٤). وجاء هذا الكتاب دراسة شاملة في شخصية لسان الدين، وتعريفاً بمؤلفاته،

---

(١) يُعَدّ كتاب (جذوة المقتبس) الذي ألّفه الحميدي الأندلسي في المشرق من كُتب التراجم المهمّة التي أسهمت في التعريف برجال الأندلس. وقد ألّف الحميدي كتابه من ذاكرته وهو ببغداد. وكان من تلاميذ ابن حزم القرطبي. (ولد الحميدي ٤٢٠ هـ، وتوفي ٤٨٨ هـ).

(٢) حققه د. جودة الركابي. وطبع أوّل مرة في المعهد العلمي الفرنسي بدمشق ١٩٤٩، ثم طبع بدار الفكر بدمشق.

(٣) له ترجمة في هذا الكتاب.

(٤) طبع الكتاب أكثر من مرة آخرها طبعة في ٨ مجلّدات حقّقها د. إحسان عباس. وانظر كتابه الآخر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (طبع في ٥ أجزاء) ٣ في مصر و ٢ في المغرب. وطبع جملةً بالتّعاون بين المملكة المغربية ووزارة الأوقات والشؤون الإسلامية بأبو ظبي.

وآثاره، وموشحاته وأشعاره وأشياء كثيرة تتعلق به. وكان الكتاب أيضاً موسوعة كبيرة تحتوي على فوائد وتراجم ومناسبات ونصوص أندلسيّة.. إلخ.

وقد كان القرن الرابع عشر (الهجري) المنصرم، وطلائع القرن الخامس عشر مجالاً واسعاً للعودة إلى الأندلس:

- متابعةً لما بدأ به المستشرقون الإسبان، وغيرهم، في وقت سابق.

- واستئنافاً للاهتمام العربي بالأندلس: تحقيقاً للتراث الأندلسي وتذييلاً عليه، ودراسةً لجوانبه، وإبرازاً لأعلامه، وإعادةً لكتابة تاريخه، واهتماماً بجغرافيّته وبلدانه...

وعبارة: ((التّراث الأندلسي)) تفتح الباب واسعاً للعلوم والفنون والآداب والمقاصد الشرعية وما هو منها بسبب.

* * *

وبهذه المناسبة مِن ذكر التراث الأندلسي، والدّراسات الأندلسية أقول: إنّي أسهمت بجهدي - وبمقدار ما فسح الوقت وسمحت الظروف والسّفر والاغتراب - فحققت عدداً من النصوص الأندلسيّة والمغربيّة، ودرست عدداً من الشخصيات، وألّفت في جوانب من الأَدب، والثقافة في الأندلس. وهذا — وإن كان جهد المقلّ — يرضي النفس، أو هو يُقنعها بأنني أؤدّي ما أستطيع من واجب؛ وقد جعلت الأندلس، والأندلسيّات والمغربيّات هدفي ومَجال مَحبّتي وأُفق حلمي ونصب عَيْني...

* * *

هذا الكتاب:

وهذا الكتاب دراسةٌ متوسّطة، أَو هي مَحْدُودة الإطار، نقدّمها للقارئ المتشوّف إلى الأَندلس وأَدبها وأُدبائها: يكون له مَدْخَلاً، ويُقدِّم له من المُحيط خليجاً؛ وهو يعرِّفه من جهةٍ، ويشوّقه إلى المزيد من جهة أُخرى؛ وقد قال أهل العرفان: مَنْ ذاق عَرف!

والكتاب ـ عند التمثيل والتشبيه ـ لقطات التُقطت من بُعْد حيناً لتكون الصورة شاملةً عامةً، وأُخذت عن قرب حيناً آخر ليكون الكلام مركّزاً مقرّباً.

وهو مَدْخلٌ إلى الأدب الأندلسي، وتَقْدِمة عامّة تمهّد لكتاب أكثر اتّساعاً وشُمولاً نُصْدِرُه قريباً ـ بإذن الله ـ بعنوان: (تاريخ الأدب الأندلسي) في ثلاثة أجزاء.

وكتابنا هذا (في الأدب الأندلسي): يأتلف ائتلافاً حسَناً في خُطّة مُنظّمة؛ فهو:

- يقدّم تعريفاً عامّاً بالأندلس العربية الإسلاميّة؛
- ونظرةً شاملةً للأدب العربي في ذلك القطر، في عصوره المتوالية؛
- ولمحةً كافيةً عن حال الأندلس الحضارية بصفة إجمالية لتكون صلةً بين الحياة العامة والحياة الأدبية، ولتكون تنويراً عامّاً.
- ويقدّم رُؤيةً كافيةً، على طريقة الاختصار واللَّمْحِ الدالّ، للموضوعات التي عالجها الأَدب الأَندلسي من التّقليدي المعروف إلى الجديد المبتكر؛
- وتعريفاً بعدد من ذوي المكانة البارزة، والتأثير الظاهر من الأُدباء والشعراء.

وقد زوّدتُ الموضوعات، والتّراجم بعدد من النصوص الشعرية والنثرية: بعضها تامّ دون انتقاص، وبعضها مختاراتٌ من أُصول: في انسجام بين التامّ الوافي والمُوجز الكافي.

وأدعو الله تعالى أن يكون كتاباً نافعاً؛ وأن يكونَ مُفتتحاً حسناً للمبتدئ في تعرُّفِ الأندلسيات؛ وبُلغةً، وتذكرةً لغيره. والله المُستعان في كل آن.

والحمد لله ربِّ العالمين

محمد رضوان الدّاية

أعيد النظر فيه للطباعة مستهل شهر محرّم الحرام عرّفنا الله بركته ١٤٢١ هـ، الموافق شهر نيسان ٢٠٠٠ م. بمدينة الشارقة.

في الأدب الأندلسي

الفصل الأول

التعريف بالأندلس

- الاسم.
- المكان.
- السكّان
- التاريخ.
- الثقافة ومعطيات الحضارة.
- الحضارة الأندلسية.

الأندلس

١ - اسم الأندلس

أطلق الإغريق اسم إيبريا (Iberia) على البلاد التي عرفت في الحضارة الإسلامية باسم الأندلس. وأطلقوا عليها اسماً آخر هو إسبانيا (Ispania)، فلما دخلها الرومان صار الاسم: (Hispania)؛ وهو - في رأي بعض المؤرخين الإسبان- مأخوذٌ من كلمة ذات أَصل فينيقي.

واسم الأندلس له صلة باسم قبائل الوَنْدال التي سكنت البلاد بعد الرُّومان. وغُيِّر الاسم من (Vandalos، أو Wandalos)؛ واتخذ سَمْتاً عربيّاً فقيل: الأَندلس، أَو بلاد الأَندلس(١).

وانتشر هذا الاسم بعد الفتح الإسلامي، ومحا اسمَ إسبانيا تماماً، وشاع استعمالُه في المؤلّفات العربيّة الأندلسية والمغربية والمشرقية في الوثائق والتواريخ والرحلات وكتب الجغرافية... إلخ.

واسم الأَندلس كان مُرتبطاً بالدولة الإسلامية وحدها مهما كان امتدادها: يتسع باتّساعها، ويضيق بانحسارها. ولم يذهب هذا الاسم بنهاية دولة الإسلام

---

(١) انظر: الرّوض المعطار في خبر الأقطار للحميري (٣٢ - ٣٥). ونقل عن الرازي (المؤرخ الأندلسي والجغرافي المشهور): ((أول مَنْ سكن الأندلس بعد الطوفان.. قوم يُعرفون بالأندلش بهم سُمّي البلد، ثم عُرّب))، ومعجم البلدان (١: ٢٦٢ - ٢٦٤)، والحلل السندسية ١/٣٥ - ٣٦، ودراسات أندلسية د. طاهر مكي (الفصل الأول)، وفجر الأَندلس د. حسين مؤنس: ٤٣، والأَدب الأندلسي (مقدّمته) د. أحمد هيكل، ودولة الإسلام في الأندلس/ القسم الأَوّل (مقدمة المؤلف والفصل الأول).

في الأَندلس؛ فإنه ما يزال مستعملاً للمعنى القديم كلما ذكرت الأندلس، أو ذُكر عَلَمٌ من أعلامها، أو فنّ من فنونها، أو أثر من آثارها؛ أَو أيّ شيء له صلة بها.

وبقي اسم الأندلس في إسبانية الحديثة[(١)] بعد أن أخذ صورة أَنْدَلُسيّا (أو أَنْدَلُوثِيّا) (Andalucia)، ويُشبه ما سمّاه بنو سعيد[(٢)] مَوْسَطة الأَندلس، والتي تضم أقاليم: المريّة، وغَرْناطة، ومالَقَة، وجَيّان، وقرطبة، وإِشبيلية، وقادس، وولبة.

٢ - بلاد الأندلس

في كتب جغرافيّة الأندلس، وَصْفٌ لطبيعة البلاد، وتنوّع تضاريسها بين سهول وجبال ووديان وهضاب، وأنهار كُبرى وأنهار صغرى، ونُهيرات، إضافة إلى الينابيع العذبة، والينابيع المعدنية والكبريتية الباردة والحارة (الْحَمَّات). وأَوضحت تلك الكُتب والدِّراسات والإشارات أن الأَندلس متعدّدة الأَوصاف في شبه جزيرة مترامية الأطراف، ومتعدّدة المناخات من السواحل (المتوسطية والأطلسيّة) إلى الهضاب المعتدلة الارتفاع إلى الجبال الشّاهقة التي تكسوها الثلوج زماناً طويلاً من شهور السنة.

وهذا يُفسّر - ولو جزئياً - تلوّن الأدب الأندلسي - والشعر منه خاصة - بألوان الطبيعة الأندلسية من الاعتدال، إلى الطّرفين المتضادّين: شدة الحرّ من جهة، وشدة البُرودة من جهة أُخرى؛ ويفسّر لنا شعر الطبيعة الأندلسيّة الذي أجاد فيه وأَبْدَع أمثال ابن خفاجة وأتباع مذهبه (أو مدرسته)[(٣)] في زمانه، ومَنْ كان قَبْلَهُ، ومَنْ جاء بَعْدَهُ أيضاً.

والأندلس: شبه جزيرة يَحُدُّها البحر المتوسط شرقاً، والمحيط الأطلسي غرباً، ويفصلها عن فرنسة وسائر أوربة شمالاً جبال وعرة هي جبال البرتات (أو

---

(١) دراسات أندلسية: ٢٤

(٢) انظر كتاب: المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، ومقدمة د. شوقي ضيف.

(٣) انظر دراستنا المعنونة: ((المذهب الخفاجي)) في سلسلة الروائع الجديدة.

الأبواب كما تسمّى في النّصوص العربيّة) وكان فيها خمسة منافذ للداخل إلى الأندلس والخارج منها.

وَيَفْصِلُ الأندلسَ عن المغرب مضيقٌ عُرِف منذ الفتح الإسلامي بـ (بحر الزُّقاق) لضيقه (الذي يبلغ في بعض نواحيه نحو عشرة أميال) وعُرِف أيضاً بالاسم الباقي إلى اليوم: مضيق جبل طارق. وأُطلق عليه قديماً اسم بحر العُدْوة، كما قيل فيه: بَحْرُ الزُّقاق.

وتتألف شبه جزيرة إيبريا من عناصر تضريسيّة مختلفة. ففي الوسط تشغل الهضبة الكبرى حيّزاً واسعاً؛

- وتتخلّل إيبريا سلاسلُ جبالٍ ترتفعُ في مُعظم أَرجائها:

- ففي الجنوب جبال سيرّا مورينا (الجبال السّمراء) وسمّاها العرب جبال الشارات، وبعدها سهلٌ منبسط.

- ويليها جنوباً، ويرتفعُ من السّهل الفسيح جبال سيرّا نيفادا (وسمّاها العرب جبال الثلج؛ أو جبل الثلج) ويشاهد - بثلوجه - بوضوح من غرناطة المستلقية على أَحد سفوحه.

- وترتفِعُ في أقصى شمال الهضبة الكبرى جبال كانتبريا.

- وينحدرُ من غربِ الهضبة السَّهْلُ الغَرْبيّ.

* وفي إيبريا أنهار كثيرة منها:

- الوادي الكبير الذي يروي أكثر أراضي السهل الجنوبي، ويمرّ بمدينتي قُرْطُبة وإِشْبِيْلِيَة وغيرهما، ويصب في المُحيط الأطلسي.

- ووادي آنة (أو وادي يانة) وتقع عليه مدن كثيرة مثل: ماردة، وبطليوس، ومِيْرتُلَة، ويصب في البحر المحيط.

- ونهر التّاجُه وتقع عليه طُلَيْطِلَة، وطَلَبيْرَة، وشَنْتَرِيْن، ويصبُّ عند أُشبُونة في المحيط (هي اليوم مدينة لِشْبونة).

- ونهر دويرُه (ويسمى عند العرب الوادي الجوفيّ) ينحدر إلى الغرب حتى يصبّ في المحيط.

- وهناك أنهار تصبُّ في البَحْرِ المتوسط منها:

- نهر إيبْرُه وتقع عليه مدينة سَرَقُسْطَة، وتُطْيلَة؛ ويصبّ قرب طُرْطُوشة.

- والوادي الأبيض، ويَمُرُّ شمال بَلَنْسِيَة.

- ونهر شُقر، ويمرُّ بمدينة شُقْر، من مُنْتَصفها، وهي مدينة ابن خفاجة أشهرِ وصافٍ للطبيعة في الأندلس.

- ونهر شَقُورة الذي يخترق مدينة مُرْسِيَة.

* ويساعد الأنهار والنُّهيرات في توفير مياه الشّرب والسَّقي والاستعمال ينابيعُ، وعيونٌ، وآبارٌ، وأمطارٌ مختلفة النسب بحسب المواقع الجغرافيّة.

* وتكثر في الأندلس ينابيع المياه المعدنية الباردة منها والساخنة (ويسمّون الساخنة منها الحمّات جمع حَمّة).

* ويلاحظ على شبه جزيرة إيبريا اختلاف درجات الحرارة اختلافاً كبيراً بحسب الأقاليم، تماماً كاختلاف أحوال الطبيعة، وأنواع المزروعات والأشجار والمحاصيل الزراعية. والمناخ يقترب من أوربة في الأقاليم الشمالية، ويقترب من المغرب في الأقاليم الجنوبية.

وقد فضّل العرب، منذ الفتح، النزول في الأماكن الخصبة الدّافئة.

السُّكّان

أُعيد تَشكّل سكّان الأندلس تَشَكُّلاً جديداً بعد الفتح الإسلاميّ، فإن عناصرها السكانية تتألف من **العرب والبَرْبَر، والإسبان**، وهؤلاء كانوا قسمين فقسم دخل في الإسلام، وقسم بقي على دينه القديم (وكلا الجانبين من الإسبان تعرّب، واتّخذ العربية لغة أَدب وفكر وفنّ وحياة)؛ ومن عناصر السّكان في الأندلس: البَرْبَر، والصّقالبة، واليَهُود. وقد استطاعت تلك البلاد أَن تَصْهَر هذه العناصر، وتكوّنَ منها صيغةً أندلسيّة أسهمت في بناء ((الدّولة)) الأندلسيّة، وإظهار وجوهها الحضارية للعالم.

ـ ويُعرف العرب الذين دخلوا مع الفتح باسم **البلديّين**. ويعرف الذين دَخَلُوا مع طالعة بَلْج بن بِشر القُشَيري سنة ١٢٥ باسم **الشاميّين**. وأُطْلِقَ على الإسبان الذين عاصَرُوا جيل العَرب من الفاتحين، الذين دَخَلُوا في الإسلام باسم **المسالمة**، على حين دُعي الذين بَقُوا على دينهم من أهل الذّمة باسم العَجَم أو (عَجَم الأَندلس)، وكان لهم رئيس يُدعى بالقُومس. وكان هؤلاء، وسائر أَهل الذمّة، مُحَصّنين برعاية الدولة وحمايتها. ويلي هؤلاء[1]: **المُوَلَّدُون**، وهم الذين وُلِدُوا من آباء مسلمين، ونشؤوا على الإسلام. وكانوا يؤلفون في عهد أمراء بني أُميّة الكثرة الغالبة من السكان[2]. ومنهم تكوّنت جماهير الأَندلسيين، وأهل البيوتات منهم... وكان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل من المولدين انتشار اللغة

---

(١) الإسلام في إسبانيا ـ د. لطفي عبد البديع: ٢٤، وفجر الأندلس ـ د. حسين مؤنس.

(٢) انظر كتابنا: سعيد بن جُودي الأندلسي؛ وفيه كلام على الخلاف ــ آنذاك ــ والصراع بين العرب والمولدين. والجزء الأوّل من كتاب محمد عبد الله عنان.

الرومانسية بين الأندلسيين وهي اللاّتينية الحديثة، ويسمّيها المؤرخون العرب: العَجمِيّة أو اللّطينيّة. ((ومن طريق المولّدين تداخلت العربية والرومانسية تداخلاً كان من مظاهره نشأة فنّ الموشّحات..))[١].

ـ ويُطلق لفظ **المستعربين** على نصارى الإسبان الذين تعايشوا مع العرب وتَعَرَّبُوا، وأقاموا في ديار الإسلام. وقد كفلت لهم الدّولة الإسلامية حريّة العقيدة فأبقَتْ لهم كنائسهم وأديرتهم ولم تتعرَّض لهم في ذلك بشيء. والاستعراب يمثل تأثير الثقافة العربية في غير المسلمين من الإسبان...[٢]. وترصد أخبارهم اندماجَهُم في الجوّ العربي والثقافة العربية الإسلامية، وكيف قرضوا الشعر العربيّ، وصاروا جزءاً من المنظومة السكّانية الأندلسيّة سواء بسواء. وقد أسهم هؤلاء المُستعربون في حركة التّرجمة من العربيّة إلى اللاّتينيّة. وعن طريقهم انتشرت الثقافة العربية الإسلامية وعُرفت في الدُّول النصرانية الشمالية، وفي أوربة أيضاً.

– ومن عناصر المجتمع الأَندلسي **البَرْبر**. ومعلوم أن جيش طارق الذي بدأ عملية الفتح الإسلامي تشكل من كلا العنصرين: العربي والبربري. وقد كثر البربر في الأندلس في المدة القريبة من الفتح؛ ونقرأ في (نفح الطيب) للمقري أن الناس من أهل بَرّ العُدوة ((تَسامَعُوا بالفتح على طارق، وسعة المغانم فيها؛ فأقبلوا نحوه من كلّ وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب...))[٣]. وقد سجّل ابن حزم منازل البربر في الأندلس مثلما سَجّل منازل العَرب. ولم ينقطع وفود البَرْبر على الأَندلس طوال العُصور الإسلاميّة[٤].

---

(١) العرب في إسبانيا: ٢٤. ولأُستاذنا الدكتور عبد العزيز الأهواني كلام مهم في هذا الموضوع في كتابه (الزَّجل في الأندلس). راجع ((الموشحات والأزجال)) في مكانه من كتابنا هذا.

(٢) المرجع السابق ٢٤، ٢٥.

(٣) نفح الطيب: ١٦٣/١.

(٤) ينظر كتاب ابن حزم: جمهرة أَنساب العرب؛ وفجر الأندلس د. حسين مؤنس ٣٧٨ ـ ٣٩٦. وبحثنا: منازل اليمنيّين في الأندلس في كتابنا (أندلسيات شامية) طبع بدار الفكر ـ دمشق.

واشتهرت من البربر أسماء لامعة في الإدارة والحكم والجيش والشرطة، كما قامت لهم دويلات في عصر الطّوائف خاصة.

وأشار الدكتور مؤنس[1] إلى عنصر **الموالي** باعتباره من عناصر المجتمع الأندلسي، وقال: إنّ الأندلس عرف في هذا الوقت (عصر الولاة) نظام الولاء، وكان الموالي مشارقة أَقْبَلُوا إلى الأندلس مرتبطين بروابط ولاء قديمة للبيت الأموي، أو لأفرادٍ منه، أو مغربيّين دخلوا في ولاء بني أُمية أو ولاء قوّادهم، أو بعض قبائل العرب، وانتقلوا إلى الأندلس مُحتفظين بهذا الولاء، أو إسباناً دَخَلُوا في ولاء بني أُميّة، أو ولاء قوّادهم، وظلّوا مُحتفظين، هُمْ وأبناؤهم بهذه العلاقة...

ـ وعرف المجتمع الأندلسي ((**الصّقالبة**)):

وقد أُطلق اسم الصّقالبة في الأندلس على أسرى كان يتاجر بهم تجّار من الجِرْمان وغيرهم، وكانوا يُسْبَوْن من مناطق مختلفة، وإن كان الأصل في الاسم أن يكونوا من السّلاف، ثم عُمّم استعمال الكلمة، فصارت تدل على مُطلق الأَسرى، ومَنْ يُباعون من أوربة في الأندلس. وربّما أُخذوا من مناطق غير إسلامية في الأندلس. وكان هؤلاء الصّقالبة يدخلون في سلك الجندية، أو يُتّخذون ــ وخاصة الخصيان منهم ــ لخدمة الدُّور والقصور. وكان هؤلاء (الفتيان) من الصّقالبة يُدَرّبون ويُعَلّمون العلوم المختلفة، إضافة إلى المهمات العسكرية والشُّرَطيّة؛ فإذا بهم يُصبحون مثقّفين بالثقافة العربية، عارفين بخصائص الحضارة الإسلامية.

وقد عَرف المجتمع الأَندلسي هؤلاء الصّقالبة من وقتٍ مبكّر من أيام عبد الرَّحمن الداخل، وكانوا قوّةً عسكريّة مهمة في أيّام عبد الرَّحمن النّاصر، وتولى بعضهم أعمالاً كبيرة، فقادوا الجيوش وأسهموا في بعض الشؤون الإدارية والسياسية.

---

(١) فجر الأندلس: ٤٠٦.

وفي عصر دُول الطوائف استأثر الصّقالبة بشرق الأندلس، وقامت لهم دويلات مستقلّة؛ وفيهم: مبارك والمظفّر (في بلنسية) ولبيب في (طُرطوشة) وأبو الجيش مجاهد في (دَانِيَة) وخيران وزهير في (المَرِيّة)...

ومن مظاهر قوّتهم، و ((وجودهم)) في المجتمع الأندلسي مجاهرة ابن غرسية بدعوى الشعوبية[١].

ـ اليهود

ووجد اليهود في الأندلس ما وجده بنو جلدتهم في المشرق من سماحة الإسلام، وحُسن المعاملة، وحريّة التديّن، وفسح الفُرَص أمامهم في كل اتجاه. وكان دخول الإسلام إلى الأندلس إنقاذاً لهم من حالهم البائسة التي كانوا عليها أيام القُوط، فقد كانوا مضطهدين في أنفسهم وفي دينهم وفي أحوالهم الشخصية، وأُمورهم العامّة. وقد رحّبوا بالعرب وكانوا عوناً لهم. وكانت لهم أكثرية في بعض البُلْدان والقُرى في فترة من الفترات. ودرجت العربية على ألسنتهم، ودخلت الثّقافة العربية في صُلب ثقافتهم، وأفادوا من اللغة العربية وقواعدها في صناعة أجروميّة عبريّة للنحو والصرف. ونبغ من اليَهُود أَعداد كبيرة في الآداب والعلوم والطب وغير ذلك، وفيهم حَسْداي بن شبروط طبيب عبد الرحمن النّاصر، وكان طبيباً وعشّاباً. وتعدّ آثارهم الأدبيّة والفكريّة نِتاجاً للثّقافة العربيّة الإسلاميّة في الأندلس.

* * *

وقد انصهر السّكان في إطار الأَندلس الجديدة، وعرف المجتمع الأندلسيّ ـ في معظم عهوده ـ التناسق بين عناصره، ولم يطغ جانب على جانب. واستطاعت الدّول المتعاقبة إقامة توازن شامل، بما في الإسلام من سماحة، وبما في قوانينه وشرائعه من اعتدال. وكانت الأندلس في ظلال حكم إسلامي متعدّد الصُّور

(١) نشرت الرسالة المشار إليها في رسائل: نَوادر المخطوطات.

والأُطر. فقد عرفوا نظام الإمارة (القسم الأول من حياة الدولة الأموية) ونظام الخلافة (منذ عبد الرحمن الناصر إلى آخر الدولة الأموية) ونظماً شتى أقرب إلى الإمارة المورثة (دول الطوائف) وتلقب المرابطون بلقب (أمير المسلمين) لكي لا يتكرر لقب الخليفة على امتداد الأرض الإسلامية؛ وتلقب الموحّدون بالخلافة وبأمير المؤمنين؛ وتلقب حكام دولة بني نصر (أو بني الأحمر) بالسلطان والملك. وكان مذهب الدولة المذهب المالكي، مع وجود قلة تتمذهب بمذاهب أخرى كالشّافعية والظّاهريّة. وتركت للنصارى حرياتهم الدينيّة التامّة، وكان لهم قيّم منهم برتبه وزير يدعى (قومس النصارى)، أما اليهود فكانت أيامهم مع المسلمين في الأندلس أياماً ذهبيّة.

من تاريخ الأندلس

١ ـ كانت الأندلس قبل الفتح الإسلاميّ في ظلّ دولة القُوط التي امتدّت زهاء قرنين من الزّمان. وكان المجتمع الإسباني آنذاك كما يصفه المؤرخ محمّد عبد الله عنان (دولة الإسلام في الأندلس ١/١: ٣٠ ـ ٣١): ((يعاني من صنوف الشقاء والبؤس، وقد مزّقته عصورٌ طويلةٌ من الظّلم والإرهاق والإيثار... لقد كانوا يستأثرون بمزايا الغَلبة والسّيادة، وإحراز الإقطاعات، والضياع الواسعة؛ ومنهم ـ وحدهم ـ الحكام والسّادة والأشراف. أمّا سواد الشعب الأعظم فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال.. وزرّاع شبه أرقّاء.. ويتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السّلطان والنفوذ. أمّا الشعب فكان في حالة يُرثى لها.. وكان يهود الجزيرة كتلةً كبيرةً عاملة، ولكنهم كانوا موضع البُغض والتعصّب والتّحامل، ويعانون أشنع ألوان الجَوْر والاضطهاد.. واعتنق النصرانية كثير منهم كرهاً ورياءً...)).

وكان على عرش إسبانية في تلك المدّة الملك وتيزا (تُسمّيه الرواية العربية: غَيْطَشة). وقد خلعه رُودريك (هو عند العرب: لُذَريق) الذي سَمَل غيطشةُ عَيْنَيْ أبيه: دوق تيودوفرد. ووقع الصّراع بين ولدي غيطشة وبين رودريك، واستقرّت الأُمور لصالح رودريك.

٢ ـ سُبق الفتح الإسلامي بحملة صغيرة للاختبار، ولتحسّس الأحوال؛ وقاد تلك الحملة القائد طريف بن مالك في رمضان سنة ٩١ هـ من سَبْتة إلى بقعة

مقابلة في أَرض الأندلس سمّيت باسم طريف. وما يزال اسمها كذلـك إلى اليوم. وكانت الحملةُ ناجحة جداً[١].

وفي رجب سنة ٩٢ هـ جَهَّز موسى بن نصير جيشاً بقيادة أحد رجاله: طارق بن زياد، وكان حاكماً لطنجة. ونزل أوّل ما نزل في المكان المسمّى إلى اليوم باسم جبل طارق.

ولَمّا علم لذريق بدخول المسلمين هَرع من شمال البلاد، ونزل جنوباً بجيشٍ ضخم في نحو مئة ألف، مقابل اثني عشر ألفاً من المسلمين، من العرب والبربر، والتقى الجيشان عند وادي لكّه (من كورة شذونة) فانهزم لذريق هزيمةً عظيمةً، وفُقِد هو فلم يُعْثَر له على أثر!

وقسم طارق بعد ذلك جيشه أربع فرق؛ سارت تفتح بلاد الأندلس من أقطارها بيسر وسهولة في معظم الأماكن؛ لأن الشعب الإسباني كان يتلقى العرب بالتّرحاب حُبّاً في التخلُّص من ظلم حكّامه القوط.

ولم يلبث موسى بن نصير أن لحق بطارق بن زياد، وأَنجزا فتح الأندلس إلا مواضع يسيرة تكفّل بها عبد العزيز بن موسى بن نُصير. ورجع القائدان إلى الشّام برغبةٍ من الوليد بن عبد الملك ليطّلع مباشرة على نتائج الفتوح، وعلى أحوال الناس، والبلاد الإسلامية الجديدة. ولم يُتح لموسى وطارق أن يرجعا إلى الأندلس، فقد وصلا إلى دمشق وقد مات الوليد، وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك[٢].

٣ ـ يُقسم الحكم العربي الإسلامي في الأندلس إلى الفترات الآتية:

١ً) عصر الولاة (٩٢ ـ ١٣٨ هـ).

---

(١) ينظر كتاب محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس بأجزائه كلها مع كتابه الآخر الآثار الباقية في إسبانية والبرتغال وكتاب التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي (مجلد واحد) والمجمل في تاريخ الأندلس بإشراف د. عبد الحميد العبادي.

(٢) أردت الاختصار. ويمكن لمن شاء أن يعود إلى أخبار طارق وموسى في كتب التاريخ الموسّعة، وكتب التّراجم. وانظر ((موسى بن نصير)) في عدد مستقل من سلسلة أعلام العرب.

٢ً) الدّولة الأُموية (المروانيّة) (١٣٨ - ٤٢٢ هـ).

وفيها: عصر الإمارة (١٣٨ - ٣١٦ هـ).

- وعصر الخلافة (٣١٦ - ٤٢٢ هـ).

٣ً) عصر دول الطّوائف أو مُلوك الطّوائف (٤٢٢ - ٤٨٤ هـ).

٤ً) عصر المُرابطين (دخل يوسف بن تاشفين الأندلس للمرة الثالثة ٤٨٤ على نية القضاء على دول الطوائف. وصارت الأندلس والمغرب وحدة واحدة).

٥ً) عصر الموحّدين (دخل أول جيش للموحّدين الأندلس ٥٤١ لإنهاء نفوذ المرابطين).

٦ً) دولة غرناطة (أو: مملكة غرناطة، أو دولة بني نصر، أو بني الأحمر) (٦٣٥ - ٨٩٧ هـ).

عصر الولاة:

تمتدُّ الفترة المُسمّاة بـ (عصر الولاة) من الفتح سنة ٩٢ هـ إلى مجيء عبد الرحمن بن معاوية (الدّاخل) واعتلائه سدّة الحُكم في قرطبة سنة ١٣٨ هـ. وهي مدّة قصيرة ولكنّها حافلة بالأحداث الإيجابية والسَّلبية بالقياس إلى الوجود العربي الإسلامي في الأندلس؛ فقد وصلت الطلائع العربية الإسلامية إلى مناطق متوغلة في أوربة. ولكنّ سنواتٍ معدودةً صعبةً على الصعيد الداخلي (قبل سقوط الأمويين في المشرق سنة ١٣٢ هـ حتى وقت دخول عبد الرحمن): قد أسهمتْ في انحسار الوجود العربي الإسلامي هناك من المناطق الشمالية، وأدّت إلى تقديم فرصةٍ ذهبيّة للعدو المتربّص شمالاً. وضاعت من أيديهم بلادهم في سبتمانيا ولانجدوك، ثم سقطت أربونة المنيعة بعد أن ثبتت نحو ٥ سنوات لحصارٍ شديدٍ. وأسهم انسحاب البربر من المناطق الأندلسيّة الشمالية في اكتساب العدو (الشمالي) الأَراضي الغالية دون مجهودٍ يُذكر. وخسر الإسلامُ

نحو رُبْع إيبريا، بسوءِ التّقدير؛ وبالخلاف بين العناصر التي كوّنت الجماعة الإسلامية في الأندلس. وورث عبد الرحمن الداخل هذه الظروف الجديدة من الصراع بين الشّمال المتحالف مع أوربة والبابوية وبين الجُنوب الأندلسي المتحالف (وبحسب الظروف) مع بلاد المغرب.

وكان ولاة الأندلس في هذه المدّة يُعَيَّنُون من دمشق مباشرةً، أو من والي إفريقية، أو والي مصر. وفي مدّة الولاة ظهرت شخصيات مهمة في تاريخ الأندلس، وفي تأصيل الوجود الإسلامي، وفيهم: عبد الرحمن الغافقي الذي فاجأته قوّات شارل (ويسميه العرب قَارُله) بين مدينتي تُوْر وبُوَاتْيِيْه. وكان عدد العرب قليلاً جدّاً، فاستشهد معظم جُنده، وكان هو معهم. ودُعيت هذه المعركة عند الإفرنج باسم (بواتييه) وعند الْمُسلمين باسم (بلاط الشهداء) لكثرةِ من قُتل منهم. وكان ذلك في شوّال ١١٤ هـ (أواخر ٧٣٢ م).

الدولة الأُمويّة ـ الْمَرْوانيّة بالأندلس

كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك في القلّة الأُموية القليلة الذين نجوا من سَطوة الْمُسَوِّدة العباسية[١] ومن سيوف السفاح. تغلغل في البلدان غرباً مع مولاه بدر حتى استقر عند أخواله من قبيلة نفزة بالقرب من طنجة.

وكان الأندلسيون قد أقاموا لأنفسهم نظاماً مؤقّتاً للحكم تَنافس فيه اليمنيّةُ والْمُضَرِيّة، وتربّص بعضُهم ببعضهم الآخر. واستطاع عبد الرحمن أن يدخل الأندلس، ويكون أوّل داخل أُموي، بذكاء خارق، وبتمهيد سُمعةِ الأمويّين التي ما تزال ثابتةً في الأذهان، وبتدبير أنصارهم. وقد أسَّس عبد الرحمن دولةً أموية

---

(١) سُمّوا: المسوّدة؛ لأنهم رفعوا شعار السّواد، بدلاً من شعار البياض الذي اتّخذه بنو أميّة. وإلى هذا يشير ابن حزم على سبيل التلميح في أثناء نصّ غزلي:

ومذ لاحت الرايات سُوداً تيقنت ... نفوس الورى أنْ لا سبيل إلى الرشد!

انظر كتابنا: المختار من الشعر الأندلسي).

جديدة فتيّة تجمع فلولَ قومه، وتعيد سيادتهم على تلك الأرض الأوربيّة، حتى صارت الأندلس منارة إشعاع علمي وفكري وحضاري، حين كانت أوربة في ظل جهالة عَمْياء تلفُّ معظم أَقطارها وبلدانها.

وتُقسم مدّة الدّولة الأموية إلى فترتين:

١) فترة الإمارة (من ١٣٨ هـ إلى ٣١٦ هـ).

٢) فترة الخلافة (من ٣١٦ هـ إلى ٤٢٢ هـ).

وعند توزيع مدّة الخلافة إلى طبيعة الحكم فيها، فتُقسم إلى:

- فترة ازدهار الخلافة الأموية (٣١٦ هـ - ٣٦٦ هـ).

- فترة استبداد المنصور محمد بن أبي عامر (٣٦٦ هـ - ٣٩٢ هـ).

- فترة الفتنة (٣٩٢ هـ - ٤٢٢ هـ) وإن لم تظهر الفتنة عالية الصوت إلا في زمن شُنْجُول ولد المنصُور بن أبي عامر الثاني الذي تولى الحجابة أَيضاً بعد أخيه المظفّر.

أ) أنشأ عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) دولة حديثة جديدة في حدود الأَندلس؛ وأنهى بذلك صراعاً على الحكم هناك، وجمع الناس حوله، وحول العصبية لبني أُميّة؛ وترك شؤون المغرب لأهله، ولم يتسمّ باسم الخلافة، واكتفى بلقب الأمير. ونظم شؤون الأندلس السياسيّة والعمرانيّة، والاقتصادية والاجتماعية، وقضى على الفتن، ودواعيها. وحين هاجم شارلمان الأندلس (سنة ١٦١ هـ - ٧٧٨ م) لم تفلح غزوته على الرغم من تحالفه مع بعض الخارجين على الدولة الأموية. وانقض المسلمون على مؤخرة جيشه فاضطرب، ثم هزم وتفرّق جنوده، ورجع خائباً. وسلمت الأندلس لعبد الرحمن وولاته.

- وكان عبد الرحمن ينظم الشعر، وبقي من شعره ما يدلُّ على معرفةٍ بهذا الفنّ وإتقانٍ له أيضاً.

وخلفَ عبد الرحمن ابنه هشام، وتلقّب بالرضيّ (حكم بين ١٧٢ هـ ـ ١٨٠ هـ) ومن أعماله المهمّة هزيمته لبرمودة الأوّل (سنة ١٧٦ هـ) ملك جيليقية حين هاجم الأندلس. وفي أيامه انتشر المذهب المالكي في الأندلس على يدي فقيه الأندلس الشهير: يحيى بن يحيى اللّيثي (ت ٢٣٤ هـ).

وجاء بعده ابنه الحَكَم (الأوّل). ولاقى عدداً من المشكلات منها: سقوط برشلونة في يد شارلمان (١٨٥ هـ) وهَيْجُ الرّبض (ربض قرطبة) الذي قام به جماعةٌ من الفقهاء وأنصارهم ضدّ الحَكَم، وأسفر عنه مقتل عدد منهم وتغريب عدد آخر استقرّوا في جزيرة إقريطش (كريت)؛ وهما هَيْجَان تمّا سنة (١٨٩ هـ ـ ٢٠٢ هـ). وبهذا عُرِف هذا الأمير باسم الحكم الرّبضي.

وخلفه عبد الرحمن (الثاني، وعُرِف بالأوسط) (٢٠٦ هـ ـ ٢٣٨ هـ). وفي زمانه هاجم الأندلسَ النّورمانديون (سمّاهم العَرب الأردمانيّين). وأصيبَ المُسلمون إصابة بليغة من وراء تلك الغزوات. ونتج عنها تقوية الأُسطول الأندلسي وإنشاء دار صناعة للسّفن مُهمّة، وأرسلت سفارة إلى النّورمان، قام بها يحيى الغزال ورفيق له. ونُظّمت في زمانه حركة الاستِخْفاف، وهي حركة ((نظّمتها البابوية ودولة الإفرنجة (فرنسة) وكان رئيسها في الأندلس الراهب أُولوغيوس وأما مُمَوِّلُها فكان ألبارو اليهودي وقوامُها أن يقوم راهبٌ أو رجل نصراني من العامّة قرب الجامع أو في ساحة عامّة ثم يشتم محمّداً (صلّى الله عليه وسلم ونَزّه وكَرّم) وكان عوامّ المسلمين يثورون إلى هذا ((المُستخف)) فيضربونه أو يقتلونه. ولكن رجال الدّين المسيحي في الأندلس شجّبُوا هذه الحركة الطائشة، ثم تمكّن عبد الرحمن الأوسط بحكمته من تخفيف حِدّتها))[1]، ثم انتهت نهائياً في عهد ابنه كما سيأتي.

وفي عصر عبد الرحمن وَفَدَ زِرْيابُ من المشرق، وكان له تأثير بالِغٌ في حركة المُوسيقى والغِناء؛ وكان لهذه الحركة أثرٌ في الأَدب، وتمهيدٌ لفنِّ التّوشيح.

(١) عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي ٥٨/٤

- في عصر ابنه محمّد بن عبد الرحمن (٢٣٨ هـ - ٢٧٣ هـ) قُضي على حركة الاستِخفاف، ونجمت حركةُ عمر بن حفصُون، وكان رَجُلاً يتظاهر بالإسلام، وشغَل الدّولة الأموية بحركته التي كان وراءها أيضاً: البابوية، ودولة الفرنجة؛ كما يقرّر المؤرّخون مثل محمد عبد الله عنان وعُمَر فرّوخ، والمؤرخون الغربيّون أيضاً.

ولم يطل عهد الأمير المنذر أكثر من سنتين (٢٧٣ هـ ـ ٢٧٥ هـ) ليجيء الأمير عبد الله (٢٧٥ هـ ـ ٣٠٠ هـ) وقد بلغت الأندلس دركةَ ضَعْفِها، وكادت أن تتقسّم إلى أجزاء مُتناحرة[1]. وفي هذه المدّة ظهر بنو حَجّاج في إشبيلية، وقد مدحهم ابن عبد ربّه، وآلَ تُجيْب بسَرُقُسْطة وقَلْعَة أيّوب، وبنو ذي النُّون في طليطلة. ونجَمَتْ فتنةٌ بين العَرب والمولّدين في مناطق مختلفة من جنوبيّ الأندلس.

وخلَف الأمير عبد الله حفيدُه عبد الرّحمن بن محمد (٣٠٠ هـ ـ ٣٥٠ هـ) وقد رعاه رعايةً خاصّة، وأعدَّه لتحمُّل أعباءِ الحُكم؛ ولكنّه في الوقت نفسِه أَوْرثه دولةً مضطربةً يتنازَعُها الطّامِعُون بالاستقلال، وابنُ حفصون داعيةُ السّوء الممدود اليد إلى الأجانب الأعداء.

ب) بدأ بعد الرحمن (الثالث) بن محمد حياته السياسية والعسكريّة بحملةٍ شاملةٍ انتهت بالقضاء على فتنة ابن حفصون؛ وانحياز الثائرين هنا وهناك إلى الدولة الأُموية، والتفافهم حول الرّجل القوي الذي أعاد تأسيس الدّولة، وأرجع إليها سطوتها ونفوذها.

وأعلن عبد الرحمن نفسه خليفةً سنة (٣١٦ هـ) بعد تَداعي قُوّةِ الخلفاء العباسيين، وظهور الخلافة الفاطميّة.

---

(١) ينظر كتابنا: سعيد بن جودي: أحد ثوّار الدّعوة العربيّة وشُعرائها بالأندلس.

وفي زمانه كان قدومُ أَبي عليّ القالي من المَشْـرِق؛ وتأسـيس أكـبر مكتبـة في العـالم القديـم علـى يـد ابنـه وولي عهـده: الحكـم بـن عبــد الرحمــن (الملقــب بالمستنصر).

وكانت أيّامُه أيام قوّة وتمكُّن وسيادة.

وامتدَّ زمانُ الحَكَم من (٣٥٠ هـ إلى ٣٦٦ هـ) وخَلَفَهُ ابْنُـه القـاصر هشـام، وعُرِف بلقبه: ((هشام المؤيّد))، ورعَتْ شؤونَهُ أُمّه صُبح: (أُورورا).

وصعد نجمُ محمد بن أبي عامر الذي كان وزيراً للحـاجب (رئيـس الـوزراء) جَعفر المُصحفي. وما لبث أن استبد بالحُكم، وجَعل الخليفةَ مجرَّدَ رَمْزٍ لا قوّة له. وتبدأ هنا مدّةُ سيطرة ابن أَبي عامر الذي عُـرف بـ (الحـاجب المنصـور) الـذي توفي سنة (٣٩٢ هـ) ليخلفه في الحجابة ابنُه عبد الملك المُلقّب بالمُظَفَّر الذي توفي سنة (٣٩٨ هـ)، وخلَفه أخُوه عبد الرحمــن الملقـب بـ (شُـنْجُول)[١]، ولم يكـن مثل أبيه وأخيه: قدرةً وحزماً. ثم إنه أقنع هشاماً المؤيد (حكم من ٣٦٦ هــ إلى ٣٩٩ هـ) فجعله وليّاً للعهد.

ودخلت الأندلس عصر اضطراب وفتنة، فقد أَبى الأمويّـون توليـةَ شُـنْجُول، ونصبوا خليفةً آخر غير هشام، ثم تدخّل البربر وعَيَّنُوا خليفةً، ثم استبدَّ بقرطبـةَ بَنُو حَمّود (حَسنِيّون من المَغْرِب) مدّةً، ثم كان آخر خلفاء بني أمية هشام المُعْتدّ الذي قُتِلَ سنة (٤٢٢ هـ) وبموته انتهت الدّولة الأمويّة[٢].

وكان انقضاء دولة بني أمية إيذانـاً بائسـاً بـالعَدّ التّنـازلي للضعـف والتّخـاذل والانقراض، وإنذاراً بخطورة تضييع الوَحْدة، وبمساوئ الانقسام والتّشرذم.

---

(١) أي شانْجُه الصّغير (كانت أُمّه حفيدة ملك بنبلونة الفرنجي المسمّى شانْجُه).

(٢) وظهر عدد من الخلفاء المستضعفين، أو الذين لم يتمكنوا من ضبط الأمور وإن كانوا أكفيـاء لضعـف العصبية وتشتت الأهواء. ولم تستطع الأندلس النجاة مـن عصـر الفتنـة هـذا (٤٠٠ هــ ــ ٤٢٢ هــ) بسلام. وذهبت الدّولة الأمويّة مأسوفاً عليها.

عصر الطوائف (دويلات متشرذمة متناحرة في الأندلس)

كانت ثورة قرطبة على أولاد المنصور بن أبي عامر، والفتنة الكبرى التي أعقبتها قاضيتين على الخلافة. وقد تطاحنت على دفّة الأُمور خلال هذه الفتنة الْمُبيرة طوائفُ شتى، كان كلٌّ منها يحسب أنّه قادر على قطع دابر الفِتنة، وإعادة الدّولة، وتسيير الأُمور. فقامت عقبَ سُقوط الخلافة حكومةٌ في قرطبة أشبه بحكومة البلديّات (سنة ٤٣١ هـ) وانتهى تطاحن الطّوائف إلى تحزّبها خلال أدوارِ الفتنة الأَهلية في طوائف ثلاث متعادية فيما بينها: البَرْبَر، وقد استوْلَوا على الْجُزء الجنوبي من الأندلس، والصّقالبة؛ وقد انحازوا إلى شرقه واستبدّوا به، والأندلسيّين وقد أقاموا دُوَلَهم في ما بقي للمُسلمين من الجزيرة[1].

ويؤرَّخُ لعصرِ الطّوائف بزمانٍ يمتدّ من (٤٢٤ هـ إلى ٤٨٤ هـ) سنة سقوط دولة بني عباد في يد يوسف بن تاشفين. وهو تقديرُ مقاربة.

وكانت دول الطّوائف أو دويلاتُها تتألف من مدينةٍ وما حولها، أو مدينتين، أو أكثر من ذلك بحسب المقدرة والنّفوذ. وقد اتّخذوا جميعاً شارات الحُكم وأُبهة السُّلطة، وجَمَعُوا في بلاطاتهم الشعراء والكتاب والعلماء، وبدّدوا الأَموال، وأغدق كثيرٌ منهم على الحركة الأدبية والعلمية. وقد صَوّر ابن رشيق هذه الدويلات في قوله:

مِمّا يزهدني في أرضِ أندلسٍ ألقابُ مُعتَمِدٍ فيها ومُعتضدِ[2]
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولةَ الأسدِ!

وعدَّ الدكتور عمر فرّوخ من دُول الطوائف ثلاثاً وعِشرين[3]، وفيها:

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي: ١٣

(٢) المعتمد والمعتضد لقبان لأميرين من دولة بني عباد. ضربهما الشاعر مثلاً. وقد سبق العباسيون إلى هذين اللقبين وغيرهما من الألقاب.

(٣) تاريخ الأدب العربي ٣٨٧/٤

- دُوَيْلاتُ العامريّين (أعقاب المنصور ومَواليه)، وكان مواليه فتياناً من الصّقالبة. ومنهم مُجاهد العامِريّ في دانية، والجزائر الشرقية: (ميورقة ومنورقة ويابسة).

- ومنهم عبد العزيز حفيد المنصور في بَلَنْسِيَة.

- ومنهم الفتى خَيْرَان العامري الصقلبي في الْمَرِيّة، التي انتقلت سلطتها إلى زهير العامِريّ، ثم استقرَّت أمورها لابن صُمادح سنة (٤٤٤ هـ) وكان أديباً شاعراً.

- ومن دول الطوائف دولة بني هُود في سَرَقُسْطَة؛

- ودويلة بني ذي النُّون في طُلَيطلة؛

- ودولة بني زِيْري في غَرْناطة؛

- ودولة بني الأَفطس في بطليوس؛

- ودولة بني عَبّاد في إشبيلية؛ وكانت أكبر الدّوَل وأشهرها.

- ودولة بني جَهْوَر في قرطبة.

دخول المرابطين

وكان لا بدّ لهذا التفرُّق في زمن دول الطوائف[1]، وذلك الصراع الذي لم يهدأ في ما بين حكّامها، والقائمين على أمورها، من أن يؤدّيَ إلى نتائج وخيمة، وهناك عدوٌّ يتربّص بالمسلمين الدّوائر، وينتهز كل فرصة سانحة.

- ومن هذه النتائج الوخيمة: سقوط مدينة بُرْبَشْتَر سنة (٤٥٦ هـ) في أيدي الأُرْدُمانِيّين (النّورمانديّين)، وأصيبَ في تلك النكبة نحو خمسين ألفاً بين قتلٍ

(١) تنظر كتب التاريخ الأندلسي. ونذكر منها: ((دول الطّوائف)) عنان؛ تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس / مجموعة من الأساتذة/ الموصل؛ والتاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجّي. وتاريخ العرب.

وسَبي. وكان سقوطُها بتقاعسٍ من يوسف بن هود صاحب سرَقُسْطة؛ على أنّ ابنه أحمد استرَدّ المدينة بعد شُهور؛

ـ ومنها استيلاء ألْفُونسو السادس (الأذفونش كما يُسَمِّيه العرب) على طُلَيطلة سنة (٤٧٨ هـ).

ـ ومنها سُقوط بلنسية بيد قائد عسكري مُرتزق عُرِف بالسِّيد القَمْبِيْطُور، وكان سقوطها مروّعاً، والخسائر في أهلها فادحة. وبقيت محتلة حتى سنة (٤٩٥ هـ) واستعادها ابنُ تاشفين زعيم المرابطين.

* وكان لهذا كله صدًى واسع في الأدب الأندلسي.

ـ واستطال ألفونسو على أُمراء الطوائف وحكّامهم، ووضع في خطته الاستيلاء على الأندلس كلها. ورفضَ عَطايا أُولئك الحُكّام وما فَرضه عليهم مبالغةً في إذلالهم، ومنهم: المُعتمد بن عباد صاحب إشبيلية.

واجتمعَ الرّأي من العُلماء والفقهاء وأَهل الحَلّ والعَقْد، ومن المُعتمد أيضاً على الاستنجاد بالمُرابطين(١) ، ووافقهم على ذلك جَمْهَرَةُ أُمراء الطوائف.

وجاز يُوسف إلى الأَندلس والتقى أَلْفُونسُو السّادس عند (الزلاّقة) إلى الشّمال الشّرقي من بَطَلْيَوْس في (١٢ رمضان ٤٧٩ هـ) وانتصر عليه ومزَّق جيشه. وترك الغنائم للأندلسيين.

ثم جاز مرّة أخرى، فرابَهُ من عددٍ من أُولئك الحكّام عودَتُهم إلى الاستنجاد بالعدوّ. فجاز ثالثةً سنة (٤٨٣ هـ) ليقضيَ على معظم تلك الدّويلات ويوحِّد العُدْوَتين(٢) . ويبدأ عهد جديد في بلاد الأندلس مع الدولة الفتية النشطة.

وتوحّدت العُدْوَتان (الأندلسيّة والمغربيّة) أيامَ دولة المرابطين (٤٨٤ هـ ـ ٥٣٩ هـ)، وتوالى على الدّولة: يوسف بن تاشفين (ت: ٥٠٠ هـ) ثم ابنه عليّ

---

(١) انظر: نشوء دولة المرابطين.

ـ والجزء الخاص بالمرابطين والموحّدين من تاريخ محمد عبد الله عنان.

(٢) أي عُدوة المغرب وعُدوة الأندلس.

(٥٠٠ هـ - ٥٣٧ هـ) ثم حفيدهُ تاشفين بن عليّ (٥٣٧ هـ - ٥٣٩ هـ)، وفي زمن تاشفين نَهض الموحّدون بدولتهم الجديدة، وحَلّوا محلّ الْمُرابطين في الأندلس والمغرب معاً.

ـ دخول الموحّدين:

تُنْسَبُ حركة المُوحّدين إلى أَمْغار بن تُومرت الهَرْغي من قبيلة مَصْمُودَة من أَهْل السُّوس، ويسمّيه أتباعه أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت، وتلقّب هو بالمَهْدِيّ بن تومرت. وكان قد طافَ بالأندلس طلباً للعِلم، وقصد إلى المَشرق، ولقي العلماء وبعضَ تلامذة الغَزالي؛ وعاد ليعظَ النّاس، ويَجْمَعَهم حَوله، ويدعو إلى إسقاط دولة المُرابطين. ولما تولّى سنة (٥٢٤ هـ) فجأةً قام بأمر الموحّدين واحدٌ من القادة المقرّبين إلى المهديّ هو عبد المُؤمن بن علي. وقد طَهّر سواحل إفريقية من النّورمان ودخل الأَندلس.

وبرزَ من خلفاء الموحّدين: حفيدُ عبد الْمُؤمن، وهو الملقّب بالْمَنْصُور الذي جاز إلى الأندلس سنة (٥٩١ هـ) وهَزم تجمُّعاً عظيماً لأَلْفُونْسُو الثامن والحشود الصليبية التي جاءت من أوربّة في معركة الأَرك التي تُذَكّر بواقعة الزلّاقة.

على أنّ الموحّدين هُزموا في الأندلس سنة (٦٠٢ هـ) وخليفتهم الملقب بالناصر في وقعة العقاب، وهزموا أيّام ابنه الملقب بالمُنتصر سنة (٦١٠ هـ) في معركة أبي دانس.

وكانت هذه الهزائم إيذاناً بضعف المُوَحّدين، وكانت فرصةً سانحة للدّول الشمالية لتحتلّ معظم بلاد الأندلس في عقود قليلة من القرن السابع الهجري، وانتهاء دور الموحّدين في الأندلس.

وتوالى على الموحّدين: المؤسس ابن تومرت (ت ٥٢٤ هـ) ثم جاء معاونه عبد المؤمن بن علي (ت ٥٥٨ هـ) وأبو يعقوب يوسف (ت ٥٨٠ هـ) وأبو

يوسف يعقوب المنصور (ت ٥٩٥ هـ) وأبو عبد الله محمد الناصر (ت ٦١٠ هـ) ويوسف المستنصر (ت ٦٢٠).

وعبد المؤمن بن علي هو أول من دخل الأندلس من خلفاء الموحّدين؛ وأمر ببناء مدينة الفتح عند جبل طارق، ولقيه العلماء والفقهاء والأدباء عند دخوله في يوم مشهود.

وشهد عصر الموحدين في الأندلس عهد قوّة وتمكّن، وانتصروا في هذه المدة على جيوش العدو في أكثر من موقعة مثل حملة أبي يوسف يعقوب الملقب بالمنصور سنة (٥٨٧ هـ) التي استعاد فيها قصر أبي دانس ومدينة شلب، وهما مدينتان كانتا قد سقطتا في يد العدوّ المتحالف مع الحملات الصليبية المتوجهة غرباً. كما سجّل تاريخ الموحّدين انتصار المنصور سنة (٥٩١ هـ) في موقعة الأرك التي هُزم فيها جيش ألفونسو (الثامن) ملك ليون.

ولكن ابنه أبا عبد الله محمد الملقب بالناصر خسر معركة فاصلة سنة (٦٠٢ هـ) عرفت باسم العقاب مع ألفونسو الثامن الذي كانت ((معه جيوش صليبية من عدد من دول أوربة التي تولّى البابا أنوصان ـ أنوسنت الثالث ـ تشجيعها على المشاركة في حرب المسلمين في الأندلس))[1].

وقد كانت موقعة العقاب نذيراً بضعف الدولة الموحّدية في الوقت نفسه الذي كانت فيه نذيراً باضطراب أحوال الأندلس وظهور فترة مشابهة لمدة عصر الطوائف في التشرذم والتشتّت والضعف، وتكالب العدوّ على البلاد والعباد.

من الموحّدين إلى بني الأحمر

ومع ضعف الموحّدين (في المغرب والأندلس) ظهَر على الساحة السياسيّة عدد من الطامحين والطامعين من الولاة والقادة وغيرهم. فثار عليهم محمد بن

(١) التاريخ الأندلسي ـ د. الحجي ـ ٤٦٤

يوسف بن هود الْجُذامي (أصله من سرقسطة) كان في مرسية وأطاعته مدن كثيرة مثلُ مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وغيرها.

وتصدّى لمنافسة ابن هود على حكم بقايا الأندلس رجل من قرطبة هو محمد ابن يوسف بن نصر (وعرفوا ببني الأحمر) فاستبدّ بحكم غرناطة سنة (٥٢٩ هـ) وتنافسا وأضاعا مدناً وحصوناً في أيدي العدوّ الذي استنجدوا به (فرديناند الثالث ملك قشتالة، ووالده ألفونسو التاسع ملك ليون).

وقد هُزم ابن هود في عدد من المعارك، وكان فألُه في حكم الأندلس سيّئاً وطالعه على أهل البلاد شؤماً. وأضاع ابن الأحمر فرصاً وتخلّى عن بلاد أيضاً، حتى استقرَّ له الحال في دولة صغيرة عاصمتها غرناطة.

وكان القرن السابع في الأندلس عصر انهيار حقيقي اجتمع فيه عناصر متعدّدة:

- ضعف الموحّدين وتنافس أُمرائهم الذين كان تنافسهم مزرياً في بعض جوانبه.

- قيام الثوار الطامعين على الدولة الموحدية في الأندلس والمغرب.

- تحالف دول الشمال مثل قشتالة وليون وأَرغون ونبرّه والبرتغال[١].

وكان عصر بني الأحمر الصحوة العربية الإسلاميّة الأخيرة في الفردوس الأندلسي. واستمرت دولتهم أكثر من قرنين ونصف قرن من الزّمان. وكانت مدّتهم تجمع بين الجهاد والمقاومة والهجوم والدّفاع على امتداد زمانهم من جهة؛ وبين النهضة المجدّدة في مناحي الحياة العلمية والعملية والثقافية والعمرانيّة من جهة أُخرى.

(١) يُنظر بيان بملوكهم وأمرائهم في: التاريخ الأندلسي: ٥٢٤ ـ ٥٣١

لقد كانت الأندلس في ظل دولة بني الأحمر أندلساً مصغّرة من الأندلس العُظمى، فيها من سماتها وملامحها، وفيها من ألقها وعنفوانها، ووجودها الحضاريّ.

وقد ظهر عدد كبير من العلماء ونبغوا في هذه المدة في صنوف العلوم والصّنائع والمعارف والآداب والفنون، وصارت مدينة غرناطة وأخواتها الباقيات منارة علم وأدب وفن وصنعة متقنة، وعمل متقن.

وكان لتعاون بني مرين (خلفاء الموحّدين في المغرب الأقصى) مع الأندلس أثر مهم جداً في استمرار الوجود العربيّ الإسلامي في الأندلس. ودام هذا التعاون زماناً طويلاً. وضَعُفَ باختلاف الدَّولتين أحياناً، وانهار بتهافت قوّة بني مرين في القرن التاسع.

ونلخّص موقف الأندلس وأهلها في هذه المدّة، في مواجهة دول الشمال القوية العاتية المتعاونة مع أوربة والبابوية بقول أحد المؤرخين: ((لقد عُدّ في الغرائب استمرار مملكة غرناطة هذه المدّة على رغم صغرها وقلة عدد سكّانها، محافظة على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي ووجود حضاري معطاء))[1].

(١) التاريخ الأندلسي: ٥١٨

الحضارة والعمران

وُصِفت حياة النّاس في الأَندلس في بدايات الفتح بأنها كانت أقرب إلى البداوة والتقشف[1]، واستمرت كذلك أيام الوُلاة يستوي في ذلك العرب والبربر وأهل الأندلس، غير أنهم أخذوا في التحضّر زمن الدولة الأموية بسبب ما ساد حياتهم من أمن واستقرار، وأخذوا يخطون في ذلك خطوات قوية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ)؛ لشغفه بحضارة أَهل المشرق... وسرعان ما انتقل الأندلسيّون من جلب الطُّرف والتُّحف إلى صناعتها والإبداع في تلك الصناعة. وقد أسهم زرياب في نقل كثير من أساليب الحياة وأَسباب الرفاهية مما رأى في بغداد إلى الأندلس[2].

وتستمر الحال على هذه الأناقة حتى وصلت إلى نوعٍ من الانغماس في الحضارة. وساعدهم على ذلك وفرة الخيرات ـ في معظم أَحوال النّاس على تبدُّل العُصور ـ إلا في حالات الأزمات، والشّدائد.

ويذكر تاريخ الحضارة والفنّ الاهتمام بالمباني والعُمران والحدائق كالذي صنعه عبد الرحمن الناصر. والذي حاكاه كثير من حكّام دول الطوائف حتى خرج بعضهم إلى التَّرف والسَّرف؛ وفي ديوان أبي إسحاق الإلبيري (ت ٤٦٠) ما يشير إلى هذا بوضوح[3].

---

(١) الأندلس د. شوقي ضيف: ٤٧

(٢) انظر دراسة عن زرياب في عدد من سلسلة أعلام العرب: محود الحفني ـ ونفح الطيب ١٢٧/٣ وما بعدها.

(٣) لأبي إسحاق ترجمة في هذا الكتاب.

ولئن كانت دولة المرابطين دولة، عمليّة، كما يقال اليوم لقد استمر أهل الأندلس على أناقة الحياة بل أثّروا في المجتمع العربي، أيام وحدة العدوتين مع المرابطين، ومع الموحّدين بعدهم.

ولا ينسى التاريخ، ولا عالم الآثار ما بقي على أرض الأندلس من المباني العريقة الأنيقة التي ما تزال تسحر ألباب الزوار من أنحاء العالم في مسجد قرطبة (بني على عهود عدد من أمراء الأمويين وخلفائهم) وفي القصر (الكازار) في إشبيلية، والجامع الكبير ومئذنته المشهورة بالدوّاره (الخيرالدا)، وقصر الحمراء في غرناطة...

وقد أشار ابن خلدون (ت ٨٠٧ هـ) إلى شيءٍ من هذا حين دخل الأندلس فقال: إنّا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ، وأصناف الغناء واللهو، من الأوتار والآلات والرّقص، وتنضيد الفرش والرياش، وحسن الترتيب والأوضاع في بناء القُصور، وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده، فنجده أقوم عليها، وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم وهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميّز بين جميع الأمصار لِمَا قدّمناه من رسوخ الحضارة أيام الدولة الأمويّة ودول الطوائف))[1].

(١) مقدمة ابن خلدون: ٩٣٨ (تحقيق علي عبد الواحد وافي).

الثّقافة والعلوم والآداب[1]

١ - حين دخل الفاتحون العرب إلى الأندلس كان هدفهم نشر الدّعوة، وتبليغ الرسالة، وحملوا معهم كل ما كان لديهم من ألوان الثقافة والعلم والفكر؛ وانتشرت كتاتيب المؤدّبين واتسعت حلقات الفقهاء والعلماء لطلاب العلم من كل جنس ودين. وساعد على ذلك تسامح الإسلام ومعاملة سائر المواطنين بالعدل والحُسنى.

وصارت بلاد الأندلس مقصداً للطامحين إلى المجد والمال من أهل العلم والتجارة والصنائع. واستقدم الأندلسيون بعض الشخصيات المؤثّرة في الحياة الأدبية والعلمية والفنية مثل (زرياب) تلميذ آل الموصلي، وأبي علي القالي البغدادي.

وبلغت الأندلس الأوج أيام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ــ ٣٥٠ هـ) واشتهرت المكتبة العظيمة التي أنشأها بإشراف ولي عهده الحَكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ). حتى قال ابن خلدون: ((اجتمعت بالأندلس لعهده خزائن من الكتب لم تكن لأحدمن قبله ولا من بعده))[2].

وصارت الأندلس في عهد الطوائف أندلسات كثيرة، وراجت سوق العلوم والفنون والآداب، متابعةً لما كان، أو محاولة من حكام دول الطوائف لتكون لهم سابقةٌ في هذا الجانب الثّقافي. وفي كتب التراجم إشارات كثيرة إلى كتب ألّفت

---

(١) ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: بالنثيا، ترجمة د. حسين مؤنس؛ و فضل الأندلس على ثقافة الغرب: خوان فيرنيت، ترجمة نهاد رضا، ودولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان (فصول حضارية في ذيول الأبواب التاريخية المختلفة). ومناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية - الجزء الثاني.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤

وأهديت إلى أولئك الحكّام وطرزّت بأسمائهم: في الآداب، والعُلوم، والفلسفة، والطّب، والصيدلة... إلى غير ذلك.

وظلت الحركة العلمية والأدبيّة والفلسفية مطّردة النمو في عصر دولتي المرابطين والموحّدين. وكان للأندلسيين أثر في المغرب، ثقافيّاً وفكريّاً في تناسق وتكامل.

وعلى الرغم من انحصار دولة غرناطة الباقية في حيّز محدود من أرض الأندلس استمرَّت الحركة العلمية والأدبية والحضارية عامّة على حالها من النشاط والحيويّة؛ بل ازدادت تركيزاً بانضمام كثير من العلماء والأدباء الذين سقطت بلادهم إلى أهل دولة غرناطة، في ظل سلاطين بني الأحمر الذين اهتموا بهذه الجوانب، وكان بعضهم مشاركاً في الفقه والأدب، وخلف بعضهم دواوين شعريّة مثل يوسف الثالث.

٢ ـ أثبت دارسو تاريخ العُلوم المختلفة أن الأَندلس أسهمت في حركة التقدم الحضاري على كل صعيد؛ ومن يتابع هذه الحركة منذ أيام الدولة الأمويّة إلى ما بعد سقوط غرناطة يلاحظ: إسهام الأندلسيّين في ما كان يدعى علوم الأوائل من الرياضيّات والفلك والفلسفة. وظهرت فيهم أسماء لامعة، ونسبت إليهم نظريات وأدوات وتطبيقات علمية بارعة، ونذكر هنا ـ على سبيل التمثيل الذي قد يكون غريباً- أَن القَلَصادي كان من علماء الرّياضيات البارعين، ووصل صيته إلى المغرب والمشرق، علماً أنه أدرك أواخر أيّام الإسلام في الأندلس، وتوفي سنة (٧٩١ هـ) في بجاية بإفريقية (هي الآن في الجزائر)، وذلك قبل سقوط الأندلس بنحو سبع سنوات.

٣ ـ وازدهر الطّب في الأندلس، بل إنّ ازدهاره أدّى إلى ظهور أُسر اشتهرت بهذا العلم وبرعت فيه، وتركت آثاراً تأليفية مهمّة كأسرة بني زُهر الإشبيليين، والذين سيذكر لهم مشاركة مهمة في الشّعر وفنّ التّوشيح، وشخصيات مؤثّرة في تاريخ الطّب عند العرب، كالزّهراوي صاحب الاستنباطات والاكتشافات،

والذي سارت كتبه، وترجمت إلى لغات كثيرة (ت ٤٠٤ هـ)، وقد ألّف الزهراوي موسوعته الطبية: (التّصريف لمن عجز عن (التأليف) في ثلاثين جزءاً.

أما بنو زهر فتسلسل من مشهوريهم عبد الملك وابنه أبو العلاء،و ابنه عبد الملك، وابنه أبو بكر بن زهر. وظهر في هذا البيت أطباء آخرون وطبيبات.

٤ ـ وبرع الأندلسيّون في علم الصيدلة وصناعة الأدوية، وأسهموا في فصل هذا العلم عن علم الطبّ. كما نبّهوا في دراسة النّباتات بصفة عامة والأعشاب والحشائش والنباتات الطبيّة؛ وبرز منهم (عشّابون) ذوو أهمية عربية وعالمية؛ وفي هؤلاء العلماء بالنبات والأعشاب ابن الرّومية الإشبيلي (ت ٦٣٧ هـ) وتلميذه ابن البيطار الذي يوصف بأنه أعظم العشابين والصيادلة أندلسيين وغير أندلسيين، وهو صاحب كتاب (الجامع لمفردات الأغذية والأدوية) والمشهور باسم: مفردات ابن البيطار (توفيّ سنة ٦٤٦هـ بدمشق)

٥ ـ وظهرت الدراسات الفلسفية والمنطقيّة في الأندلس، وإن تأخّرت عن مثيلاتها في المشرق (أوّل من أظهر الفلسفة وكان له رأي ابن مسرّة ت ٣١٩ هـ). ونبّه صاعد الأندلسي في كتابه (طبقات الأمم) على المشتغلين بالمنطق من الأندلسيّين، والمشتغلين بالفلسفة.

ولا يغيب عن الذّاكرة أعمال ابن السّيد البَطَلْيوسي، وابن باجة، وابن الطفيل وابن رشد، ولا يُنسى أثر كثير منهم في الفلسفة العربية خاصّة وفي الفلسفة الأوربية، وخصوصاً ابن رشد، وأتباعه من (المدرسة الرّشدية).

٦ ـ وبرع الأندلسيون في علم الجغرافية، ووضعوا مؤلفات تشمل بلاد الأندلس وتوضح خصائصها وبلدانها وما تشتهر به من طبيعة ونتاج. وأصدروا مؤلّفات عن بلدان أُخرى في المغرب والمشرق.

ويبرز فيهم: أحمد بن محمد الرازي (ت ٣٤٤ هـ) وهو مؤرخ جغرافي. وأبو عُبَيد البكري صاحب (المسالك والممالك)، وأحمد بن عمر العذري الدّلائي (ت ٤٧٦ هـ)، ومحمد بن أبي بكر الزُّهري.

ومن الكتب التي قدَّم لها مؤلّفوها بمقدّمات جُغرافية كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ)، وكتاب (المغرب في حلى المغرب) لابن سعيد.

٧ ـ وكان للأندلس مكانتها، وأثرها في مجال علوم اللغة والنحو والبلاغة، والنّقد. كانت الحركة العلمية في هذه الجوانب متناسقة مع ما يجري في المشرق، وكان علماء ذوو شأن يفدون إلى الأندلس أو يُستقدمون، كما كان طلبة العلم والمستزيدون من العلماء يقصدون إلى المشرق: حرصاً على الرواية، ورغبة في لقاء العلماء، وتحصيل علم جديد، وأسهم هؤلاء في نقل الكتب الغالية، والثّمينة.

وتحدّثنا كتب التراجم وغيرها عن أثر المؤدّبين والمعلّمين، وكبار الأساتذة أيضاً في إضفاء جوّ غزير الفائدة من إشاعة العربية والحرص على علومها، ومن انتشار العربيّة العالية في العرب والبربر والإسبان الذين ظلّوا على ديانتهم القديمة والمولّدين الذين دخلوا الإسلام من أهل البلاد.

ولا يُنسى أَثَرُ أَبي علي القالي البَغْدادي وما أفاضه من جوّ علميّ وثقافي عام في جوانب اللغة والنحو والأدب وغيرها؛ وما خرّج من أصحاب وتلامذة[1].

ونشاط الأندلس في النحو لا يقل عن نشاطها في اللغة إن لم يتفوّق عليه[2]. وقد دخل كتاب سيبويه وكتبُ النحو المهمّة دون إبطاء، وظهر فيهم نحويون مشهورون، وشاعت كتب نحو أندلسيّة، واشتهرت في المغرب والمشرق معاً.

---

(١) كتاب طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي وهو تلميذ القالي وصاحبه.

(٢) عصر الدول والإمارات (الأندلس): ٩٥

وتبرز أسماء ابن الإفليلي، وابن السّيد البطليوسي، وابن الباذش والسُّهيلي، والشّلوبين وابن خروف، وابن مضاء القرطبي صاحب الكتاب المشهور (الردّ على النُّحاة)، وابن عصفور، وابن مالك الملقب بـ ((ملك النُّحاة))...

٨ ـ وأثبت الأندلسيون لأنفسهم اسماً في الدراسات البلاغية والنقدية. فممّن اشتغل بالبلاغة ابن عبد الغفور الكُلاعي صاحب (إحكام صنعة الكلام)[١]، والمواعيني (ت ٥٦٤ هـ) صاحب الرّيحان والرّيعان، وابن رشد الذي تلتحم البلاغة عنده بالفلسفة[٢]، وهو الذي لخّص كتابي (الخطابة) و (الشعر) لأرسطو. وفيهم أبو البقاء الرّندي صاحب كتاب (الوافي في نظم القوافي)[٣].

ومن النقّاد في الأندلس: ابن شُهَيد، وابن حَزْم والكلاعي، والرُّندي الذي استفاد من ابن رشيق، وابن السّراج الشنتريني وحازم القرطاجنّي صاحب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)...

وكان الأندلسيون يفيدون من الدراسات النقدية والبلاغية في المشرق، ويفيدون من كتب أرسطو المترجمة، ولحازم مكانة خاصّة بين نقّاد الأندلس[٤].

٩ ــ وأسهم الأَندلسيون في علوم القرآن والقراءات، والتفسير، وعلوم الحديث، والفقه وعلم الكلام. كانت لهم صلاتهم بعلماء المشرق ورواياتهم عن العلماء هناك، كما ظهر في الأندلس (والمغرب) علماء في هذه الفنون صاروا أساتذة، وأنشؤوا مؤلفات مهمّة، ونظموا منظومات تعليمية ما يزال بعضها يدرّس إلى اليوم.

وقد اشتُهر من العلماء بالقراءات جمهرة فيهم أبو عمر الطَّلمنكي (ت ٤٢٩ هـ) ومكي بن أبي طالب (أو حَمّوش القيرواني) المتوفّى سنة (٤٣٧ هـ) وأبو

---

(١) انظر الطبعة الثانية من الكتاب في عالم الكتب ـ بيروت.

(٢) الأندلس: د. ضيف ١٠٢

(٣) انظر دراسة عنه في كتاب (أبو البقاء الرندي) ولآرائه البلاغية والنقدية في النقد الأدبي في الأندلس. وكلاهما من تأليفي.

(٤) انظر: النقد الأدبي في الأندلس، والنقد الأدبي عند العرب.

عمرو الدّاني صاحب المؤلفات الكثيرة ومنها: (التيسير في القراءات السَّبع) (ت ٤٤٤ هـ)، والإمام الشاطبي (صاحب منظومة الشاطبية) واسمُه القاسم بن فيرّه، وأبو حيان الغرناطي الأندلسي نزيل القاهرة.

وفي المفسّرين[1] نذكر بقيّ بن مَخْلَد (ت ٢٧٦ هـ) وتفسيره مفقود، وابن عطية، عبد الحق بن غالب (ت ٥٤٢ هـ) صاحب: (المحرّر الوجيز) طبع في ١٥ مجلداً، والقُرطبي، محمد بن أحمد (ت ٦٧١ هـ) صاحب: (الجامع لأحكام القرآن) طبع في ٢٠ مجلداً.

١٠ ـ وفي الحديث ألّف بقي بن مخلد في فترة متقدمة من تاريخ الأندلس كتاباً ضخماً رَتَّبه على أسماء الصحابة، رضي الله عنهم، روى فيه عن ألف وثلاث مئة صحابي وزيادة، ثم رتب حديث كل صحابي على أسماء الفقه وأبوابه فهو: مصنّف ومسند، كما وصفه ابن حزم. وفي المحدّثين بالأندلس محمد ابن وضاح (ت ٢٨٧ هـ)، وله رحلتان إلى المشرق. وثابت بن عبد العزيز السّرقسطي (ت ٣١٣ هـ) صاحب (الدّلائل)، وقاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠ هـ)، وفيهم الحميدي صاحب كتاب (جذوة المقتبس: في تراجم الأندلسيين)، وفيهم رزين السرقسطي (ت ٥٢٤ هـ)، وفيهم عبد الحق الإشبيلي المعروف بابن الخرّاط (ت ٥٨١ هـ)، وعليّ بن محمّد المشهور بابن القطان (ت ٦٢٨ هـ)...

١١ ـ وفي الفقه كانت الأندلس في أول عهدها بالفتح على مذهب الأوزاعي فقيه الشام (ت ١٥٧ هـ)، واستمر العمل به إلى أن ساد المذهب المالكي ــ وكان مذهب أهل المدينة ــ وكان لأمراء الأندلس الأوائل ميل إلى الإمام مالك[2].

وقد سمع كثير من الأندلسيين من مالك، ومن تلاميذه أيضاً في المشرق عند رحلتهم في طلب العلم. وأول فقيه أندلسي يعدّ بين أئمة المالكية عيسى بن دينار

(١) مدرسة التفسير في الأندلس ـ مصطفى المشني ـ مؤسسة الرسالة ١٤٠٦ ـ ١٤٨٦
(٢) انظر تعليل د. شوقي ضيف لهذا الأمر في كتابه عن الأندلس: ١١٢

(ت ٢١٢ هـ)، وأخذ عن أصحاب مالك، وتألق بعده يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤ هـ)، وفي فقهاء الأندلس عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ)، وابن عُتبة، محمد بن أحمد (ت ٢٥٤ هـ)، وابن عبد البَرّ القرطبي (ت ٤٦٣ هـ)، وأبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ)، وأبو الوليد بن رُشد (ت ٥٢٠ هـ)، عُرف بالْجَدّ تمييزاً له عن الحفيد. وأبو بكر بن العربي الإشبيلي (ت ٥٤٣ هـ)، وابن حرب، محمد بن أحمد (ت ٧٤١ هـ)، وابن جُزي (ت ٧٤١ هـ) صاحب القوانين الفقهية، وسبطه أَبو بكر بن عاصم (ت ٨٢٩ هـ).

ووُجِدَ من تمذهب للإمام الشافعي وخاصة في العصر الأموي، ودخل المذهب الظاهري الأندلس مبكّراً، واشتهر عدد من الفقهاء بالأخذ به، أو التأليف فيه. وتمذهب الإمام ابن حزم بالمذهب الظاهري، وألّف فيه. وما يزال كتابه (المحلّى) المرجع المهم لهذا المذهب. كما أخذ الموحّدون بالمذهب الظاهري، وظهر في أيّامهم الفقيه والنحوي اللغوي ابن مضاء القرطبي.

١٢ ـ وألّف الأندلسيون في التّاريخ: التاريخ العربي الإسلامي العام، والتاريخ المحلّي. وتحتفظ كتب التراجم والتواريخ بأسماء كتب كثيرة تناولت بلاد الأندلس بالتأريخ: في شكل أندلسي شامل، أو تاريخ المرحلة من المراحل أو بلدة من البُلدان. كما حظيت السيرة النبوية وتراجم الصحابة بعناية متميّزة، وخصوصاً في أيّام دولة الموحّدين.

ومن مؤرّخي الأندلس: ابن حيّان الأندلسي صاحب كتاب (المقتبس في تاريخ رجال الأندلس)، وكتاب (المتين)، والصيرفي (ت ٥٥٧ هـ) له كتاب في دولة المرابطين، وابن صاحب الصّلاة (ت ٥٧٧ هـ) صاحب كتاب (المَنّ بالإمامة على المستضعفين...).

وفي مؤرّخي الأندلس: ابن عبد البَرّ القُرطبي، وسليمان بن موسى الكلاعي (ت ٦٣٤ هـ) وله كتاب في السيرة والثلاثة الخلفاء، وابن سيّد الناس صاحب (عيون الأثر).

وهناك سلسلة في تراجم أهل الأندلس، انتظم في تأليفها عدد من المؤلّفين على امتداد عصور الأندلس مثل: (تاريخ علماء الأندلس) لابن الفرضي و (جذوة المقتبس) للحميدي، و (بغية الملتمس) للضبّي، و (التكملة لابن الأبار) وقبله كتاب (الصلة) لابن الزّبير.

ومن الباقي من كتب تواريخ البلدان كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين بن الخطيب.

وأكثر الأندلسيون من التأليف في برامج العلماء، أو الفهارس[1]، وقد نُشر عددٌ منها مثل (فهرسة ابن خير)، و (برنامج شيوخ الرعيني)، و (فهرسة ابن عطيّة)...

وأكْثَر الأندلسيّون من التّأليف في تراجم العلماء والأُدباء واللّغويّين في كتب شاملة، أو خاصة بعصر من العصور، أو قرن من القُرون أو مدينة من المدن المهمّة...

(١) انظر: المكتبة العربية ومنهج البحث - محمد رضوان الداية - دار الفكر - دمشق.

الفصل الثاني

الشعر الأندلسي

الغزل	٥٣
المديح	٦١
الهجاء	٧٢
الزهد	٨١
التصوف	٩٥
المدائح النبوية	١٠٠
الأدب والحكمة	١٠٧
شعر الطبيعة	١١٢
الحنين إلى الوطن	١٣١
الرثاء	١٤٠
(رثاء الأفراد)	١٤٠
(رثاء الدول والممالك الزائلة)	١٤٨
شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم	١٦٠
الموشحات الأندلسية	١٧٨
الزجل في الأندلس	٢٠١

الغزل

من الغَزَل الجيّد في أوائل الشعر الأندلسي قصيدة للأمير الأموي عبد الرحمن بن الحَكم[1] (المعروف بالأوسط) جمع فيها بين الغزل والحماسة، فقد كان الأمير في غزوة بأرض جيليقية (الشمالية) وطالت غَزاتُه فقال يتشوق إلى زوجته المسمّاة بـ (طَرُوب):

فقدتُ الهوى مُذ فقدتُ الحبيبا ... فما أقطعُ الليلَ إلاّ نَحيبا
وإمّا بدت ليَ شمسُ النّها ... رِ طالعةً ذكّرتني طَروبا
فيا طول شوقي إلى وجهِها ... ويا كبداً أورثَتْها نُدوبا
ويا أحسنَ الْخَلق في مقلتي ... وأوفرهم في فؤادي نصيبا
لئن حالَ دونك بُعْدُ المزا ... رِ من بعد أن كنتِ منّي قريبا
لقد أورثَ الشّوقُ جسمي الضّنى ... وأضرمَ في القلبِ منّي لَهيبا
عَداني عنكِ مَزارُ العدا ... وقَوْدي إليهم لهاماً مهيبا[2]
سموتُ إلى الشّرك في جحفلٍ ... ملأتُ الحزون به والسُّهوبا

فالغزل رقيق، والشاعر يتشوق إلى محبوبته، ويتذكّرها بعد طول غياب، ويصرّح بحقيقة مكانتها من نفسه وقلبه، ويعتذر ـ في إطار الغزل ـ عن غيابه

---

(١) البيان المغرب ٨٢/٢، وتاريخ افتتاح الأندلس ٨٠، وتاريخ ابن خلدون ١٢٧/٤، والمغرب ٤٥/١، ونفح الطيب ٤٣٩/١، وأعمال الأعلام ١٨، والمعجب ٤٨

(٢) اللهام: الجيش العظيم. والمهيب من المهابة. وروي: ((لهاماً لَجِباً)).

عنها، ولكن لا بأس فإنه يحمي بذلك أرض الوطن ويدافع عن كرامته وكرامة قومه... وخُطة الجهاد تسبق كل خطة وكل عاطفة...

- وفي ديوان ابن عبد ربّه قطع غزليّة تدلُّ على مشاركته في هذا الفنّ، ومنه قوله:

يا لؤلؤاً يَسْبي العُقولَ أنيقا ورشاً بتعذيبِ القلوبِ رفيقا
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله دُرّاً يعودُ من الْحَياءِ عَقيقا
وإذا نظرتَ إلى محاسِن وجههِ أبْصَرْتَ وجْهَكَ في سناهُ غريقا
يا من تَقطّع خَصْرُه من رقّةٍ ما بالُ قلبكَ لا يكونُ رقيقا

فهذه المخاطبة كاللؤلؤ المنظوم، والرّشأ الرشيق، وهي تجمع إلى محاسن جمال الخلقة روعة الخفَر والحياء...

- واشتهَرَ في عَصْرِ الخلافةِ أحمد بنُ فَرج الجيّاني[١] الذي برع في الغزل وعدَّه د. ضيف ((حامل لواء الشعر العذري في الأندلس))، وله الأبيات المشهورة:

وطائعةِ الوصالِ عففتُ عنها وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ
بدَتْ في الليل سافرةً فباتت دياجي اللّيل سافرةَ القناعِ
وما من لحظةٍ إلا وفيها إلى فتنِ القلوبِ بها دواعِ
فملّكت النُّهى جمحاتِ شوقي لأجري في العَفافِ على طباعي

- كما ذاعت قصيدة لأبي أيّوب سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٤ - ٤٠٧ هـ)، وقد حكم الأندلسَ خليفةً في مدَّة الفتنة، وتلقب أيضاً بلقب الظّافر با لله. وقضى على يد علي بن حمّود.

وبعيداً عن جوّ السياسة المتقلب في تلك المدّة، كان المستعين أديباً فصيحاً، وشاعراً مكثراً، وكاتباً بارعاً.

(١) جذوة المقتبس: ٩٧، وقلائد العقيان: ٧٩، وبغية الملتمس: ١٤٠، والمغرب ٢/٥٦، والمطرب: ٤، ومعجم الأدباء ٤/٢٣٦

ومن تلك القصيدة قوله على أُسلوب لفّ الغزل بالحماسة والفَخْر:

عَجباً يهابُ اللّيْثُ حَدَّ سِناني ... وأَهابُ لَحْظَ فواترِ الأجفانِ

وأقارعُ الأَهوالَ لا متهيِّباً ... منها سوى الإعراض والهجران

وتملكت نفسي ثلاثٌ كالدُّمى ... زُهْرُ الوجوهِ نواعمُ الأبدان

ككواكب الظلماء لُحْنَ لناظر ... من فوق أغصان على كثبان

لا تعذلوا مَلِكاً تذلّل للهوى ... ذلُّ الهوى عزٌّ ومُلكٌ ثان!

والقصيدة معارضةٌ لقطعةٍ نظمها هارون الرّشيد أَوّلها:

((ملك الثلاثُ الآنساتُ عناني))

وكان كثرة من خلفاء بني أمية وأمرائهم ينظمون الشعر، ويجيدون، ونجد في أشعارهم ميلاً إلى شعر الغزل الذي استحسنه العرب من قديم، وصار غرضاً من أغراض كل من نظم الشعر.

ـ وكان عَصْرُ الطوائف مجالاً لنشر الشعراء أشعارهم في مجالس الحكام والأُمراء وفي المنتديات والملتقيات؛ وكان للغزل أثر بارز. ومن هؤلاء الشعراء ابن شُهَيد وابن حزْم، وابن زَيْدُون، والمعتمد بن عباد، وابن عَمّار، وابن الحدّاد.

ومن شعراء الغزل مروان الطّليق(١) (أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ ـ نحو ٤٠٠ هـ) قال فيه ابن حزم إنه في بني مروان كابن المعتز في بني العباس ملاحةَ شعرٍ وحُسْنَ تشبيه. ومن غريب الاتفاق في حياته أنه عاش ١٦ سنة من صباه إلى أن دخل السجن ١٦ وعاش بعدها ١٦ سنة أُخرى..

(١) ترجم له، وجمع الباقي من شعره المستشرق الإسباني إميليو غارثيا غومس، وقد نشر بالعربية مع بحوث أخرى بعنوان: (مع شعراء الأندلس والمتنبي) وصدر عن دار المعارف بالقاهرة.

ويعرف بلقب: المرواني الطّليق، أو الشريف الطّليق، كما يلقّب بـ (طليق النعامة) ولذلك خبر طريف رواه المراكشي في كتابه: المُعجب.

ومن شعره قصيدة قافية طويلة، بدأها بالغزل[١] :

غصنٌ يهتزُّ في دِعْصِ نَقا ... يجتني منه فؤادي حُرَقا[٢]
أَطْلَعَ الحسنُ لنا من وجههِ ... قمراً ليسَ يُرى مُمّحقا
وتناهى الحسْنُ فيه إنّما ... يحسنُ الغُصْنُ إذا ما أورقا

ومن غَزله أيضاً[٣] :

فيا ليت شعري هل لمولاي عطفةٌ ... يُداوى بها منّي فؤادٌ مُجَرَّحُ
يحنّ إلى البَدْر الذي فوقَ خدِّهِ ... مكان سواد البَدْر وردٌ مفتّحُ
تقنّعَ بَدْرُ التمِّ عندَ طلوعه ... مخافةَ أن يَسْري إليه فَيُفضحُ!

- ومن شعر ابن حزم الذي طرّز به مواضع كثيرة من كتابه: ((طوق الحمامة)) قوله[٤] :

ودِدْتُ بأنّ القلبَ شُقّ بمديةٍ ... وأُدْخلتِ فيه ثم أُطْبِقَ في صدري
فأصبحتِ فيه لا تحلّين غيره ... إلى مقتضى يوم القيامة والحشرِ
تعيشين فيه ما حييتُ فإنْ أَمُتْ ... سكنتِ شغاف القلب في ظُلَم القبرِ

فهذا غزل رقيق، وهو يجري على نهج شُعَراء الغَزل العُذري في شفافية الحبّ، ورقّة العبارة، وروعة الموقف.

---

(١) مجموع شعره: ٦٦
(٢) الدّعص: القطعة المستديرة من الرّمل.
(٣) مجموع شعره: ٦٨
(٤) طوق الحمامة: ٩٢

- ومن شعراء هذا العصر الذي نضج فيه الشعر في الأندلس وتمكن أكثر شعرائه من ناصية هذا الفنّ، وأوغل كثير منهم في مجال الإبداع والإتقان محمد بن البَيْن[١] الذي كان الوزير الكاتب ليحيى بن المظفّر على يابرُه، ومن شعره الحسن:

غَضَبُوا الصَّباحَ فقسَّمُوه خُدودا ... واستَوهَبُوا قُضُبَ الأَراكِ قُدودا

ورأوا حصى الياقوتِ دون محلّهم ... فاستبدلوا منه النجومَ عقودا

واستودعوا حدقَ المَها أجفانهم ... فَسَبَوْا بهنّ ضراغماً وأُسودا

لم يكفِ أنْ سلبوا الأسنَّة والظُّبا ... حتى استعانوا أعيناً ونُهودا

وتضافروا بضفائر أَبْدَوا لنا ... ضوءَ النَّهار بليلها مَعْقُودا

ووجه الحُسن في الشعر هو هذا التّناول للمعاني، وتلك العبارة الرقيقة السلسة التي تجري كأنها جدول رقراقٌ ينساب فيعجب العين، ويطرب الأُذن. والمعاني - وإن كانت مألوفة وممّا جرت به ألسنة الشعراء على وجوه مختلفة - استفادت من الشاعر ((هذه الصياغة الرائعة، فإذا كلّ الصّور، والمعاني، تأخذ نسقاً أندلسيّاً جديداً)) كما عبَّر د. شوقي ضيف[٢] .

- ولمع في هذا العصر نجم ابن زيدون الذي صَدح بشعره الغزلي وساجلته في جزء منه ولادة بنت المُستكفي في انسجام فنّي أعجب النُّقاد والأدباء قديماً وحديثاً[٣] .

---

(١) الذخيرة ٨٠٢/٢
-وترجم له ابن بسام في كتابه هذا (٧٩٩/٢) وانظر أيضاً: المغرب ٣٧٠/١، ورايات المبرّزين: ٦٠، ونفح الطيب ٤٥٣/٣

(٢) الأندلس: ٢٦٤

(٣) لابن زيدون ترجمة مفردة في هذا الكتاب. وانظر في ابن زيدون وولادة عدداً خاصاً بكل واحد منهما في سلسلة (الرّوائع الجديدة).

- ومن الشعراء الذين اتصلت أسماؤهم باسم معيّن أجرى عليه غزله ابن الحدّاد الوادي آشي[(١)]، فقد شهر بشعره الغزلي الذي خصّ به فتاة نصرانية اسمها (جميلة)، وكنّى عنها باسم (نُوَيرة) واستنفد فيها غزله.

ومن شعره فيها من مقدمة قصيدة مدحيّة:

لعلّك بالوادي المقدس شاطئُ فكالعَنبَرِ الهنديّ ما أنت واطئُ[(٢)]
وإني في ريّاكَ واجِدُ ريحهم فروح الهوى بين الجوانح ناشئُ
ولي في السُّرى من نارهم ومنارهم هداةٌ حُداةٌ والنجوم طوافئُ
لذلك ما حنّتْ ركابي وحَمْحَمتْ عِرابي وأوحى سَيْرُها المتباطئُ[(٣)]
فهل هاجها ما هاجني أَو لعلّها إلى الوَخْدِ من نيرانِ وَجْدي لواجئُ[(٤)] ؟!

وقد نحا الشاعر في هذه القصيدة منحًى بدوياً، واصطنع لذلك أسلوباً ملائماً. ونلمح الإشارة إلى نويرة في البيت الثالث واضحة تماماً.

وقد كثر الاختيار من قصيدة تائية له، أولها:

قلبي إلى ذاتِ الأُثيلاتِ رهينُ لوعاتٍ وروْعاتِ!

يقول فيها، واصفاً نويرة وصويحباتها بالظباء، موجّهاً حديث الغزل إليها:

والشمسُ شمس الحُسن من بينهم تحت غمامات اللثاماتِ
وناظري مختلسٌ لَمْحَها ولمحُها يُضرم لوعاتي
وفي الحشا نار نويريّةٌ علّقتها منذ سُنيّاتِ
لا تنطفي وقتاً وكم رُمْتُها بل تَلْتَظي في كل أوقاتي
فحيّ عني رشَأ المُنْحَنى وإن أبى رَجْعَ تحيّاتي!

---

(١) له ذِكر في شعراء المديح.
(٢) شطأ: مشى على الشاطئ، وقطعه طولاً.
(٣) أي الخيل العِراب: العربية الأصيلة التي ليست فيها هُجنة.
(٤) الوخد: مصدر وَخد (البعير): أسرع ووسّع الخطو.

- ومن الشعراء الأندلسيين الّذين أكثروا من ذكر اسمٍ واحد على طريقة العُذريّين، أو محاكاة لهذا الجانب منهم: ابن زيدون، وابن الحدّاد، والمُعتمد بن عبّاد الذي أكثَرَ من ذِكر اعتماد[1]، وأبو جَعفر بن سعيد (وحفصة الرّكُونيّة).

- ومن الشعراء الذين برعوا في الغزل في عصر المرابطين: الأعمى التُّطيلي، وابن خَفاجة، وابن وهبون، وابن الزقاق البلنسي.

- وفي عصر الموحّدين أبو جعفر (أحمد بن عبد الملك) بن سعيد، وحفصة الركونية، ومن شعرها:

أغارُ عليك من عيني ومنّي ... ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أنّي خبّأْتك في عيوني ... إلى يومِ القيامة ما كفاني!

ومن رقيق شعر الغزل قصيدة لأحد ملوك بني نصر أصحاب دولة غرناطة، هو ثالث ملوكهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف (٦٥٥ - ٧١٠ هـ)، وفي هذه القصيدة:

واعدني وعداً وقد أَخلَفا ... أقلُّ شيءٍ في الملاح الوَفا
وحال عن عهدي ولم يَرْعَهُ ... ما ضرّه لو أنه أَنْصَفا
ما بالها لم تتعطَّفْ على ... صبٍّ بها ما زال مستعطفا
يستطلع الأنباءَ من نحوها ... ويرقبُ البرقَ إذا ما هفا
مَلّكتك القلبَ وإنّي امرؤٌ ... عليّ ملكُ الأرض قد وُقّفا
يُرْهَفُ سَيفي في الوغى مُصْلَتاً ... ويُتّقى عزمي إذا أُرْهِفا
وتُرتجى يُمناي يوم النَّدى ... تخالُها السُّحب غَدتْ وُكّفا
يا ليت شعري، والمُنى جَمّةٌ ... والدهرُ يوماً هل يُرى منصفا..
هل يرتجي العبدُ تدانيكمُ ... أو يصبحُ الدهرُ له مُسْعِفا؟!

- وهي قطعةٌ رقيقةٌ؛ تَشفُّ عن شاعريّة حسنة، وذوق مرهف.

---

(١) وهي زوجته وأُمّ أولاده.

ـ ويستمر غرض الغَزل في عصر الدولة النّصرية غرضاً أَصيلاً في دواوين الشُّعراء؛ ويلفت النظر، على سبيل المثال ـ قصائد ومقطوعات خالصة للغزل في ديوان يوسف الثالث أحد ملوك غرناطة في أوائل القرن التاسع الهجري. وله ديوان مطبوع[١]. وفي ديوان ابن خاتمة الأنصاري (ت ٧٧٠ هـ) ولسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ).

ـ وفي ديوان ابن فركون[٢] نلاحظ الغزل التقليدي في مطالع عدد غير قليل من قصائد الدّيوان.

ـ كما أن الموشّحات، أعطت الغزل نفحةً خاصّة؛ كالذي نجده في موشّحات ابن خاتمة، ولسان الدين وابن زمرك.

ـ ومن الغزل التّقليدي قول ابن فركون من قصيدة يساجل بها ملك غرناطة يوسف الثالث[٣]:

أمِنْها سرى طيفٌ إليَّ حبيبُ ... وليس سوى نجم السماءِ رقيبُ
أتى وظلام الليل يسحب ذيله ... وللبرق ثغرٌ في دجاه شنيبُ
تطلّع خفّاق الجناح كأنّه ... فؤاد محبٍّ قد جفاه حبيبُ
وهيهات يشفي القلبَ طيفُ خيالها ... وقد علمت أنّ الخَيالَ كذوبُ!

وهي ردّ على بيتين أرسلهما إليه يوسف الثالث، وهما:

((وكم عائدٍ زادت عيادَتُه الأسى ... ولو عُدْتِ قرّتْ أعينٌ وقلوبُ
فذكرك حظّ النفس في كلّ خطرةٍ ... فيا ليت حَظَّ العين منكِ قريبُ))

---

(١) انظر الطبعة الثانية منه في مكتبة الأنجلو ـ المصرية بالقاهرة. وحققه الأستاذ عبد الله كنّون.
(٢) انظر إشارة إليه في ((شعر الحنين)) من هذا الكتاب.
(٣) ديوان ابن فركون: ١٥٤

المديح:

لم يختلف شعر المديح في الأندلس عنه في المشرق من جهة وفرة دواعيه، وكثرة شعرائه، فقد كانت الدّولة الأموية ـ بأمرائها وخلفائها وحُكّامها ورجالها ـ مقصداً لشعراء الأندلس، وغيره من الأقطار. على أن الشعر القديم الذي صدر عن شعراء المراحل الأُولى من التّاريخ الأندلسي- في ما وَصل إلينا ـ قليل. ولكنّه يدل على هذا الذي نذهب إليه من استمرار هذا التّيار من الأغراض الشعرية، ووجود الشّعراء المجوّدين.

ـ فمنهم أبو القاسم عباس بن فرناس (أَواخر القرن الثاني ـ إلى نحو ٢٧٤ هـ) وكان إلى جانب معرفته بالشعر عالماً في فنون شتّى من الرّياضيات والموسيقى والفيزياء والفلسفة والكيمياء والفلك، ومن أَشهر ما عُرِفَ عنه محاولته الطَّيران، وحذقه للموسيقى. كان مرّة في مجلس أحد ولاة الأمير عبد الرحمن الأوسط واسمه محمود بن أبي جميل فغنى ابنٌ لزرياب(١) :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقني   حَمامٌ تداعت في الديار وقوعُ
تداعين فاستبكين مَنْ كان ذا هوًى   نوائح ما تجري لهنّ دموعُ

فلما انتهى أخذ عباس بن فرناس العود، وغنى بهذين البيتين المذكورين ثم زاد من عنده ارتجالاً يمدح صاحب المجلس:

شددْتُ بمحمودٍ يداً حين خانها   زمانٌ لأسباب الرّجاءِ قَطُوعُ.
بنى لسماع الجود والمجد قبّةً   إليها جميع الأجودين ركوعُ!

ومدح الأمير محمّداً، وقد عاد من غزوة ظافرة لأهل بنبلونة في نبارّة بأقصى الشمال بقصيدة جاء فيها:

---

(١) المقتبس لابن حيان (بيروت): ٢٧٩، وطبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٢٩١، وجذوة المقتبس رقم ٣٧١، والمغرب ١/٣٣٣، وبغية الملتمس ٤١٨

إنّ القُفُولَ الذي أَوْفى بِعيدَيْنِ مكرّمين على الدّنيا عزيزَيْنِ
قدومُ أكرم من في الأرض قاطبةً قدوم فطرٍ فكانا خير عيدينِ

وقد وافق مجيء الأمير (قفوله من الغزو) وقت عيد الفِطر فجمع الشاعر (من أجل المدح) بين المناسبتين؛ وأعلى من شأن العودة الظّافرة من الجهاد.

- وظهر من شعراء الدّولة الأموية في غرض المديح **ابن عبد ربّه**[1] الذي عاصرَ مدة الإمارة الأموية، وأدرك إعلان الخلافة في قُرطبة أيضاً. وديوانه الأصلي مفقود. وقد جمعتُ شعره من المصادر المختلفة[2]. وكثر في شعره الباقي مدح عبد الرّحمن (النّاصر) وتسجيل معاركه الداخلية التي انتصر فيها على الثوّار المتوثّبين كابن حَفْصُون رأس الفتنة في عصره.

ومن شعره في أحد فتوح الناصر الأموي[3]:

في غزوةٍ مئتا حصنٍ ظفرتَ بها في كل حصنٍ غواةٌ للعَناجيج[4]
ما كان ملك سليمان ليدركها والمُبْتَني سدّ يأجوج ومأجوج!

فهو يُثني على عبد الرحمن، وجيشه الذي فتح مئتي حصن من المخالفين، وناقضي العهود. وهو نصر يشبّه بانتصارات جيوش الرُّسل والأنبياء وأُولي العزم.

- وكان أبو عمر أحمد بن دَرّاج الفسطلي[5] (٣٤٧ - ٤٢١ هـ) أشهر شعراء الحاجب المنصور (محمد بن أَبي عامر)، كما لقي عناية من ابنه المظفر عبد

(١) له ترجمة واختيارات شعرية في هذا الكتاب.
(٢) ديوان ابن عبد ربه. الطبعة الثالثة. دار الفكر - دمشق.
(٣) ديوانه: ٤٦ - ٤٧
(٤) العناجيج (ج عنجوج): جياد الخيل.
(٥) نسبته إلى قسطلّة دراج من أعمال جَيّان في وسط الأندلس. دخل قرطبة رجاء الانتفاع بشاعريّته التي اشتهرت في بلده ووسط قومه. وتعرّض لاختبار من ديوان الشّعراء فظهرت براعته وبداهته فألحق بديوان الحكم، وتعلّق به المنصور بن أبي عامر. وأثنى ابن حزم على أسلوبه في الكتابة الفنية (فقد كان ابن دراج مترسّلاً وشاعراً).
- لابن دراج ديوان طبع في دمشق ط١ + ط٢ بتحقيق د. محمود علي مكي.
- وانظر ترجمة مطولة في مقدمة الديوان. وفي المختار من الشعر الأندلسي: ٥٠

الملك، بعده؛ حكم (٣٩٢ ـ ٣٩٩ هـ)، ولم يطل عهد أخيه عبد الرحمن (الملقب شُنجول) أكثر من شهرين لتدخل الأندلس بسببه، وبظروف أُخرى لها علاقة بسياسة العامريين عامة، في عصر الفتنة. ويضطر ابن دراج إلى مدح كثير ممّن تلقبوا بالخلافة في مدة الضعف هذه (٤٠٠ ـ ٤٢١ هـ) من حياته؛ ويمدح عدداً من أمراء الساحل الشرقي مثل خيران الصقلبي من موالي العامريين:

لك الخير قد أوفى بعهدك خيرانُ وبشراك قد آواك عِزٌّ وسلطانُ

ولا يلقى العطاء المجزئ ولا الرّعاية الكافية. فيقصد إلى سرقسطة وحكامها التجيبيّين، فيمدح منذر بن يحيى (ت ٤١٢ هـ) وابنه يحيى. ويفد على مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية بعد أن سمع عن إعطاء الشعراء والعلماء ويمدحه:

إلى أيّ ذِكرٍ غير ذكرك أرتاحُ ومن أيّ بَحْرٍ بعد بحرك أمتاحُ

ولقي عنده قدراً من الرّعاية شجعه على البقاء عنده. ولكن الموت فاجأه سنة (٤٢١ هـ).

ـ وقد أثنى المشارقة والأندلسيون على ابن دراج في شعره، وفي ترسُّله (الذي ضاع)، وقال فيه ابن حيان أشهر مؤرخي الأندلس، وكان ذواقة للأدب عارفاً بالشعر: ((أبو عمر بن دراج القسطلي سابق حلبة الشعراء العامريّين وخاتمة مُحسني أهل الأندلس أجمعين)).

ومن خصائص شعره:

– كثرة معارضة المشارقة كأبي نُواس والمتنبي.

– والولوع بالبديع.

– وكثرة الشكوى من الزّمان، وتقلب أحواله وخصوصاً بعد اضطراره إلى السعي في الأرض من أجل لقمة العيش منذ عصر الفتنة نحو (٤٠٠ هـ) إلى وفاته.

ـ جاء وفد نبارّة من دول الشمال وعلى رأسه ملك تلك البلاد يعلن ولاءه لدولة بني أميّة والحاجب المنصور، فقال ابن دراج من قصيدة:

ألا هكـذا فليسْـمُ للمجـد مَـنْ سمـا ... ويحمي ذِمارَ الملك والدين مَنْ حمى

فهذا عظيمُ الشّركِ قد جاء خاضعاً ... وألقـى بكفّيـهِ إليـك محكّمـا!

- واقترح الحاجب المنصور على ابن دراج أن ينشئ قصيدة يعارض فيها أبا نُواس في قصيدته التي مدح بها الخَصيب بن عبد الحميد خراج مصر:

أجـارةَ بيتينـا أبـوك غيـورُ ... وميسور ما يُرْجى لديك عسيرُ

فنظم هذه القصيدة البارعة، التي أوّلها:

دعـي عَزمـات المستضام تسـيرُ ... فتنجـدُ في عُـرْضِ الفـلا وتَغُـورُ

ويبدو أنّ الشاعر استفاد من تجربة شخصية فصوّر لهفة زوجته عليه وقد عزم على المسير والسّفر، وإشفاقها عن خروجه وابنته صغيرة في المهد. وذكر عزمه على الرحلة وإن كانت شاقّة عليه بترك أهله، وصعبة المراد بوعثاء الطريق؛ ومدح المنصور وذكر جهاده في أعداء الأندلس، ونصرته للدين الحنيف.

وكان ملوك الطوائف في حاجة إلى أصوات الشعراء ودعايتهم فمال أكثرهم إلى تقريبهم، وإثابتهم على مدائحهم. ومن هؤلاء **ابن اللبّانة** الذي مدح المعتمد بن عباد (ووفى له بعد نكبته)، كقوله:

ملـكٌ إذا عقـدَ المغـافرَ للوغـى ... حـلَّ الملـوكُ معـاقِدَ التّيجـانِ(١)

وإذا غـدت راياتُـه منشـورةً ... فالخافقـان لهـنّ في خَفقـانِ(٢)

يـا منشـئ العَلْيـاء بعـد مَماتهـا ... تَفْنـى النجـومُ ومـا ثنـاؤكَ فـانِ

الأرضُ حاجتهـا إليـكَ بطبعهـا ... كـالعَيْنِ حاجَتُهـا إلى الإنسـانِ(٣)!

---

(١) المغافر جمع مغفرة: الخوذة من زَرد.

(٢) الخافق: الأفق، فهما خافقان: أُفق المشرق وأُفق المغرب.

(٣) إنسان العين: البؤبؤ.

وفيهم **ابن الحدّاد الوادي آشي** (أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي) وأكثر شعره غزل في اسم نويرة (واسمها الأصلي جميلة) ومديح للمعتصم بن صمادح صاحب المَرِيّة.

- ومن شعره في ابن صمادح قصيدة بدأها بالغزل أولها:

عُجْ بالحمى حيث الغياضُ العِيْنُ ... فعسَى تعنّ له مَهاةُ العِيْنُ

يقول فيها متخلصاً بعد الغزل المتقن إلى المديح:

أنتِ الهَوى لكن سلوان الهوى ... قصْدُ ابن معنٍ والحديث شجون
فالحُسن أجمع ما يُريك عيانُه ... لا ما أرته سوالف وعيون(١)
والروض ما اشتملت عليه سهوله ... لا ما أرته أباطحٌ وحُزونُ(٢)
قصر تبيّنت القصور قصورها ... عنه، وفضل الأفضلين يبينُ
هو جنة الدنيا تبوأ ظلّها ... ملك تملّكه التُّقى والدينُ
فمن ابن ذي يزنٍ؟ وما غمدانُه ... النقل شكٌّ والعيان يقينُ!

فملك ابن صمادح يفوق مُلك سيف بن ذي يزن ملك اليمن المشهور، وقصره أرفع من قصر ابن ذي يزن وأَروع!..

- وفيهم **ابن عَمّار** الذي مدح المعتضد والمعتمد من بني عَبّاد. وله أخبار مشهورة.

واشتهر في شعر مدح المرابطين الأَعْمى التُّطِيلي، وابن خَفاجة، وابنُ وَهْبُون، وأبو الحسن بن الجَدّ. وقد سلم ديوانا التّطيلي وابن خفاجة وهما مطبوعان محقّقان.

وقد مدح الشّعراء يوسف بن تاشفين أول أمرائهم، ومدحوا أبناءه، وفيهم علي الذي تولى بعد أبيه، وأخواه تميم وإبراهيم. وتوجَّهوا بالمدح إلى بعض

(١) العيان: المشاهدة.

(٢) الأباطح جمع الأبطح: الأرض الواسعة المستوية. والحزون جمع الحزن: الأرض الصّلبة.

عقائل المرابطين من سيداتهم الفاضلات كالحُرّة مريم والحرّة حواء. وإلى ولاتهم المرموقين.

ـ ومن شعر ابن خفاجة في زوجة الأمير تميم[(١)] :

مشهورة في الفَضْل قِدْماً والنُّهى ... والجود شهرة غرّة في أَدْهمِ
تُولي الأيادي عن يدٍ نزل الندى ... منها بمنزلة الْمُحَبّ المكرمِ
حمل الثناءَ بها القريضُ وإنما ... حُمِلَ الحديثُ روايةً عن مسلمِ

ـ وحين دَخل عبد المؤمن بن علي خليفة دولة الموحّدين جبل طارق سنة (٥٥٦ هـ)، بعد أن أمر ببناء مدينة هناك، أقام شهراً يستقبل وفود المهنئين والمبايعين، وأقام ديواناً للشعراء، وكان فيهم: الأصمّ المرواني (حفيد المرواني الطليق)، والرُّصافي البلنسي، وأحمد بن سيّد الإشبيلي.

وكان أولاد عبد المُؤمن، ومن جاء بعده على الخلافة يقرّبون العلماء والأدباء ويثيبون الشعراء. واستأثر نصر الأَرك (٥٩١ هـ) على يد المنصور يعقوب الموحدي بأقوال شعراء المديح، وفيهم عليّ بن حَزْمُون؛ الذي سجّل الانتصار:

حَيّتك معطّرة النَّفَسِ ... نفحاتُ الفَتْح بأندلسِ
فذرِ الكفّار ومأتمهم ... إنّ الإسلامَ لفي عُرسِ
أإمامَ الحقِّ وناصرَه ... طهّرتَ الأرضَ من الدّنسِ
وصدَعْتَ رداءَ الكُفر كما ... صدعَ الديجورَ سَنا قَبَسِ

ـ ومن شعراء العصر الموحّدي ابن الأَبّار[(٢)] ، وحازم القرطاجَنّي[(٣)] .

ـ وعلى امتداد نحو قرنين ونصف قرن من الزّمان كان الإسلام في الأندلس في ظل دولة بني الأحمر (وهم بنو نصر) أصحاب دولة غرناطة، أو مملكة

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي حققه د. إحسان عباس، وديوان ابن خفاجة حققه الدكتور سيد غازي.
(٢) له ذِكر في شعر الاستنجاد والصريخ لنجدة الأندلس. وله ديوان مطبوع.
(٣) له ديوان شعر مطبوع. وهو صاحب الكتاب النقدي البارع (منهاج البلغاء).

غرناطة. ورجع للأدب شيء كثير من رونقه؛ وكان في شعراء المديح: أبو البَقاء الرُّندي وابن الجَيّاب، ولسان الدّين بن الخَطيب، وابن زَمْرَك، وابن فركون، والبَسْطي، وابن خاتمة الأنصاري وغيرهم[(١)].

- ومن شعر ابن جُزَيّ[(٢)] الأديب الأندلسي والشاعر البارع يمدح أبا الحجاج يوسف ملك غرناطة (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) قوله:

إنّ المعانيَ والعوالي والنّدى ... والبأس طوع يدي أبي الحَجّاجِ
ماضي العزيمة والسيوف كليلةٌ ... طلق المحيا والخطوب دواجِ
ليثُ الوغى والخيل تُزجى بالقنا ... والبيضَ تنهَلُ من دم الأوداجِ!

والقصيدة معارضة لقصيدة جرير في الحجاج بن يوسف الثّقفي:

هاجَ الهوى لفؤادِكَ المهتاجِ ... فانظر بتوضَحَ باكرُ الأَحداجِ

وفي شعراء المديح: الرّصافي البلنسي[(٣)] وهو أبو عبد الله محمد بن غالب؛ ونسبته إلى رُصافة بلنسية، وهي بلدة مجاورة لبلنسية، موصوفة بالحسن والخضرة وكثرة المياه، ومظاهر الجمال الطبيعي، وفيها يقول:

بلادي التي ريشت قُوَيْدِمَتي بها ... فُرَيخاً وآوتني قرارَتُها وَكْرا
مبادئُ لين العيش في ريقِ الصّبا ... أبى الله أن أنسى لها أبداً ذِكرا

تنقّل الرّصافي البلنسي في بلاد الأندلس والمغرب مادحاً، باحثاً عن موارد الرزق، فنزل مالقة وغرناطة، ومرّاكش وغيرها. وكان في جملة الشّعراء الذين مدحوا عبد المُؤمن حين نزل مدينة جبل الفتح.

---

(١) انظر في هذا الكتاب ترجمة لأبي البقاء الرُّندي، ولسان الدين بن الخطيب.

(٢) هو الذي دوَّن رحلة ابن بطوطة. رواها الأخير مشافهة، وتلقفها ابن جُزيّ في المجالس التي عقدت لذلك ثم دوَّنها بلغته وأُسلوبه ومنهجه.

(٣) ترجمته في بغية الملتمس ١٠٩ (رقم ٢٥١)، المغرب ٢/٣٤٢، تحفة القادم ٥٦، وفيات الأعيان ٤/٤٣٢، المعجب ١٥٤، نفح الطيب ٢/٣٣٥

- وانظر مقدمة ديوان الرّصافي البلنسي د. إحسان عباس ط٢ - دار الشروق - بيروت -

ـ وله قصيدة في مدح الوزير الوَقّشي، أولها(١) :

أَلأجْـــرَعٍ تحتلُّـــه هنـــدُ ينـدى النَّسِـيْمُ ويـأرَجُ الرَّنْـدُ(٢) ؟

وفي قِسْم المَديح منها:

ذُكـر الوزيـرُ الوَقَّشـيُّ لهـم فأثـارهم للقائـه الـوُدُّ
مـترقّبين حلـول سـاحته حتـى كـأنّ لقـاءَهُ الخلـدُ
قـد رَنَّحتْهُـم مـن شمائلـه ذِكَـرٌ كمـا يتضـوّع النَّـدُّ
رجُـلٌ إذا عَـرض الرجـالُ لـه كَـثُر العديـدُ وأعْـوَزَ النِّـدُّ
مـن معشـرٍ نَجَـمَ العـلاءُ بهِـمْ زَهـراً كمـا يتناسَـقُ العِقْـدُ
سـترى الوزيـرَ ومجـده فـترى جَبَـلاً يـلاذُ بـه ويُعْتَـدُّ
وتـرى مـآثِرَ لا نفـادَ لهـا بـالعدّ حتـى ينفـدَ العَـدُّ

ومال الشاعر إلى ذِكر القلم، على أسلوبه الخاص، متابعة للشعراء حين يمدحون الكتّاب ورجال الدولة الإداريين، وأشار إلى أن الممدوح الوقّشي كاتب تتضاءل دون مهارته في الكتابة مهارة أصحاب الرماح:

وهِبَاتُـه تصـفُ النّـدى بيـدٍ علمـاءَ أقـدمُ وفرهـا المَجْـدُ
خفَـتْ بهـا في الطِّـرْسِ بارِقـةٌ حَـدَقُ القَنـا مـن دونهـا رُمْـدُ
محمولـة حَمْـلَ الحُسـام وإنْ خَفِـيَ النّجـادُ هنـاكَ والغِمْـدُ
يَسْـطُو بهـا فـأقول يـا عَجبـاً مـاذا يُـري عليـاءَهُ الجِـدُّ
حتـى اليَراعـةُ بـين أنْمُلِـهِ يـا قـومُ ممّـا تطبـعُ الهنـدُ!
وكفـى بـأنْ وسـمَ النّـدى سمـةً لم تَمْحُهـا الأيـامُ مـن بَعْـدُ!
بعـوارفٍ عمَـر البـلادَ بهـا فـاخضرّ منهـا الغَـوْرُ والنّجْـدُ!

---

(١) الوقشي كان وزيراً (ت ٥٧٤ هـ).

(٢) القصيدة في الديوان: ٦١ ـ ٦٢

ـ والرّصافي يُذكر عادة في مدرسة ابن خفاجة: المحافظين على رونق الشعر الجزل؛ وتقوم طريقته الشّعرية على التنقيح والتجويد[١].

ـ واستمر غرض المديح في عصر دولة بني الأحمر، فكان من شعراء هذا الغرض في القرن السّابع أبو البقاء الرُّنْدي ــ وله ترجمة في هذا الكتاب ــ وفي القرن الثامن جمهرة عظيمة منهم، فيهم أبو الحسن بن الجَيّاب وتلميذه والخَلف بعده على ديوان الكتاب: لسان الدين بن الخطيب، وتلميذ لسان الدين ابنُ: زَمْرَك الذي خلَّد شعره المَدْحيّ بنقشه في الحجَر على جُدران قصر الحمراء وأعمدته وأقواسه وأَبهائه؛ وفي القرن التاسع ابن فركُون.

وقد نظم ابن زَمْرك مدائحه ـ كأستاذه لسان الدين ـ شعراً وتوشيحاً؛ ومن ذلك قصيدة مطوّلة مدح فيها الغني بالله ووصف أشياء في قصر الحَمْراء ممّا اعتنى به ذلك السلطان، وأول القصيدة[٢]:

سلِ الأُفق بالزُّهر الكواكب حاليا فإنّي قد أودَعْتُه شَرْحَ حالِيا

يقول فيها:

فلولاك يا شمسَ الخلافة لم يَبِنْ سبيل جهادٍ كان من قبلُ خافيا
ولولاك لم تُرْفَع سَماءُ عَجاجةٍ تلوحُ بها بيض النّصولِ دراريا
ولولاك لم تَنْهَل غصونٌ من القنا وكانت إلى وِرْدِ الدماء صواديا
فكم معقل للكفر صبّحتَ أهله بجيش أعادَ الصبحِ أظْلَمَ داجيا
رقيت إليه والسيوف مشيحةٌ وقد بلغت فيها النفوس التراقيا
ففتحّتَ مرقاة الممنَّعِ عنوةٍ وبات به التّوحيدُ يَعْلُو مناديا
وناقوسه بالقسر أمسى معطلا ومنبره بالذّكر أصبح حاليا

---

(١) انظر مقدمة محقق الديوان في تقويم شعره.
(٢) أزهار الرّياض ٥٦/٢ ـ ٥٨

ويعرّج على المباني الباهرة فيقول في طرف من القصيدة:

و للهِ مَبْنــاك الجَميــلُ فإنّــه يفـوقُ على حُكـم السُّعودِ المبانيـا

فكـم فيـه للأبصـار مـن متـنزهٍ تُجِـدُّ بـه نفـسُ الحليـم الأمانيـا

وتهوى النجومُ الزُّهر لـو ثبتـت بـه ولم تـكُ في أُفـق السـماء جواريـا!

وهكذا تدور معاني المديح في شعر ابن زمرك على المعاني المدحية المألوفة مع محاولة التوليد في المعاني الجزئية، والتقوّي بوصف الحال الراهنة من نتائج الحركة العمرانية وإبداعاتها الجمالية.

- ويزخر ديوان ابن فركون بشعر المديح الذي يستحضر فيه معاني المديح التقليدية، ويحاول تقديم ملامح جديدة في معاني هذا الغرض الذي عرفه الشعر العربي في وقت مبكر من العصر الجاهليّ؛ وفي الجديد كلامٌ على الوقائع والأحداث المحلّية؛ ومزج غرض المديح بوصف الطّبيعة على المنهج الخفاجي كقوله من قصيدة أنشدها سنة (٨١٣ هـ) في مدح السّلطان يوسف الثالث ملك غرناطة، أوّلها[(١)]:

سَلْ ركاب الحمى غداةَ استقلّت مـن حَـوتْ في رحالهـا وأقلّـتْ

يقول فيها:

أيهـا النـاصرُ الإمـام المرجّـى فئـة العـزّ لِلْمُنـاوي أذلّـتْ

جَبـلُ الفتـحِ قـد حللـتَ لديـه ذروةً قـد علَـتْ مكانـاً وجلّـتْ

ولأهليـه في الخـلاف نفـوسٌ بشـياطين للضـلال اسـتُزِلّتْ

فـترامَتْ لهـم كتـائب عـزٍّ لـو رَمَتْهـا يـدُ الزمـان لَشُلّـتْ

لـو تجـاري الريـاح منهـا جيـاداً لانثنَتْ عـن مَدى السّباق وكَلّتْ

بِهَـوادٍ غُـرٍّ الفتوحـات أهـدَتْ إذا أطلـت جموعهـم وأضلّـتْ

---

(١) ديوان ابن فركون: ١٦٤ - ١٦٥

أريــاضٌ أنهــارُه فيــه ســالتْ ... أم سيوف في ملتقى الحرب سُلّتْ؟
وعــوالٍ يجلــو الظــلامَ ســناها ... أم نجــومٌ مــن السّـماء تدلّــتْ!

وتدور في أشعار المديح عند ابن فركون أيضاً معاني الجهاد، ومباغتة العدوّ، والنّيل من جُنده، واحتياز البلاد الذي يسيطر عليها، مما يعطي النص الشعري خصوصية أُخرى أَندلسيّة لا تغيب مقاصدها وإشاراتها عن القارئ المتابع، وانظر قوله(١) في السلطان يوسف المذكور:

تــدلُّ علــى العليــاء منــه مخــايلٌ ... عليهنّ مصـداق الفراسـةِ بـاحثُ
لِمَا عزّ وهابٌ، وبالسّيف دافـعٌ ... وفي الحربِ مَنّاع وللجيش باعثُ
فوفّى حقـوق المكرمـاتِ وطالمـا ... وفَى بعهـودِ المَجْد والدّهرُ ناكثُ
ورَدّ جنودَ الشِّرك وهي عوابـثٌ ... وأردى أسود الغاب وهي دلاهِثُ(٢)
فلا العزم مفلول، ولا الرأيُ فائلٌ ... ولا الحزمُ مخذول ولا الخطبُ كارثُ!

(١) المصدر نفسه: ٣٤٦
(٢) دلاهث: جريئة مُقدمة.

الهجاء:

من الشعراء الذين اشتهروا بالهجاء مؤمن بن سعيد[١] (ت ٢٦٧ هـ)، وقد رماه طول لسانه في السجن حتى مات فيه؛ وعبد الله بن الشَّمِر[٢]. ويروى من أخباره أن قاضياً اسمه يُخامر كانت فيه غفلة، فدسَّ ابن الشّمر بين أوراق الدعاوى ورقة فيها اسمان: مدّعى ومدعى عليه، وسجّل فيها: المسيح بن مريم ويونس بن متّى، فأمر يخامر أن ينادى على الخصمين (المذكورين) فلما كرَّر المنادي الدعاء بالاسمين صاح ابن الشّمر: نزولهما من علامات الساعة، وكتب في بطاقة شعراً، منه:

يخامِرُ ما تنفكّ تأتي بفضحةٍ ... دعوتَ ابنَ مَتّى والمسيحَ بنَ مَرْيَما

قفاك قفا جحشٍ ووجهك مظلم ... وعقلك ما يسوى من البعر درهما!..

وسيتعرَّض يحيى بن حكم الغزال[٣] ليخامر هذا أيضاً بالدُّعابة القاسية.

وممّن شارك في الهجاء محمد بن يحيى الشهير بلقب القلفاط (ت ٣٠٢ هـ)، وكان صديقاً لابن عبد ربّه. ثم انقلبت الصداقة إلى عداوة، واشتركا معاً في الهجاء!

وخَفّ الهجاء في القرن الرابع في مدة الناصر، وابنه الحكم المستنصر، وأيام سطوة المنصور بن أبي عامر.

وظهر الهجاء ثانيةً مع دول الطَّوائف في قضايا شخصيّة، أو قضايا عامّة كالظّلم، والهزيمة في الحرب، والخلل الإداري...

وهذا أبو عامر الأصيلي يقول:

---

(١) جذوة المقتبس (المصرية) ٣٣٠، بغية الملتمس ٤٥٦، الوافي بالوفيات ٩٤/٦

(٢) المقتبس لابن حيان ٦٥، ٤٧٧، والمغرب ١٢٤/١، وطبقات اللغويين والنحويين ٢٨٠، وجذوة المقتبس (رقم ٥٠٥)، وبغية الملتمس: ٣٠٤

(٣) أفردناه بترجمة مُستقلّة.

أرى الأَوغـــاد يعتمـــرون دُوراً ومـــالي في بـــلاد الله دارُ!
أجـــولُ فـــلا أرى إلا رعاعـــاً كبـارُهم إذا اختُـبروا صغـارُ!

وأثار ابن النغريلة حماسة الشعراء لهجائه والتحريض عليه. وكان صاحب غرناطة باديس قد اختار ابن النغريلة اليهودي كاتباً له. فاشتطَّ في حكمه، واختلس الأموال، وأفسد في الأَرض، وتآمر ـ سرّاً ـ على قتل وليّ عهد باديس لأنّه كان يكرهه، وأَنْفَذ مؤامرته. واحتاج الأمر تنبيه الحاكم باديس بمبادرات العلماء والفقهاء، وظهور قصائد تعرّي أعمال الكاتب غير الأَمين؛ وممن شارك في هجاء ابن النغريلة السُّمَيْسر، وأبو الحسن يوسف بن الجدّ، ومن شعر ابن الجدّ:

تحكّمـت اليهـود علـى الـبروج وتـاهت بالبغـال وبالسُّـروج
وقـامت دولـة الأنـذال فينـا وصـار الحُكْـمُ فيهـا للعُلـوج
فقـل للأعـور الدّجـال هـذا زمـانك إن عزمـت علـى الخـروج

فقد صار هذا الكاتب ـ الذي هو بمنزلة كبير الوزراء ـ متحكماً في أمور المُسلمين رجالهم ونسائهم، واستغل مركزه ليحتجن من الأموال والرياش ما يتيه به على الناس. وهذا الذي يجري في غرناطة يرشح لظهور الأعور الدّجّال، وقُرْب نهاية الدُّنيا!

ـ وقد عَبَّر خلف بن فَرج الإِلبيري[1] (السُّمَيسر) عن غضبته على المتهاونين من ملوك الطّوائف، الغارقين في ملذاتهم، وقد تركوا شؤون النّاس، وأهملوا الدّفاع عن الأرض فقال فيهم دون تسمية واحد معين، في حملة شاملة[2]:

نـادِ المُلـوكَ وقُـل لهُـمْ مـاذا الـذي أحدثتـمُ؟
أسـلمتم الإسـلام في أسـر العـدا وقعدتُـمُ

(١) انظر: الذخيرة ٨٨٢/١، وجذوة المقتبس: ١٩٣، والمطرب: ٩٣، والمغرب ١٠٠/٢، ونفح الطيب ٢٢٧/٣
(٢) الشعر في الذخيرة ٨٨٥/١

وجـــب القيـــام عليكـــم إذْ بالنصـــارى قُمْتـــمُ
لا تنكـــروا شـــقَّ العَصـــا فعَصـــا النـــبيّ شـــقَقْتمُ

وكان السُّميسر مولعاً بهجاء المقصّرين والمفسدين، وكل من يظن أنه ليس على المنهج المرضيّ، وألّف كتاباً في ذلك سمّاه (شفاء الأمراض في أخذ الأعراض) وعرَض بحاكم غرناطة عبد الله بن بلقّين في قوله:

يبـــني علـــى نفســـه ســـفاها كأنـــه دودة الحريـــر

فقد انشغل ببناء قصر عظيم (قلعة) في وقت يحتاج فيه الناس في الأندلس إلى تهيئة الجيوش ضد هجمات الدول الشمالية، والعناية بشؤون الرعية الذين بهظتهم الضّرائب والإتاوات.. وقد هدّد بلقين الشاعرَ فلجأ إلى حضرة المعتصم ابن صمادح صاحب المريّة.

ـ وعلا صوت الفقيه الزّاهد أبي إسحاق الإلبيري[1] ضدّ ابن النغريلة، وأنشد قصيدة طويلة مجلجلة الصَّوت؛ حفظها الناس، وكانت في أهمّ المحرّضات على الثورة العارمة لأهل غرناطة، والتي انتهت بمقتل ذلك المتنفذ السّيء السُّلوك والمفسد في الأرض، ومن شعره المذكور[2]:

ألا قـــل لصنهاجـــةٍ[3] أجْمعـــينْ بـــدُور النـــديّ وأُســـد العريـــنْ
لقـــد زلَّ ســـيِّدكم زلّـــةً تقـــرُّ بهـــا أعـــين الشّـــامتينْ
تخـــيَّر كاتبـــه كـــافراً ولـــو شـــاء كـــان مـــن المســـلمين

(١) له ذِكر في هذا الكتاب في شعر الزُّهد، وله ترجمة مفردة.
(٢) ديوان الإلبيري ـ تحقيق محمّد رضوان الدّاية ـ الطبعة الثالثة: ١٠٨
(٣) صنهاجة قبيلة بربرية ينتمي فيها حكّام منطقة إلبيرة التي عرفت في ما بعد بمنطقة غرناطة؛ فإنهم هم الذين نقلوا حاضرة الإقليم من مدينة إلبيرة إلى غرناطة.

وأعلن الإلبيري صراحة أن الحلَّ هو التخلص من هذا الكاتب الفاسد، الـذي قويت شوكته، وصار يتصرّف بالمملكة كلّها على حين غاب عن باديس مفاسد كاتبه، وجازت عليه مؤامراته المتواصلة.

وفي شعراء الهجاء عبد الله بن سارة (ويقال: صارة) الشنتريني[(١)] (ت ٥١٧) الذي يخاطب فقهاء السُّوء الذين يتسترون بالرّياء، ويتظاهرون بالصّلاح، والذين يأكلون الدنيا بالدين؛ وفي ذلك قوله:

أهـل الريـاء لبستـمُ ناموسـكم ... كـالذّئب أدْلَـج في الظـلام العـاتم
فملكتـمُ الدنيـا بمذهـب مـالكٍ ... وقسـمتمُ الأمـوال بـابن القاسـم
وركبتـمُ شـهب الـدّواب بأشـهب ... وبـأصبغ صبغـت لكـم في العـالم

وقد علق د. ضيف على هذه القطعة بقولـه: إن الشـاعر يتّهمهـم بـالمراءاة وأكل الأموال بالباطل، ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمته المصريّين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس، واتّخذوا كتبهم مصدراً لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم (ت ١٩١)، وأشهب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤)، وأصبغ بن الفَرج (ت ٢٢٥)[(٢)].

وفي الهجائين الأعمى المَخْزُومي (أبو بكر محمد)[(٣)]، وقد لقّب ببَشّار الأندلس الذي عرف بكثرة الهجاء، واستطالة لسانه على الناس؛ وجعله ابن سعيد في منزلة الحطيئة ((لم يسلم من هجوه أحد!)). وروي أن جدّه عبد الملك ابن سعيد صاحب قلعة يَحْصُب سأل مرّة عن الأعمى المذكور متى يَرْحَلُ ـ وكان زائراً في البلدة، لكي يُكرمه ويحمّله من عطائه ـ فأخطأ المُرْسَل أداء الرسالة، ممّا حفز الشاعر على الإسراع إلى التّعليق بلسان الهجاء:

---

(١) انظر: الذخيرة ٢/٨٣٤، وخريدة القصر (قسم الأندلس) ٢/٣١٥، وقلائد العقيان ٢٦١، وبغية الملتمس ٣٢٥

(٢) الأندلس: ٢٢٧

(٣) المُغرب ١/٢٢٨، والإحاطة ١/٤٢٤؛ ٣/٢١٦

لا تَرْجُوَنَّ بني سعيد للندى ... فالظّلُّ أفيدُ منهمُ للسّائل!
قومٌ مصيبتهم بطلعةِ وافدٍ ... وسرورهم أبداً بخيبة راحلِ!..

وهو هجاء مرٌّ، صدر من الأعمى المخزومي على البديهة وحمّله برسالة إلى عبد الملك بن سعيد!

ـ وفي هجّائي الأندلس أبو بكر يحيى بن سهل اليَكّي[1] (من يكّة شمال مُرْسِيَة) الذي شُبّه بابن الرّومي، ومن شعره قوله في أحد مهجوّيه:

أعدِ الوضوءَ إذا نطقتَ بهِ ... متذكراً من قبل أن تنسى
واحفظ ثيابكَ إن مررت به ... فالظلُّ منه ينجّس الشمسا!..

ـ وفيهم أبو الحسن عليّ بن عبد الرحمن، عُرف بابن حَزْمون[2]، ومن أخباره أنه قصد الوزير أبا سعيد بن جامع، وانتظر طويلاً فلما أعاد السؤال عنه قالوا: إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد فيه:

نعوذ بالله من وجد ومن بَيْنِ ... ومن وقوف على دار ببابين
ومن زيارة أرباب بلا عددٍ ... لا يملكون حياتي لا ولا حَيْني
إني وجدتُهم لما رجوتُهم ... كالرّيح تطلبها ما بين كفّيْنِ!

وهجا ابن حَزْمُون نفسه فقال من قطعة:

تأمّلتُ في المرآةِ وَجْهي فَخِلْتُهُ ... كوجهِ عجوزٍ قد أشارتْ إلى اللّهْوِ
إذا شئت أن تهجو تأمّلْ خليقتي ... فإنّ بها ما قد أَرَدْتَ من الهَجْوِ!

---

(١) زاد المسافر لصفوان بن إدريس ٧٧، والمغرب ٢/٢٦٦، والخريدة (قسم الأندلس) ٣/٥٨٠، وبُغية الملتمس: ١٨٨

(٢) المُعجب ٣٧٠، وزاد المسافر ٦٤، والمُغرب ٢/٢١٤، وأزهار الرياض ٢/٢١١

الفخر

دخل شعر الفخر الأندلس مع الوافدين إليها، والفاتحين لها. ونقرأ في شعر عبد الرحمن الداخل من قصيدة؛ يفخر بنفسه ويردّ على من نسب الفضل في إمارة عبد الرحمن إليه، وعلى من زعم أنّ سعدَ عبد الرحمن (حظّه) لاعقله هو الذي أنجح دعوته، قال:

لا يُلْفَ ممتنٌ علينا قائلٌ لولاي ماملك الأنامَ الداخل

سَعْدي وحَزْمي والمهندّ والقنا ومقادرٌ بلغَتْ وحالٌ حائلُ..

ويقول قوم: سَعْدُه لا عقله خير السَّعادة ما حماها العاقلُ...

- وفي شعر الحكم بن هشام (عُرِف بالحكم الربضي ١٨٠-٢٠٦هـ) بعد أن قضى على ثورة الرَّبض الجنوبي بقرطبة ضدّه:

رأبْتُ صدوعَ الأرض بالسّيف راقعا وقِدْماً لأمْتُ الشَّعْب مذ كنتُ يافعا

فسائل ثغوري هل بها اليوم ثلمةٌ أبادرها مُسْتنضِيَ السيف دارعا؟

- ويقول ابنه الذي ولي الإمارة بعده عبد الرحمن بن الحكم (عُرِف بالأوسط ١٧٦-٢٣٨هـ) من قصيدة يعتذر فيها إلى زوجته لطول غيابه في جهاد العدوّ بأرض جيليقية:

عداني عنك مزارُ العِدا وقَوْدي إليهمْ لهاماً مَهيْبا[1]

كأنّي تخطيتُ من سَبْسَبٍ[2] وجاوزتُ بعد دروبٍ دروبا

أُلاقي بوجهيَ حَرَّ الهجير إذا كاد منه الحصى أن يذوبا

أنا ابنُ الهشامين[1] من غالبٍ أشبُّ حروباً وأُطفي حروبا

---

(١) اللّهام: الجيش العظيم.

(٢) السبسب: المفازة، والأرض المستوية الممتدة بعيداً

بـــيَ ادّارك ا للهُ ديـــن الهـــدى فأحييتُـــه وأمـــتّ الصّليبـــا
وســرتُ إلى الشــرك في جحفــلٍ مــلأتُ الحــزون بــه والسُّــهوبا

ـ وحين ثارت العصبية بين العرب والمولّدين كثر شعر الفخر والهجاء، ومن شعراء العرب: محمّد بن سعيد الأسدي، ومن شعره قوله يردّ على العَبْلي شاعر المولّدين:

منازلنـــا معمـــورةٌ لا بلاقـــعُ وقلعتنـا حصنٌ مـن الضيـم مـانِعُ
ألا فـــأذنوا منّـــا قريبـــاً بوقعـــةٍ تشـيبُ لهـا ولدانُكـم والمراضِـعُ!

ـ وظهر في هذه المدة سعيد بن جُودي (وله ترجمة مفردة في هذا الكتاب).

ـ وكان نزار الفاطمي المتلقب بالخلافة قد بعث إلى المستنصر (الحكم بن عبد الرحمن ٣٥٠-٣٦٦هـ) كتاباً يشتمه فيه ويسبّه، فكتب إليه الحكم الأموي هذه العبارة مع بيتين من الشعر، فقال له: ((أمّا بعد فإنك عرفْتَنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك:

ألسـنا بـني مـروانَ كيـفَ تبدّلـتْ بنـا الحـالُ أو دارتْ علينـا الدّوائـرُ؟
إذا ولــد المولــود منــا تهلّلــت له الأرضُ واهتزّت إليـه المنـابرُ))[٢]

فأَبْلَس المستنصر الفاطمي، ولم يحر جواباً على المستنصر الأُموي.

ـ وتعرّض ابن حزم لمضايقات عدد كبير من أهـل زمانـه مـن الفقهـاء الذيـن حسَدَوه ونفسوا عليه علمه ومؤلفاته، ومن الحكام من سـايروا الفقهـاء وتقربـوا إليهم بإزعاجه، فقال من قطعة حسنة جدّاً:

أنـا الشـمسُ في جوّ العلـوم منـيرةٌ ولكــنّ عيـبي أنّ مطلعــيَ الغَـرْبُ
ولو أنّني مــن جـانب الشّرق طـالعٌ لجدَّ على ما ضاع من ذِكري النهـب

(١) المشامان: هشام بن عبد الرحمن (الداخل) وهشام بن عبد الملك.
(٢) نفح الطيب ٣/٥٥٨

يقول إنه: ((لا كرامة لنبي في قومه))، و((زامر الحيّ لأيطرب)) ولو كان من أهل المشرق لتلقى الأندلسيون كتبه بالقبول، وشخصه بالتكريم!..

- وفي ملوك عصر الطوائف الأمراء **عبد الملك بن هُذَيل**. حكم أبوه هذيل منطقة السَّهْلة (بين طليطلة وسَرَقُسطة). تولى بعد أبيه سنة (٤٣٦هـ) ووصف بأنه ((كان غيثاً في الندى وليثاً في العدا)). ومن شعره.

أنا مَلْكٌ تجمّعت فيَّ خمسٌ كلُّها للأنامِ مُحْيي مُمِيْتُ
هي: ذِهْنٌ، وحِكمةٌ، ومَضاءٌ وكلامٌ في وقتهِ، وسكوتُ!

ويظهر أثر الحداثة والحضارة في هذه الخمسة التي تجمعت في الشاعر الأمير، التي يمدح بها نفسه، ولم يورد من الأركان الثلاثة القديمة في معاني المديح شيئاً أعني: الكرم، والشجاعة، والنّسب. وإن كانت كلمة المضاء في البيت الثاني قد تُدْخِلُ عنصر الشجاعة تحت مظلّتها.

- ويفخر ابن خفاجة بنفسه، وبنفر من صحبه الذين يراهم على شاكلته من أهل بلده (شُقر):

مَضَاء كما سُلّ الحُسام من الغِمْدِ وبأسٌ كما طارَ الشَّرارُ من الزَّنْدِ
تساقَوْا وما غيرُ النَّجيعِ سُلافةٌ تدارُ ولا غيرُ الأسنّة من وِرْدِ[1]
وإنّي - على أنْ لستُ صدر قناتِهِمْ لَخِدْنُ العلا تِرْبُ النّدى لِدَةُ المجدِ
أخوض الظُّبا تَخْضَرّ في النّقع بِيْضُها فألقى المنايا الحُمْرَ في الحلل الرُّمْدِ[2]

وهو فخر على الطريقة العربية البدوّية، يستحضر الشاعر معانيه كما يصطنع أدواته وأساليبه.

---

(١) النجيع: الدم.
(٢) الظّبا جمع ظُبة وهي الحدّ من السيف وغيره.

ـ وفي شعراء ملوك بني الأحمر يوسف الثالث (٨١٠ـ٨٢٠هـ) ومن شعره يفخر بنفسه، وشجاعته، وجهاده:

راقَ الزّمانُ وجاءنا ميقاتُهُ ... بالضحّوْةِ الغَرّاء من أيّامِه
نَأْتَمُّ في حرب الصليب وحزبه ... بشفيعِ كلّ موحّدٍ وإمامِه

وقولُه:

لقد علمتْ نَصْرٌ بأنّي كفيلُها ... إذا هاجت الهيجاء واحمرّت الأرضُ
أدافعُ عنهم بالصّوارم والقَنا ... وأَحمي حماها أن يُنال لها عِرْضٌ
بنا ساعة الهيجاء يَحْمى وطيسُها ... وتُهتك أستَارُ البغاةِ إذا انقضّوا
إلى عِترة الأنصار تُعْزى أَرُومتي ... إلى معشرٍ في الذّكر حبُّهُم فَرْضُ

فهو يشير إلى جانبي الفخر: أحدهما: الفخر بقومه من الأنصار (فهم ينتمون في سعد بن عبادة) والثاني الفخر بنفسه وشخصه فهو يحمي قومه، ويحمي الشعب الذي التفّ حوله؛ وسرد في مقاصد الفخر النسب والشجاعة، ورسوخ المكانة.

الزُّهد:

عرف الشعر الأندلسي غـرض الزُّهـد، في جملـة الأغـراض الشـعرية المألوفـة، وكان ابن أبي زَمنِين، من رجال القـرن الرّابـع، أحـد الذيـن طرقـوا هـذا الفـنّ. وكان الشعر الزهدي يتردّد على قلة عند بعض الشعراء على وجه تلقائي غالبـاً، تقف وراءه خطَراتُ الشّعراء، وظروف الحياة بعد التقدّم في السن، والملاحظات العابرة لوجوهِ الحياة الـمُختلفة.

وكان القرن الخامس الهجري، في ظل دول الطوائف، منطلقاً لعدد غير قليـل من الشعراء لنظم شعر الزُّهـد، ونجـد بعـض الشـعراء الذيـن غلـب الزُهـد علـى دواوينهم أو مجموعاتهم كأبي إسحاق الإلبيري.

وظروف القرن الخامس من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية أيضـاً ـ سمحتْ بمثل هذا الاستغراق في شعر الزُّهد، فقد شحذتْ هذا النّوعَ من الشّـعر: ((فَوْضى الحياة السياسية، وزادت في حُبّ الخلاص لدى الفرد من غوائل الحياة، وشجّعته على طلب النّجاة لنفسه حين كـان يـرى الأوضـاع الاجتماعيـة تـزداد سوءاً، وأصبح الزُّهد لدى بعض أصحابه مذهباً أدبياً أخلاقياً معاً كما كان عنـد أبي العتاهية في المشرق))[(١)] .

١ـ ومن الشّعراء الذين مالوا إلى القول في الزُّهد أبو **القاسم السُّمَيْسر**: وكـان زُهده باللّسان دون الاعتقـاد بـه والاعتمـاد لـه مذهبـاً؛ لقـد زَهِـد شـعره حـين قصّرت أحوالُه عن مطالِبه، ومن شعره في الدّنيا وحقيقة موقف الناس منها:

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين: د. إحسان عباس ١٣٠.

لله في الدُّنيا وفي أهْلِها مُعَمّيَاتٌ قد فككْناها[1]
من بَشرٍ نحنُ فمن طَبْعِنا نُحِبُّ فيها المالَ والجاها
دَعني من الناسِ ومن قولِهمْ فإنما الناسكُ خَلاّها
لم تُقبل الدنيا على ناسكٍ إلا وبالرَّحْبِ تلقّاها
وإنما يُعْرِضُ عن وَصْلِها مَنْ صَرَفَتْ عنه مُحيّاها!

وهذا موقف صريح جداً، بالغُ الإسراف في التَّعميم، وقياس الناس على مثال واحد؛ وهو موقفٌ مبني على ((سوء الظن بالناس، وعدم الاطمئنان إليهم))[2] .

وهو القائل:

جُمْلةُ الدنيا ذَهابُ مثلما قالوا سَرابُ
والذي فيها مَشَيدٌ فَخرابٌ ويَبابُ
وأرى الدهرَ بَخيلاً أبداً فيه اضطِرابُ
سالبٌ ماهو مُعطٍ فالذي يُعطي عَذابُ
وليوم الحشرِ إنعامٌ: سؤالٌ وجوابُ
فاتّق الله وَجنْب كلَّ مافيه حسابُ

وهو يدعو الناس إلى القناعة والرضى بالكفاف، والبعد عن الإسراف:

دع عنكَ جاهاً ومالاً لاعيشَ إلاّ الكفافُ
قوتٌ حلالٌ وأمنٌ من الردّى وعفافٌ
وكلّ ماهو فضلٌ فإنه إسرافُ!

(الفضل: الزيادة).

(١) معمّيات أمور فيها خَفاء، وتحتاج إلى ذكاء وبراعة لاستخراج مقاصدها.

(٢) عصر الطوائف والمرابطين ١٣٥.

٢ـ وقد تكون الفلسفة ــ لاالتَّقوى ــ مصدراً من مصادر الشعر الزهدي كالذي تجده عن **ابن الحدّاد**[1] الذي كان من مُدّاح المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيّة، ومنه قوله:

لزمتُ قناعتي وَقعدت عنهُم ... فلستُ أرى الوزير ولا الأميرا

وكنتُ سمير أشعاري سَفاها ... فَعُدْت لفلسفيّاتي سَميرا

٣ـ ومن الشعراء الزهّاد من صَدروا في شِعرهم الزهدي عن قناعةٍ ورأي. وهي فئة من ((العلماء الأتقياء العاملين بعلمهم))[2] ابن الرّيوالي ومن شعر الزهدي:

يا مُعجباً بعلائه وغنائه ... ومطوّلاً في الدهرِ حبلُ رجائِه

كم ضاحكٍ أكفانُه منشورةٌ ... ومؤمّلٍ والموتُ مِنْ تلقائِهِ

ومنه:

أيّامُ عُمرِكَ تذهَبُ ... وجميع سَعيكَ يُكتَب

ثُمّ الشَّهيد عليك منـ ... ـكَ فأينَ أينَ المهْرَبُ؟

وممّن نحا هذا المنْحى **أحمد الإقليشي**، وكان زاهداً عازفاً عن الدُّنيا ومن شعره قصيدةٌ يتوجّه فيها بالحديث إلى نفسه في مناجاة يشوبها شيءٌ من التلوُّم، على عادتهم في تضخيم الذُّنوب أو اعتداد الهفوات، أو تسجيل التقصير وعدّه من الذنوب، ومنها قوله:

ثلاثون عاماً قد تولّت كأنها ... حلومٌ تقضّتْ أو بروقٌ خواطِفُ

وجاء المشيبُ المُنذِرُ المرء أنهُ ... إذا رحلتْ عنهُ الشبيبةُ تالفُ

فيأحمدُ الخوّانُ قد أدبرَ الصِّبا ... ونادَاكَ من سنّ الكهولةِ هاتفُ

فهلْ أرّق الطرف الزمانُ الذي ... وأبكاه ذنبٌ قد تقدَّم سالفُ؟

فجُد بالدموع الحُمْرُ حزْناً وحسرَةً ... فدمعُكَ يُنبي أن قلبْكَ آسفُ

---

(١) انظر كلاماً عنه في شِعر (الغزل) من هذا الفَصل (الثاني).

(٢) عصر الطوائف والمرابطين ١٣٢، وانظر مصادره ثمة.

ومن أصحاب هذا الاتجاه: **علي بن إسماعيل الفهري القرشي، ويعرف بأبي الحسن الطّيطل** وكان أهل زمانه يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه ـ كما نقل ابن بسّام ـ.

ومن شعره الزُّهدي:

ياغافلاً شأنُهُ الرُّقادُ	كأنما غيرُكَ المُرادُ
والموتُ يرعاكَ كلّ حيْنٍ	فكيفَ لَمْ يجفُكَ المِهادُ؟

وفي هذه القصيدة:

ماحالُ سفْرٍ بغيرِ زادٍ	والأرضُ قفْرٌ ولامزادُ
ضَمِّرْ جواداً ليومِ سبْقٍ	لمثلهِ يُرفعُ الجوادُ
أينَ فلانٌ وكم فلان	قد غُيِّبوا في الثرى فبادوا؟
لاتبغِ دُنيا فإنّ عَنْها	المؤمنِ التقي يُذادُ
فابْنِ بها بالتُّقى بُروجاً	تأمنْ إذا رُوِّعَ العبادُ
واعتبرِ الأرضَ كيفَ مدَّتْ	فهي لهذا الورى مهادُ
ثمّ السماءَ التي أظلّتْ	قد رفِعتْ مالها عمادُ
كما بناها يبني سِواها	كما بَدأنا كذا نُعادُ

وهؤلاء الشعراء من رجال القرن الخامس. وقد جلّى في هذه المدة شاعران آخران هما **ابن العسال وأبو إسحاق الإليبري**، ونقف عند أبي إسحاق الإلبيري الذي ترك ديوانَ شعرٍ مهمّاً في هذا الموضوع(١).

---

(١) طبع الديوان قديماً طبعة استشراقية، ثم حقّقتهُ، وطُبعَ في مؤسّسة الرّسالة ثم في دارقتيبة، واستقرّ في دار الفكر. انظر الطبعة الثالثة منه بدار الفكر.

الإلبيري[*]: هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبي، الإلبيري. نسبة إلى مدينة إلبيرة في جنوب الأندلس. أحد العلماء الصُّلحاء الزُّهاد. ولد في أواخر القرن الهجري الخامس وأدرك مدّة منه، وعُمر إلى نحو سنة (٤٦٠هـ). ونعرف من أخباره أنه اشتغل بالكتابة مدة من الزمن، كتب لبعض القضاة.

وفي فتُوته أو شبابه الأول، انتقل مركز المنطقة من مدينة إلبيرة إلى مدينة غرناطة، حين أدار شؤونها بنو زيري المتغلبّون عليها في مدة الفتنة، وفي عصر الطوائف. فرثى مدينة إلبيرة بقصيدة مدونة في ديوانه.

وقد تنبه أبو إسحاق إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي أظلّت الأندلس في مدة الفتنة القرطبية، ومدة دول الطوائف. وسجل ملاحظاته وخطراته ومواقفه في ثنايا قصائده ومقطعاته.

ويغلب على شعره الزُّهد. وهو زهد العالم، الصالح، المتورّع. ولكنه لم يكن منقطعاً عما حوله، وإن كان زاهداً في المتع والمناصب وأعراض الدنيا جميعاً. ومن هنا نفهم هُجومه على الإسراف والتبذير، والانغماس في الشهوة، والاسترسال في مطالب الحياة التي لاتنتهي: (مهاجمة المجتمع المستهلك المترف).

ونفهم موقفه الصُّلب من تسلط الوزير اليهودي ابن النغريلة وجماعته على دولة بني زِيْرِي، وعَيْثهم في الأرض والناس فساداً.

ويشترك الإلبيري مع معاصره ابن العَسّال ـ كما يقرر الدكتور إحسان عباس بحقّ ـ في الوعي السياسي، فقد قال فيهما[(١)]:

إنّ هذين الزّاهدين كانا أشدّ الناس إحساساً بسوء الأوضاع السياسيّة في وطنهما. فبكى ابنُ العسّال سقوط مدينة بَرْبَشتر ثم سقوط طليطلة، وكان

(*) انظر مقدمة ديوان أبي إسحاق الإلبيري ـ الطبعة الثالثة ـ دار الفكر دمشق.

(١) عصر الطوائف والمرابطين ١٣٦.

الإلبيري صاحب الدعوة إلى ثورة صنهاجة ضد تسلط اليهود بعامة وابن النّغريلة بخاصة في شؤون دولة بني زيري، وكانت قصيدته[1]:

ألا قُــــلْ لصنهاجـــــة أجمعـــــينْ   بــدُورِ النَّــدِيّ وأُســدِ العريــــنْ

الشرارة التي أذكتْ نار الثورة يومئذ، وبسبب صراحتَه ووقوفه وقفة صلبة، نفاه باديس قبل تلك الحادثة من غرناطة إلى إلبيرة.

وتبقي لقصائد أبي إسحاق الإلبيري مزايا خاصّة تلوّنه بلون شخصي متميّز، وتظهر منها جوانب شخصية واضحة بارزة.

اتجاهات شعره:

١ـ يغلب على الديوان غرض الزُّهد، فكأنّ الديوان مذكرات شخصية يتوجه فيها الشاعر بالخطاب إلى نفسه أولاً، ويتحدث فيها عنها. ثم تكون الملاحظات الأخرى التي تتناول أطراف الحياة، وجوانب المجتمع.

ويُعَدّ أبو إسحاق الإلبيري في الأندلس من أشهر شعراء الزُّهد، وهو أهم شعراء الزهد في هذه المدّة. وديوانه ـ وإن لم يصل إلينا كاملاً كما يبدو ـ يمثّل هذا السَّبق في غرض الزُّهد، ويصوّر شخصيةَ الشّاعر، وانعكاسَ أحداثِ عصره في نفسه وشخصه أيضاً.

٢ـ وفي الديوان القصيدةُ المهمة التي أشرنا إليها قبل، والتي لام فيها باديس حاكم غرناطة على تفريطه، وحَرَّض على المتسلط الظالم ابن النَّغْرِيْلَة، وكانت شرارةً ألهبت الثورةَ التي أدّت إلى مقتل الوزير المذكور، وغيّرت وجه تاريخ المنطقة.

وهذا وجهٌ ثَوري في شخصية الإلبيري، وتقويمٌ جديد لشاعر الزُّهد الذي اشتهر في القرن الرابع وماوراءه.

---

(١) انظر القصيدة، وهي طويلة في ديوانه، وفي (المختار من الشعر الأندلسي) لمحمد رضوان الداية ـ الطبعة الثالثة، دار الفكر ـ دمشق.

٣ـ وشعره معرض لتأملاته في الحياة من خلال أحداثها المعاصرة لـه. وهـو ـ وإن لم يذكر حوادث كثيرة بأعيانها ـ فإنه كان يشير إشارات دالّة كثيرة.

• وقد فاضل كثيراً بين العلم من جهة والمال والجاه مـن جهـة ثانيـة. وفضّـلَ العلم باستمرار، وجعله المقـدَّم في الدنيـا والآخـرة. ومـن ذلـك قولـه[1] يخـاطب شخصاً يكنى أبا بكر:

أبـا بكـرٍ دعوتُـكَ لـو أجَبْتـا إلى مافيـهِ حَظُّـكَ إن عقَلْتـا
إلى علـمٍ تكـونُ بـهِ إمامـاً مطاعـاً إن نهيـتَ وإن أمرْتـا
وتجْلُـو مـا بعينـكَ مـن عشَـاها وتهديـكَ السـبيلَ إذا ضلَلْتـا
وتحمـلُ منـه في نـاديكَ تاجـاً ويكسـوكَ الجمـالَ إذا اغْتَرَبْتـا
ينـالكَ نفعُـهُ مـادمتَ حيّـاً ويبقـى ذُخـرُهُ لـكَ إن ذهبتـا

وفي شعره في هذا المنحى قوله[2]:

لاشيءَ أخسرَ صفقَـةً مـن عـالمٍ لعبـتْ بـهِ الدُّنيـا مـعَ الـجُهّالِ
فغـدَا يفـرّق دينـهُ أيـدي سَـبا ويُزيلـهُ حرصـاً لجمـعِ المـالِ

•وتَغلغل في أعماق النفس ـ ضاربـاً المثل غالبـاً مـن نفسـه ـ وسَجّل آراءه ومطالعاته الذاتية، ومن ذلك قوله[3]:

مـا أميـلَ النفـسَ إلى البـاطلِ وأهـونَ الدُّنيـا علـى العـاقلِ
تُرضـي الفتـى في عـاجلٍ لـذَّةٌ لـو خسِـرَ الجنـةَ في الآجـلِ
يبيـعُ مـا يبقـى بمـا ينقضـي فعـلَ السـفيهِ الأحمـقِ الجـاهلِ

---

(١) ديوان الإلبيري ٢٦.

(٢) الديوان ٤٠.

(٣) الديوان ٥٧: قالها يعرّض برجل من الفقهاء.. (وهو يعني واحداً من فقهاء السُّوء كما دعاهم في الإحياء).

• وقد يدخلُ إلى مقاصده من باب مخاطبة العقل لا من باب ملامسة العواطف، كقوله:

أنتَ المخاطبُ أيها الإنسانُ ... فَأصغْ إليَّ يَلُحْ لكَ البُرهانُ
أودِعْتَ ما لو قلتهُ لكَ قلتَ لي ... هذا لعمركَ كلُّه هذَيانُ!
فانظر بعقلكَ من بنانكَ واعتبر ... إتقانَ صنعتهِ فثمّ الشّانُ!

٤ـ وفي شعره ملامح نزعةٍ إنسانيةٍ عميقة؛ ونجد أمثلة لذلك في رثاء مدينة إلبيرة، وفي أثناء رثائِه لزوجته، وفي توجيهه الخطاب إلى الإنسان ـ أين كان وأياً كان ـ. قال مثلاً في رثاء إلبيرة:

أتندبُ أطلالَ البلادِ ولا يُرى ... لإلبيرةٍ منهم على الأرض نادب
على أنها شمس البلادِ وأُنسها ... وكل سواها وحشةٌ وغياهبُ
وكم من مجيبٍ كان منها لصارخٍ ... تُجابُ إلى جدوى يديه السباسبُ
وكم من نجيبٍ أنجبتهُ وعالمٍ ... بأبوابهم كانت تناخُ الركائبُ
وكم طلعت منها الشموسُ وكم مشت ... على الأرض أقمارٌ بها وكواكبٌ
لعَهدي بها مبيضةَ الليلِ فاغتدتْ ... وأيامُها قد سوَّدتها النّوائبُ

وفي أواخر القصيدة:

لساءلتُ عنهم رَسْمَها فأجابني ... ((ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله ذاهبُ))

عناصر الزهد في شعره[1]:

يطول الحديث لو شئنا استقصاء عناصر الزهد في شعر أبي إسحاق الإلبيري والتدليل عليها، ولكننا نجمل تلك العناصر في أشياء رئيسية، فمن ذلك:

---

(١) انظر للتوسّع: ((أبو إسحاق الإلبيري زاهد الأندلس الثائر)) سلسلة الروائع الجديدة، محمد رضوان الدّاية.

١ـ التنفير من الانغماس في الدنيا، والدنيا عنده: عدوّ شرس يتخايل للإنسان في صور مُغرية مغْوِية، والذكي السعيد هو الذي لايخضع لإغراءٍ منها أو إغواء؛ فالدنيا لا يؤسف على شيء منها.

وما آسى على الدُّنيا ولكنْ   على ما قدْ ركبتُ من الذُّنوب

والدنيا تناديه فيعرض عنها:

نادَتْ بيَ الدنيا فقلتُ لها اقْصِري   ما عُدَّ في الأكياسِ مَنْ لبَّاكِ
مازلتِ خادعتي ببرقٍ خُلَّبٍ   ولو اهتديتُ لما انخدعتُ لذاكِ

وهي أمٌّ غير حانية تأكلُ أبناءها، قال:

لا كنتِ من أمٍ لنا أكّالةٍ   بعدَ الولادةِ، ما أقلّ حياكِ

وفي قصيدة أخرى:

لاشيءَ أخسر صفقةً من عالمٍ   لعبتْ به الدُّنيا مع الجُهَّالِ

٢ـ والتذكير بالموت، وأنه لابد منه، والتذكير بالآخرة الآتية لا محالة، فالدنيا ممرّ وليست مقراً، ومن شعره في هذا المقصد:

تغازلني المنيةُ من قريبٍ   وتَلْحظُني ملاحظةَ الرَّقيب
وتنشرُ لي كتاباً فيه طيّي   بخطّ الدَّهرِ أسطرهُ مشيبي
كتابٌ في معانيه غموضٌ   يلوحُ لكل أوّاهٍ مُنيبٍ..

.... وسيستهلك الموتُ كل شيء، حتى هذه الدُّنيا المغرية المتسلطة:

مهلاً عليك فسوفَ يَلحقكِ الفَنا   فتُرَي بلا أرضٍ ولاأفلاكِ!

ومثله قوله:

نحن في منزلِ الفناءِ ولكنْ   هو بابٌ إلى البقاءِ وسُلَّمْ
ورحى الموتِ تستديرُ علينا   أبداً تطحنُ الجميعَ وتهشِمْ

٣- ويكثر في شعره التلوُّم النّفسي، فقد جعل نفسه المثال الذي يعالج من خلاله مواقفه من الدّنيا والناس؛ ويتحسَّر على مافات من زمانه حين كانت الدنيا (تغازله) أو تشدُّه إليها... وإن لم يستجب لها.

قال مثلاً: (الديوان ٣٤)

فيالهفي على طُولِ اغتراري ويا وَيْحي من اليومِ العَصِيْبِ
إذا أنا لَمْ أُنحْ نفسِي وأبكي على حُوْبي بتهتانٍ سَكُوبِ[1]
فَمنْ هذا الذي بعدي سيبكي عَليها من بعيدٍ أو قريبٍ؟!

وقال: (الديوان ٤٩)

قد بلغتَ الستينَ ويحكَ فاعلمْ أنَّ مابعدَها عليكَ تلوُّمْ
فإذا ما انقضتْ سنوكَ وولت فصلَ الحاكمُ القضاءَ فأبرمْ
أنت مثل السجلِّ يُنْشَرُ حيناً ثم يُطوى من بعد ذاك ويُختَمْ

وكثيراً ما أضاف إلى نفسه الذُّنوب والأخطاءَ وماشابه ذلك من العبارات المماثلة؛ ويعلّل هذا، كما يظهر من حياته وشخصيته وسيرته بالتحرّج الشدّيد؛ قال مثلاً (الديوان ٥٣):

ومما شجاني والشُّجون كثيرة ذنوبٌ عِظامٌ أسْبَلَتْ عبرَاتي
وأقلقني أنّي أموتُ مُفَرّطاً على أنّي خَلّفتُ بعض لداتي
وأغفلتُ أمري بعدهم متثبّطاً فياعَجباً منّي ومن غَفَلاتي!

٤- الدعوة إلى الاكتفاء من عرض الحياة الدنيا بالضروريّ الكافي. والأخذ من الحلال وإن قلّ وجَفا، دون الحرام وإن كثُر وحلا؛ قال مثلاً (الديوان ٤٠):

فَخُذِ الكفافَ ولاتكن ذا فَضْلَةٍ فالفضلُ تُسألُ عنهُ أيَّ سؤالِ
ودع المطارفَ والمَطيَّ لأهلها واقنعْ بأطمارٍ ولبسِ نعالِ

---

(١) الحُوب: الإثم.

فَهُمْ وأنتَ وفَقْرُنا وغِناهُمْ لايستقرُّ ولايدومُ بحالِ

وله قصيدة لطيفة في هذا المنحى، كتب بها إلى ابن أبي رجاء الكاتب؛ وكان هذا الكاتب قد زارَ الشاعر في مرضِه فأنكرَ عليه بيته المُتَواضع، وعَرَض عليه ما يليقُ به من المسكن، قال:

قالوا ألا تستجدُّ بيتاً(١) تَعْجَبُ من حُسْنِه البُيوتْ؟

فقلتُ: ما ذلكمْ صَوابٌ حَفْشٌ كثيرٌ لمن يَمُوتْ

لولا شتاءٌ ولفحُ قيظٍ وخوفُ لصٍّ وحفظُ قوتْ

ونسوةٌ يبتغينَ سِتْراً بنيتُ بنيانَ عنكبوتْ!

نظرة في شعره

تعتمد صنعة أبي إسحاق الإلبيري الشعرية على إيراد المعاني واضحةً جلية، مكشوفة، وهذا مفهوم ـ وهو أيضاً طبيعي ـ من شاعر يدعو إلى فكرة، وينشرُ رأياً، ويدافع عن موقف؛ ومن هنا اتسم شعره بالعفوية والتلقائية والمباشرة.

ـ وهو أيضاً يسترسل وراء الفكرة ويشقّق الكلام فيها ويشبعها حديثاً. ولعله كان يصنع ذلك ـ بعد استيفاء المعنى ـ لغرض المناقشة والإقناع أيضاً.

ـ وقارئ ديوان الإلبيري يجده منسجماً بعضه مع بعض، ويصدر عن منهج واحد.

ومن هنا ـ أيضاً ـ كان وضوح شخصيته، وتقاربُ مآخذه، وانسياق عبارته على وجه خاصّ: فيه من الخطابة شيء، والحوار شيء، وأسلوب الإقناع شيءٌ آخر.

ونقول ـ بعدُ ـ: إنّ أُسلوب أبي إسحاق الإلبيري الشعري يعتمد على السُّهولة واليُسر والوضوح، ويأخذ من الألفاظ أقربَها وأيسرَها، ويجري في تراكيبه ـ عادةً ـ على أساليب قريبة جدّاً من لغة الكلام اليومي العادي: بساطةً ووضوحاً وتسلسلاً وبُعْداً عن أيّ تكلف أو تعقيد.

---

(١) ويروى: تستجيد.

وقد يعتمدُ في أسلوبه وفي سبك معانيه على مُعطيات مختلفة؛ كأخذه من الصّور الحربية، والألفاظ المناسبة لها، ومن ذلك قوله:

لو كنتُ في ديني من الأبطالِ ... ما كنت بالواني ولا البَطّالِ
ولبستُ منه لأمةً فضفاضةً ... مسرودةً من صالحِ الأعمالِ
لكنّني عطّلت أقواسَ التُّقى ... من نَبْلِها فَرَمتْ بغير نبالِ
ورمى العدوُّ بسهمِه فأصَابَني ... إذ لم أحَصّنْ جُنّةً لنضالِ
فأنا كمنْ يلقى الكتيبة أعزلاً ... في مأزِقٍ متعرّضاً لِنصالِ

ويكثر الإلبيري في شعره من استخدام أسلوب الحوار. وقد أعانه هذا الأسلوب على الاسترسال، وعلى بسط الرأي ومعالجة أفكاره معالجةً وافية. وكثيراً ما يكون الحوار (ذاتياً): مناجاةً. ولكن الأسلوب يبقى أسلوب حوار، قال مثلاً:

قد بلغتَ السّتين ويْحَكَ فاعلمْ ... أنّ ما بعدها عليكَ تلوّمْ

وفي شعره أيضاً، في هذا المقصد (الديوان ٥٩):

أنتَ المخاطبُ أيُّها الإنسانُ ... فأصِخْ إليَّ يلُحْ لكَ البُرهانُ

ـ وقد خرج عن قواعد القافية المألوفة، حين كرّر في قصيدتين[١] اثنتين كلمة واحدة في القافية، في كل قصيدة لم يغيِّرها، انتهى كل بيت في إحداهما بلفظ الجلالة: (الله) وانتهى كل بيت في القافية بكلمة: (النار): وأعطى هذا التجاوز[٢] القصيدتين نغمةً خاصّة مطربة، قال:

يا أيُّها المغْترُّ بالله ... فِرَّ منَ اللهِ إلى اللهِ

(١) انظر هاتين القصيدتين في الدّيوان؛ وفي كتابنا: المختار من الشعر الأندلسي، الطبعة الثالثة، دار الفكر ـ دمشق.

(٢) سمّيناه ((تجاوزاً))؛ مجاراةً للعروضيّين في ماشرطوه من علم القافية. انظر كتب العروض والقافية مثل: المعيار في أوزان الأشعار وذيله لابن السرّاج الأندلسي السشنتريني.
ـ ولنا كلمة مطوّلة في موضوع ((تكرار القافية)).

ولُـذْ بـه واسـألْهُ مـن فضلِـه   فقـد نجـا مـنْ لاذَ بـالله
وقُـمْ لـه والليـلُ في جنحـهِ   فحبَّـذا مـن قـام للهِ

وقال في الثانية: (الديوان ٨٥)

ويـلٌ لأهـل النّـار في النـارِ   مـاذا يُقاسـون مـن النّـار
تنقـدُّ مـن غيـظٍ فتغلـي بهـم   كَمِرْجَـلٍ يغلـي علـى النّـارِ
فيسـتغيثونَ لكـي يُعْتَبُـوا   ألا لَعـاً مـن عـثرةِ النـار!
وكلّهـم معـترفٌ نـادمٌ   لـو تُقبـل التوبـةُ في النـارِ!

ـ وأقدّم قصيدتين من ديوان الإلبيري تمثلان موقفه من الدُّنيا، وتعبّران أيضاً عن شعره، وأُسلوبه، وطريقة تناوله لموضوع من أهم موضوعاته؛ قال:

مـا أَمْيَـلَ النَّفْـسَ إلى البَـاطِلِ   وأَهْـوَنَ الدُّنيـا عَلَـى العـاقِلِ(١)
تُرْضِـي الفَتَـى في عـاجلٍ شَـهْوَةٌ   لـو خَسِـرَ الْجَنَّـةَ في الآجـلِ
يَبِيـعُ مـا يَبْقَـى بِمَـا يَنْقَضِـي   فِعْلَ السَّـفيهِ الأحْمَـقِ الجـاهِلِ(٢)
يـا مـنْ رأى لي واصِـلاً مُرْشِـداً   وإنِّـي أكْلَـفُ بـالواصِلِ(٣)
يـا مـنْ رأى لي عالِمـاً عـامِلاً   فـألزَم الْخِدْمَـةَ للعـامِلِ

---

(١) في كتاب الأغاني (١١٦/٢٢): كان معاوية يتمثل كثيراً إذا اجتمع الناس في مجلسه بهذا الشعر:

إنّـا إذا مـالت دواعـي الهـوى   وأنصـتَ السَّـامعُ للقـائل

...(الأبيات).

وكان عبد الملك بن مروان إذا جلسَ للقضاء بين الناس أقام وصيفاً على رأسه يُنشده:

إنّـا إذا مـالت دواعـي الهـوى   وأنصـت السـامع للقـائلِ
واصطـرع القـومُ بألبـابهم   نقضـي بحكـمٍ عـادلٍ فـاصلِ
لانجعـل البـاطل حقـاً ولا   نَلـطّ دون الحـق بالبـاطلِ
نخـافُ أن تسـفهَ أحلامُنـا   فتخمـلَ الدهـرَ مـع الخـاملِ

ثم يجتهد عبد الملك في الحقّ بين الخصمَيْن.

(٢) السَّفيه: من يبذر أمواله فيما لاينبغي.

(٣) كَلِف بالشيء: أُولع به ولهج.

أمْ مَــنْ رأى لي عالِمــاً ســاكِتاً ... وعَقْلُــهُ في عــالَمٍ جــائلِ
يَسْـرَحُ في زَهْـرِ ريـاضِ النُّهـى ... ليسَـتْ كَـروْضٍ مَـاحِلٍ ذابـلِ
يـارُبَّ قَلْـبٍ كَجَنـاحٍ هَفَـتْ ... قـد غـابَ في بَحرٍ بـلا سـاحِلِ(١)
يُصَـرِّفُ الْخَطْـرةَ مَذعُـورةً ... مِمَّـا يَـرى مِـن مَنظَـرٍ هـائلِ
آهٍ لِسِـرٍّ صُنْتُـه لَـم أجِـدْ ... خَلْفـاً لَـهُ قَـطُّ بِمُسْـتاهِلِ(٢)
هَـل يَقُـظٌ يَسـأَلُني عَلَّنِـي ... أكشِـفُهُ لليَقُـظِ السَّـائلِ(٣)
قـد يَرحَـلُ المـرءُ لِمَطلُوبِـهِ ... والسَّببُ الْمَطلُـوبُ في الرَّاحـلِ
لـو شُـغِلَ الْمَـرءُ بِتَركيبِـهِ ... كـانَ بـهِ في شُـغُلٍ شـاغلِ
وعـايَنَ الحكمـةَ مَجْمُوعَـةً ... ماثِلَـةً فِـي هَيكَـلٍ مـاثلِ(٤)
يـا أيهـا الغـافلُ عـن نفسـهِ ... وَيْـكَ أفِـقْ مِـن سِـنَةِ الغـافِلِ
وانظُـرْ إلى الطَّاعَـةِ مَشـهُورَةً ... في الفَلَـكِ الصَّـاعِدِ والنَّـازِلِ
والْحَـظْ بِعَيْنَيْـكَ أدِيـمَ السَّـما ... مِـن طَـالِعٍ فيهـا ومِـن آفِـلِ
كُـلٌّ عَلـى مَسـلَكِهِ لا يُـرَى ... عَـن ذلِـكَ الْمَسـلكِ بالمـائِلِ
لـو دَبَّـرَتْ أنفُسَـها لم تَغِـب ... واطَّلَـعَ النـاقِصُ كالكـامِلِ
وانظُـرْ إلى الْمُزْنَـةِ مشـحُونةً ... مُثقَلَـةَ الكـاهِلِ كالبـازِلِ(٥)

---

(١) هفا: أسرع: وهفا الطّائر خفق بجناحيه. قال في اللسان: ((جَمْعُه أجنحة وأجنح، حكى الأخيرة ابنُ جنّي وقال: كسَّروا الجناح ـ وهو مذكر ـ على أفعُل وهو من تكسير المؤنث لأنهم ذهبوا بالتكسير إلى الرِّيشة)). وقوله: ((كسّروا)) أي جمعوا الكلمة جمع تكسير.

(٢) آه أوها، وأوّها تأويهاً: قالها: (كلمة آه).

(٣) يقال رجل يقظ، بضم القاف وكسرها.

(٤) كذا رُتبت الأبيات في الأصل، وفي الروض المعطار، ويتسلسل الشعر منسوقاً لو تقدّم البيتُ الخامس عشر على سابقه. وعندها يكون (عاينْ) فعل أمر.

(٥) المزنة: تجمع على المزن. وهو السّحاب ذو الماء.

ـ والبازل: البعير الذي بلغ تسع سنين (وأصله من بزل البعير أي فطر نابه وطلع).

تَحِنُّ مِن شَوقٍ إلى وَقفَةٍ أو خَطرَةٍ بالبَلَدِ الماحِلِ
يالَكَ بُستانَ عُقولٍ بَدا لِعينِ قَلبِ المُؤمِنِ العاقِلِ
فَسِرُّ هذا الشأنِ لاينجَلي إلاّ لِعَبدٍ مُخلِصٍ فاضِلِ

ـ وقال، يذكر سُكناه حصن العقاب (قريباً من مدينة إلبيرة) معتزلاً النّاس، منقطعاً إلى العبادة:

أَلِفْتُ العُقَابَ حِذارَ العِقَابِ وعِفْتُ المَوارِدَ خَوفَ الذِّئابِ
وأبغَضْتُ نَفسِي لِعِصيانِها وعاتَبتُها بأشَدِّ العِتَابِ
وقلت لها بان عنك الصبا وجردك الشيب ثوب الشباب
ومابَعْدَ ذلِكَ إلاّ البِلى وسُكْنى القُبُورِ وَهَوْلُ الْحِسَابِ
فأَيْقَظَها العَتْبُ مِنْ نَوْمِها ولَكِنَّها جَمَّةُ الاضْطِرابِ
فَكَمْ أَنْشَأَتْ مُزْنَةً للتُّقى وعادَتْ وَشِيكاً كَلَمْعِ السَّرابِ
وكم وَعَدتْنِي بِتَوْبٍ وَكَمْ وما أنْجَزَتْ وَعْدَها في الْمَتابِ
وكم خَدَعَتْنِي عَلَى أَنَّنِي بَصيرٌ وبطرق الْخَطَا والصَّوابِ
فَلَسْتُ على الأمْنِ مِنْ غَدْرِها ولو حَلَفَتْ لي بِآيِ الكِتَابِ!

شعر التصوف

حين يذكر أعلام التصوف في الأندلس فإن أسماء كثيرةً تُسْرَدَ؛ فقد عرفت الأندلس الصُّوفية والمتصوّفة، كما كان في هؤلاء النفر شعراء سخّروا فنّ الشعر لهذه القضيّة، ونظموا مقاصدهم الصّوفية في قصائد، وموشحات، وأزجال أندلسيّة.

ومن الأسماء المشهورة في التصوف بالأندلس: محمد بن عبد الله بن مَسَرّة الذي يذكر اسمه أيضاً باعتباره من المتأثرين بالفلسفة، ومن أتباع المدرسة

الأفلاطونية الحديثة[١]، وقد قال فيه بالنثيا: إنه أول مفكر أصيل، أطلعه الأندلس الإسلامي، وأنه كان يستر آراءه وراء نسكه وزهادته. وكانت لابن مسرة كتب ومؤلفات ولكنها ذهبت مع الزّمن. وصار لابن مسرة ـ على الرغم من مطاردته وملاحقة أفكاره ـ أنصار يأخذون بآرائه، وقيل في مذهبه أو مدرسته إنّها جمعت بين التصوف على طريقة ذي النون المصري وبين آراء المعتزلة، وظلت آراء مدرسة ابن مسرّة مطاردة في سائر القرن الثالث، والرابع أيضاً.

ـ وفيهم أبو بكر محمّد بن علي بن عربي المُرسي المعروف بالشيخ محيي الدين، وبالشيخ الأكبر[٢]. خرج من الأندلس بعد اكتمال علمه ومعارفه، وجال في بعض بلاد المشرق الإسلامي، واستقرّ في دمشق، واشتهرت مؤلفاته وأشعاره التي ينحو في كثير منها منحىً صوفياً أو يمكن أن تؤوّل على توجيهٍ صوفي: إلهيّ.

ـ وفيهم عبد الحق بن سَبْعين[٣]؛ وكان له طوافٌ في عدد من بلاد المغرب والمشرق، وكانت وفاته بمكة المكرمة سنة (٦٦٩هـ)، وله مؤلّفات في الوجهة التي اختارها من النزعة الصوفية.

ومن شعراء التصوف الأوائل في الأندلس أبو عمر أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيري[٤] ومن شعره:

شربتُ بكأس الحبّ من جوهر الحُبّ ... رحيقاً بكفّ العقل في رَوْضَةِ الحُبِّ
وخامرَ ماءَ الروح فاهتزت القوى ... قوى النفس شوقاً وارتياحاً إلى الربّ
ونادى حثيثاً بالأنين حنينُها ... إلهي، إلهي مَنْ لعبدك بالقُرْبِ

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ٣٢٦-٣٢٧.

(٢) التكملة، الترجمة ١٠٢٣، ميزان الاعتدال ١٠٨/٣، ونفح الطيب ١٦١/٢، والبداية والنهاية ٤٩/١٤، والعقد الثمين ١٦٠/٢.

(٣) فوات الوفيات ٥١٦/١، والبداية والنهاية ٢٦١/١٣، ولسان الميزان ٣٩٢/٣، ونفح الطيب ١٩٦/٢، والعقد الثمين ٣٢٦/٥، وشذرات الذهب ٣٢٩/٥.

(٤) تاريخ علماء الأندلس رقم ١٢٠٢، المقتبس (ط مدريد) ٢٠/٥.

والشاعر يقول: ((إنه شرب في روضة الحب الإلهي رحيقاً مصفّى من جوهر الحبّ امتزج بروحه، فحنت قوى نفسه شوقاً إلى ربّه..))[١].

ـ وفي شعرائهم أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصّنهاجي الأندلسي[٢] (٤٥١-٥٣٦هـ) من أهل المَرِيّة. تنقل في الأندلس بين درس وتدريس وعمل، وانتسب إلى الصوفية حتى اشتهر فيهم، وألّف في ذلك أيضاً.

ومن شعره الصّوفي (الذي ظاهره غزل وحقيقته موجّهة)[٣]:

لستُ أَدري أطالَ ليليَ أمْ لا ... كيف يدري بذاكَ من يتقلّى
لو تفرّغْتُ لاستطالةِ ليلي ... ولرعي النجومِ كنتُ مُخِلاّ
إنّ للعاشقين عن قصر الليْـ ... ـلِ وعن طوله من الفكر شُغلا

فهو يقضي ليلاً مؤرّقاً (كمن يتقلّى على جمر، أو على نار)، ويقول لو كان يفكر في طول الليل وفي قصره (فِعْل العاشقين أو المشغولين بأمور الدنيا) لكان مخلاًّ، أي مقصّراً، لاهياً عن الذّكر. والعاشقون الحقيقيون (أهل المحبة لله) يشغلهم ذكر الله تعالى عن كل شيء آخر.

ـ وعبّر ابن عربي بوضوح عن توجيهه ألفاظ شعر الغزل ومعانيه إلى الحبّ الإلهيّ، وأَعْلَن أنّها مجردّ رموز ينفذ منها، قال:

كلُّ ما أَذكرهُ من طللٍ ... أو ربوعٍ أو مغانٍ كلُّ ما
أو نساءٍ كاعباتٍ نُهّدٍ ... طالعاتٍ كشموس أو دُمى
صفةٌ قدسيّة عُلْويّةٌ ... أعلمت أن لصدقي قَدَما
فاصرفِ الخاطرَ عن ظاهرها ... واطلبِ الباطنَ حتى تَعْلَما

(١) الأندلس، ضيف، ٢٥٦-٢٥٧.
(٢) بغية الملتمس ١٥٤، المغرب ٢/٢١١، المطرب ٩٠، نفح الطيب ٣/٢٢٩، وفيات الأعيان ١/٩٣.
(٣) نفح الطيب ٥/٥٩٨، وهو في تاريخ الأدب العربي ـ فروخ ٥/٢٣١.

إذن كل ذلك الظّاهر: حقيقتُه حبٌّ ربّانيٌّ يعتلجُ في فؤاده فيظهر على لسانه.

ـ ومن شعراء الصُّوفية الأندلسيين ذوي الشهرة والأَثر أبـو الحسن علـيّ بـن عبد الله النمري الششتري(١)، وقد مرّ ذكره في موضوع (الزّجـل في الأندلـس) وهو صاحب الزجل المشهور:

شـــوَيْخ مـــن أرض مكنـــاس وســـط الأســـواق يغـــني
آش علـــيّ مـــن النـــاس وآش علـــى النـــاس منّـــي؟!

وقد أثبتنا الزّجل في مكانِه من فقرة: (الزجل في الأندلس) من هذا الكتــاب. وعلى هذا النهج يقول من موشحه:

يـــــاحبيبي بحيــــــاتك بحيـــــاتك يـــــاحبيبي
رقّ لي وانظـــــر لحـــــالي أنـــت أدْرى بـــالّذي بـــي
أنـــت دائـــي ودوائـــي فتلطّـــف يـــاطبيبي!

وهي كلمات ـ كما علق أستاذنا د. ضيف: ((تطير من الفـم طيرانـاً لخفتّهـا وعذوبتها وسلاستها))(٢).

ـ وفي أخبـار زهـده، وبُعـده عـن أسـباب الدنيـا، وانقطاعـه إلى حيـاة الفقـر والفقراء (الصوفية) أنه نزل طرابلس(٣) فأخذ عنه أهْلُها علوماً، فاستحسنوا علمه واستغزروا معارفه، فعرضوا عليه منصب القضاء؛ فأبى من قبولـه. وعجبـوا مـن رفضه المنصب بل استحمقوه ونسبوه للجنون فذهب إلى السوق يُنشد:

رضـي المتيّـم في الهـوى بجنونـه خلُّـوه يُغـني عمـره بِفُنونِـهِ
لاتعذلـوه فليـس ينفـعُ عَذْلكـمْ ليس السلوّ عـن الهـوى مـن دينـهِ
قسماً بمن ذُكـر العقيـق مِنَ اجْلِهِ قســمَ المحــبِّ بحبِّــه ويمينــهِ

(١) له إشارة في هذا الكتاب.
(٢) الأندلس ٣٦٩.
(٣) الديوان ٧٧.

مالي سواكم غيرَ أني تائبٌ عن فاتراتِ الحبّ أو تلوينهِ
مالي إذا هتف الحمامُ بأيكةٍ أبداً أحِنُّ لشجوه وشجونِه
وإذا البكاءُ بغير دمعٍ دأبهُ والصبُّ يجري دمعهُ بعيونهِ!

فهو يرضي بصفة ((الجنون)) التي زعمها أهل طرابلس، أي مازعموه جنوناً، فقد جهلوا حقيقة حاله؛ وهو الذي باع زخرف الدنيا لحقيقة الآخرة، وجعل رضى الله غايةً عظمى، ولم يعط الدُّنيا أكثر من حقّها بحسب اعتقاده.

ويُظهر الشاعر أشواقه ومواجده ويقارن بين شجوه وشجو الحمام المشهور بالأنين والحنين، ويجد لنفسه مزية وفضلاً فنواح الحمام وإن ضرب به المثل في الشجن والحزن أقلّ من وجدهِ وشوقه.. لأنه هو في شجن يدلّ عليه ذارفات الدّمع من العيون المشوقة.

وينزّه الدكتور ضيف الششتري وأشعاره عن دعوى من ادّعى عليه بوحدة الوجود المطلقة فهو منها براء، ويقول: إنّ تصوّفه سُنيّ ولازيادة على ذلك[1] وقد أثنى القدماء والمحدثون على رقة شعره وحسن نظم موشحاته وأزجاله.

(١) الأندلس ٣٦٨.

المدائح النبوية:

١- بدأ الاحتفال بالمولد النّبوي في المشرق أيام الدولة الفاطمية. وشجّع صلاح الدين الأيوبي هذا الاحتفال حين كان سلطان المسلمين لأغراض دفاعيّة كما وصفه الدكتور عمر فرّوخ؛ وهو نظر صحيح ، قال: ودعا صلاح الدين إلى إقامة مواسم إسلامية في أيام المواسم النّصرانيّة بأسماء مختلفة؛ واخترع عدداً من مثل تلك المواسم أيضاً، ثم جعل للموسم الواحد أسماء مختلفة في الأماكن المختلفة؛ وكانت هذه المواسم أو الأعياد الشعبية تحمل معنى دينياً وغاية سياسية حربية. وكانت غاية صلاح الدين أن يكون من المسلمين جماعات مجتمعة متأهبة في أيام اجتماع النصارى (في مواسمهم وأعيادهم) لئلاّ يهاجم الإفرنج الصليبيون بلدةً مُسلمة، والمُسلمون فيها غافلون عن ذلك. وانتشرت هذه المواسم في الشام ومصر والعراق، ثم عاش عددٌ منها بعد ذلك زماناً طويلاً[١] .

ومن الشّام ومصر انتقل هذا الاحتفالُ بذكرى المَوْلد إلى المغرب والأندلس ثم إلى الهند أيضاً.

ووُضعت (موالِد) لِتُتْلى[٢] أو لِتُنْشَد في هذه المناسبة الكريمة في كل عام في المشرق. وفي الأندلس والمغرب نظموا الشّعر في مَدْح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشدوا المدائح النبويّة في المناسبات، وفي أيّام المولد النّبوي خاصّة[٣].

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٦/١١١.

(٢) وللعلماء كلام في قضية الاحتفال بذكرى المولد النبوي، تُنظر في مظانّها. على أنّ أهل الأندلس التفتوا إلى الشعر والأدب عامّة لتسجيل الخطرات والمواجد بهذه المناسبة؛ نظراً لأحوالهم وأحوال بلادهم على سبيل الاستئناس، وتوكيد الحميّة العربية الإسلامية في النفوس لمقاومة العدوّ وبثّ روح الشجاعة والإقدام إضافة إلى معاني توقيره، صلى الله عليه وسلم؛ وذكر فضائله وخصاله.

(٣) نفسه ٦/١١٢-١١٣.

٢ـ وكان الشّعر والموشّح ـ معاً ـ وسيلةَ النّاظمين للتعبير عن محبة رسول الله ﷺ، والكلام على مولده، والثناء عليه ومَدْحِه، وذكر خصائصه وشمائله. وترافق ذلك بالتفات عدد من المؤلفين والمؤرّخين إلى كتابة السّيرة النبوية وإعادة صياغتها، والتأليف في الخصائص والشمائل والمغازي.

وكانت ظروف الأندلس الجهادية المتواصلة تلفت الشعراء والأدباء إلى الدّيار المقدّسة، وإلى المقام النبوي، وإلى سيرته، وخصائصه وشمائله استمداداً للصّبر والثبات، والشجاعة، وطلباً لعون الله تعالى؛ يُضافُ إلى ذلك: بُعد المسافة بين الأندلسيين وبين الديار المقدسة وصعوبة السفر، وقلّة الاستطاعة. وهكذا كثرت الدَّواعي التي حفزتهم على نظم الشعر في هذا المقصد.

ـ وفي شعر ابن السِّيْد البَطَلْيَوْسِي قصيدة يخاطب بها مكّة المكرمة؛ أوّلها:(١)

أمكّـة تفديـكِ النُّفـوسُ الكرائـمُ ... ولابَرِحَتْ تنهلّ منكِ الغمـائم..

يقول فيها:

ومن أين تعدوكِ الفضائل كلُّها ... وفيك مقامان: الهدى، والمعالِمُ

ومبعثُ مَنْ ساد الورى وحَوى العُلا ... بمولده عبد الإلهِ وهاشمُ

نبيٌّ حوى فضلَ النبيّينَ واغْتَدى ... لهم أوّلاً في فضله وهو خاتِمُ

ـ ونقرأ لابن العريف، من الأشعار النبوية:

وحقّك يا محمّد إنّ قلبي ... يحبّك قُرْبَةً نحو الإلـهِ

جرت أمواه حبك في فؤادي ... فهام القلبُ في طيب المياهِ

فصرتُ أرى الأمور بعين حقٍّ ... وكنت أرى الأُمور بعين لاهي!

إذا شُغِفَ الفؤاد به وداداً ... فهل ينهاه عن ذكراه ناهي؟

---

(١) أزهار الرياض ٣/١٤٧ـ١٤٨.

وابن السّيد هو أحد علماء الأندلس وأُدبائها. له مصنفات كثيرة في الأدب والنّحو واللّغة والمنطق والفلسفة، وغيرها، وله شعرٌ حسن أيضاً. وانظر مقدمة (الإنصاف) ط. دار الفكر.

ـ واشتهر بالمدائح النبوية ابن الجنّان[١]، وهو أبو عبد الله محمد بن محمّد القيسي، المعروف بابن الجنّان الأنصاري (ت نحو ٦٥٥هـ).

وله المُخَمّسة المشهورة التي منها:

اللهُ زادَ محمّداً تكريما
وحَبَاهُ فَضْلاً من لَدُنْهُ عظيما
واختصَّهُ في المُرسلين كريما
ذا رأفةٍ بالمؤمنين رحيما   صَلُّوا عليه وسلموا تسليما

حازَ المحامِدَ والمدائحَ أحْمَدُ
وزكتْ مناسِبُه وطابَ المَحْتِدُ
وتأثّلَتْ عَلياؤهُ والسُّؤددُ
مَجْداً صميماً حادثاً وقديما   صَلُّوا عليه وسلموا تسليما

ياسامعي أخبارِهِ ومفاخِرِهْ
ومُطالعي آثارِهِ ومآثِرهْ
ومُؤمِّلي وافي الثوابِ ووافِرهْ
إن شئتمُ فَوْزاً بذلك عظيما   صَلُّوا عليه وسلموا تسليما

ـ ومن شعره في المديح النبوي أيضاً[٢]:

يارَبّ إن شفيعي من ذنوبي في   يوم القيامة خير الخَلْق والنَّسَمِ
محمّدٌ خاتم الرسل المبلّغ للدّ   ين الحنيفيّ والإسلام للأمم

(١) عنوان الدّراية ٣٠٢، الإحاطة ٢/٢٥٦، نفح الطيب ٧/٤٠٦.
ـ وقد صدر ديوان ابن الجنّان في بغداد بعنوان: ديوان ابن الجنّان الأنصاري الأندلسي وهي طبعة تستأهل المُراجعة وإعادة النّظر لتحقيقٍ دقيق، وضبط للنّصوص (وهو من جمع وتحقيق ودراسة د. منجد مصطفى بهجة).
(٢) الديوان ١٥٦.

عليه مني صلاة كلما سجع الـ حَمامُ فوق غصون البان والسَّلَمِ
وبعد ذلك أعداد الجبال ورَمْـ ـلِ الأرض والطير والحيتان والنِعمِ
كذاك أيضاً سلامي طيب عطرٌ عليه مادام عبد في دُجى الظُّلَمِ
لله وهو كئيبٌ خائف وَجِلٌ من الذنوب حزين القلب ذو ألمِ

- وقد دخل ابن جُبير(١) مكة المكرمة في ثاني عشر ربيع الآخر سنة (٥٧٩هـ) فنظم قصيدة فيها قوله:

بلغتَ المُنى وحللتَ الحَرَمْ فعاد شبابكَ بعد الهَرَمْ
فأهلاً بمكة أهلاً بها وشكراً لمن شكره يُلتزمْ
نبي شفاعته عصمةٌ فيوم التنادي به يُعتصَمْ(٢)
ويَرعى لزوّاره في غَدٍ ذماماً فما زال يرعى الذّمَمْ(٣)
عليه السَّلام وطُوبى لمن ألَمَّ بتربتهِ فاسْتَلَمْ(٤)

فقد سجل الشاعر عواطفه الجياشة وقت دخوله الديار المقدسة الكريمة، إنه بلغ أقصى الأماني ونشطت نفسه فكأنه ــ لما غمرته النعمة بوصوله إلى تلك الديار ـ قد عاد شباباً. وغيّر المألوف، فكان هو المؤهل والمرحّب بمكة، وقدّم الشكر الواجب لله تعالى: ثم التفت بعد مكة إلى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية: وهو ملجأ الناس ومعتصمهم يَوْمَ يُشَفّع، وهو يَرُدّ تحية المسلّم ويَرْعى حُقوق الزائر...

- وفي ترجمة مالك بن المرحّل (ت ٦٩٩هـ) موشحة في المديح النبوي يقول فيها(٥) :

---

(١) انظر كلاماً عنه في (أدب الرحلة) في الفصل الثالث من هذا الكتاب.
(٢) يوم التنادي من أسماء يوم القيامة.
(٣) الذمة والذمام: العهد، والأمان، ومايتكفل به.
(٤) استلم التربة قبلَها.
(٥) نفح الطيب٧/٤٥٣.
- يصح أن يكون النص مخمسة، فهي تستوفي شروطها، ويصح أيضاً أن يكون موشحاً، وهو موشح أقرع.

أَلِـــفٌ: أجـــلّ الأنبيـــاء نَـــبيءُ
بضيائـــه شمـــس النهـــار تضـــيءُ
وبـــه يؤمّـــل محســـن ومســـيءُ

فضـلاً مـن الله العظيم عظيمـا صلـوا عليـه وسـلّموا تسـليما

بـــاء: بـــدا في أفـــق مكـــة كوكبـــا
ثـــم اعتلـــى فجـــلا ســـناه الغَيْهَبـــا
حتـــى أنـــار الدهـــرَ منـــه وأَخْصَبـــا

إذْ كـان فيض الخير منه عميمـاً صلـوا عليـه وسـلموا تسـليما

وقد رتب الموشحة على حروف المعجم، كل دور يتناول حَرْفاً من الحروف الهجائية على تسلسلها.

ويلاحظ بعض الدارسين(١) في القصائد النبوية والمخمسات ومايلحق بها تفريعاً وتفصيلاً، فهناك:

١ـ قصيدة المدح النبوي التي تذكر من سيرة رسول الله ﷺ، وشمائله وفضائله وأحواله، وكلّ شاعر يختار المواقف والمشاهد والخصائص التي يُدير قصيدته عليها. وتمتاز هذه القصائد عادة بالطول. وبعض الشعراء يضع لقصيدته اسماً، وقد سمّى أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري قصيدة نبوية له باسم: (خلاصة الصفا من خصائص المصطفى)، وأولها:

لأحمدَ خيرِ الخَلْق أُهدي تحيّتي محمدٌ الأمّيْ بحكمٍ وحكمةِ

٢ـ قصيدة التبرك بالأثر النبوي كالقصائد والمخمسات والمقطعات التي نظمت في مثال النعل الشريف كقول ابن الأبّار:

---

(١) د. محمد مجيد السعيد: الشّعر في عصر المرابطين والموحدين بالأندلس ٢٦٩.

إن شـاقني ذاكَ المثـالُ فطالمـا شاقَ المحبَّ الطيفُ يطرقُ في الكرى
لي أُسوةٌ في العاشقين وقصدهم لَثْمُ الطُّلولِ لأهلهنّ تذكّرا

٣ـ قصيدة التشوّق؛ وهو شوق إلى زيارة النبي، ﷺ، والمدينة المشرفة، والأماكن التي عرفت يَوْماً النبيَّ الكريم في مكة والمدينة. ومن هذا النوع قول علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي (ت٦٦٣هـ)

يـاحُداةَ العِيْس رِفْقـاً إنّهـا شكتِ الجُهْدَ وبُعْدَ المُرْتَمى
طاويـاتٍ لم يـدعْ منهـا السُّرى ودخيلُ الشوقِ إلاّ الأعظما
جنّبوهـا موردَ المـاء فقـد حَرَّمَتْـهُ أو تـزورَ الحرَما
يـاخليليَّ رُوَيْـداً إنَّهـا لتعاني الشوقَ مثلي فاعلما

والأشعار النبويّات بأقسامها المختلفة تدور حول محبة رسول الله، ﷺ، ونشر نبذ من خصائصه وشمائله ومعجزاته والتّبرّك بمحبته، وتمنّي لقاء روضته، وزيارة مسجده، وتذكّر سيرته؛ والالتفاف حول رسالته.

وفي هذه الأشعار:

- تكثر الإشارات التّاريخية، وأسماء المواضع والمواقع ذات الصلة بالسيرة، وبيئاتها.
- ويميلُ الشعرّاء إلى البساطة، والسُّهولة، ورقة العبارة.
- ويغلب على الشّعر: العنصر الوجداني، والعواطف المشبوبة، والأشواق الزائدة.
- ويكثر اعتذار الشّعراء عن التّقصير في أداء الواجب الكامل نحو محبة رسول الله، ﷺ.
- ونجد في بعض تلك الأشعار ميلاً إلى التّفنّن بنظم القصائد أو المخمسات على حروف المُعجم (انظر مخمّسة مالك بن المرحّل مثلاً).
- وشاعت بين شعرائهم المعارضات، ومن ذلك معارضة مخمّسة ابن الجنان: ((الله زادَ محمّداً تَعْظيما)).

الأَدب والحكمة:

وصف ابن عبد ربه رَجُلاً بالأدب الجم والسلوك الحسن، فقال:

أَدبٌ كمثل الماءِ لو أفرغْتَهُ   يوماً لسال كما يسيلُ الماءُ[1]

ولم تجر العادة بذكر موضوع الأَدب ووصايا الأبناء، وملاحظات الحياة الخاصة بين موضوعات الأَدب الرئيسية؛ فكثيرٌ ممّا يقال في هذا الباب يجيء جافاً، تعليميّاً، بعيداً عن سمات الشعر الذي فيه حيوية الأدب وجماليات الفن.

على أنّ في شعراء الأَندلس وأُدبائه من ارتاد هذا الجانب فجاء بشعر رقيق لطيف: أحسنَ الشاعر في الأفكار التي عرضها، وفي الأسلوب الذي انتهجه، وجَمع بين الجانب الوعظي التعليمي وبين الأَداءِ الشعري الجيّد، الذي يحتفظ بخصوصية الشعر، وشخصية الشاعر؛ أو بين الجانب الحكمي، وقدرة الشعر على الأداء الحسن.

وأولّ من نقف عند أشعارهم، يحيى بن حكم الغَزال: وله قصيدتان جديرتان بالّتنويه: يقول في مطلع الأولى[2]

لعمريَ ما ملّكْتُ مِقْوَدَي الصِّبا   فأمطوَ للذّاتِ في السَّهل والوَعّرِ

ولأنا ممّن يؤثر اللهوَ قلبهُ   فأُمسي في سكرٍ وأصبحَ في سكر

إلى أن يقول:

كفاني من كُلّ الذي أُعجبوا به   قُلَيْلَةُ ماءٍ تُسْتَقى لي من النَّهرِ[3]

---

(١) يصفه بالرقة واللّطافة وسهولة العِشرة.

(٢) الديوان، ط دار الفكر ٥٧-٥٨.

(٣) تصغير ((قلة)) من أوعية الماء.

ففيها شرابي إن عَطِشْتُ وكلُّ ما يريد عيالي للعَجينِ وللقِدْرِ
بِخُبْزٍ وبَقْلٍ ــ ليس لَحْماً ــ وإنني عليه كثير الحمد لله والشكرِ

ومن القصيدة:

أخي! عُدّ ماقاسَيْتَهُ وتقلّبتْ عليكَ به الدُّنيا من الخير والشرّ
فهل لك في الدّنيا سوى السّاعة التي تكون بها السرّاءُ أو حاضِرُ الضرّ؟

والقصيدة كله، تمرّ سهلة الألفاظ، واضحة المعاني، قريبة الأداء والتعبير من النص النثري القريب. وهي أشبه بخطة حياة بسيطة ليس فيها كلفة، ولامُتّطلبات كثيرة، ولاتعْقيد.

ـوكان الشاعر (الغزال) معروفاً بتنبيهِ المُسرفين، والمبذّرين ومهاجمة الذين يغتنون غنىً مشكوكاً في مصادره، والذين يزيدون في البذخ وألوانِ التّرف.

ـ وللغزال قصيدة يخاطب بها إبراهيم ابن أخته، وكان إبراهيم قد أسرف في ممارسة لعبة الشطرنج، وكانت دارجةً جدّاً في أيامهم. وكان الشباب ينفقون في ذلك وقتاً طويلاً، يضيّعون به بعض الواجبات. يقول الشاعر فيها[1] :

غَمّني عِشْقُكَ للشّطْـ ـرَنْج [هذا] ياابْرَهِيمُ[2]
هَبْكَ فيها أَلْعَبَ النّا سِ فماذا ياحكيم؟!
لعبة الشطرنجِ شؤمٌ فاجْتَنِبْها يا شَؤُومُ!
فليقلْ ما شاءَ مَنْ شا ءَ فقَوْلي مُستقيمُ
إنّما هِيْ لأُناسٍ شأنُهُمْ شأنٌ عظيمُ

ويقول لابن أخته إنها لعبة الأغنياء، وذوي الفضل الذين لايؤثّر في حياتهم ألاّ يخرجوا إلى العمل، فرزقهم جاهز موفور، أو تليد مكنوز.

---

(١) الديوان ٧٢.

(٢) وسيأتي في فقهاء الأندلس من يحرّم الشطرنج، ولابن الفحارّ الجُذامي رسالة في هذا المعنى؛ في: تحريم الشطرنج، انظر ترجمته في تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ (٦/٤٠٠).

٢ـ ولأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري[١] قصيدة نظمها في نصيحة أولاده، تعدّ من النصوص المهمة في هذا الباب؛ أوّلها:

ألْوي بعزمِ تجلّدي وتصبُّري ... نأي الأحبّة واعتياد تذكّري

يقول فيها:

واعلمْ بأن العلمَ أرفعُ رتبةٍ ... وأجلُّ مكتسبٍ وأسنى مَفْخَرِ
فاسلكْ سبيلَ المُقتنين له تَسُدْ ... إنّ السّيادة تُقْتَنى بالدفترِ
وبِضُمّرِ الأقلامِ يبلغ أَهْلُها ... ماليس يُبْلَغُ بالجياد الضُّمَّرِ
والعلم ليس بنافعٍ أبناءَهُ ... مالم يُفِدْ عملاً وحُسْنَ تَبَصُّرِ

فهي إذن دعوةٌ قوية لطلب العلم، وإتقانه صنعة الكتابة، والجمع بين العلم والعمل؛ حتى لايكون العلم نظريّاً بعيداً عن التطبيق في وجوه الحياة.

ويدخل الشّاعر في مقاصد الحياة المختلفة، وهي كثيرة جدّاً ينتقي منها الشاعر مايرجّحه، أو يجده ذا شأن، أو يراه ضرورياً لأولاده:

فإذا دفَعْتَ إلى قَرينٍ فابْلُهُ ... قبل التقارضُ والتشارك؛ واخْبُرِ
لايستفزّك منظر حسَنٌ بدا ... حتى تقابله بحُسْنِ المَخْبَرِ
واشرحْ لكل ملمّةٍ صَدْراً وخذ ... بالحَزْمِ في كل الأمور وشمّرِ
واستَنْصِحِ البَرَّ التقيَّ وشاور الـ ... فطن الذكيّ تكنْ ربيح المَتْجَرِ
واخزن لسانَك واحترسْ من نطقهِ ... واحذرْ بوادرَ غيّه ثم احذرِ
واصفح عن العوراءِ إن قيلت وعُدْ ... بالحِلْم منك على السّفيه المُغْوِرِ

٣ـ وفي العلماء الأدباء أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي الأندلسي المعروف بابن الشيخ[١]، صاحب كتاب ألف باء[٢] (٥٢٠ـ٦٠٤هـ) في أخباره

---

(١) تولّى الوزارة أكثر من مرة، ودخل السجن أيضاً أكثر من مرة أيام المنصور ابن أبي عامر، وأيام ابنه المظفر، ومات ـ قبل قتيلاً ـ في سجن المظفرسة ٣٩٤، (الجذوة ٦١، والبغية ٣٦٢، الذخيرة ٤/٤٦، الصّلة ٣٢٩، ونفح الطيب ١/٥٢٩).
التكملة ٧٣٧ (برقم ٢٠٨٩)، صلة الصلة ٤١٧، ومقدمة ألف با.

(٢) طبع الكتاب في مجلدين كبيرين طبعة حسنة قديمة (نشر جمعية المعارف بمصر سمة ١٢٨٧هـ). ثم أعيد طبعه بطريقة التصوير في بيروت.

أنه رحل إلى المشرق ولقي العلماء، وجاهد ضد الصليبيين في المشرق أثناء رحلته، كما حارب ضد الحملة الصليبية التي قصدت إلى الأندلس.

وكان أبو الحجّاج قد رُزق بابنٍ على كبرٍ، فأراد أن يؤلف له كتاباً في مجموعة من الفوائد، فأصْدر (ألف باء) الذي أشرتُ إليه. وهو كتاب نفيس في بابه.

ونقرأ من شعر المؤلف نفسه قوله في المقدمة (١/٣):

هـذا كتـابُ أَلِـفْ بـا صَنَعْتُـه يـا أَلِبّـا[١]

مـن أَجْـلِ نَجْلـي الـمُرَجَّى إذا شـدَا أن يَلِبّـا[٢]

أدْعُـو لعالـمٍ ومِـنْ حـقّ .... مـن دَعـا أنْ يُلَبّـي[٣]

وأنـتَ عبـدُ الرحيـم الـطّ فـلُ الصَّغـيرُ المُرَبّـى

إذا عقلـت فقـل قـد رضيـتُ بـا الله رَبّـا

وديـن الإسـلام دينـاً وبـالنبي الـمُنَبّا[٤]

محمـد، قـل: رسـولاً وقـل نبيـاً مُحَبّـا[٥]

ثـم اسـتقمْ واتّبعْـهُ تـزدَدْ مـن الله قُرْبـا

وقد نصح ابنه بطلب العلم وملازمة العلماء، واستشهد له بشيء من شعر أبي إسحاق الإلبيري من قصيدته التّائية في أول الديوان:

---

(١) ألبا أي ألبّاء جمع لبيب.

(٢) يَلِبّ مضارع لبَّ: صار ذا عقل وفهم، فهو لبيب

(٣) أي أن يُستجاب له. (والبيت مدوّر: موصول شطره الأول بشطره الثاني في كلمة حَقّ).

(٤) أي المبعوث نبيّاً مؤيداً من الله تعالى.

(٥) محبوباً.

لئـن رفـع الغـنيَّ لـواءُ مـالٍ لأنـتَ لـواءَ علمـك قـد رفَعْتـا
وإن جلَـس الغـنيُّ علـى الحشـايا لأنت على الكواكـبِ قـد جلسـتا!

واسترسل في فضل العلم، وطلبه، وضرورة الأخذ بأسبابه، ثم أنشد من شعره:

اعلـمْ بـأن العِلْـمَ ذو هِمَّـةٍ وهـو عَزِيْـزُ النفسِ ذو غَـيْرَهْ![1]
يُنيلـكَ البعـضَ مِـنَ انْـواره إن لم تكـن مصطحبـاً غـيره[2]
وإن تكـن مُشـتغلاً مقبـلاً علـى سـواه لم تنـلْ خـيرَهْ
فـاطرّح الأشـغال واعكـفْ علـى تحصيـلِ مـايُعْطي وسِـرْ سَـيْرَهْ!

ومن شعراء المرحلة الأندلسية الأخيرة (عصر دولة غرناطة) أبو عثمان سعد بن **أحمد بن ليون** التجيبي (٦٨١-٧٥٠هـ) وهو كاتب، شاعر، مصنّف. ترك أكثر من مئة كتاب في فنون شتّى.

وهو شاعر مكثر، وفي شعره ميل إلى شعر الأدب والحكمة، ويغلب أن يجيء هذا الشعر في مقطعات، من بيتين أو ثلاثة أبيات. قال:

-تغـافَلْ في الأمـور ولا تنـاقش فيقطعَـك القريـبُ وذو المـودّه
مناقشـةُ الفتـى تجـني عليـه وتُبدلـه مـن الراحـات شـدّه!
-أرِحِ النفـسَ تنتفـع بحيـاتكْ واغنم العيش قبـل يـوم وفـاتك
واعتـبر بـالذين بـادوا وبـادر مـا يدانيـك في سـبيل نجـاتك
واطّـرحْ عَيْـبَ مـن سـواك وسـالمْ جملةَ النـاس يغفلـوا عـن أذاتـك
-إذا كـانت عيوبُـك عنـد نقـدٍ تُعَـدّ فـأنت أجْـدَرُ بالكمـالِ

(١) ذو الغَيْرَة: من غارَ يَغار. يقول: العلم لايحب الشريك لأنه يستغرق وقت الإنسان.
(٢) غَيْرَه: أي سواه. وهذا البيت يؤكد فكرة البيت السَّابق.

متى سلمتْ من النّقدِ البرايا؟ وحسبُك ماتشاهدُ في الهلالِ!

وأكثر مانقرأ لابن ليون من شعر الأدب والحكمة هو من المعاني المعروفة، والحكم المألوفة؛ لكنّه أعادَ صياغتها، ولوّنها بشيء من رؤيته الشّخصية[١].

(١) الكتيبة الكامنة ٨٦، نيل الابتهاج ١٢٣، درة الحجال ٤٦٧/٢، نفح الطيب ٥٤٣/٥.

شعر الطبيعة:

شعر الطبيعة في الأدب العربي قديم أصيل. وقد ألقى الشعر الجاهلي بظلاله على وصف الطبيعة في الأزمان التّالية، غير أن البيئات الجديدة (كالشّام والعراق) قد ظهرت تباعاً، ومع التطور الزمني والفني. فذكر بعض شعراء العصر الأموي دمشق والغوطة، ومناطق أُخرى تتميز بالحسن والجمال. وتابع العباسيون الاهتمام بالطبيعة في ظلال الحضارة النامية زماناً بعد زمان: فكان فيهم أبو نواس، وأبو تمام، والبحتري، وابن الرومي، وابن المعتز، وغيرهم.

وصف الطبيعة(*)

من الشعر الأندلسي الذّائع في وصف أرض الأندلس، وطبيعتها ونظر أهلها إليها، وعيشهم في ظلالها، قول محمد بن سفر أحد شعراء القرن السّادس الهجري:

في أرض أَنْدَلُسٍ تَلْتَذُّ نَعْماءُ ... ولاتفارقُ فيها القلبَ سَرّاءُ
وكيف لاتُبْهِجُ الأبصارَ رُؤيَتُها ... وكل روضٍ بها في الوشي صَنْعاءُ[1]
أَنهارُها فضّةٌ والمِسْكُ تُرْبتها ... والخزُّ روضتها والدرُّ حَصْبَاءُ[2]

(*) راجع كتاب: شعر الطبيعة في الأدب العربيّ د. سيّد نوفل، والطبيعة في الشعر الأندلسي د. جودة الركابي.
- وفي كتب تاريخ الأدب العربي فصول عن شعر الطبيعة الأندلسية مثل مافي (الأندلس) د. شوقي ضيف، وتاريخ الأدب العربي د. عمر فرّوخ.

(١) العرب تضرب المثل بالبُرود (الثياب) اليمانية، والوشي الصّنْعاني.

(٢) الخزّ من الثياب: مايُنسج من صوف، وحرير خالص، والحصباء: صغار الحصى.

وهو شعر رقيق، ينضح بمحبّة الأندلس، والأنس بما فيها من جمال الطبيعة ويستطرد إلى ذكر محاسنها، من وراء نظرة الإعجاب بالأَرض، والتمسّك بالوطن؛ وإلْفِ كلّ مافيه من بَرٍّ وبحر، وأرض وسماء، وجبال وأنهار، والمبالغة في وصف المحاسن، والاستغراق في مجالي الجمال.

ونجد مثل هذه النّظرة المُفعمة بالإعجاب بالطّبيعة الأَندلسية في أَشعار كثيرة تشمل عصور الأدب الأندلسي من بداياته إلى خواتيمه. ويندر أن يَخلُو ديوان شعر أَندلسي من وقفات عند الطبيعة، واستحسانها، والعيش في ظلالها، ووصف مايروق للشاعر منها، في انفعالٍ ومحبّة وارتباط.

بل إن الشّعر الأَندلسيّ سجّل مزيّة وخصوصيّة في هذا الغَرض، ولفت أنظار الدّارسين إلى التَجديد فيه كالذي نجده عند أتباع المذهب الخفاجي الذي سنشير إليه في هذا الكتاب.

وقد تابع المُحْدَثُون من الكتّاب والمؤلفين من سبقهم من القدماء فأثنوا على جمال الطبيعة الأَندلسية، ووجدوا في هذه الطبيعة ما يُغري الشعراء، ويحفزهم على النّظم في وصفها: استئناساً بها، واسترسالاً في التنعم بظلالها، والتغني بجمالها.

فالأندلس تتميز بطبيعة فاتنة في سهولها، ووديانها، وأنهارها وجبالها، وغاباتها وأشجارها، وأزهارها، وبساتينها، ومنتزّهاتها. وهي طبيعة خلبت ألباب الشعراء هناك فتغنّوا بمفاتنها ومشاهدها، دائماً باثّينَ فيها عواطفهم ومشاعرهم. وكان مازادهم شغفاً بها اختلافُهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم[1]... وقد كثُر عند شعراء الأندلس المزج بين الطبيعة والغزل، والمزج بين الطبيعة ومجالس الشراب. وفي أوائل الشعر الذي سجّله الأدب الأندلسي

---

(١) الأندلس د. شوقي ضيف ٢٩٣.

قطعة لعبد الرحمن الدّاخل[١] يذكر فيها النخلة، في نوع مع التعاطف والتحالف، يقولُ فيها:

تبدّت لنا وسْطَ الرُّصافةِ نخلَةٌ ... تناءتْ بأرض الغَرْب عن بلدِ النَّخل

فقلتُ شبيهي في التَّغرُّب والنَّوى ... وطولِ التَّنائي عن بنيَّ وعن أهليَ

نشأت بأرضٍ أنْتِ فيها غريبةٌ ... فمثلُكِ في الإقصاء والمنتأى مثلي!

وقد ألحت عليه صورة النخْلة، التي تربطه بها ذكريات الزمان أيام الشام والمكان بلاد المشرق حيثُ يكثر النخيل في العراق وأطراف دجلة والفرات. وكان عبد الرحمن قد جلب نبتة النخيل، وزرعها، وأَشاع زراعتها في الأندلس، وملأ بها جنبات مُنية الرُّصافة التي عمرها عند قُرطبة. وصارت النخلة التي تردّد اسمها في شعره: رمزاً للوطن الذي تركه، وتذكاراً للماضي بكل مافيه، كما صارت ـ في أرض الأندلس ـ همزة وصل بين الأرض القديمة والأرض الجديدة في أوربة الإسلامية.

- ويصف عبّاس ناصح الجزيري مفازة قطعها ليلاً، فيقول:

ومَخُوفةٍ تنفي مخافَتُهَا ... نومَ الفتى ذي المِرَّةِ النَّدْبِ[٢]

للجِنّ في أجوازها لَغَطٌ ... باللّيل مثلُ تنازع الشَّرْبِ

وتَرى بها جُوْن النّعام إذا ... أشْرَفْنَ كالمهنوءة الجُرْب

وموضوع القطعة، والمفردات التي استخدمها الشاعر، والصّور التي استحضرها تذكر بالبادية، وتوحي إلينا بالمشرق وصحاراه، ورؤى شعرائه. فهي فلاة، أو صحراء ممتدة يخاف من يجتازها مخاطرها، ويحرمه هذا الخوف

(١) هو صقر قريش. وله ترجمة في الحلّة السيراء ١/٣٥-٣٦ (وله أشعار مختارة)، وجذوة المقتبس ٩-١٠، وانظر المختار من الشعر الأندلسي ١٣-١٦.

(٢) المِرّة: قوّة الخلق وشدّته. وذو المرة: القوي الشجاع. والنّدب: الخفيف (السريع) في الحاجة. والجون: السود. المهنوءة: المطلية بالقطران (الهناء) يعني الجمال.

ـ وعباس بن ناصح منسوب إلى الجزيرة الخضراء، ووفاته نحو ٢٣٨هـ.

منامه، ويتخيل عزيف الجنّ (لكثرته وتداخله) كأنه أصوات الشاربين يلغطون في حانة من الحانات، ويشبّه النّعام - وهو من طيور البوادي عادة - بالجمال المطليّة بالقار أو القطران (بجامع السَّواد).

وقد أُلّفت في الأندلس كتب، وصُنّفت مؤلفات: جُمعت فيها أشعار الأندلسيين في وصف الرياض والأزهار والبساتين، أو عولج فيها موضوع وصف الطبيعة جملةً، أو جوانب منها:

ومن الكتب الباقية من هذه المؤلفات كتاب (البديع في وصف الرَّبيع)(١) لأبي الوليد الحميري، وكتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) لابن الكتاني الطبيب(٢).

وكتاب (البديع في وصف الربيع) ((وضع ليجمع فيه المؤلف قدراً من شعر معاصريه، وبعض النثر أيضاً، مما يتعلّق بوصف الزهور والرياحين، وتفضيل بعضها على بعض))(٣). وقصرهُ المؤلف على ماوجده لمعاصريه من الأندلسيين (في القرن الخامس الهجري).

ومما اختاره أبو الوليد قطعة للحاجب أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي يصف فيها عدداً من النّواوير والأزاهير، قال فيها:

انظر إلى الروض الأريضِ تَخالُه ... كالوشي نُمّقَ أحسنَ التّنميق(٤)

وكأنّما السوسان صبٌّ مُدْنَفٌ ... لعبت يداه بجيبه المشقوقِ

يوم الوداع ومُزّقت أثوابُه ... جَزعاً عليه أيّما تمزيق

والنرجسُ الغضُّ الذكيُّ محاجرٌ ... تعبت من التسهيد والتأريق

(١) طبع أولاً بعناية هنري بيريس (الرباط ١٩٤٠) ثم طبع في المملكة السعودية بالعنوان نفسه، وطبع في دمشق: بعنوان البديع في فصل الربيع.

(٢) حققه د. إحسان عباس (دار الثقافة - بيروت).

(٣) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ط٢، ٢٨٨.

(٤) يقال: أرضت الأرض أي كثر نبتها وحَسُن مرآها، فهي أريض.

يحكي لنا لون المحبّ بلونه ... وإذا تنسّم نكهة المعشوقِ
وكأنّ دائرة الحديقة عندما ... جاءَ الغمام لها برشف الريقِ
فلكٌ من الياقوتِ يسطعُ نورهُ ... فيه كواكبُ جوهرٍ وعقيقِ

قال أبو الوليد: شبه أوراق السوسن في افتراقها بجيب مشقوق، وهو معنًى دقيق أنيق. وقد تداوله جماعة، وأظنه من اختراعه.

-ومن طرائف شعر الطبيعة في الأندلس كثرة الردود على ابن الرُّومي الذي فَضّل النرجس على الورد، كقول سعيد بن فرج:

أزعمت أن الوَرْدَ من تفضيله ... خَجِلٌ وناحله الفضيلة عاندُ
إن كان يستحيي لفضل جماله ... فحياؤه فيه جمال زائدُ

وهذا يدخل في حُسن التعليل، واحمرار الورد دليل على خجله؛ وهذا في الورد ـ كما هو في الإنسان ـ يزيده جمالاً!

-ومزج الأندلسيون كثيراً بين وصف الطبيعة وبين الوجدانيّات كالحنين إلى الوطن، والغزل.

ـ وفي شعر يوسف بن هارون الرّمادي قطعة غريبة، فقد كان يوماً عند بعض أصحابه في بلدة وادي آشي شتاءً فقدموا له ـ من باب الاحتفاء به ـ طاقةً من الورد اجتلبوها من بلدة بَجّانة، فأخذها، وحدق فيها مليًا، ولثمها، ثم قال[1]:

ياخدودَ الحُورِ في إخجالها ... قد عَلَتْها حمرةٌ مُكْتَسَبَهْ
اغتربنا أنت من بَجّانةٍ ... وأنا مغتربٌ من قرطبهْ
واجتمعنا عند إخوان صفا ... بالنَّدى أموالُهم منتهبه
إنّ لثمي لك قُدّامَهُمُ ... ليس فيه فعلةٌ مُسْتَغْرَبَهْ
لاجتماع في اغتراب بيننا ... قبلُ المغترب المغتربَهْ

(١) البديع في وصف الربيع (بيريس) ١٢٢.

فقد وصف الشاعر الورد وشبّهه بخدود الفتيات الحوُر وقد أدركهنّ الخجل (الذي يورّد الخدود)، والتقيا على مائدة الاغتراب، عند أصحاب له كرام، وعلّل الشاعرُ تقبيلَ الورد في ذلك المجلس تعليلاً فيه طرافة وظرف، فإن بينهما صلة ونسباً من البُعد عن الوطن والاغتراب!

-ومن الشعر المشهور الذي التقى فيه وصف الطبيعة بغرض الغزل قصيدة قصيرة لابن زيدون، وصل فيها بين وصف جانبٍ من حدائق الزَّهراء(١) الممتدّة الأَرجاء، الظليلة الأفياء، البديعة الحسن، الحافلة بكل لون من ألوان النبات والزهر والورد والزنبق، وسائر ماتضمه تلك الحدائق الفائقة، وبين ذكريات أيّام خالية، جمعت بينه وبين أحبّته. لقد جعل الشاعر الطبيعة مهاداً لحديث الغزل، ونَسج من الغرضين الاثنين قصيدة مُحكمة، حيّة، شديدة الأناقة والظرف، بالغة العذوبة والرقة.

وفي هذه القصيدة يظهر الأَثر الأندلسي، فهي منظومة في بساتين الزَّهراء، وامتداد مزروعاتها، وتحت نظر مصَانعها وعَمائرها البديعة الهندسية والتّنسيق؛ وهي لشاعرٍ استغرقه حبُّ مدينته قُرطبة، واسترسل في ذكر معالمها الجميلة التي يحتفظ منها بأعذب الذكريات.

أمّا الزهراء التي اتخذها الشاعرُ مِهاداً لقصيدته، ومجالاً لذكرياته فقد كانت مدينة ذات حدائق بديعة، بناها عبد الرحمن الناصر، وكان بينها وبين قرطبة خمسة أميال. ووصفها الحميري في الروض المعطار(٢) فقال: ((إنها قائمة الذات (مستقلّة) بأسوارها ورسوم قصورها، وكان فيها قوم سكانٌ بأهاليهم وذراريهم (مقيمون دائمون) وكانت في ذاتها عظيمة. وهي مدينة فوق مدينة سطح الثلث الأعلى على الحدّ الأوسط، وحَدُّ الثلث الأوسط على الثلث الأسفل وكل ثلث

(١) انظر دراستنا عن ابن زيدون (ابن زيدون قراءة في الشخصية ورؤية في الفن).
(٢) الروض المعطار في خبر الأقطار ٢٩٥.

منها له سور؛ فكان الحدّ الأعلى قصوراً يعجز الواصفون عن وصفها، والحدّ الأوسط بساتين وروضات، والحد الأسفل فيه الديار والجامع...)).

وظاهر أن نطاق قصيدة ابن زيدون بساتين الزهراء وروضاتها النّضرة.. يرجّح أن تكون القصيدة في ذكرى ولّادة، وأن يكون تاريخها المدة التي أعقبت انعزال ولادة عن الحياة الاجتماعية وعن لقاء الأدباء والشعراء كما كانت تفعل في (صالونها الأدبي):

إنـي ذكرتـكِ بـالزّهراء مُشـتـاقا ... والأُفقُ طَلْقُ ووَجْهُ الأرض قد راقا[1]

وللنسيم اعتلالٌ في أصائلـهِ ... كأنـه رقّ لي فـاعتلّ إشـفاقا

والروض عن مائه الفضي مبتسمٌ ... كما شققت عن اللبات أطواقا[2]

نلهو بما يستميلُ العين من زهرٍ ... جال النّدى فيه حتّى مال أعناقا

كأن أعْيُنَهُ إذْ عاينت أرقي ... بكتْ لما بي فجال الدّمعُ رقراقا

وردٌ تألّق في ضاحي مَنابته ... فازداد منه الضحى في العين إشراقا[3]

سرى ينافِحهُ نَيْلَوْفَرٌ عَبِقٌ ... وسنانُ نَبّه منه الصّبحُ أحداقا[4]

كلٌّ يهيجُ لنا ذكرى تَشَوّقنا ... إليك لم يَعْدُ عنها الصّدْرُ أن ضاقا

لاسكّن الله قلباً عَنّ ذِكركمُ ... فلم يَطِرْ بجناح الشوق خَفّاقا

لو شاء حملي نسيمُ الصُّبح حين سَرى ... وافاكُمُ بفتًى أضْناهُ ما لاقى

يومٌ كأيام لذّاتٍ لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سُرّاقا

لو كان وفّى المنى في جَمْعِنَا بِكُمُ ... لكان من أكرم الأيّام أخلاقا

---

(١) الطلق من الأيام والليالي: المشرق الخالي من الحرّ والبرد والمطر والريح وكل أذى.

(٢) اللبّات جمع اللبّة، وهي موضع القلادة من الصدر.

(٣) المنبت الضاحي: البارز للشمس.

(٤) النّيلوفر (والنينوفر) جنس نباتات مائيّة من الفصيلة النيلوفرية فيه أنواع تنبت في الأنهار والمناقع (المياه الرّاكدة)، وأنواع تُزرع في الأحواض لورقها وزهرها.

ـ و: ينافحه: يسابقه أيّهما أظهر نُفوحاً، من نفح الطّيبُ: انتشرت رائحته.

ياعِلْقي الأَخْطَرَ الأَسْنَى الحبيبَ إلى ... نفسي إذا ما اقتنى الأحبابُ أعلاقا[١]
كان التجازي بَمَحْض الودّ مذ زمنٍ ... ميدانَ أُنسٍ جرينا فيه أطلاقا[٢]
فالآن أحْمَدَ ماكنّا لعهدكم ... نسيتُمْ وبقينا نحنُ عُشّاقا!

لقد استطاع الشاعر أن يجمع بين غرضي الغزل والوصف، ويمتزج أحدهما بالآخر بلباقة، وإتقان صنعة، وأن يبرز كلا جانبي النصّ إبرازاً مُعجباً: من غزل رقيق تعاطفت معه الطّبيعة كلها، ومن وصفٍ دقيق نقل قارئه وسامعه إلى حيث كان، ودعاه إلى التعاطف معه أيضاً!

وفي معاصري ابن زيدون علي بن حصن الإشبيلي[٣] أحد شعراء وقته، ومن شعره في صفة هديل:

وما هاجني إلا ابنُ ورقاء هاتفٌ ... على فنن بين الجزيرة والنهر[٤]
مفستقُ طوقٍ لازورديُّ كلكلٍ ... موشّى الطُّلى أحوى القوادم والظهر[٥]
أدارَ على الياقوت أجفانَ لؤلؤٍ ... وصاغ على الأجفان طوقاً من التِّبر[٦]
حديد شبا المنقار داج كأنه ... شبا قلمٍ من فضّة مُدّ في حبر[٧]
توسّد من فرع الأراكِ أريكةً ... ومال على طيّ الجناح مع النحر[٨]
ولما رأى دمعي مُراقاً أرابه ... بكائي فاستولى على الغُصن النضر
وحثَّ جناحيه وصفق طائراً ... وطار بقلبي حيثُ طارَ ولا أدري!

---

(١) العلق الغالي النفيس من كل شيء، والأخطر من الخطر وهو الشأن ذو الأهمية، الرفيع، والأسنى من السناء، وهو الضّياء.

(٢) الأطلاق جمع الطلق وهو الشوط. يقال: عدا طلقاً واحداً أو طلقين. والتجازي: التقاضي. يريد: المعاملة والعلاقة. والمحض: الخالص.

(٣) ترجمته في الذخيرة ١٥٨/٢، وجذوة المقتبس ٢٩٦، وبغية الوعاة ١٤٣، والمغرب ٢٥٠/١.

(٤) الورقاء نوع من الحمام. والهديل ذكر الحمام.

(٥) مفستق: أخضر بلون الفستق. واللازوردي أزرق أو أخضر. الكلكل في الصّدر: الطّلى: أصل العنق. أحوى: أسود ضارب إلى الحمرة. القوادم (ج قادمة) ريش الجناح الطويل.

(٦) التبر: الذهب الخالص.

(٧) الشبا: الحدّ، السن.

(٨) الأراك: نوع من الشجر. والأريكة: المنصّة.

يقول الشاعر: إنه تمّ تجاوبٌ، وانسجامٌ بي الشاعر الذي شجاه صوت الهديل أو نداؤه، فانساب دمعُ عينه تأثراً. فلما رأى الهديل دمع عيني الشاعر داخله الرَّيب من ذلك البكاء فصفق بجناحيه، وطار، ولم يَدْر أنّه حين طار، أخذ بقلبه، وتركه محبّاً والهاً.

واستطرد الشاعر في أثناء ذلك إلى وصف لطيف متقن بالغ التصوير لذلك الهديل الحسن الصوت، الجميل الشكل.

ـ ونجد في الشعر الأندلسي أوصافاً تقليدية شائعة في الأشعار المشرقية من وصف الخيل والنخيل والحمام، والبوادي، والمفاوز، والسيوف وسائر آلات الحرب والقتال، ووصف الحدائق والرّياض، والبِرَك والأنهار والأزهار والأنوار.

كما نجد التفاتاً إلى البيئة الأندلسيّة بما حُبيت به من خصائص وملامح جمال.

وهكذا شغلت تلك البيئة بما فيها الشعراء، والكتّاب، ولفتت أنظارهم إلى موجوداتها، ومجالي محاسنها، واستغرقت كثيراً من أنظارهم واستحوذت على عواطفهم، في تناغم بين ماتدركه الحواس المختلفة وبين ماتميل إليه النوازع المختلفة، والعواطف المضطرمة.

وغاص الشاعر الأندلسي في ما يرى ويسمع ويلمح في البساتين والرياض والغياض، والأنهار، والجداول، والينابيع، وفي الجبال، والسهول الفيحاء، وأعجبته ماتنبت الأرض من الشجر والنبّات، وخصوصاً تلك الأزاهير والزنابق وألوان الورد البديع الحسن الرائق المنظر؛ ورصدوا ملامح الجمال في كل شيء حولهم ممّا أخرجته الطبيعة دون أن تمتد إليه يد الإنسان، وممّا تدخّلت فيه الصناعة والبراعة ومهارات الفلاحة والزّراعة.

ووقف الشّعراء عند معاهدهم ودورهم، وعند زوارقهم وسفنهم وسجّلوا أعيادهم وأفراحهم ومواسمهم.

وأفاضوا من عواطفهم على ماكانوا يصفونه ممّا حولهم في تناسق وانسجام، واستغراق في حُبّ الطبيعة والائتلاف مع معطياتها في كل مكان. وظهرت الملامح الأندلسية في وصف الطبيعة خاصة، وفي سائر أوصافهم:

- من ذكر خصوصيات بلدانهم في شجرها وثمرها ونباتاتها العطريّة وخصائصها الجغرافيّة؛

- وذكر خصوصيّات أشكالهم، وأحوالهم، فقد صار الأندلسيون خليطاً من الأجناس والشعوب، صهرت في بوتقة أندلسية؛

- وذكر ملابسهم ومآكلهم ومشاربهم.

- وذكر أيامهم ومناسباتهم وعاداتهم في فصول السنة ومواسم الزرع والجني والقطاف..

ونقرأ لابن حزم، في قطعة غزلية[١]:

يعيبونها عندي بشُقرةَ شعرها فقلت لهم هذا الذي زانها عندي
بعيبون لونَ الدّر والتّبر ضلّةً لرأي جهول في الغواية ممتدّ
وهل عاب لونَ النّرجسِ الغَضّ عائبٌ ولون النّجوم الزّاهرات علىالبُعْد؟..

- ويعد ابن خفاجة[٢] أشهر شُعراء الأندلس في موضوع وصف الطبيعة، ولعل شعره يفيض بالمزايا التي تجعله في مقدمة شعراء العرب القُدامى في هذا الغرض فقد أكثر من وصف الطبيعة الأندلسيّة، ووصل بين الطبيعة وبين معظم أغراض الشعر الأُخرى، وجعل مفردات الطبيعة على اختلاف أنواعها معجماً لغوياً وفنياً يرجع إليه في صناعته الشعرية؛ وربط بين الطبيعة وبين رؤيته الخاصة للحياة بما فيها من عظاتٍ وعبر.

(١) طوق الحمامة ٤٦. وانظر المختار من الشعر الأندلسي ٦٧-٦٨.
(٢) له ترجمة في هذا الكتاب.

ويكون الشاعر بهذه الخصائص والمزايا:

ـ شخصية متميزّة بين الشعراء.

ـ ومدرسة لها مذهبها الفني، الذي عَبرّ عنه بعضُ النقاد القُدماء بعبارة: (النزعة الخفاجية)

ـ وخصوصيّة أَندلسيّة تضاف إلى المزايا الخاصة بالأندلس في ماقدّمته من خلال الحركة الأدبية عامة، وحركة الشعر خاصّة. وهذا توضيح وتفصيل:

١ـ قدّم ابن خفاجة في ديوانه، تعليلاً مفصّلاً لاستغراقه في وصف الطبيعة وائتلاف نفسه مع هذا الغرض، فقال: ((إكثارُ هذا الرجل من وصف زهرة، ونعت شجرة، وجرية ماء، ورنّة طائر ماهو إلا لأنه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات:

ـ لطبيعة فُطر عليها وجبلّة؛

ـ وإمّا لأنّ الجزيرة[(١)] كانت داره ومنشأهُ وقراره؛ وحَسْبُك مِن ماء سائح، وطير صادح، وبطاح[(٢)] عريضة، وأرض أريضة؛ فلم يعدم هنالك من ذلك مايبعث مع الساعات أُنسه، ويحرّك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر؛ فصار قوله فيه عن كلَف لاتكلّف، مع اقتناع[(٣)] قام مقام اتساع؛ فأغناه عن تبذّل وانتجاع)).

وقد عُمّر الشاعر طويلاً، وأتيح له أن يحقق هوايته كما نقول اليوم من الالتفات إلى الطبيعة، وصرف الشعر والشاعرية إليها، والإكثار من ذلك إكثاراً يلفت النظر، ويستحق التعليل الذي ذكره.

---

(١) هي (جزيرة شُقْر) بلدته، انظر ترجمة ابن خفاجة في هذا الكتاب.

(٢) بطاح جمع بطحاء: المكان المتّسع يمرّ به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصّغار. وهو يريد معنى السّهول.

(٣) يشير إلى اكتفائه برزق يسير كانت تدرّه عليه مزرعة صغيرة له. ويقول إن هذا الاكتفاء صرفه عن انتجاع الممدوحين واستفاد الشعر في المدح والتكسب، ولفته إلى الطبيعة الجميلة..

٢ـ استغنى الشاعر عن ذِكر الأَطلال الذي لازم القصيدة العربية طويلاً، وعوض عن ذلك بذكر الطبيعة في مجلى ــ أو أكثر ــ من مجاليها؛ كقوله من قصيدة في المدح:

ألا هل أطلَّ الأميرُ الأجلّ ... أم الشمسُ حلّت برأس الحَملْ
فما شئت من زهرةٍ نضرةٍ ... تردّى القضيبَ بها واشتملْ

إلى أن يقول:

فلم أدْرِ والحسنُ صِنْوٌ له ... أأبدأُ بالمدح أم بالغزل!

وكقوله في مطلع قصيدة إخوانية بعث بها إلى صديقه أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي[(١)]:

أمقامُ وصلٍ أم مقامُ فِراق ... فالقُضْب بين تصافُحٍ وعناقِ[(٢)]
خفّاقة ما بين نوحِ حَمامةٍ ... هتفتْ، ودمع غمامةٍ مُهَراقِ
عبثت بهن يد النّعامى سُحرةً ... فوضَعْن أعناقاً على أعناقِ[(٣)]
أنسينني خلق الوقار وربّما ... أذكرنني بمواقف العشّاق..

٣ـ انتبه ابن خفاجة إلى الألوان بعين واعية وحسّ مرهف، ووصف الطبيعة يفيده أن يكون الشاعر ماهراً في استخدام الألوان، بارعاً في الانتباه إلى ائتلافها واختلافها، ودورها في التشكيل اللّوني، والأثر الجمالي:

متنفسّاً عن مثل نفحة مسكةٍ ... متبسّماً عن مثل سمطي جَوْهَرِ
لو كنت حيثُ ترى الهلال ووجْهَهُ ... لوقفت شكّاً وقفة المتحيّرِ

---

(١) أديب ووزير، له ترجمة في هذا الكتاب.
(٢) القضب جمع القضيب، يريد أغصان الأشجار المتشابكة.
(٣) النعامى: ريح الجنوب، أو بينها وبين الصَّبا، وهي من الرياح المستحسنة.

فالوجه الموصوف هو وجه مشرق كأنه الصَّباح المشرق، والقوام كأنّه غصن معتدل الطّول، وصاحبته في نضرة الشّباب (ورق الشباب الأخضر)، وهي تنفح عن طيب كأنه نفحة المسك، وتبتسمُ عن مثل سمطين من اللؤلؤ. هذا الجمال الباهر يجعل من ينظر إليه وإلى القمر المُنير لايكاد يميّز أحدهما من الآخر لتقارُبِ التّشابه بينهما وارتقاء درجة الجمال فيهما.

٤ـ في شعر الطّبيعة عند ابن خفاجة اتّصالٌ بين تلك الموصوفات وبين نفس الشاعر، وعاطفته، وتمازجٌ بين كثير منها وبين رؤيته في الكون، وموقفه من الحياة.

فالشاعر يتعاطف مع مايصف، وكثيراً ماينقل إلى القارئ أحاسيسه بجزئياتها ووقائعها، ويجعل بعض معطيات الطبيعة سبيلاً إلى مشاركة وجدانه، وتصوّر ذاته.

ومن ذلك قصيدته التي اشتهرت بعنوان وصف الجبل، وقصيدته في صفة القمر[1]؛ فقد قال في القصيدة الأولى، يذكر الجبل:

أَصَخْتُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ فحدّثني ليلَ السُّرى بالعجائبِ
وقال ألا كم كنتُ ملجأ فاتكٍ وموطنَ أواهٍ تبتّل تائب
وكم مرّ بي من مولجٍ ومُؤَدِّبٍ وقالَ بظلّي من مطيٍّ وراكبِ...

والشاعر حين وصف أحسن المزج بين مختلف الألوان، وجمع بين اللمح الذكيّ، والحِسّ المُرهف، والمُلاحظة الدّقيقة، إضافةً إلى ذَوق الحضارة الذي يُحسنُ الملاءَمة بين الألوان، ويفرّق بينها، ويُحسن انتقاءها، كقوله في صفة فتاة بيضاء في حُلّة صفراء زكية الرائحة طيبة النفس:

وبيضاء في صفراء تحمل نفحةً تنفّس عنها المندل الرّطبُ والجَمْرُ[2]

(١) انظر القصيدتين في ترجمة ابن خفاجة في هذا الكتاب.
(٢) المَنْدل: عود طيب الرائحة.

وقوله في صفة نار وأشياء تتعلق بها[١]

وموقد نار طابَ حتى كأنّما يشبّ النّدى فيه لساري الدُّجا ندّا[٢]
فأطلعَ من داجي دُخانٍ بنفسجاً جَنِيّاً، ومن قاني شُواظٍ له وَرْدا[٣]
وضاحكَ غرّاً من وجوه وضيّةٍ فلم أدْر: أيٌّ كان أذكاهُما وَقْدا

فقد عبّر عن الألوان بما يماثلها من الزهر والورد، فجعل النّار اختلطت نارها بدخانها كالبنفسج، وحين صفت من دخانها كالورد.

٥ـ وصف ابن خفاجة الطّبيعة، فأخلص قطعاً وقصائد لوصفها استغراقاً لجزئيّاتها، ودخولاً في تفصيلاتها؛ كما مزج وصف الطبيعة بغرض الغزل وبوصف المجالس أيضاً. وقد أكثر الشاعر من هذه الأمور في ديوانه فصار ملمحاً من ملامح وصفه للطبيعة.

ومن شعره في هذا المقصد:

حذَرَ القناعَ عن الصّباحِ المُسْفِرِ ولوَى القضيبَ من الكثيب الأَعْفرِ
وتملّكَتْهُ هِزّةٌ في عِزّةٍ فارتَجّ في ورقِ الشباب الأخْضَرِ

– وقال في الثانية:

لقد أصخْتُ إلى نجواك من قمرٍ وبتّ أُدلِجُ بين الوعي والنَّظرِ
لاأجْتلي لُمحَاً حتى أعي مُلَحاً عدلاً من الحكم بين السمع والبَصرِ

فقد وَجد الشّاعر في الجبل إنساناً ذا تجارب يتحدّث بما جرى له، وكان معه من أحداث الزمان، ووَجد في القمر عِبَراً كثيرةً إن لم ينطق بها بلسان المقال فقد عرضها على الواعين من الناس بلسان الحال.

(١) الديوان ١٣٣.
(٢) الندّ: نوع من النبات يُتبَخّر بعُوده.
(٣) الشواظ: اللهب لا دخان له.

والاعتبار مقصد مهمّ للشاعر، نبّه عليه بهذه الكلمة عينها، وبألفاظٍ أُخرى مُشابهة. لقد صار لوصف الطبيعة غاية. وهي غاية فكريّة منهجيّة، ولكنّها لم تؤثر سلباً في جمالية الشعر ولاصنعة الفن، بل نقول إن هذه الغائيّة أضفت على شعر ابن خفاجة مزيّةً وخصُوصيّة.

٦ـ في خصائص شعر ابن خفاجة كثرة الصور فيه. فالشاعر يتقن صنعته ويميل إلى استنباط المعاني، والتجديد في الأداء، واستفراغ الطاقة في جعل النص كلاًّ متكاملاً من اللفظة المختارة إلى العبارة المحكمة، والمعاني الجديدة، أو المجدّدة، والصورة الـمُتقنة. وكان ابن خفاجة يعدّ نفسه حلقة في سلسلة شعراء الفكرة والصورة؛ والصَّنعة الـمُتقنة، والتلقائيّة الواعية. ومن هنا نفهم عبارة ابن خلدون: ((كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر ابن خفاجة لكثرة معانيه، وازدحامها في البيت الواحد)). ويُفهم من ازدحام المعاني كثرة الصور والأخيلة.

ومن ذلك قوله يصف مفازةً:

ومفازةٍ لانجم في ظلمائها ... يسري ولا فلك بها دَوّارُ
تتلهّبُ الشّعرى بها وكأنّها ... في كفّ زنجيّ الدُّجى دينارُ
ترمي بها الغِيْطانُ فيها والرُّبا ... دوراً كما يتموّج التَّيارُ
والقطب معتزمٌ لمركزه بها ... فكأنّه في ساحةٍ مسمارُ!

٧ـ امتزجت الطبيعة بكل معطياتها بشعر ابن خفاجة، ولازمت ألفاظُها أسلوبه في مقاصده الشعرية المختلفة، فصار يعبرّ عن موضوعاته بالاستناد على مفردات، وعبارات موصولة بالطّبيعة، ولم يعد ذلك مقصوراً على فنّ الوصف وحده.

لقد صار ابنُ خَفاجة يبني معانيه، وأفكاره، ويصوغ صوره من تشبيهات واستعارات وغيرها بالاستفادة من مفردات الطبيعة ومن متعلّقاتها أيضاً.

ونضرب مثلاً من قوله في الغزل:

غازلتهُ من حبيبٍ وجهه فلقٌ ... فما عدا أن بدا في وجهه شفقُ

وارتجّ يعثرُ في أذيال خجلتِه ... غصنٌ بعِطفيه من إستبرقٍ وَرَقُ!

فالوجه الأبيض المشرق (فَلَق)، ولما خجلت المحبوبة صار الوجه محمراً (شفق) والقامة مديدة (غُصن)، والثياب من استبرق (كورق الشجرة المذكورة).

وقوله في مدح الأمير أبي بكر بن تيفلويت:

وبَلاَ الإمارةَ في رفيفِ نضارةٍ ... جلت الدُّجا في حُلّة الأنوارِ

متقسّم ما بين شمس دُجُنّةٍ ... طلعت وبين غمامة مِدْرار

أرِجَ النديُّ بذكره فكأنّه ... متنفّسٌ عن روضةٍ معطار!

ومذ عصر ابن خفاجة، وفي حياته التفّ حوله عدد من المحبّين والمريدين، ونظر إلى منهجه وأسلوبه من أهل الأندلس في بلدانها المختلفة، تتلمذوا على مذهبه الشعري، وواصلوا خطّه الفني منهم ابن أُخته: ابن الزقّان البلنسي، والرُّصافي البلنسي، وابن عميرة المخزومي، ومحمّد بن عائشة، والكتندي، وابن مَرج الكُحل.

وظهر في دولة بني نصر: أبو البقاء الرُّندي، وابن الجَيّاب، ولسان الدين بن الخطيب، وابن خاتمة الأنصاري، وابنَ زَمْرَك (الذي تزيّن أشعاره جُدران قاعات قصر الحمراء بغرناطة)، وغيرهم وقد أكبّوا على طبيعة بلدانهم الجميلة، وجعلوا وصفها جزءاً من اهتمامهم، على درجات متفاوتة من ذلك الاهتمام، لكن الشعر والموشحّ أتمّ مهمة شعراء الفترات السابقة من وصف الأندلس والاستظلال بظلالها.

وفي شعراء المذهب الخفاجي ابن مرج الكُحل(١) أبو عبد الله محمد بن إدريس (٥٥٤-٦٣٤هـ) وهو من جزيرة شقر (بلدة ابن خفاجة ولد فيها، وبها كانت وفاتُه).

(١) له ترجمة في الإحاطة ٢/٣٤٣، والمغرب ٢/٣٧٣، والتكلمة ٢/٦٣٦، والوافي ٢/١٨١، ووفيات الأعيان ٢/٣٩٦. وانظر المختار من الشعر الأندلسي ١٤٢.

ومن قصيدةٍ له يصف فيها روضةً قولُه:

والــوُرْق تشــدو والأراكــةُ تنثــني والشمسُ ترفـل في قميـصٍ أَصْفَــرِ
والـروضُ بـين مفضّـض ومُعَسْـجَدٍ والزهــر بــين مُدَرْهَــمٍ ومُدَنــرَّ
والنّهـرُ مرقـومُ الأبــاطح والرُّبــا بمصنـدلٍ مــن زهــره ومعصفــر
وكأنّــه وكــأنّ خُضــرة شــطّه سيفٌ يُسَلُّ على بســاطٍ أَخْضَـرِ

وفي الشعراء الذين نهجوا نهج ابن خفاجة ومالوا إلى النزعة الخفاجيّة أبو بكر محمد بن عبد الله الكُتندي[١] (٥٠٦-٥٨٣ أو ٥٨٤هـ) وهو لغويّ وأديب وشاعر مُكثر مجيد.

وله قطعة يمزج فيها الغزل بالطبيعة الأندلسية، يقول فيها:

هـذا لســان الدمــع يُملـي الغـرامْ في صفحــةٍ أثـرّ فيهـا السَّــقامْ[٢]
عهــد لهنــدٍ لم يكــن بــالذي تقــدح فيــه نَفثــاتُ المــلامْ[٣]
يـــانهرَ شـــنيلَ ألا عـــودةٌ لذلـك العهـد ولـو في المنام؟![٤]
ماكــــان إلا بــــارقٌ خاطفــــاً مــازلتُ مــذ فــارقني في ظــلامْ
للهِ يـــومٌ منــــه لم أَنْسَــــهُ وذِكْــرُ مــا أَولاه أَولى ذِمــامْ[٥]
إذ هنــدُ غصْــنٌ بــينَ أَغصانهــا كــالدّوح يثنيــه هديــلُ الحمــام

فالطبيعة الجميلة في غرناطة ماتزال في باله، وملامح الجمال متداخلة بين البيئة التي يخترقها هذا النهر الفياض، وبين هند التي حَسُنَت وفاقت، وهي من جمالها كأنها غصن من أغصان أشجار ذلك المكان الجميل.

---

(١) انظر ترجمته في زاد المسافر ٩٥، وبرنامج شيوخ الرّعيني ٦٦، والمغرب ٢/٢٦٤-٢٦٥، والذيل والتكملة ٦/٣٤٩-٣٥٠.
(٢) الصفحة: الخدّ.
(٣) القدح فيه: تعيبه.
(٤) نهر شنيل هو النهر الذي كان يشقّ غرناطة.
(٥) الذمام: العهد.

ومما يشابه منهج ابن خفاجة أيضاً قوله في شجرة قديمة ثابتة في جانب من الحيّ تذكره بطفولته وصباه وذكرياته قوله:

ياسَرْحَةَ الحيّ يامَطُولُ شَرْحُ الّذي بَيْننا يَطُولْ..[١]
عندي مقالٌ فهل مقامٌ تُصغين فيه لما أَقول؟
ولي ديون عليك حَلّت لو أنه ينفع الحُلولُ[٢]
ماضٍ من العيش كان فيه منزلنا ظلك الظليلُ
زال وماذا عليه، ماذا ياسرح لو لم يكن يزولُ
حَيا عن المدنف المُعَنّى منبتك القطرُ والقَبُولُ[٣]

واستمر شعراء الأندلس الباقية على صلة بطبيعة بلادهم، وعلى الاستظلال بظلالها الجميلة، ورفع الإشادة بتلك البلاد بما فيها من الخير والجمال.

ولايخلو ديوان شاعر من شعراء عصر غرناطة من وقفات عند وصف الطبيعة كالذي نجده في شعر ابن الجيّاب، ولسان الدين، وابن خاتمة الأنصاري، وابن زمرك، وابن فركون، وغيرهم.

ومن يتابع المذهب الخفاجي في هذه المدّة يجد التفاتاً من بعض الشعراء إلى طريقة ابن خفاجة، وانسجاماً معها.

ومن الشعر الذي نلمح فيه أسلوب ابن خفاجة (الذي يوظف فيه مُعطيات الطبيعة لأغراض أُخرى) قول ابن زمرك[٤] :

---

(١) المَطُول: كثيرة المماطلة. والسرحة: كل شجرة طالت؛ والدوحة العظيمة المحلال التي يحلّ تحتها الناس في الصيف، ويبنون البيوت تحتها، وظلها صالح (جيّد).
(٢) الحلول من حلول وقت الدَّين، أو وقت الوعد.
(٣) المُدْنَف: أصله في المريض، والمراد: المحبّ. والمعَنّى: المعذّب. والقطر: المطر. والقَبُول: ريح الصبا، وهي ريح خفيفة طيّبة.
(٤) أزهار الرياض ٢/٤٠-٤١.

عذيري من لحظٍ ضعيفٍ وقد غدا   يُحكِّم منّا في جسومٍ وأَنْفُسِ
وروضِ شباب ماسَ غصنُ قوامِه   وفتحَّ فيه اللَّحظُ أزهارَ نرجسِ
ومازالَ وردُ الخدّ وهو مضعّف   يعيرُ أقاحَ الثغّر طِيْبَ تنفّس
وكم جال طِرْف الطرف في روض حُسْنِه   يقيدّه فيه العِذارُ بسندسِ
أما وليالي الوصل في روضة الصّبا   ومألف أَحْبابي وعهدُ تأنّسي
لئن نسيتْ تلكَ العهودَ أَحبّتي   فقلبي عهودَ العامريّةِ ما نَسِي!

* * *

الحنين إلى الوطن:

١ـ لايخلو أدبُ أمّة من الأُمم من شعر (أو نثر) يعبّر فيه المُبدع عن أَشواقه إلى الوطن، وحنينه إليه، وارتباطه به وتمن فيه، كلما اضطرته الظروف إلى مغادرة الوطن مغادرةً مؤقتة، أو طويلة، أو دائمة، ولكل شاعر أُفقه في هذه القضايا، وتلوين أفكاره وأُسلوبه، وطريقة تناوله. ولكنّ هذا الأدب جميعاً هو أدبٌ يَنْضَحُ بالرّوح الوثّابة، والعاطفة المشبوبة، التي لاتخلو ـ غالباً ـ من ميل إلى الحُزْن، والتأمّل. ولايخلو هذا الشعر من نسائم الأمل بالعودة، أو تسجيل خَطرات النفس في هواجسها، ودمعاتِ المُقل في انسيابها، وزفرات الشوق في تصعيدها.

ولشعراء الأندلس شعرٌ كثيرٌ في هذا الغرض. وقد زادوا على كثير من شعراء الأقطار الأخرى من حيث الوفرةُ، أو قوّةُ العاطفة، أو رنّةُ الأَسى، أو لهفة اللّقاء، نظراً لظروف الأندلس التي كانت في حال استنفار متواصل؛ وكانت ثغراً من ثغور المسلمين تحتاج إلى يقظةٍ دائمة؛ وكان أهلُها من الشيوخ والشبان والفتيان في حال استعدادٍ دائم، ومشاركة مستمرة في حركات الجهاد في أرض العدوّ، أو في الدفاع عن الوطن.

يضاف إلى ذلك:

ـ بُعد القطر الأندلسي عن بلاد المشرق، فهم أقصى بلد في غرب الدولة العربية الإسلامية. وسفَرُ المسافر لأيّ غرض يعني غيبةً طويلة وأوبةً مرجوّة محفوفةً بالمخاطر؛

ـ وقَصْدُ ديار الله المكّرمة في مكّة والمدينة والقدس للحجّ والعُمرة؛ وزيارةُ الرسول، ﷺ، والتّقديس إلى المسجد الأقصى.

ـ وسَفَرُ العلماء للاستزادة من الروّاية والدراية في المشرق، وسفر طلبة العلم.

ـ ورحلات التّجارة، وطلب المعاش؛

ـ ورحلات الرحّالة المستكشفين، وكان هؤلاء يبدؤون بالحج والعمرة والزيارة والتقديس.

ـ ورحلات أَهل الفُضول الذي يضربون في آفاق الأَرض شجاعةً منهم، وتحرّياً للجديد.

وكثيراً ما كان المسافِرُ لايؤوب، فقد يطيبُ له المقام في مكان من بلاد الإسلام الواسعة؛ وقد يبقى من باب الأمِر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تكون رحلتُه أصلاً قَصْدَ الاغتراب والسُّكنى في الشَّرق.. وكان هؤلاء المغتربون (الذي ينوون العَوْدة منهم، والذين أقاموا لسببٍ من الأسباب) يُطلقون قصائدهم ومقطوعاتهم التي يذكرون فيها الأندلس، ويحِنّون إليها وإلى الأهل فيها؛ ويقدّمون آثاراً طافحةً بالعاطفة الغامرة، والإحساس الرّقيق، غنيّةً بكل مُقوّماتِ النصّ الأدبي المؤثّر، القادر على البقاء والخلود.

٢ـ والأندلس ـ عند أَهلها ـ جَنّة الله في أرضه، وهم ـ حيثما ذهبوا ـ لاتُغادرهم صورة بلادهم، ولايملّون من ذِكرها والتشوّق إليها. وهذا التصوّر من الشعراء لبلادهم قديمٌ، يرجع إلى الوافدين الأَوائل؛ موصول إلى آخر زمان المُسلمين في الأندلس. بل إنّ ذكرى الأندلس ماتزال ماثلة في نفوسِ حَمَلة مفاتيح الدُّور والبُيوت الأندلسية التي يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد لممتلكاتهم هناك، وهي ذكرى دخلت في نفوس العرب والمسلمين، ولو لم يدخل أحدٌ من أجدادهم تلك الدّيار. ومن يرجع إلى دواوين شعراء العرب في

العصر الحديث[1] يجد (الوجود الأندلسي) ماثلاً، وكأنّ العرب ما يزالون يحرّكون حيوية الحياة في ذلك الفردوس العزيز.

ويكفي أن نَتمثّل بقطعةٍ لأبي عبد الله محمّد بن سفر المريني[2] (نسبةً إلى مدينة المَرِيّة) من رجال القَرْن السّابع الهجري، وكان (شاعر المَرِيّة في عَصْرِه) قال فيها:

في أرضِ أندلسٍ تَلْتَذُّ نَعْماءُ ولايُفارق فيها القَلْبَ سَرَّاءُ

وليسَ في غيرها في الأُنسِ مُنْتَفَعٌ ولاتقومُ بحقّ الأُنس صَهْباءُ

وأين يَعْدِل عن أرضٍ تحضُّ بها على المدامة أمواهٌ وأفياءُ

وكيف لايُبْهج الأبصارَ رؤيتُها وكلّ رَوْضٍ بها في الوشي صنعاءُ

أنهارُها فضّةٌ والمِسْكُ تربتها والخَزُّ رَوْضَتُها والدرُّ حَصْبَاءُ

يقدّم الشاعر صفاتٍ حسنة أخرى من صفات الأندلس، وهي صفاتٌ وخصائص كافية لتجعل كل من يعرفها يتعلق بها، فكيف بأبنائها والمستظلين من أجيال عتيقة بظلّها؟.. إلى أن يقول في ختامها:

فيها خلعتُ عذاري مابه عِوَضٌ فهي الرّياضُ، وكل الأَرض صَحْراءُ!

فهذا شعور عارم من ممثّل فنّان، ينوب عن أهل الأندلس جملةً في التعبير عن التعلّق بالأندلس، وفي النظر إلى بلادهم على أنها جنّة الأرض بلا منازع.

٣ـ ويقترب جانبا شعر الحنين من خصائص مشتركة، أعني حنين الأندلسّي، وهو في ديار الأندلس، إلى بلدته أو وطنه الصغير، وحنينه أيضاً وهو خارجَ الأَندلس إلى وطنه الكبير، ووطنه الصّغير في الوقت نفسه. ومن هنا نفهمُ رقّة

(١) انظر مثلاً دواوين أحمد شوقي، وعمر أبو ريشة ونزار قباني...

(٢) ترجم له في المغرب ٢/٢١٢، ونفح الطيب ١/١٥٧، و٢٠٩، والمريني نسبة إلى المريّة. ويقال: المريّي والمريني، كما قالوا في النسبة إلى إشتركوية: إشتركويي وإشتركوني. (انظر بحث المقامات في هذا الكتاب)، وزيادة النون في النّسبة معروفة كقولهم داراني في النسبة إلى داريّا (بلدة قرب دمشق) ودوماني ودومي نسبة إلى دوما (أو دومة) مدينة قرب دمشق.

الشعر، وقوة الحنين في قصائد ابن زيدون التي ذكر فيها مدينة (قرطبة) وهو بعيدٌ عنها.

يقول ابن زيدون من قصيدة مخمّسة:

أقرطبة الغَرّاء هل فيك مطمعُ؟
وهل كبِدٌ حَرّى لِبَيْنِكَ تُنْقَعُ؟
وهل لليَاليكِ الحميدةِ مَرْجِعُ؟
إذ الحُسْنُ مرأى فيك واللّهو مسْمَعُ وإذْ كنفُ الدُّنيا لديكِ مُوطّأُ

ويضم (الزّهراء) إلى قُرطبة فهما أُمٌّ وبنتٌ، أو هما أُختان جميلتان؛ فيقول من المخمسة نفسها:

ويا حَبَّذا الزهراءُ بَهْجَةَ مَنْظَرِ
ورقّةَ أنفاسٍ وصحّةَ جَوْهرِ
وناهيكَ من مَبْدا جَمالٍ ومَحْضَرِ
وجَنّةِ عَدن تَطَّبيكَ وكَوْثرِ بمرأىً يزيدُ العُمْرَ طِيْباً ويَنْسأُ[1]

ويذكر الشاعر مواضع أخرى في قرطبة، وحولها..

ـ واضطر ابن خفاجة إلى الخروج عن بلدته شُقر، وعن شرق الأندلس جُملةً (حين سَطا القمبيطور الإسباني على تلك المنطقة وجعل بلنسية مركزاً له)[2] وقد لجأ ابن خفاجة إلى المغرب، ومّما قاله هناك:

فقلتُ ولي دمعٌ ترقرقَ فانهمى يسيلُ وصبرٌ قد وهى فتضعضعا:
((ألا هل إلى أرض الجزيرة أَوبةٌ فأسكن أنفاساً وأهدأ مَضْجَعا؟))

(١) تَطّبيك: تدعوك، وينسأ: يزيد في العُمر؛ يُطيله.
(٢) انظر في تاريخ هذا المُرتزق الإسباني الأَفّاق: دولة الإسلام في الأندلس ـ عصر المرابطين والموحدين، الجزء الأول.

وعبارة الجزيرة محيّرة، فالأندلس جميعاً يطلق عليها اسم الجزيرة، ومدينته هي: جزيرة شُقر!..

ـ وله الأبيات الذائعة:

إن للجنّة بالأندلس مُجْتلى مرأىً وريّا نفَسِ
فسَنا صُبحتها من شَنبٍ ودُجا ليلتها مِن لعَسِ
فإذا ما هبّت الرِّيح صَبا صِحْتُ: واشوقي إلى الأندلسِ!

وكأنّ الشاعر اختصرَ أحاسِيسَهُ، وعواطِفَهُ، واندفاعة قلبه ووُجدانه بهذه العبارة القريبة من العبارات الشعبية الدارجة: ((واشَوْقي إلى الأندلس!))..

ـ وله القصيدة البارعة التي يصحّ أن تكون عنواناً على جانبٍ مهمّ من شخصيّة الشّاعر[١]، وأن تكون نموذجاً لشعر الحنين في الأندلس، قال يتشوّقُ إلى معاهده بجزيرة شُقر، ويندب ماضي زمانه:

بين (شُقر) ومُلتقى نهريها حيثُ ألقتْ بنا الأماني عصَاها[٢]
ويغنّي المُكَّاءُ في شاطئيها يستخفُّ النُّهى فحَلّتْ حُبَاها[٣]
عِيْشةٌ أقبلتْ يُشَهّى جَناها وارفٌ ظِلُّها لذيذٌ كراها
لعِبتْ بالعقولِ إلا قليلاً بين تَأْويبها وبَيْنَ سُراها[٤]
فانثينا مع الغُصونِ غصوناً مَرحاً في بطاحها ورُباها
ثم ولّت كأنّها لم تكدْ تلبثُ ..إلاّ عشيّةً أو ضُحاها
فاندُبِ المَرْجَ فالكنيسةَ فالشطّ.. ..وقل آهِ يامُعيدَ هواها[٥]

---

(١) انظر دراستنا عن ابن خفاجة.

(٢) شُقر اسم مدينة الشاعر. وتدعى جزيرة شقر أيضاً؛ لأن نهر شقر ينقسم قبلها فرعين ثم يلتقيان بعدها.

(٣) المُكّاء: طائر مائي. الحُبا جمع الحبوة: جلسة يشد فيها الجالس يديه ويشبكها معاً ويضم إليهما رجليه. وفي (حلتّ حباها) استعارة، وفي الكلام كناية أيضاً.

(٤) التأويب: سير النهار، والسّرى: سير الليل.

(٥) هذه أسماء مواضع في شُقر. يذكرها الشاعر بتداعي ذكرياتها

آهِ مـــن غربـــةٍ ترقـــرقُ بثّـــاً ... آهِ مـــن رحلـــةٍ تطـــولُ نَواهـــا
آهِ مـــن فُرقـــةٍ لِغَـــيْر تـــلاقِ ... آهِ مـــن دار لايجيـــبُ صداهـــا
لستُ أدري ومَدْمعُ الـمُزنِ رَطْـبٌ ... أبكاهـــا صبابـــةً أم ســـقاها
فتعـــالَيْ يـــاعَيْنُ نَبـــكِ عليهـــا ... مـن حيـاةٍ إن كـان يُغـني بكاهـا
وشـبابٍ قـد فـاتَ إلاّ تناسـيه.. ... ..ونفـسٍ لم يبْـقَ إلا شَـجاها
مـا لِعَيْـني تبكـي عليهـا وقلـبي ... يتمنّـى سَـوادُهُ لـو فدَاهـا؟!

وكان الرصافي البلنسي[1] قد خرج من بلدته صغيراً ممّا حفزه على ذكرها في شعره، والحنين إليها، كقوله:[2]

خليليّ ما للبيد قد عبقت نَشْرا ... وما لرؤوس الركب قد رُنّحت سكرا
هل المِسْك مَفْتوقاً بِمَدْرَجة الصَّبا ... أم القوم أجْرَوْا مِنْ بلنسية ذِكرا؟
خليلي عُوّجا بي علَيْها فإنّهُ ... حديث كبرد الماء في الكبد الحَرَّى
بلادي التي ريشت قويدمتي بها ... فُرَيْخاً وآوتني قرارَتُها وَكْرا[3]
مبادئ لِيْنِ العيش في رَيّق الصِّبا ... أبى الله أن أنسى لها أبداً ذِكرا
لبسنا بها ثوبَ الشبّاب لباسَها ... ولكنْ عَرينا من حُلاه ولم تَعْرى
أَمَنْزِلنا عَصْرَ الشبيبة ما الذي ... طوى دوننا تلك الشّبيبة والعطرا؟..

وابن سعيد[4] (أبو الحسن علي بن موسى) (٦١٠-٦٨٥هـ) أحد أدباء الأندلس الذين خرجوا منها ولم يتح لهم العودةُ إلى الدّيار؛ وفي شعره حنينٌ إلى الوطن، ولهفة إلى لقائه، ومن ذلك قوله وهو في مصر:

---

(١) مرّ ذِكره في شعر المديح.
(٢) الديوان ٦٧-٦٨.
- والرصافة: ضاحية، ومتنزهات بين بلنسية والبحر.
(٣) قويدمة تصغير قادمة، وهي إحدى القوادم (٤ ريشات في مقدّم الجَناح).
(٤) أديب ومؤرخ وجغرافي، وشاعر، ومؤلّف، وناقد. وهو صاحب (المغرب في حُلى المَغْرب) طبع، في جزأين، وكتب أُخرى أندلسية، وعامّة.
- وانظر الذيل والتكملة ٤١١/٥، والديباج المُذهب ٢٠٨، ونفح الطيب ٢٦٢/٢، وفوات الوفيات ١١٢/٢.

هــــذه مصــــرُ فـــأينَ المغـــربُ   مـذ نـــأى عـــني دموعـــي تســكبُ
فارَقَتْـــهُ النفـــسُ جَهْـــلاً إنّمـــا   يُعـرف الشـــيء إذا مـــا يذهـــبُ
أيـنَ حمـصٌ؟ أيـــن أيّـــامي بهـــا   بَعْدَهـا لم أَلْـــقَ شـيئاً يُعجِـــبُ!

فهو في شوق دائم، ودموع غالبة، ويتذكر الشاعر مدينة إشبيلية الجميلة (حمص الأندلس)، ويقرر أنه لم يرَ بلداً في البلاد التي زارها يعجبه أن يقيم فيه، أو يعوّضه عن ذلك الوطن الحبيب!..

ـ وخرج أبو البقاء الرُّنـدي مـن ا **لأندلس** إلى المغرب في غرض لم يذكره الشاعر، لكنّه سجّل في قصيدة نظمها بمدينة مرّاكش بُعده عن الأندلس جملةً، وعن مدينة رُندة خاصّة، فقال:(١)

بحيـاةِ مـا ضَمّـت عُـرى الأزرارِ   بِذمـام مـا في الحـبّ مـن أَسْـرَارِ
بـالحِجْر بـالحَجر المكـرّمِ بالصَّفـا   بـالبيت بالأركـــان، بالأســتارِ
بـــالله إلا مـــاقضيتَ لُبانـــةً   تقضي بهـا وطـراً مـن الأوطـارِ
وتكف من أشـجان صـبّ يشـتكي   جـور الزمـانِ وقلـة الأنصـارِ
بلّغْ لأندلس الزمـانِ وصـف لهـا   مـابي مِـنَ اشـواقٍ وبُعْـدِ مـزارِ
وإذا مـررتَ بِرُنـدةٍ ذات الـمُنى   والـرّاح والزّيتـونِ والأزهـارِ
سَلّم علـى تلـك الدّيـار وأهلهـا   فـالقوم قومـي والديـار ديـاري

وقد أخرج الشاعر قطعته مخرجاً عاطفياً عميقاً؛ ودخل إلى موضوع الحنين من باب استحلاف السامع ـ الذي يصل إليه نداء الشاعر ـ بأُمور كثيرةٍ تصلح

(١) النص من مخطوطة الوافي في نظم القوافي (نسخة الرباط، الصفحة ٣٩).

لذلك، وتلفت نظره ليحمل عنه رسالة شوق ومحبة وحنين إلى بلدته رُندة، التي تستأهل منه تلك اللفتة واللهفة في آنٍ معاً، وكيف لاوهي مدينته، وملعب صباه، وهي المدينة ذات المزايا التي تُحبّبُ بها النّاس جميعاً، فما بالك بابنها، ومواطنها الغائب البعيد الغريب؟

وهذا ابن فَرْكُون[1] يحنّ إلى بلده الصغير غرناطة، وهو بجبل الفتح (مدينة أنشئت زمن الموحدين عند جبل طارق)، ويودع في قصيدته كثيراً من الأفكار التي تقال في شعر الحنين إلى الوطن، فهو يشكو من البُعد، ويتشوق إلى الأرض ومن عليها من الأهل والأحبة والأصحاب، ويعلنُ أنّ بلاد الله الواسعة جميعاً لاتنوب مناب الوطن:

هل بعَد طولِ تغرُّبي وفراقي ... أرجو اللقاءَ ولاتَ حين تلاقِ
لمّا رحلتُ عن المنازل لم يزلْ ... سُكنى الغرام بقلبي الخفّاقِ
ياحادي الأظعانِ مالك والسُّرى ... الله في الرّمق الذي هو باقِ!
هي دارُ أحبابي وموضع صَبْوتي ... ومحلّ جيراني ورَبْعُ رفاقي
جارَ الزمانُ ببعدهم ولعلّه ... يوماً يجودُ بعادة الإشفاقِ

وتكثر قصائد الحنين في ديوانه، وهي قصائد مدونة في أوائل القرن التاسع والدنيا تضيق على العرب والمسلمين في الأندلس، والأندلسيّون في حالة استنفار قُصوى ـ كما يقول العسكريون اليوم ـ فالعدو محيطٌ بهم، وهو يتحين الفرص

---

(١) أبو الحسين بن أحمد بن سليمان... بن هشام القُرشي. والده أحمد كان من تلاميذ لسان الدين بن الخطيب (انظر ترجمته في هذا الكتاب) واشتغل أحمد المذكور بالكتابة السلطانية في ديوان مملكة غرناطة ثم تحوّل إلى القضاء. وكان جدّه سليمان من أهل العلم أيضاً. ولد نحو سنة (٧٨١هـ)، وتدرج في العلوم والأدب حتى صار كاتباً في الديوان (كأبيه)، وخدم السلطان النصري يوسف الثالث (وكان شاعراً له ديوان مطبوع) ومدحه كثيراً.

ـ ولابن فركون ديوان حققه د. محمد بن شريفة وصدر في مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ويعدّ ديوانه وديوان البسطي في أواخر ماوصل إلينا من دواوين شعراء الأندلس.

ـ وعلى ديوان ابن فركون مقدمة مهمّة عن الشاعر وعن ممدوحه الملك يوسف الثالث سلطان غرناطة.

لاقتناص مايستطيع من الرّجال، واقتطاع مايستطيع من الأرض، وغصب مايمكنه من غنائم وسرقات. ومن هنا ارتفع صوت الارتباط بالأرض، والشعور بقيمة الوطن، إضافة على المعاني التي تثور في نفس المغترب وإن كانت البلاد في أحسن أحوالها.

الرثاء

١- رثاء الأفراد:

غَرض الرثاء[١] من الأغراض التي يقترب فيها الشعراء بعضهم من بعض في أعيان الأشخاص المرثيّين، وفي اتجاهات الرثاء (بصفة عامة)، وفي كثير من المعاني التي ترد على ألسنة الشعراء.

ويكثرُ رثاء الأهل الأقربين كالوالدين، والزوجة، والأولاد، ورثاء الأصحاب ذوي العلاقة الحميمة، ورثاء ذوي المكانة السياسية والاجتماعية (كالممدوحين سابقاً)، ورثاء أهل العلم والفضل كالقضاة والأساتذة الكبار...

ورثاء الأفراد من قديم يتخذ ألواناً ثلاثة:

- النَّدْب، (أو البكاء على الميت ذي الرحم والقرابة)؛
- والتأبين بذكر فضائل الميّت تبياناً لخسارة المجتمع بوفاته؛
- والعزاء بتصوير الموت على أنه سنة من سنن الكون، لا مفرّ منه.

١ ـ ونقرأ في ديوان ابن عبد ربه شعراً فيه خطراتٌ عن الموت، فالموت قضاء لازم:

ذاكَ القضاءُ الّـذي لا شيءَ يصرفُـهُ   حتـى يفـرّقَ بـينَ الـرُّوحِ والجَسـدِ

وفي ديوانه أكثر مـن قطعة أو قصيدة في رثاء بعض ولده، وفي إحداها يقول:

---

(١) الأندلس ٣٢٣؛ وانظر (الرّثاء) من سلسلة: فنون الأدب العربي ـ دار المعارف ـ.

قصدَ المنونُ لهُ فماتَ فقيدا ومضى على صَرْفِ الخُطوبِ حميدا
بأبي وأُمي هالكاً أفردْتهُ قد كانَ في كُلِّ العلومِ فريدا

ومنها:

تأبى القلوبُ المستكينةُ للأسى من أن تكونَ حجارةً وحديدا
إنَّ الذي بادَ السُّرور بموتِهِ ما كانَ حُزني بعدَهُ ليَبيْدا

ويختم القصيدة بهذين البيتين:

لولا الحياءُ وأنْ أُزَنَّ ببدعةٍ مّما يعدّده الورى تعديدا
لجعلتُ يومَك في المنائح مأتماً وجعلتُ يومك في الموالدِ عيدا

وقد عدّد الشاعر مزايا ذلك الولد الفقيد، وذكر المَلامح التي رآها الناس فيه، وهي تبشّر بعالم واسع المعارف متعدّد المواهب، وكأنه يجمع صفات القاسم بن محمد والأسود بن يزيد والأخفش وابن المبارك وابن المسيّب. بل إن فيه مبشرات بشاعر متميّز... إلخ[1].

ورثى أبو إسحاق الإلبيري زوجته رثاءً رقيقاً: ذكر فيه شمائلها من التقوى والورع والأدب الجمّ وحيّى ذكراها، وبكاها، وأسف على فراقها، ودعا لها، وتفجع عليها، وقال: إنها تستحق أن يقضي أسفاً عليها...

عُجْ بالمطيّ على اليَبابِ الغامرِ [2] واربَعْ على قَبْرٍ تَضمّن ناظري[3]
فستستبينُ مكانَهُ بضجيعهِ وينمُّ منه إليكَ عَرْفَ العاطِرِ
فلكم تضمّن من تقىً وتعفُّفٍ وكريمِ أعراقٍ وعرضٍ طاهرِ

---

(١) الديوان الطبعة الثالثة ٧١-٧٢.

(٢) القصيدة في الديوان ٩٠.

(٣) اليباب والغامر: الخراب. ومعنى اربَعْ على نفسك: انتظر.

واقْـرَ السّـلامَ عليه مـن ذي لوعــةٍ صدعتْـهُ صَدْعـاً مـا لـه مــن جـابرِ

وفي القصيدة:

إنْ كـان يَدْثــرُ جســمهُ في رَمْسـهِ فهـوَايَ فيـه الدَّهْـرَ ليـس بداثــرِ[1]

قطعَ الزمـانَ معي بـأكرم عِشـرةٍ لهفـي عليـهِ مــن أبـرِّ مُعَاشـرِ...

ولــو أنّــني أنصفتـــهُ في وُدّهِ لقضيـتُ يـوم قضـى ولم أَسْـتاخِرِ

وتمضي القصيدة على هذا النمط من رقة المشاعر، وحسن الوفاء، وذكر المآثر، وتبيان المواجد، وإظهار التأثر، ويستفيد الشاعر من ذكر الموت ليعود إلى نهجه في اطّراح الدّنيا، واستفادةِ الموعظة.

والقصيدة واحدة في قصائد رثاء الشعراء لزوجاتهم. وهذا النوع من الشعر قليل؛ ـ أو هو على الأقل ـ قليل الوجود، فلعل بعضهم ينظم في ذلك شعراً، ويرغب في عدم نشره؛ كما قال جرير:

لــولا الحيــاءُ لهـاجَني اســتعبارُ ولــزرتُ قــبرَكِ والحبيــبُ يُــزارُ

وعبّر الأعمى التُّطيلي[2] عن حزنه لفقد زوجته (آمنة) ووله إثر فقدها، وكان للصنعة الفنية المتقنة في القصيدة أثر واضح ممّا زاد في إيصال فكرة الشاعر، وفي إبراز عنصر العاطفة المشبوبة عنده:

أآمِـنَ إن أجْـزعْ عليـك فـإنّني رُزِئْتك أحلى من شبابي ومـن وفـري

برغمي خلّي بين جسـمك والـثرى وإن كنتُ لا أخشى الترابَ على التّبْرِ

هنيئـاً لقـبر ضـمّ جسـمك إنّـه مقـرّ الحيـا أو هالـةُ القمـر البَـدْرِ

إذا جئـتِ عدنـاً فاطلبينـا فقلّمـا تقدَّمتِنـي إلا مشـيتُ علـى الأثـرِ

ولا تعذلـيـني إن أقمــتُ فربّمـــا تـأخّر بـي سَعْيي وأثقلـني وِزري!

---

(١) الرّمس: القبر. ودثر: بلي.

(٢) ديوان الأعمى التطيلي ٧٠.

فقد أثنى عليها في شخصها، وفي حُسن عشرتها له، وفي عظيم رعايتها، فقد كان كفيفَ البصر وكانت هي عينه، ومرشده، ودليله إضافة إلى المودّة والرّحمة. ودعا لها بالبركة، ورجا أن تكون بحسب أعمالها الصالحة ـ في جنة النعيم.

ـ وقال أبو عامر بن الحمّارة[1] في رثاء زوجته زينب:

ولّما أن حَلَلْتِ التُّرْبَ قلنا: ((لقد ضلّت مواقعها النجومُ))!
ألا يا زهرة ذَبُلتْ سريعاً أضَنَّ المزنُ أم ركدَ النَّسيم؟

فقد بنى البيت الأول على مفارقة طريفة وإيهام بديع: فإن المتوفاة في منزله النجوم (عالية رفيعة) فكيف يصح أن تنزل النجوم لتكون في التراب؟ واستغرب ذبول زَهْرَتِها السَّريع (المَوْت)، ولا تذبل الزهرة في إبّانها إلا لأمرٍ عظيم كانحباس المَطر (القحط) وسكون النسيم الذي معه حركة الحياة!.

ـ ورثى أبو البقاء الرُّندي زوجته بقصيدةٍ يقول فيها[2] :

مضت مُضِيّ الصّبا عَنّي ولا عِوَضٌ ومن يقوم مقام الشمس والقمر؟...
يا ليتني عندما حُمّ الحِمامُ، كما قاسمتُها كبدي قاسمتُها عمُري
فإن تكن زهرةً من روضها قُطفت فقلّما تُمْتِعُ الأيامُ بالزَّهَرِ
وإن تكن دُرّةً من سلكها خُطفت والدهر أدْرى بما يَسْبي من الدُّرر

ويميل في جانب من القصيدة إلى التجلّد:

يا قلبُ صَبْراً على ما قد فُجعت به فلست في دفع مقدورٍ بمُقْتَدرِ
لا تَبْكِ فَقْدَ حبيبٍ أنتَ تابِعهُ إذا مضى البعضُ فالباقي على الأثر

---

(١) أصله من المهدية بتونس، وتتلمذ على ابن باجة بالأندلس. ويُعَدّ في فلاسفة الأندلس (فرّوخ٥/٤١٦) عاش أبو عامر بين (٥٠٠و٥٧٠هـ).

(٢) النصّ من دراستنا ((أبو البقاء الرندي: شاعر رثاء الأندلس)) الطبعة الثانية ٧٧.

ونلاحظ في الأبيات التي اخترناها من القصيدة مع اللّوعة والأسى لمسة الوفاء، واستمرار الذكرى الطيبة؛ ونلمح أيضاً تصريحه بمشاعره الفيّاضة التي تدلّ على المحبّة القديمة، والمودّة التي ربطت بينه وبين الفقيدة. لقد كان الشاعر فقيهاً، زاهداً، على سمت خاص من الحياة ولكن هذا لم يمنعه من التّعبير الإنساني عن الوفاء والذكرى، ومن التعبير الإسلامي عن إظهار حُسن العشرة والدعاء للفقيدة بالرّحمة.

- ورثى أبو الوليد الباجي[١] ابنين اثنين ماتا مغتربين، فممّا قال فيهما:

رعى الله قبرين استكانا ببلدةٍ ... هما أسكناها في السَّواد من القلب

يقرُّ بعيني أن أزور ثراهُما ... وأُلصقَ مكنونَ التّرائب في التُّربِ[٢]

وأبكي، وأبكي ساكنيها لعلّني ... سأُنْجَدُ من صحبٍ وأُسْعَدُ من سُحْبِ[٣]

وما ساعدت وُرْقُ الحَمام أخا أسىً ... ولا روّحتْ ريحُ الصَّبا عن أخي كربِ

ولا استعذبت عيناي بعدهما كرىً ... ولا ظمئت نفسي إلى البارد العَذْبِ

لقد جمَع الشاعر في ما ابْتُلي به، بين ثكل الولدين معاً، وبين وفاتهما في اغترابهما. ومن هنا كانت أمنية الشاعر - لو تحققت له - أن يجد القبرين، وأن يلصق صدره، وفي الصّدر قلبُه، فوق ذلك الثرى الذي ضم فلذتي الكبد، وحَبّتي القلب.

- وقريب من هذا الموقف رثاء ابن خفاجة لابن أُختٍ له بلغَتْهُ وفاته بأَغْمات (من بُلدان المغرب)؛ قال من أول القصيدة:

---

(١) أبو الوليد الباجي (سليمان بن خلف ٤٠٣-٤٧٤هـ) من أئمة الفقه المالكي بالأندلس، وكان إلى علمه بالفقه محدّثاً متكلماً وأديباً شاعراً.

(٢) الترائب: عظام الصّدر. الثرى: التراب. ويريد القبر.

(٣) عسى أن ينجده الصّحب ببكاءٍ يشفي غليله ووجده، أو يُسْعِده وابلٌ من السحب ينضمّ إلى وافد دموعه. والإسعاد عند العرب في الجاهليّة مسايرة الثكلى في البكاء على فقيدها. وقد ورد النهي عن الإسعاد كما في الحديث. والشاعر يورد العبارة على سبيل المحاراة الشعرية.

أرقتُ أكـفُّ الدمعَ طوراً وأسفحُ وأنْضَحُ خَـدّي تـارةً ثـم أمْسَـحُ
ودونـك طمّـاحٌ مـن المـاء بـاردٌ يعـبٌّ، ومُغْـبرّ مـن البيـد أفْيَـحُ
وإنـي إذا مـا الليـل جـاء بفحمـةٍ لأُوري زنـادَ الهـمّ فيهـا فـأقدحُ
وأُتْبِعُ طيـبَ الذكـر أنّـةَ مُوْجَـعٍ فينفَـحُ هـذا حيـث هـاتيك تلفـحُ
وألقى بياضَ الصُّبْح يسـودُّ وحشـةً فأحسبُني أُمسـي على حـين أُصْبِحُ
ويوحشـني نـاعٍ مـن الليـل نـاعبٌ فـأزجرُ منه بارحـاً ليس يَـبْرَحُ...

وقد أَدْخَل ابنُ خفاجة غرَض الرّثاء في حَوْمة عنايته بالطّبيعة، وها هي ذي الطبيعة تساعده فهي تحزن لحزنه؛ فالبحر هائج، والبيد مغبرّة والليل حالك الظلمة، والصباح مسودّ الوحشة، واللّيل الذي كان هادئاً صار مقطع الأوقاتِ بالناعي والناعب... الخ(١).

٢ ـ وتزخر دواوين معظم شعراء الأندلس بقصائد الرثاء. وقد أكثر شعراء المديح من الرثاء، فكأن أحد الموضوعين يكمل الآخر، أو يتّصل به. والرثاء أوسع دائرةً من المديح، فإن الممدوحين أشخاص يتوجه الشعراء إليهم بالرثاء أيضاً؛ ولكن الشاعر يرثي الفُقهاء والعلماء وغيرهم.

ورثاء هؤلاء: يكثر فيه ذكر الخصال الحميدة والمناقب الكريمة، والأفعال المشكورة من الناس، والأعمال الصّالحة.

ومن المألوف أن تكون هناك معانٍ عامّة يوردها الشعراء إضافة إلى أُمور فيها خصوصية كالشجاعة والإقدام للقادة العسكريين، وحسن التدبير والسّياسة للحكّام والوزراء؛ وإصابة الفَهْم، وصدق العدالة للقُضاة... وهكذا.

---

(١) انظر دراستنا عن ابن خفاجة ط٢: ٥٥-٥٨.

- ومن الرثاء الذي له مغزى كبير قطعةٌ بقيت من شعر مقدّم بن مُعافى القَبْري[(١)] في رثاء سعيد بن جُودي السعدي[(٢)]. كان سعيد[(٣)] قد أدّب مقدم بن معافى أو (ضربه) كما في الخبر. ولكن الشاعر رثى أمير العرب في منطقته، فلما فعل ذلك قيل له: أترثيه وقد ضربك؟ فقال: والله إنّه نفعني حتى بذنوبه، ولقد نهاني ذلك الأدب (التأديب) عن مضارّ جَمّة كنت أقع فيها على رأسي، أفلا أرثي له ذلك؟ والله ما ضربني إلا وأنا ظالم له، أفأبقى على ظلمي له بعد موته؟

- وهذه القطعة هي قوله:

مـن ذا الـذي يُطعـم أو يكسـو وقد حوى حِلفَ النّدى رمسُ
لا اخضرّت الأرضُ ولا أورق الـ.. عُـودُ ولا أشـرقتِ الشـمسُ!
بعد ابـن جُـوديّ الـذيّ لم تـرَ أكـرمَ منـه الجـنّ والإنـسُ[(٤)]
دمـوعُ عيـني في سـبيل الأذى علـى سـعيدٍ أبـداً حُبْـسُ

ونفهم لجوء الشاعر إلى المبالغات، فهو يصف زعيماً عظيماً ويرثي رجلاً كبيراً؛ وهو من جهةٍ أُخرى يتحدّث عن المتوفّى بلسان الوفاء، وصدق التّعبير، والإحساس بالفجيعة فقد مات سعيد غيلةً وغَدْراً.

- ويرثي ابن زيدون صديقه القاضي أبا بكر بن ذَكْوان، ويقول في أثناء القصيدة[(٥)]:

يـا قَـبْرَةَ العَطِـر الّـذي لا يَبْعـدَنْ حُلْـوٌ مـن الفِتْيـان فيـك حـلالُ
مـا أنـت إلا الجفـنُ أصبـحَ طيَّـهُ نصـلٌ عليه مـن الشـباب صِقـالُ

---

(١) ورد ذكره في هذا الكتاب في موضوع (الموشّحات).

(٢) له ترجمة مفردة في هذا الكتاب.

(٣) سعيد بن جودي ـ محمد رضوان الداية ١٠٣-١٠٤ ونشر الكتاب بالتعاون بين مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث وبين دار الفكر بدمشق.

(٤) ألف ((لم ترى)) لإطلاق الشعر؛ وإلاّ فالفعل مجزوم.

(٥) ديوان ابن زيدون ـ علي عبد العظيم ٥٣٢-٥٣٣.

فهنــاك نفّــاحُ الشــمائل مثلمــا طرقــت بأنفـاسِ الريــاض شَــمالُ
دانٍ مــن الخلــقِ المزيّــن نــازح عــن كـل مـا فيـه عليـه مقــالُ
شِـيَمٌ ينـافِسُ حُسْـنهَا إحسـانُها كـالراح نـافس طعمهـا الجريـالُ

٣ ـ وفي مقاصد شعر الرثاء: العزاء، وهو في أصله: ((الصّبر على الموت في الأقرباء وغير الأقرباء))[1] وهذا مقصد قديم، فالموت سنة من سنن الله تعالى في خلقه. ولا بد من الموت لكل حيّ؛

ونقرأ لابن عبد ربّه[2] في معنى حتميّة الموت:

أتفــرحُ والمنيّــةُ كــلّ يــومٍ تُريـكَ مكـان قـبرك في القبـور؟

ومن العزاء قول جعفر بن محمد بن مكي بن أبي طالب في رثاء أحد العلماء وهو عبد الملك بن سراج[3]:

انظـر إلى الأطـوادِ كيـف تـزولُ والحالـة العليـاء كيـف تَحُـولُ!
المـوت حتـمٌ والنفـوسُ ودائـعٌ والعيـشُ نـومٌ والمنـى تضليـل
لا يعصـمُ العصمـاءَ منـه شـاهقٌ صعـبٌ ولا الـوردُ السَّبَنْتى غِيْـلُ
يهـوى الفتـى طـولَ البقـاءِ مُؤمّـلاً ولـه رحيـلٌ ليـس عنـه قفـولُ
يلهـو ويَلْعَـبُ مطمئنّـاً ذاهـلاً ولـه رسـيمٌ نحـوه وذميـلُ

والشعر تعبير أدبيٌّ عن حتميّة الموت، وتشبّث الإنسان بالحياة، يقول الشاعر: إن الإنسان يأملُ، وتستغرقه الدنيا بما فيها، ويلهو ويلعب، ولكن المآل واحد لا محالة.

---

(١) الأندلس د. ضيف ٣٣١.
(٢) ديوان ابن عبد ربّه ٩٤.
(٣) الذخيرة ٨١٤/١، وكان أبو عبد الله جعفر المذكور عالماً باللغات والآداب، جمّاعة الكتب، وهو شيخ ابن بشكوال أحد علماء الأندلس (ت جعفر سنة ٥٣٥هـ) انظر (الذخيرة ٨١٤/١ والصلة ١٢٩، والمغرب ١٠٨/١، وإنباه الرواة ٢٦٧/١، وبغية الملتمس ٢٤٣ (رقم ٦١٧).

ومثله قول ابن زَمْرَك[١] في رثاء السلطان يوسف، وعزاء أخيه ووارث الملك بعده محمد الغني با لله:

عــزاءً أمــير المُســلمين فإنّهــا   مقاديرُ ربّ الخَلْق في الخلق يُجْرِيهـا
هــو المــوتُ وِرْدٌ للخليقــة كلّهــا   أواخرهــا تقفــو ســبيل أَواليهــا

وشعر الرثاء عند الأندلسيين ـ كحال المشارقة ـ كثير، وهو موزّع على اتجاهات الرثاء المختلفة.

٢- رثاء الدُّول والممالك الزائلة:

كانت مدّة دول الطوائف بالأندلس (ومجالها القرن الخامس تقريباً) مدّةً قاسية على الأندلس من الناحية السياسية والعسكرية؛

فقد انفرط عقد الأندلس الموحّدة التي ضَمّتها الدولة الأموية وصارت أندلسات كثيرة؛ وصار في كل بقعةٍ دويلةٌ صغيرة لا تقوى على التماسك ولا حمايةِ نفسها: لا من دويلة أُخرى أندلسية، ولا من دول الشمال المتربّصة، والتي تنتهز الفرص لتنهش من جسم الأرض الأَندلسيّة.

ـ ودخل كثير من هذه الدّويلات في خُصومات في ما بَيْنَهُم وكانت أحياناً خصومات عنيفة، اشتبكت فيها الأسلحة، وأريقت دماء.

ـ وعاش ملوك الطوائف حياة ترف وسرف. وضيعوا رسم الجهاد، وأسرفوا على الناسَ في أخذ الضرائب.

ـ ونشد ملوك الطّوائف السّلامة مع الدول الشمالية (قشتالة خاصة)، وأدّوا أموالاً طائلة أخذوها من جيوب الناس ومن خزينة الحكم لإرضاء ألفونسو السادس ملك قشتالة وغيره.

---

(١) أزهار الرّياض ٢/١٥٥.

ولا شكّ في أنّ هذه الحال أضعفت المُسلمين في الأندلس، وأتاحت للعدوّ احتلال بُرْبَشْتَر، وطُلَيْطِلَة، وغيرَها من النَّواحي. وقد سجّل الشعر هذه الكوارث، وقدّم الشعراء رؤيتهم، واستنهضوا الهمم، ورفعوا صوت الاستغاثة.

وأسْهَم نفَرٌ من العُلماء وأهل الحَلّ والعَقد في الأندلس في التوجه إلى دولة المرابطين الناشئة في المغرب لطلب المساعدة والعون، وأقنعوا المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية من كبريات دول الطوائف للاستنجاد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد أثمر هذا التعاون الأندلسي ـ المغربي نصراً عظيماً في موقعة الزلاّقة سنة (٤٧٩هـ).

ـ ورجع ابن تاشفين ثانية سنة (٤٨١هـ) برسم الجهاد

ـ وعاد ثالثة، ((وكان مجيئه هذه المرة: برغبة الفقهاء الأندلسيّين وأهل الحل والعقد لا رغبة الأمراء والحكام، وكان يهدف بوضوح إلى إزالة دول الطوائف، والجهاد، للحفاظ على الأندلس))[1] .

وتساقطت دويلات الطوائف في أيدي المرابطين طوعاً أو كرهاً. وتوحدّت الأندلس تحت نظام واحد، في دولة تجمع الأندلس والمغرب.

وقد سَجّل الأدب هذا الموقف التّاريخي. فكان في الأدباء والشعراء من نظر من زاوية مصلحة الأمة في الوحدة، والقوّة، وإبقاء رسم الجهاد. وكان فيهم من نظر من زاوية أُخرى إلى زوال تلك الدّول التي كان أكثرها يرعى الأدب والأُدباء ويشجع الشعراء على المدح والثناء ويغدق عليهم العطايا، فنظم شعراً في زوال تلك الدول ورثائها، أو في مصائر أولئك الأمراء، والبكاء على ما مضى من زمانهم.

---

(١) ابن خفاجة محمد رضوان الداية ط٢، ص١٥.

ـ وانظر للتفصيل التاريخي محمد عبد الله عنان في الجزء الخاص بعصر الطوائف من تاريخه.

١ - وممّن أثنى على صنيع المرابطين بإزالة تلك الدّول المفرّطة، التي عرّضت الأندلس كلها للخطر، وضيّعت من الأراضي والبلدان ورسومُ الحكم ما لم يعوّض: أبو الحسن بنُ الجَدّ الذي قال في قصيدة مدح بها ابن تاشفين وعرّض بملوك الطوائف:

أرى الملوكَ أصابتهم بأندلس ... دوائرُ السُّوءِ لا تُبقي ولا تَذَرُ
ناموا وأسرى لهم تحت الدّجى قدرٌ ... هوى بأنجمهم خَسْفاً وما شعروا
وكيف يَشْعُر مَنْ في كفّه قدحٌ ... يحدُو به مُلهياه: النّاي والوتر؟
فقل لمن نام أصبحتَ! انتبهْ! فلقد ... مضى بك الليل نَحْباً وانقضى السّحَرُ
وانظرْ إلى الصّبح سيفاً في يدي ملكٍ ... في اللهِ من جنده التأييدُ والظفر
يرعى الرعايا بطرفٍ ساهرٍ يقظٍ ... كما رعاها بطرفٍ ساهرٍ عُمَرُ

فهذه الأبيات تجمع بين ذمّ حكم دول الطوائف وبين مدح أمير المُسلمين يوسف بن تاشفين. والشاعر يسوّغ ما جرى للملوك تلك الدويلات وحكّامها ويصفهم بصفاتٍ سلبيّة يُثبت التاريخ أنّها ثابتة على كثير منهم. وقد أثنى الشاعر على ابن تاشفين بصفاتٍ دينية ودنيوية، وقد أثنى المؤرخون بمثلها عليه. على أنّ الشاعر أَظْهَر صفات أولئك القوم الفاسدة ووضعها إلى جانب مزايا ذلك القائد المظفر، فجاءت المفارقة واضحة صارخة.

وقد أدار الشاعر كلامه بأسلوبٍ رقيق دقيق، جمع فيه بين التعبير المباشر حين يكون الوصف التقريري مناسباً، وبين التعبير الفني القائم على التصوير حين تكون الصورة أداةً للإبانة وتوكيد الفكرة.

- وفي الشعر المشهور بيتان يُنسبان إلى ابن رشيق، أنشدهما في وصف حال دول الطوائف بالأندلس، وهو وصف انتقادي لاذع يمثّل رؤية أهل الفكر والرأي إلى تلك الأحوال الصعبة!.

ممّا يزهّدني في أرض أَنْدَلُسٍ ... ألقابُ معتمدٍ فيها ومُعتضد
ألقابُ مملكةٍ في غير مَوْضِعها ... كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ!

٢ ـ ونظم عدد من شعراء هذه المدّة قصائد ومقطوعات تذكر ما أصاب دول الطوائف من الإزالة، أو الانهيار، أو الاضطرار إلى التسليم للسلطة الجديدة:

ـ في تصوير تاريخي ـ أدبي لما أصاب تلك الدّول من الزّوال والانهيار،

ـ وما أصاب الملوك والحكام، وأولادهم؛

ـ ووصف للتغيير الجذري الذي طرأ على تلك المدن، والدُّول ومن وجهة نظر خاصّة ضيّقة؛ وإن تغلفت أحياناً بلمسات إنسانية.

وأول ما نذكر من هؤلاء الشعراء أميراً سقطت دولته، وقُتِل بعض أبنائه، ودخل في أسر المرابطين ـ حلفاء الأمس ـ ونفي عن إشبيلية إلى أغْمات (مدينة بالمغرب) وعاش بقية عمره أسيراً سجيناً، وعانى أهلهُ معه معاناة شديدة: هو المعتمد بن عَبّاد[1] .

كان المعتضد ـ والد المعتمد ـ قد أنشأ لنفسه دويلة في إشبيلية، وأصل أسرته عربي لخميّ. وقد تربى المعتمد (محمّد) في رعاية أبيه، وعلى يد أشهر العلماء والفقهاء والأُدباء، حتى تخرّج فارساً، وإداريّاً، وشاعراً، وحمل أعباء الحكم بعد وفاة والده.

وكان من الشعراء في بلاطه: وزير دولة بني عباد أبو الوليد بن زيدون، وأبو بكر بن عَمّار، وابن اللّبّانة، وابن حمديس الصقلي، وغيرهم كثير.

وحين عزم يوسف بن تاشفين على دخول الأندلس سنة (٤٨٣هـ) كان في نيّته القضاء على دول الطوائف نظراً لتهاونها في شؤون البلاد، واستمرار

---

(١) ترجم له في الذخيرة ٢/٤١، والحلة السيراء ٢/٥٢، والخريدة (قسم الأندلس) ٢/٢٥ والمعجب ١٥٨، والمطرب ١٤، والإحاطة ٢/١٠٨، وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان المغرب ٣/٢٥٧، والوافي بالوفيات ٣/١٨٣، ووفيات الأعيان ٥/٢١.

ـ وقد جمع شعره ونثره في مصر، وتونس.

الخلافات في ما بين حكامها، وتعاونهم مع عدوّ البلاد ألفونسو، وغيره؛ وعدم انضباط أكثرهم في حياتهم الخاصّة والعامّة مما يؤثر في مجريات الأحداث الداخلية والخارجية.

وقد ثبت لابن تاشفين ((رجوع بعض رؤوساء الطوائف إلى مصادقة ألفونسو ملك قشتالة وممالأته، بل واستعدائه على محاربة يوسف نفسه وإمداده لذلك بالأموال والهدايا. وكان هذا بالذات موقف عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، ثم كان في ما بعد موقف المعتمد بن عباد. وقد عمد كلاهما في الواقع إلى تحصين بلاده والاستعداد للدفاع عنها))[1].

وقد تمكّن يوسف بن تاشفين من التغلب على المعتمد، فخلعه عن ملكه وحمله أسيراً إلى أغمات، ومعه مَنْ كان في القصر بإشبيلية من أسرته وفيهم زوجته اعتماد الرّميكيّة، وعددٌ من أولاده. واشتغلن بالحياكة (بعد ذلك العزّ) للحصول على لقمة العيش!!

ولما ثار أحد أبناء المعتمد على المرابطين - واسمه عبد الجبّار - قُيّد المُعتمد في سجنه بقيود إمعاناً في التشديد عليه، فزاد ذلك من آلامه. وقد قُتِلَ عبد الجبار، وماتت الرُّميكية؛ ثم توفي هو أيضاً (سنة ٤٨٨هـ).

- ومن شعر المعتمد في أسره، يشكو حاله، وقد حلّ عيد الفِطر سنة (٤٨٥هـ) قوله يخاطب نفسه في حوار داخليّ يملؤه اليأس والحسرة، وهو يرى زوجته وبناته في تلك الحال البائسة:

في ما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا ... فجاءك العيدُ في أغمات مأسُورا
ترى بناتِكَ في الأطمارِ جائعةً ... يغزلنَ للنّاس ما يملكن قِطميرا[2]

---

(١) عصر الطوائف محمّد عبد الله عنان ٣٣٨.

(٢) الأطمار جمع الطِّمر: الثوب البالي. والقِطْمير الغِشاء الرّقيق الذي يُغلّف نواة التمرة ويضرب به المثل في الشيء النّزْر الذي لا قيمة له.

بـرزنَ نحـوكَ للتّسـليم خاشـعةً أبصـارهنَّ، حسيراتٍ مكاسـيرا[١]
يطـأن في الطـين والأقـدامُ حافيـةٌ كأنهـا لم تطأ مِسْكاً وكـافُورا[٢]
أفطرتَ في العيـد لا عـادتْ إسـاءته وكـان فطـرك للأكبـادِ تفطـيرا[٣]
قـد كـان دهـرُك إن تَـأمُرْهُ ممتثـلاً فـردّكَ الدهـرُ منهيّـاً ومـأمورا
مـن بـاتَ بَعْدَكَ في مُلْكٍ يُسَرُّ بـهِ فإنّمـا بـات بـالأحلامِ مَغْـرُورا

والقطعة تنضح أسىً وحسرة؛ والشاعر، وإن ذكر مأساة نفسه، فقد اهتمّ قلبه لمأساة بناته وزوجته. أمّا هو فقد كان الآمر الناهي فصار المأمور المنهيّ، وها هو ذا يلاقي العيد في أسوأ حال. وأما بناته فقد قاسين العوز، ومشين حافيات، في حال ضعف وانكسار. ويجيء البيت ممزوجاً بالحكمة التي علّمته إياها تجربة الحياة المريرة.

- ومن شعره يذكرُ حاله وغُربته، ويتذكر قصوره، وصولته في ملكه الذي ذهب عنه قوله[٤] :

غريـبٌ بـأرض المغربـين أسـيرُ سـيبكي عليـه منـبرٌ وسـريرُ
وتندُبـه البيـضُ الصّـوارمُ والقنـا ويَنْهَـلّ دمـعٌ بينَهُـنَّ غزيـرُ
فيـا ليتَ شعري هـل أبيـتنّ ليلـةً أمـامي وخَلْفـي روضـةٌ وغديـرُ؟
بِمُنبتـةِ[٥] الزيتـونِ مُورثـة العُـلا تَغَنّـى قيـانٌ أو تَـرِنُّ طيـورُ؟
بزاهرها السـامي الـذُّرا جـادَهُ الحيَـا تشـير الثريـا نَحْوَنـا ونشـير[٦] ؟

(١) الحَسيرُ: الحَزِيْن.
(٢) يشير إلى قصّةٍ جرت في إشبيلية بينه وبين زوجته اعتماد صنع لها فيها طيناً من المسك والكافور. (انظر دراستنا عن المعتمد بن عباد في سلسلة الروائع الجديدة).
(٣) تفطير: تقطيع.
(٤) ديوانه: ١٧١-١٧٢.
(٥) مُنبتة الزيتون كناية عن مدينة إشبيلية الشهيرة بزيتونها وزيتها ذي السمعة الجيدة إلى اليوم.
(٦) يذكر أسماء بعض قصوره في إشبيلية الزاهر، والثريّا.

والنصُّ ينضح بالحَسْرة على ما فات من الزمان حين كان المعتمد في أوج عزّه وسلطانه، ويفيض بالألم الظاهر حيناً، المكتوم حيناً آخر على ما آلت إليه حالهُ وحال أهله؛ ولا يَنْسى الشاعر الأمير أن يتذكّر ما مضى، كما كان يقف الشعراء القدامى على أطلال الدّيار...

- وفي شعراء المُعتمد الذين مدحوه وقت سُلطته وعِزّه أبو بكر بن اللبّانة[1] (محمد بن عيسى) الداني (ت٥٠٧هـ). وكان ابن اللبّانة ممّن وَفَوْا للمعتمد، يزوره بين الفينة والفينة ويمدحه. وله قصائد في التفجّع على مصير آل عباد، ورثاء أيّامهم منها:

تبكي السَّماءُ بمزنٍ رائحٍ غادِ	على البهاليل من أبناء عَبّادِ[2]
على الجبالِ التي هُدّت قواعدها	وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أوتادِ
وكعبةٍ كانت الآمال تخدمها	فاليومَ لا عاكفٌ فيها ولا بادِ[3]
يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المكرمات فَخُذْ	في ضَمِّ رَحْلك واجمعْ فَضْلَةَ الزّادِ
ويا مؤمِّلَ واديهمْ لِيَسْكُنَهُ	خَفَّ القطينُ وجَفَّ الزرعُ بالوادي[4]
وأنت يا فارس الخيل التي جَعلتْ	تختالُ في عُددٍ منهم وأعدادِ[5]
ألْقِ السّلاحَ وخلِّ المشرفيّ فقد	أَصبحتَ في لَهواتِ الضّيغم العادي[6]
لما دنا الوقتُ لم تُخْلف له عِدةٌ	وكلّ شيءٍ لميقاتٍ وميعاد
كم من دراريّ سَعْدٍ قد هَوتْ وَوَهَتْ	هناكَ من دُرَرٍ للمجْدِ أفرادِ[7]

(١) ترجم له في القلائد ٢٨٣، والمغرب ٢/٤٠٩، والمطرب ١٧٨، والمعجب ١٤٧ وفوات الوفيات ٢/٣٢٤، والوافي ٤/٢٩٧، والشذرات ٤/٢٠.
- ولقّب بابن اللبّانة، لأن أمّه كانت تبيع اللّبن. وهو من شعراء عصر الطوائف المُحسنين المجيدين.

(٢) البهلول السيد الجامع لصفات الخير.

(٣) العاكف: المقيم (في البلد) والبادي: الطارئ (الزائر، النازل). وفي البيت اقتباس من معنى ولفظ قرآني [الحج: ٢٢/٢٥].

(٤) القطين: الساكن. وخف: رحل.

(٥) العُدَة ج عُدَد الآلات. والأعداد ج عَدَد الأفراد (الناس).

(٦) المشرفيّ: السّيف (صفة غالبة) واللهوات ج لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم. والضيغم: الأسد. العادي: الهاجم الفاتك الوثّاب. وفي البيت كناية عن المصير المقضيّ به.

(٧) الدّراري: النجوم يقول غابت نجوم السعد. والدّرر جمع درّة. وهي: ضعف، هوى سقط ووقع.

إن يُخْلَعُوا فبنو العباسِ قد خُلِعُوا ... وقد خلتْ قبل حِمْصٍ أرضُ بغدادِ[١]
حَمَوْا حريمَهُمُ حتى إذا غُلِبُوا ... سيقوا على نسَقٍ في حبلِ مُقتاد
حانَ الوداعُ فضجّت كل صارخةٍ ... وصارخ من مفدّاة ومن فاد[٢]
سارَتْ سفائنُهم والنَّوح يَصْحَبُها ... كأنّها إبلٌ يحدو بها الحادي[٣]
كم سال في الماء من دَمْعٍ وكم حَملت ... تلك القَطائعُ من قطعاتِ أكباد[٤]
من لي بكم يا بني ماء السماء إذا ... ماء السماء أبى سُقيا حشا الصادي[٥] ؟

وتدور هذه الأبيات على عدد من المحاور التي يتجاوب بعضها مع بعضها الآخر من:

- التفجّع على ما أصاب بني عَبّاد جملةً، والثّناء عليهم كلّهم فقد كانوا سادة كراماً؛

- ووصف خلوّ إشبيلية والأندلس منهم، وضياع ما كانوا يكرمون به الناس، ويواسونهم به، ويؤدونه إليهم؛

- والإشادة بالمعتمد بن عباد الذي قضى عليه بأن يتخلّى عن سيفه وأن يترجل عن جواده.

- ووصف لحظات هزيمة المعتمد، وصيرورته مع أهله أسرى ونقلهم...

- والتأسّي بما أصاب العباسيّين من مآسٍ ونكبات.

- والاستطراد ثانية إلى الوداع بين آل المعتمد ودورهم وقصورهم، وتوديع الناس لهم بالدّموع والزفرات.

---

(١) حمص: اسمُ مدينة مشهورة بالشام أُطلق في الأندلس على إشبيلية وهي المقصودة.
(٢) المفدّاة: التي يفدّيها الناس (كقول القائل فداك أبي وأمي!)، والفادي هو قائل تلك العبارات.
(٣) الحادي: الذي يحدو الإبل (يسوقها وينشد رجزاً وشعراً تأنيساً لها).
(٤) القطائع هنا أطلقت على السُّفن.
(٥) في إشارة إلى أصل بني عباد (عرب جنوبيون من لخم) وعرفوا باسم أمّ لهم تدعى ماء السَّماء أم المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة المتوفى نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة ـ وماء السماء الثانية المطر ـ والصادي العطشان.
ـ يقول من يفعل مثل فعالكم ويجود مثل جودكم إذا انقطع جُود الأمطار؟

وقد أوصل الشاعر رسالة إلى القارئ والسامع من خلال المعاني المؤثرة والألفاظ الدالة والعاطفة القوية.

ـ ولابن اللبّانة أيضاً من قصيدة أوّلُها:

لكل شيء من الأشياء ميقاتُ ... وللمُنى في مناياهنّ غاياتُ

يقول فيها:

فانفضْ يديكَ من الدُّنيا وساكنها ... فالأَرْضُ قد أَقْفَرَتْ والناسُ قد ماتوا(١)
وقل لعالمها السّفلي قد كتمتْ ... سريرةَ العالمِ العُلْويّ أَغماتُ!(٢)
طوتْ مظلّتُها لا بل مذلّتُها ... من لم تَزلْ فوقه للعِزّ راياتُ
من كانَ بين النّدى والبأسِ أَنْصلُه ... هنديّةٌ وعَطاياهُ هُنيداتُ(٣)
رماهُ ـ من حيثُ لم تَسْتُره سابغةٌ ـ ... دهرٌ مصيباتُه نَبْلٌ مصيباتُ(٤)
وكان ملءَ عيان العَيْن تبصرهُ ... وللأماني في مَرْعاهُ مرعاةُ(٥)
أنكرتُ إلاّ التواءاتِ القيودِ به ... وكيف تُنكر في الروضاتِ حيّاتُ؟(٦)
حَسِبْتُها من قناهُ أو أعنّتِه ... إذا بها لثقافِ المجد آلاتُ(٧)
درَوْهُ ليثاً فخافوا منه عاديةً ... عَذَرْتُهمْ! فلعدوى الليثِ عاداتُ(٨)

---

(١) المغنى قريب من قول الشاعر العبّاسي:

فإذا ولّى أبو دُلَفٍ ... ولّت الدنيا على أَثَرِهْ!

(٢) سريرة العالم العلوي: المعتمد، وشرحها د. فروّخ بقوله: خلاصة الوجود الإنساني.

(٣) الهندي: السيف (صفة غالبة) هنيدات جمع هنيدة: المئة من الإبل.

(٤) السابغة: الدّرع (صفة غالبة). مصيبات: الأولى مصائب، والثانية جمع مصيبة اسم فاعل من أصاب السّهم (وغيرُه).

(٥) مرعاة: أي مَرْعى. يقول كان يحقق الآمال.

(٦) يقول كان المعتمد في سجنه على حال الإباء والعزّة قبل ذلك، وما أنكرتُ إلا تلك القيود التي قيّد بها (أي ما استغربت).

(٧) القنا جمع قناة (جسم الرمح، أو الرمح كله. والأعنة جمع عنان: لجام. والثقاف: القيد.

(٨) درَوْه: عرفوه. العادية: الوثبة.

ـ يقول من عادة الأسد: الهجومُ (والانتقام).

ـ ومن شعراء هذا الاتجاه: عبد المجيد بن عبدون الفِهري[١] اليابُري (نسبة إلى يابُرة: بلدة تبعد عن بَطَلْيَوْس نحو مئة كيلومتر) وهو أديب كاتب شاعر من العلماء. واشتهرت قصيدته التي رثى بها بني الأفطس حكام بَطَلْيَوْس، ودولتهم. وكان ابن عبدون مقرّباً منهم ثم صار كاتباً ووزيراً لديهم. وقد ضم المرابطون دويلة بني الأفطس إلى الأندلس الموحّدة تحت رايتهم وقتلوا حاكمها عمر (المظفر) وولديه فرثاهم ابن عبدون. ثم صار كاتباً عند المرابطين.

ـ وتبدأ قصيدته الشهيرة بقوله:

الدهر يفجعُ بعدَ العَيْن بالأثر فما البكاءُ على الأشباح والصُّوَر؟
أنهاكَ أنهاكَ لا أنهاكَ واحدةً عن نَوْمةٍ بين ناب الليث والظفرِ
فالدهر حربٌ وإن أبدى مسالمةً فالبيض والسّمر مثل البيض والسُّمرِ

وبعد عدّة أبيات يبدأ الشاعر بضرب الأمثال من الدّول والأمم والملوك الذين دالوا وذهب زمانُهم (ونسب ذلك إلى الليالي):

ما لِلَّيالي أَقال الله عثرتنا من اللّيالي وخانَتْها يدُ الغِيَرِ

ومنها:

وأوثقت في عُراها كل معتمدٍ وأشرقت بقذاها كلّ مُقْتدرِ
وروّعت كلّ مأمون ومؤتمنٍ وأسلمت كل منصور ومنتصر!

ومنها في الكلام على بني الأفطس، وحاكم بَطَلْيوس (المظفر):

بني المُظفّر والأيام ما برحتْ مراحلاً والورى منها على سفَرِ
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملتْ بمثله ليلةٌ في مقبل العُمرِ
من للأسرّة أو من للأعنّةِ أو من للأسنّة يهديها إلى الثغر؟

---

(١) ترجم له في قلائد العقيان ١٦٤، والصّلة برقم ٨٢١، والذخيرة ٢/٦٦٨، والمُغرب ١/٣٧٤، والبغية ٥٢٣، والمطرب ١٨٠، وصلة الصلة ٤٢، وفوات الوفيات ٢/١١.

مــن للبراعــة أو مـــن لليراعــة أو مَـن للسـماحة أو للنّفـع والضــرر؟
أو دفــع كارثـــةٍ أو ردع آزفـــة أو قمـع حادثـةٍ تَعْيـا علـى القــدر؟
ويح السماح وويح البأس لو سـلما وحسرة الدين والدنيـا علـى عُمَـرِ!
سقت ثرى الفضل والعبـاس هاميـةٌ تُعْـزى إليهـم سماحـاً لا إلى المطـرِ
ثلاثــة مــا رأى العصـران مثلهـمُ فضلاً ولو عُزّزا بالشـمس والقمـرِ!

- وفي رثاء المُدن أو تصوير أحوالها البائسـة وظروفهـا السيّئة مـا أنشـده ابـن حزم في تصوير حال قرطبة بعد الفتنة وما أصابها من التدّمير والخراب، وقصيدة أبي إسحاق الإلبيري في البكاء على مدينة إلبيرة.

- وقد تناول الكلام على ما أصاب قرطبة عدد من شعرائها مثـل ابـن دراج القسطلي، وابن شُهَيد؛ وابن حزم؛ الذي يقول:

بَـــكّ علــى قُرْطبـــة الزَّيْـــنِ فقــد دَهَتْهــا نظــرةُ العَيْـــنِ
أَنْظَرَهـــا الدّهـــرُ بإســـلافهِ ثـــم تقــاضى جُمْلَــةَ الدَّيْـــنِ
كـانت علـى الغايــة مــن حُسْـنها وعيشـــها المســـتعذبِ الّلَيْـــنِ
فــانعكس الأمــر فمــا إن تــرى بهــا ســـروراً بـــين اثنـــينِ
فــاغْدُ وودّعْهــا وسِـــرْ ســالماً إن كنــتَ أَزْمَعْــتَ علــى البَيْــنِ

فمصاب قرطبة عظيم، ولا يعلّل - لضخامتـه - إلا بالإصابـة بـالعَيْن، وكـأن الدهر سكت عنها مدة طويلةً ومنع عليها الرّزايا والمصايب، ثم استردّ ما أسْلَفها إياه من الأمان والسّلامة والدعـة والرخـاء! ولا ينسـى الشـاعر أن ينصـح محبّهـا بمغادرتها - إن شاء - فلم تعد قرطبة التي يصفها على حالها الـتي كـان يعرفهـا... لقد صارت شبحاً ماثلاً بدلاً من قرطبة العظيمة.

ـ ويدخل في هذا الباب قصيدة فريدة في ديوان أبي إسحاق الإلبيري يذكر فيها مدينته إلبيرة[١] التي كانت حاضرة المنطقة كلّها، وكانت عروس تلك المدائن، النابضة بالحياة بكل ما في العبارة من معان...

وكان حكام إلبيرة من بني زيري قد تركوا إلبيرة أيام الفتنة ونقلوا حاضرتهم إلى غرناطة (القائمة في لحف جبل والدفاع عنها أسهل) فخربت إلبيرة، وهجرها أهلها إلى غرناطة وغيرها.

والقصيدة في ٢٣ بيتاً، مطلعها:

يُضَيَّعُ مَفْروضٌ ويُغْفَلُ واجِبُ ... وإنّي على أَهل الزمانِ لعاتِبُ
أتندب أطلال البلاد ولا يُرى ... لإلبيرةٍ منهم على الأرض نادب؟
على أنها شمسُ البلاد وأنسها ... وكل سواها وحشة وغياهِبُ

يقول فيها:

لعهدي بها مُبْيَضّة اللَّيل فاغتدتْ ... وأيّامُها قد سَوَّدَتْها النّوائبُ
وما كان فيها غَيْرُ بُشْرى وأنعمُ ... فلم يَبْق منها الآنَ إلاّ المصائبُ
فآهٍ أُلوفاً تقتضي عدد الحصَا ... على عهدها ما عاهدتها السحائبُ!

وهذا نوع من الوفاء للمكان قلّ أن نجد مثله في الشعر أو في الآثار الأدبيّة؛ وهو يذكّر بوقوف الشعراء القدامى على أَطلال الديار بعد هجر أهلها لها، وعَيْثِ الرياح والرّمال والأمطار فيها!...

(١) قال في الروض المعطار: ٢٨ وكانت حاضرة إلبيرة من قواعد الأندلس الجليلة والأمصار النبيلة فخربت في الفتنة، وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة، فهي اليوم قاعدة كورها...

شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم:

ويُعَنْوَنُ له بعناوين متعدّدة مثل: الاستنفار، والاستصراخ، ويراد به الشعر الذي نظمه شعراء الأندلس؛ وهو دعوةٌ إلى الجهاد والدّفاع.

- وسجّلوا فيه الأحداث التاريخيّة التي جرت بين أهل الأندلس وبين الدّول المُعادية، التي كانت تهاجم البلاد الأندلسية منفردةً أو مجتمعةً أو متحالفة مع بعض الجهات الأوربية، أو البابوية (في حملة صليبيّة مشابهة للحملة التي شنّت على البلاد المشرقية).

- ووصفوا النكبات التي أصابت الأندلسيين من ويلات، فقد كانت الحملات على الأندلس أَشبه بحملات الإبادة، تستأصل كل شيء، ولم يكن العدوّ يقيم وزناً للمعاهدات والمواثيق وشروط التسليم التي تبرم، أو يُستدرج أصحابها في المدن والقرى والقلاع والمعارك. وكان النّساء يتعرضن للسَّبي والأطفال للبيع والشّيوخ للقتل. ومن هنا كان وصف المآسي في هذا الشعر جزءاً متمّماً لدعوات الشعراء المنادية بالإغاثة والعَوْن واستدراك حال العرب والمُسلمين.

- واستَنْهَضُوا الهِمَم، وتوسّلوا إلى ذلك بالقيم التي لا يجوز أن تُهْدَر بين أبناء الأُمّة الواحدة. وظلت أعينُ الأدباء والشعراء موجّهة إلى العُدوة، إلى أهل المغرب الكبير، وسائر البلاد العربية والإسلامية التي تستطيع الإنجاد والإغاثة.

- وقد سجّلت أشعار قليلة أَثر هَجمات النورمانديّين على الأندلس في القرن الثالث خاصّة، وهي الهجمات التي نبّهت الأندلسيين إلى ضرورة إنشاء أسطول بحري ضخم رادع.

ـ وظهر هذا النّوع من الشعر ظهوراً واضحاً في عصر دول الطوائف حيث فقد أهل الأندلس مدناً ومواقع: استرد المرابطون بعضها وضاع بعضها الآخر نهائياً (كضياع طليطلة سنة ٤٧٦).

ـ واشتدّ ظهور هذا النّوع من الشّعر في العهد الموحّدي في أواخره حين ضعفت تلك الدولة، وتوالت هزائمها وحصل ما يُعْرَف بالانهيار الكبير الذي فقد فيه الأندلسيون معظم البلاد عدا مملكة غرناطة التي قاومت إلى سنة (٨٩٧هـ). واستمرّهذا النوع من الشعر إلى آخر الزمان العربي في الأندلس.

ـ وكان صوت الشعراء في هذا الموضوع صوتاً يصدر في مغظمه عن وجدان الأُمّة، وظروفها القاسية. ويصل بين أجزاء الأمّة ويستنهض الهمم، ويدعو إلى الجهاد حتى لا يضيع رسْمُهُ، لقد أدّى الشاعر في هذا المقصد واجبه في التنبيه والنّداء، ودَقّ ناقوس الخطر، وتغطية الجانب الإعلامي في هذه القضية الخطيرة.

ـ تلوّنت أشعارهم: بحسب المواقف وخطورتها، وبحسب طبيعة الشاعر، وحماسته، وأُسلوبه الشخصيّ، ولكنها جميعاً:

- كانت مؤثّرة، معبّرة عن وجدان الأمّة
- صادقة في توصيل الفكرة، وبلوغ المقصد
- على جانب من الحماسة والانفعال.

ـ وقد وصف عبد الله بن محمد الموروري هجوم النورمانديّن بغتةً على إشبيلية وبعض أطراف الأندلس الجنوبية والجنوبية الغربية. وكان ذلك سنة ٢٣٠ فقد هجم النورمانديون (ويسمّيهم المسلمون مجوساً لكونهم وثنييّن) بأسطول قوامه ثمانون مركباً، ودخلوا إشبيلية من جهة البحر وعاثوا فساداً، وعسكروا عند طلياطة (غربي إشبيلية) حتى جَهّز عبد الرّحمن (الأوسط) بن الحكم جيشاً هزم النورمانديين بعد مناوشات ولقاءات صعبة[1] .

(١) ينظر تفصيل هذه الحوادث في دولة الإسلام في الأندلس ١-١/٢٦١-٢٦٥.

قال عبد الله المَوْرُوري يذكر ما أصاب قومه في الجزيرة الخَضْراء جنوب الأندلس في هذه الغزوة:

لِتَبْكِ لِقَتْلاها العيونُ السّواجمُ فقد عظّم الخطبَ الخطوبُ العظائمُ
ألا إنّ فَيْضَ الدَّمع هاج همولَهُ رجال ثووا في الحرب صِيْدٌ أكارمُ
إلى الله أشكو ـ لا إلى غيره ـ الذي دُهينا به، والله حنّان راحِمُ
أَلمّت بأبناء الجزيرة أمّةٌ مجوسيّة الأنساب مُغْرٌ أشائمُ
فصدّعت الشمل الجميع بفرقةٍ إلى يوم بعث الحشر لا يتلاءم
فيا لصروف الدهر كيف تصرّفت بقاصمةٍ تنقدُّ منها الحيازِمُ

وظاهر أن هذه الأبيات الباقية هي من أول قصيدة، ويتوقّع القارئ أن يكون لها تتمة تخاطب الأمير في قرطبة وتستنجدُ به؛ لردّ غائلة أولئك المهاجمين. وقد أرسل الأمير قوّاتٍ كبيرة برسم الجهاد، واستطاع قادتُها إجلاء النورمانديين وهزيمتهم، وقتل قائدهم.

ـ وسجّل الشعراء سقوط مدينة بُرْبَشْتَر[1] الذي كان سنة (٤٥٦هـ). وتقع المدينة على أحد فُروع نهر إيبرو بين مدينتي لاردة ووشقة في الشمال الشرقي لسرقسطة. وقد حاصرها النورمان ثم فتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً فقتلوا وسَبَوْا ونَهَبُوا. وكانت المدينة تحت نظر يوسف بن هود الملقب (المظفر!!) ولم يسارع أخوه أحمد الملقب بالمقتدر إلى إنجاد المدينة لخلاف مستمرّ مع أخيه. على أن المقتدر ـ وهول الكارثة وشدّتها ـ هيأ حملة أنقذت بربشتر بعد تسعة أشهر، لكن سقوط المدينة المروع وأحداثه الدّامية وفظائع النورمان الرهيبة حركت أقلام الشعراء تسجيلاً، واعتباراً، وحثّاً على استدراك الأحوال العصيبة[2].

(١) ترجم لها في الرّوض المعطار في خبر الأقطار ٩٠.
(٢) انظر تفاصيل هذه الحادثة الرهيبة في دولة الإسلام في الأندلس ـ دول الطوائف ٢٧٧ وما بعدها.

وفي هذه الكائنة يقول الفقيه الزاهد ابن العسّال[1] :

ولقد رمانا المشركونَ بأسْهُمٍ ... لم تُخْطِ لكنْ شأنُها الإصماءُ[2]

هتكوا بخيلهمُ قصور حريمها ... لم يبقَ لا جبل ولا بَطْحاءُ

جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... في كل يومٍ غارةٌ شعواءُ

ماتت قلوب المسلمين برعبهم ... فَحُماتُنا في حربهم جُبَناءُ

كم موضع غنموه لم يُرْحم به ... طفل ولا شيخ ولا عذراءُ

ولكم رضيعٍ فرّقوا من أمّه ... فله إليها ضجّةٌ وبكاءُ

ولربّ مولودٍ أبوه مجدّلٌ ... فوق التراب وفَرْشُه البيداءُ

ومَصُونةٍ في خدرها محجوبةٍ ... قد أبرزوها ما لها استخفاءُ

وعزيز قومٍ صار في أيديهمُ ... فعليه بعد العزّة استخذاءُ

لولا ذنوب المسلمينَ وأنّهم ... ركبوا الكبائر ما لهنّ خفاءُ

ما كان يُنصَرُ للنصارى فارسٌ ... أبداً عليهم فالذنوبُ الداءُ

فشرارها لا يختفونَ بشرّهم ... وصلاح مُنتحلي الصلاح رياءُ!

والشعر يردّد أصداء قليلة من النكبة الرهيبة التي أصابت بربشتر وأهلها من دخول العدو المدينة، ومن القتل، والسَّبي، وهتك العرض، والتخريب، وحمل الأَسْرى، والسَّبايا.

وقد علّل الشاعر، وهو فقيه واعظٌ، ما أصاب المسلمين في هذه الحادثة بـ: ـ جُبْن المُسلمين قادةً وجنوداً ورجالاً، والإشارة واضحة إلى تقاعس حكام المنطقة من بني هُود.

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن فرج الأنصاري اليحصبي عُرف بابن العسّال (ت ٤٨٧هـ) وهو فقيه زاهد، وكاتب شاعر. وله ترجمة في الصلّة ٢٧٦ والمُغرب ٢/٢١ وبغية الوعاة ٢٨٦.

(٢) أصمى الفريسة وغيرها: قتلها في مكانها.

- وذنوب المُسلمين التي تحجبهم عن طرق الخير، والاستعداد للعدوّ المتربّص.

- ورياء مُدّعي الصّلاح من أشباه العلماء والفقهاء الذين لا يؤدّون واجب الدَّعوة، ولا يخرجون من القول إلى العمل.

- وفي سنة (٤٧٨هـ) سقطت مدينة طُليطلة، وما يَتْبَعُها في يد أَلفونسو ملك قشتالة. وكان ملوك الطوائف ينافس بعضهم بعضاً، ويحارب بعضهم بعضاً، وكثير منهم كان ينظر إلى ما بين يدي الآخر عسى أن يقتنصها منه؛ وكانوا يستنيمون إلى تحالفات مع قشتالة وغيرها من دول الشمال، ويدفعون الإتاوات، ويستنصرون ببعض تلك الدّول المعادية ضد أقرانهم من حكام المقاطعات والدويلات الأندلسيّة[1] .

وضاعت طُلَيطلة من يد بني ذي النون المتهاونين في حق البلاد، المضيّعين لحقوق الوطن. قال في دول الطوائف (ص ١١٤): (واستتبع استيلاءَ ألفونسو على طليطلة استيلاؤه على سائر أراضي مملكة طليطلة) وصارت هذه المدينة حاضرة دولة قشتالة ومركز ملكهم.

- وقد نظم شاعر أندلسي نسي التاريخ اسْمَهُ، أو أغفل هو اسمه من نصوص القصيدة حين أذاعها في الناس؛ رثى فيها المدينة، ونعى على الحكام تقصيرهم في الدفاع عنها، وحرّض على استردادها، ومطلع القصيدة:

لثكلك كيف تبتسمُ الثغور سروراً بعدما سُبيت ثغور؟

يقول فيها:

لقد خضعت رقابٌ كنَّ غُلْباً وزال عتوّها ومضى النفورُ
وهان على عزيز القوم ذلٌّ وسامح في الحريم فتىً غيورُ
طليطلةُ أباحَ الكفر منها حماها إنَّ ذا نبأٌ كبير

(١) ينظر عصر الطوائف، محمد عبد الله عنان (صفحات مختلفة منه). وينظر لسقوط طليطلة الكتاب نفسه ١٠٦-١١٨.

وفيها:

كفى حزناً بأنّ الناسَ قالوا: إلى أين التَّحَوُّلُ والمَسِيْرُ؟
أَنَتْرُكُ دُوْرَنا ونفرُّ عنها وليسَ لنا وراءَ البَحْرِ دُوْر؟!
مضى الإسلامُ فابك دماً عليه فما ينفي الجوى الدمعُ الغزيرُ
ونُحْ واندبْ رفاقاً في فلاةٍ حيارى لا تحطّ ولا تسيرُ
ولا تجنحْ إلى سلْمٍ وحاربْ عسى أن يُجبر العظمُ الكسير!

وفيها أيضاً:

خُذوا ثأر الديانة وانْصُروها فقد حامت على القتلى النُّسور
ولا تَهِنُوا وسُلّوا كلَّ عضبٍ تهابُ مضاربَاً منه النحورُ
وموتوا كلُّكم فالموتُ أَوْلى بكم من أن تُجارُوا أو تَخُوروا
ونرجو أن يُتيح الله نصراً عليهم إنَّهُ نِعْمَ النَّصيرُ

وهي أشعار حماسية: فيها وَصْفُ الحال الرّاهنة بكل ما فيها من ظلال مأساوية، وفيها اندفاعةُ العربي المسلم وقد استُبيحَ حِمَاهُ، وفيها الموقفُ الطّارقيّ(١) ـ إن صَحّت العبارة ـ فإنهم أمام حلين لا ثالث لهما فإما الثبات والجهاد والمقاومة والنصر، وإمّا الحل الآخرالذي لا مندوحة عنه وهو الموت، أو ما هو أشدّ منه وهو الذل والمهانة والصغار، وذلك يؤدي حتماً إلى الموت.

ـ وفي الشّعراء الذين شاركوا في شعر الاستنجاد أبو جعفر الوقّشي(٢) الذي كان كاتباً لابن هَمُشك الذي سيطر على منطقة جَيّان بالأندلس أيام دولة

(١) كما تقول الرواية القديمة، وهي أنّ طارق بن زياد أحرق المراكب التي أقلّت جنوده حين صاروا في أرض الأندلس وخطب فيهم وقال لهم إنهم أمام أمرين، لا ثالث لهما: إمّا لقاء العدو والنصر وإمّا الهزيمة ـ لا سمح الله ـ والموت.

(٢) نسبة إلى وَقّش من نواحي طلبيرة. والشّاعر هو الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الوقشي (ت ٥٧٤هـ). ترجم له في الحلة السيراء ٢/٢٥٧ والذيل والتكملة ١/١٩٧ ونفح الطيب ٤/٤٧٧.

الموحّدين، ثم أقنع الوقّشي ابن همشك بالانضواء تحت لواء دولة الموحّدين، وتم له ذلك ولقي أمير الموحّدين يوسف بن عبد المؤمن لهذا الأمر. وقد مدح الوقشي (يوسف) واستنصروه لنجدة الأندلس وردّ كيد الدول الشمالية التي تعيث فساداً وتأسر وتسبي وتنكّل؛ ومن ذلك قوله من قصيدة:

ألا ليت شعري هل يُمَدُّ لي المدى فأبصر شمل المشركين طريدا؟
ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب يعيد عميد المشركين عميدا؟
ويلقي على إفرنجهم عبءَ كَلْكلٍ فيتركهم فوق الصّعيد هجودا؟
ويفتك من أيدي الطغاة نواعماً تبدّلن من نظم الحجول قيودا
وأقبلن في خشن المُسوح وطالما سحبن من الوشي الرقيق بُرودا
وغبّر منهم الـتراب ترائباً وخدّد منهن الهجير خدودا؟...

فالشاعر يأمل ـ ويحرّض الخليفة الموحدي ـ عسى أن يجيء يومٌ قريب تعادُ فيه أرض الأندلس التي ضاعت في الشمال والشرق والغرب، ويصل جيش الخليفة شنت ياقب (سنتياغو) في أقصى الشمال الغربي (كنايةً عن استرداد الأندلس كلها) ويستثير الشاعر حمية الخليفة بذكر ما أصاب نساء المسلمين في حملات العدوّ التي لا ترى حرمة للنساء والأطفال والشيوخ...

ـ وفيهم ابن الأبّار[1] (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي) المتوفى سنة (٦٥٨هـ) في تونس عند أمير دولة الحفصيّين.

وكان ابن الأبّار كاتباً لعدد من الأمراء والحكام. ولمّا استولى أبو جميل زيّان ابن مردنيش على مدينة بلنسية اتّخذ ابن الأبار كاتباً له. وسرعان ما حاصر صاحب برشلونة هذه المدينة، فأرسل زيّان كاتبه إلى صاحب تونس الحفصي

(١) ترجم له في عنوان الدراية ١٨٣، واختصار القدح المعلّى ١٩١، والمغرب ٢/٣٠٩ وبقية السفر الرابع من الذيل والتكملة ٩٠، وفوات الوفيات ٢/٤٥٠، ونفح الطيب ٤/٤٥٧.
ـ ولابن الأبار ديوان مطبوع.

أبي زكريا يحيى بن أبي حفص، يستنجد به، فذهب إليه واستصرخه وألقى بين يديه قصيدةً مؤثّرة. وجهز أبو زكريا أسطولاً، ولكنّ بلنسية كانت قد استسلمت قبل وصول ذلك الأسطول، وسقطت تلك البلدة وما حولها نهائياً.

ومن قصيدة ابن الأبّار:

أدركْ بخيلك خيلَ اللهِ أندلسا ... إن السَّبيل إلى منجاتها درسَا[(١)]

يا للجزيرة أضْحى أهلُها جَزراً ... للحادثات وأمسى جَدّها تَعِسا[(٢)]

وفي بلنسيةٍ منها وقرطبةٍ ... ما ينسف النَّفسَ أو ما ينزف النَّفسَا[(٣)]

يا للمساجدِ عادت للعِدا بِيَعاً ... وللنّداءِ غَدا أثناءَها جَرسا[(٤)]

طهّرْ بلادك منهم إنهم نَجَسٌ ... ولا طهارةَ ما لم تغسل النّجسا

واملأ ـ هنيئاً لك التأييدُ ـ ساحتها ... جُرْداً سلاهبَ أو خطيّةً دُعُسا[(٥)]

فالشاعر يحث الممدوح الحفصي على إنقاذ بلنسية، ويخبره أنّها وما يتبعها صارت في بيعته وذمّته، فليدافع عنها، ولينقذ بلدةً مسلمة وأهلها الذين سيتعرّضون إلى ما عهده الأندلسيون من أعدائهم قتلاً وسبياً وتشريداً وإحراقاً، ويصوّر له الغَد بكلّ بشاعته إذا لم يستدرك البلاد والناس معاً:

ـ وفي القرن السّابع حين ضاقت الأَرض على الأندلسيين وانحصرت في حدود مملكة غرناطة، وسقطت العشرات من المدن والقرى والقلاع والمساحات

---

(١) درس: أخلَق. يقول: إن لم تدرك الأندلس بخيلك وجندك فلا أمل في بقائها.
(٢) جَزراً: قطعاً أي قتلى وصَرْعى. والجَدّ (بفتح الجيم) الحظ.
(٣) ما حلّ بهذه المدن وما يحلّ بها مؤثراً جداً فهو يذهب بالرُّوح ويودي بالحياة همّاً وكمداً.
(٤) أي بُدّل الأذان في المساجد عادت النّواقيس تدقّ. والنداء: الأذان.
(٥) الجُرد: الخيل السابقة. والسّلاهب: العادية، والخطية: الرّماح، ودُعساً أي تؤدّي مهامّها من الطعن النّافذ، (المسهم في غلبة العدوّ).

الواسعة من الأراضي ارتفع صوت أبي البقاء الرُّندي[١] عالياً: يصف المشهد المأساويّ بعد ذلك الانهيار الرهيب، والتضييع الذي وقع من أهل الأندلس والمغرب ومن كل قادر على استدراك الأحوال، ويحثّ على النهضة، وبعث الهمّة لإنقاذ الأندلس، وتجييش الجيش القوي، ونبذ التدابر والتقاطع الذي يزيد الموقف سوءاً، ويحمّس السامع والقارئ لشعره بذكر بعضِ المآسي التي عانى منها الأندلسيون ويعانون، ومن قصيدته المشهورة يخاطب أهل العُدوة (من المغرب وما وراءه)[٢] :

يا راكبين عتاقَ الخيلِ ضامرةً كأنّها في مجال السّبق عِقبانُ
وحاملينَ سيوفَ الهند مرهفةً كأنّها في ظلام النّقع نيرانُ[٣]
وراتعينَ وراءَ البحر في دَعةٍ لهم بأوطانهم عزّ وسلطانُ
أعندكم نبأ من أهلِ أندلسٍ؟ فقد سرى بحديث القوم ركبانُ
ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكمُ وأنتمُ يا عبادَ الله إخوان؟

والشعر دعوةٌ عاليةُ الصوت، واستنجادٌ من الجوارح، وهو موجّه إلى بني مرين الذين صاروا سادة المغرب ومَن وراءَهم، مثل بني زيّان أصحاب الجزائر، وبني حفص في المغرب، والدّعوة تصل إلى كل عربيّ ومُسلم في كل مكان وراء العُدوة للنجدة والإنقاذ.

والشاعر يرقق قلوب أولئك الذين يستنجد بهم، بكل وسيلة ممكنة، كقوله في بعض أبيات القصيدة:

---

(١) ترجم له في بقيّة السفر الرابع من الذيل والتكملة ١٣٦، والإحاطة ٣/٣٦٠ ونفح الطيب ٤/٤٨٦، وأزهار الرياض ١/٤٧.
ـ وانظر دراسة مستقلة بعنوان (أبو البقاء الرّندي) لمحمّد رضوان الداية وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس له أيضاً: ٤٣٣.

(٢) انظر القصيدة كاملةً في ترجمة أبي البقاء من هذا الكتاب (الفصل الرّابع).

(٣) النّقع: الغبار السّاطع (يريد الغبار الذي يثار في أرض المعركة).

ولـو رأيـتُ بكـاهم عنـد بيعهـمُ ... لهالكَ الأمْـرُ واستهوتْكَ أحـزانُ
يـا رُب أمٍّ وطفـلٍ حيـلَ بينهمـا ... كمـا تُفـرَّقُ أرواحٌ وأبـدانُ
وطَفْلةٍ مثل حسن الشمسِ إذ طلعت ... كأنمـا هـي يـاقوتٌ ومرجـانُ
يقودها العِلْجُ للمكروهِ مكرَهـةً ... والعينُ باكيـةٌ والقلبُ حَيران

ـ وفي ديوان لسان الدّين بن الخطيب[1] أكثر من قصيدة تصل ما بين الأندلس والمغرب، وتستنهض الهمم لنجدة الأندلس، وإبقاء العلاقة الوثيقة بين البلدين اللذين كتب لهما، وعليهما أن يكونا متفقين متحدين لتسلم الأندلس، وتبقى عليها راية العروبة والإسلام.

ـ قال لسان الدين في مقدمة إحدى قصائده[2] : ((وممّا صدّرْتُ به رسالة لكافّة المُسلمين بالمغرب في معنى الاستنفار للجهاد)):

أإخوانَنا لا تَنْسُوا الفَضْلَ والعَطْفا ... فقد كادَ نورُ الله بالكُفر أن يُطْفَا
وإذْ بلَغ الماءُ الزُّبى فتداركُوا ... فقد بَسط الدينُ الحنيفُ لكم كفّا
تحكّم في سكّان أندلسَ العِدا ... فَلَهْفاً على الإسلام ما بَيْنَهُمْ لهفا
وقد مُزِجت أمواهُها بدمائها ... فإنْ ظمئتْ لا ريَّ إلا الرّدى صِرفا
وجاسَت جيوش الكفر بين خلالها ... فلا حافراً أَبقت عَليها ولا ظِلفا
أَنَوماً وإغفاءً على سِنَةِ الكَرى ... وما نام طَرْفٌ في حماها ولا أغفى؟!
أحاطَ بنا الأَعداءُ من كلّ جانبٍ ... فلا وَزَراً عنهُم وجَدْنا ولا كَهْفا

فهو نداءُ الأخ لأخيه، والجار لجاره، فإنّ الأحوال صعبة، والعدوّ محيط بالأندلس، وهو كالذئب الشرس يقتنص من القطيع الأطراف ويهجم على وسطه أيضاً!

---

(١) تنظر ترجمة لسان الدين في هذا الكتاب.

(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب (ط المغرب) ٦٧٧.

وقد استرسل لسان الدين في قصيدته يذكر همجيّة العدو وشراسته ويحمّس المخاطب وقومه بكلّ ألوان الحماسة، ويذكّر بمن يبيع نفسه وماله ويشتري الجنّة، ورضوان الله:

وهل بائعٌ فينا من الله نفسه فلا مُشترٍ أولى من الله أو أَوْفى
وكيف يَعِيْثُ الكفر فينا ودوننا قبائلُ منكم تُعجزُ الحصر والوصفا؟

وكان من سوء حال الأَندلس والمغرب معاً في القرن التاسع أنَّ العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام في أغلب الأَوقات، بل إن المنافسة بينهما كانت علنيّة، وربما تصدى أحدهما للآخر.

ونقرأ ديوان ابن فركون، وما عرفنا من شعر البسطي فلا نجد دلالةً على التعاون بين القطرين، كالذي كان في القرن الثامن وفي القرن السابع قبله.

وتُركت بلاد الأندلس لمصيرها المَحْتُوم الذي جاء سنة (٨٩٧هـ)[1] بسقوط غرناطة: درّة الأندلس الأَخيرة!

الطوابع العامة في شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم

١ ـ الحماسة:

نعني بالحماسة تلك الحرارة وذلك العنف الذي نحسّه في ثنايا شعر الشاعر، وفي خلال أبياته. ونجد الحماسة باديةً في الدعوة إلى الجهاد وإنقاذ الأندلس، وفي وصف ما كان يجري من سقوط المدن وضياع الديار، وفي تصوير المآسي من قتل وسبي وتشريد. وأبرز ما تبدو هذه الحماسة في الفقرات التي تصادفها في القصائد التي يستنهض الشاعر فيها الهمم ويدعو لاسترداد ما ذهب. ومثال ذلك ما نجده في قصيدة ابن الأبار:

(١) انظر كتاب (آخر أيّام غرناطة) وهو كتاب: نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر لمؤلف أندلسي من القرن التاسع، حققه محمد رضوان الداية. (انظر الطبعة الثانية منه بدار الفكر).

أدرك بخيلِـكَ خيـلِ الله أندَلُسـا ... إنَّ السـبيلَ إلى مَنجاتهـا درَسـا

أو في قصيدة أبي البقاء الرُّندي:

ألا نفـوسٌ أبيّـاتٌ لهمـا همَـمٌ ... أمـا علـى الخـيرِ أنصـارٌ وأعـوان؟

ونقرأ لعبد الكريم القيسي الأندلسي[١] يحث أهل الأندلس على المقاومة واليقظة للعدو، واتخاذ الأُهبة الدائمة للمفاجآت المتوالية:

أفيقُوا أَفيقُوا واهْجُروا النَّومَ إنَّـهُ ... حديثٌ صحيحٌ ما أقولُ وما أَحْكي

ومَنْ كان في ما قَدْ مضى الدمعَ باكياً ... ففرضٌ عليه قانيَ الدَّمِ أَنْ يبكي!

٢ ـ تردد الشعراء بين اليأس والأمل:

تردَّد الشعراءُ في هذا الشعر بين اليأس والأمل. ونجد أن الشّاعر في القصيدة الواحدة يَغْرَقُ في اليأس وتسودُّ أمامه أيام المستقبل، ثم نجده يندفع مع الأمل ثانية؛ ولكن هذا الأمل لم يكن ليعدو الأماني؛ لأنه حينما يتحدّث عن المأساة يتحدّث عن شيءٍ وقع وحدَث. وحينما يصدر شعره عن الأَمل فإنما يصدُر عن شيءٍ يتمنى أن يكون؛ ولهذا نجد الشاعر يغلبُ عليه اليأس وإن لم يغادر الأمل.

وكان الشّعراء يحفزون الهمم ويَدْعُون لاسترداد ما فات، وهم بين حاليَ اليأس والأمل. ذلك أن انقطاع الأندلسيين في جَوٍّ من الحرب الطاحنة دون مساعد ولا مُعين كان يبعث في بعض النفوس اليأس المُشْرَب بالمرارة. وكان واضحاً أن الأندلسيين ما كانوا يستطيعون صَدَّ هجمات أعدائهم الكبيرة. فمن

---

(١) من شعراء القرن التاسع الهجري وكانت وفاته في أواخر القرن ولعله أدرك سقوط غرناطة؟ (انظر مقدمة الديوان) وهو فقيه أديب شاعر، تولّى التدريس والقضاء، ونصّب والياً مدةً من الزّمن على بعض الجهات (لم تُسَمَّ في المصادر). وقد أُسِرَ الشاعر، وبقي في أسر العدوّ مدّةً غير قصيرة كما يُفهم من ديوان شعره إلى أن افتُدِي.

ـ وصدر ديوانه في تونس (بيت الحكمة ـ قرطاج) بتحقيق د. جمعة شيخة ود. محمد الهادي الطرابلسي.

أصوات اليأس ـ أو هي تقترب منه ـ أبياتُ ابن العَسّال التي قالها بعد سقوط طليطلة:

يا أهلَ أندلسٍ حُثُّوا مطيكُم فما المُقام بها إلا من الغَلطِ
الثوبُ ينسَلُّ من أطرافهِ وأرى ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسَطِ
ونحنُ بين عَدُوٍّ لا يفارقنا كيفَ الحياةُ مع الحيّاتِ في سفطِ(١)

ولهذا ربط أحد الشعراء مصير الأندلس بنجدة أهل المغرب وخصوصاً صاحب إفريقية، وكان أبو زكريّا الحفصي صاحبها في زمن شاعرنا هذا. ويقول بعد ذلك مصرّحاً بالخطر الداهم:

أَوْلُوا الجزيرةَ نُصرةً إنّ العدا تَبغي على أقطارها استيلاءَها
دارُ الجهادِ فلا تفتكُم ساحة سادَتْ بها أحياؤها شهداءَها

ويطلب النجدة من صاحب إفريقية:

تلك الجزيرةُ لا بقاء لها إذا لم يَضمنِ الفَتْحُ القريبُ بقاءَها
أشْفى على طَرفِ الحياة ذَماؤها فاستَبْقِ للدّينِ الحنيفِ ذَماءَها

ويقول الشاعر الآخر الذي رثى طليطلة(٢) :

تنغَّصت الحياةُ فلا حياةٌ وودَّع جيرةٌ إذْ لا مجيرُ
فليلٌ فيه همٌّ مستكنٌ ويومٌ فيه شَرٌّ مستطيرُ
ونرجو أن يُتيح الله نَصْراً عليهم، إنه نِعْمَ النَّصيرُ

ومثل هذه الأبيات في المراوحة بين حالي الأمل واليأس أبياتُ أبي إسحاق الإشبيلي التي قالها في هزيمة العقاب التي جرت فيها هزيمة الموحدين:

وقائلةٍ أراك تُطيل فكراً كأنَّك قد وقفتَ لدى الحسابِ

---

(١) يروى (في السفط) و (في سفط). ونلاحظ أن ابن العسّال كان من أهل مدينة طليطلة.

(٢) مرّ قبل قليل

فقلت لها: أفكّر في عقابٍ غدا سبباً لموقعةِ العقابِ
فما في أرضِ أندلسٍ مَقامٌ وقد دخلَ البَلا من كلِّ باب!

٣ ـ جرأة النقد الاجتماعي:

ونعني بذلك محاولة الأديب أن يضع يده على ما يظنّه هو موضع الداء؛ في محاولة منه لوصف الدَّواء. وفي ظني أن الأديب أو الشاعر هو إنسان في الدرجة الأولى ويعبّر عن إحساسه تجاه هذا الموضوع الخطير. ولكنه من ناحية أخرى أديبٌ ورجل ذو أثر توجيهي اجتماعي. فمهمته تنحصر في قيامه بدور الخطيب المحذّر الذي تنبه للأمور الخطيرة فأسرع ليتفادى الأمر. وبذلك لم يعد الشعر مجرد تعبير عن الشعور الذاتي، بل أصبح ذا أثر توجيهي نقدي يهدف إلى تحقيق الغرض المقصود؛ ولم يكتف الشاعر بمهمة الموجه بل قام بوظيفة الإشارة إلى مواطن الفساد في المجتمع، وراح يرمز إليها برمزٍ واضح. فتعال إذن إلى سماع رثاء طليطلة:

نَخورُ إذا دُهينا بالرّزايا وليسَ بمعجبٍ بقَرٌ يخور
لقد ساءت بنا الأخبار حتّى أماتَ المخبرين بها الخبيرُ!

ويقول الشاعر في القصيدة ذاتها:

لقد ذهبَ اليقينُ فلا يقينٌ وغرَّ القومَ بالله الغرورُ
رَضُوا بالرَّقِّ يا لله ماذا رآهُ وما أشارَ بهِ المشيرُ!

ولنستمعْ إلى أبي الطيّب الرُّندي في عتابهِ الغافلَ:

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ إن كنتَ في سِنةٍ فالدَّهْرُ يَقظان

ويقول آخر معاتباً أهلَ الأندلس عامة، وأهل بلنسية خاصّة في تقاعُسهم وتخاذلهم:

لبسوا الحديدَ إلى الوغى ولبستمُ حُلَلَ الحريرِ عليكمُ ألوانا

ونقرأ في شعر عبد الكريم القيسي[1] ، تعليقاً منه على ضَياع حصن اللّقون من حُصون مدينة وادي آش في (٢٣ ذي القعدة ٨٣٦هـ)، ولوماً لأهل وادي آش على تقصيرهم في الدّفاع عن الحصن وتقصيرهم في أخذه واسترداده!

يا أهـل وادي الأَشـى لا دَرَّ دَرُّكـمُ ... ولا بَرِحْتُمْ لقىً للكربِ والكَمـدِ[2]
ضيّعتـمُ سـفهاً وادي اللّقـون و لم ... تُرَاقبـوا فيـه حـقّ الواحـدِ الأحـدِ
حتى حَواه العِـدا غَـدْراً وصـار لهـم ... لغزوكـم عمـدةً مـن أفضـلِ العُمَـدِ
فاستشعروا إذْ أضعتُـمْ فيـه حَزْمَكُـمُ ... والجدَّ قرب انقضاءِ الوقـتِ والأمـدِ

فهو لومٌ وتقريعٌ على التّقصير والتّضييع.

٤ ـ الميل إلى الحكمة:

نلاحظ في هذا الغرض ميلاً شديداً عند الشعراء والكتاب إلى شيء من الحكمة نلمح محاولاتهم البسيطة الساذجة للدخول فيما يمكن أن نسميه تفلسفاً. ونعني بذلك تلك الحكم والآراء التي تهدف كلها إلى الحديث عن حتمية التاريخ، وأنّ العظيم وإن تعاظم سيأتي عليه يوم تزول فيه عظمته، وكأنهم يأخذون فكرة المثل العربي: ((توقع زوالاً إذا قيل تم)).

ونجد الشعراء يفزعون في هذا المجال إلى ضَرب الأمثال، والاحتجاج بالأمم السالفة، والأيام السابقة. كما نجد في مطلع قصيدة الرندي بعض هذه الحكم:

لكـلّ شـيء إذا مـا تَـمَّ نقصـانُ ... فـلا يُغَـرَّ بطيـبِ العيـش إنسـانُ
هـي الأمـورُ كمـا شـاهدتها دولٌ ... مَـنْ سَـرَّهُ زمـنٌ سـاءته أزمـانُ
وهـذه الـدارُ لا تُبقـي علـى أحـدٍ ... ولا يـدومُ علـى حـالٍ لهـا شـان

---

(١) ديوان عبد الكريم القيسي ٣٤٧.

(٢) وادي آش أو وادي إيش (Guadix) وترد في النصوص الأدبيّة أيضاً باسم: وادي الأَشاة، ووادي الأشى، وهي مدينةٌ قريبةٌ من غَرْناطة (على نحو خمسين كيلومتراً شمال شرق غرناطة) وتقع على نهر فردس.

ونرى ابن عبدون يقول مستنكراً البكاء على الأشباح والصور[١] .

الدهرُ يفجعُ بعد العينِ بالأثرِ فما البُكاءُ على الأشباحِ والصُّوَرِ؟

وهكذا كان الشعراء والأدباء يميلون إلى هذه الفلسفة (الرأي) بل إلى هذا الموقف الذي فيه من التسليم بالأقدار أكثر مما فيه من الحكمة.

٥ ـ ضراعة الشعراء:

ومما يشيع في هذا الضرب من الأدب ضراعة الشعراء إلى الله تعالى ولجؤوهم إلى المقدسات. ولم يجدوا في تلك الأوقات العصيبة التي عانوا منها الويلات مفرّاً إلا إلى الدعاء وطلب الصبر والسلوان، وأن يكون الله عوناً لهم على أعدائهم.

وهذا يتصل بالرغبة لإنقاذ ما تبقّى، ونجد التعليل بالقضاء الحق في قول أبي عبد الله العقيلي:

حُكْمٌ من الله حتمٌ لا مردَّ لهُ وهل مردٌّ لحكمٍ منه مُنْحَتِمِ

ومن أمثال ذلك أيضاً قولُ بعض الشعراء في حصار غرناطة:

بالطبلِ في كل يومٍ وبالنَّفيرِ نُراعُ
وليسَ من بعدِ هذا وذاكَ إلا القِراعُ
يا ربّ جَبرك يرجو من هيض منه الذراع
لا تسلبنيَّ صَبراً مني لقلبي ادّراعُ

نلاحظ لجوء الشاعر إلى الله تعالى يستمد من العون، ويسأله الصبر عسى أن يفيد ذلك في الدفاع عن مدينته المحاصرة.

٦ ـ العاطفة الحزينة في الشاعر:

يشعر دارس أدب رثاء الممالك أن أولئك الشعراء يصدرون عن عاطفة أسى عميق ويظهر لنا الحزن في ثنايا القصائد، ويلف الأبيات جو قاتم من الجزع.

---

(١) يعني لا جدوى من ذلك.

ويبدو الخوف واضحاً، ويصاحب ذلك كله حنين جارف إلى تلك الديار مختلطاً بالبكاء وبالأمل في العودة إليها، ولكن اليأس أغلب. ولأبي المطرف بن عميرة قصيدة يرثي فيها بلنسية بعد سقوطها، ويذكر أيضاً جزيرة شُقر وهي موطنه، ولنسمعه يقول واصفاً حنينه إلى شُقْر. وأبياته تشف عن أسى عميق وشوق قاتل:

يحنّ وما يُجدي عليه حنينهُ ... إلى أربُعٍ معروفها متنكّرُ
ويندبُ عهداً بالمشقر فاللوى ... وأينَ اللّوى منهُ وأين المشقّرُ؟
تغيرَ ذاك العهدُ بَعدي وأهلهُ ... ومن ذا على الأيّام لا يتغيرُ!
وأقفرَ رسمُ الدار إلا بقيةً ... نُسائلها عن مثلِ حاليَ تخبرُ
فلم تبق إلا زفرةٌ إثرَ زفرةٍ ... ضُلوعي لها تنقدُّ أو تتفطرُ...

ـ ويقول الرُّندي في هذا الباب من قصيدته الطويلة في آخر أبياتها:

لمثلِ هذا يذوب القلبُ من كمدٍ ... إن كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

هذه العاطفة من الحزن العميق تلف معظم الآثار الأندلسية.

ـوقال عبد الكريم القيسي عند ضياع مدينة جبل الفتح سنة (٨٣٦هـ) من قصيدة:

وقائلةٍ مالي أراكَ مقطّباً ... كأنّك للتقطيب هُدّدتَ بالذّبْح؟
وعهدي ـ ولا أُخفي صفاتٍ عَرفْتُها ـ ... تُسَرُّ بما تُبدي من البِشْرِ والسَّمْحِ
فقلتُ دعيني! الحزنُ فرضٌ على الورى ... أمَا قد حوى أعداؤنا جبَل الفتحِ؟
حرامٌ علينا البِشرُ والسَّمْحُ بعدَهُ ... وفي القلب من آلامهِ أعظمُ الجرحِ!

ويخرج الشاعر في آخر أبيات القصيدة إلى الرّجاء والأمل والضراعة إلى الله تعالى:

عسى من قَضى فيه بأخْذٍ يُعيدهُ ... ويُذهب ما أشكوه من شدّة القَرْحِ
فمنه تعالى نرتجي الخير كلّه ... وما زال أهلَ الفضل والمنّ والمَنْحِ

ملاحظات فنيّة وأسلوبية

نجد هذا الشعر متوزعاً في اتجاهين:

١ ـ نقع في بعضه على أدب مدروس، أي صادر عن رَويّة وفِكر وتَأنٍّ، ونراه مَصُوغاً بصياغة ملائمة لأدبِ العَصْر وفيه خصائص العصر أيضاً.

٢ ـ وبعضه الآخر متأثّر بحماسته؛ فنجدُ أن الشّاعر في هذا النوع قد انفعل انفعالاً شديداً لحادثة ما، فإذا به يُسرع إلى تسجيل انطباعه. أو أن تكون عاطفة الشاعر أشد من أن يستعمل فكره وَحْده فإذا به يُصدر شعراً تغلبُ عليه العاطفة دون الرويّة. ولهذا السبب نجد عدداً من القصائد التي يبرز فيها بوضوح عُنصر الحماسة من غضبةٍ لسقوطِ مدينة أو رغبةٍ في استردادها.

ويتميز هذا النوع من الشعر بالبساطة والسّهولة في معانيه، وتتلاحق جُمَلُه وعباراته مسرعةً لتقتربَ في كثيرٍ من الأحيان من المَنْثور. ونلاحظ ظهور الأفكار بشكلٍ واضح دون عَناء أو غوص بعيد وراء الفكرة، أو طلبٍ للصّور البعيدة الغريبة؛ لأنّ هذا الشعر أصلاً هو وليد الانفعال والأحاسيس العارمة التي تجتاح شعراءنا. وفي مثل هذه الحال تغلبُ العاطفة، وتكون العنصرَ السّائد سواء كان الشعر وليد الارتجال والبديهة أم كان بَعْدَ الأناةِ والرويّة.

ويتبع البساطةَ في الصّياغة قربُ المعاني، وتنوّع الأساليب التي تميل إلى شيءٍ من الأناقة والجمال وعَرْض القضايا عَرْضاً يتناسب والقضية المتداولة. ويميل معظم هذا الشعر إلى الابتعاد عن التّصوير والصنعة اللفظية إلا في القليل النادر. ونلاحظ غالباً سيادة عُنصرِ العاطفة الجيّاشة، والانفعال الصادق، وعدم ضعف هذا العنصر النّفسي من أوّل القصيدة إلى آخرها. ولا نبالغ إذا قلنا إنّ أبرز العناصر في الموضوع المذكور هو العاطفة، أو تلك الحماسة التي تغلبُ على الشّاعر فتجعله أكثر صدقاً وأقرب معانيَ وأسهلَ ألفاظاً.

الموشحات الأندلسية

يقترن اسم **الموشّح**[1] حيثما ذكر باسم الأندلس، باعتبار ظهور الموشح ونشأته وتطوّره، واكتماله في الأندلس، ولأن المشرق استقبل هذا الفن الوافد بعد ظهوره في الأندلس بمدّة طويلة، كما استقبل **فنَّ الزَّجل** أيضاً. والموشح، والزَّجل أَخوان؛ وإن كان للزجل سمات خاصّة به تميّزه عن الموشّح.

واسم الموشّح، هذا اللون الخاصّ من النَّظم أُخذ من الوِشاح. والوشاح نوع من الزينة كانت المرأة تتزيّن به.

ونقرأ في لسان العرب (و ش ح): أن الوشاح من حَلْي النساء، وأنه: **خَيْطان، ينظم فيهما اللّؤلؤ والجوهر، يخالَفُ بينهما، ويُعطف أحدهما على الآخر.**

والموشّح ـ هذا النظم المخصوص ـ مقاربٌ لذلك الوشاح في الشكل كما شابهه في التسمية. فهو يتألف من قُفل (تتعدّد أجزاؤه) ومن غصن يليه (تتعدّد أجزاؤه أيضاً)، وتتكرّر الأقفال والأغَصان. وبينما **تتّحد** أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها في القفل الأول وزناً، وقافيةً؛ **تختلف** أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغُصن الأوّل في قافيته. فلكل غصن قافية تتّحد في أجزائه؛ على أنها تتحد في الوزن.

(١) ينظر الزّجل في الأندلس د. عبد العزيز الأهواني. وفنّ التوشيح د. مصطفى عوض الكريم، وفي أصول التوشيح د. سيدي غازي؛
ـ وفي المصادر القديمة دار الطّراز لابن سناء الملك؛ والمقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد؛ وجيش التّوشيح للسان الدّين بن الخطيب.

فالموشحة إذن: تتوالى فيها الأقفال: المتحدة وزناً، وقوافي؛ وتتوالى بين كل قفلين الأغصان التي تتحد في الوزن، ويكون لكل غصن قوافيه الداخليّة الخاصّة به.

متى ظهر الموشّح؟

تتّفق المصادر الأندلسية والمشرقية على أنّ الموشّح:

- فنّ أندلسي ظَهر في تلك البلاد، ونشأ، واكتمل؛
- وأنّ مخترعه أندلسيّ؛
- وأنّه نشأ برعاية الموسيقى، أو في جوٍّ من الموسيقى والغناء؛ ولعل مجيء زرياب (ت: ٢٣٨هـ) وإنشاءه مدرسة موسيقية مهمّة كان ذا أثر في تهيئة الجوّ لظهور الموشح في فترة لاحقة من القرن الثالث.

ويُذكر اسم: مقدّم بن معافى القَبْرِيّ الأندلسي[1] باعتباره الوشاح الأول الذي قفز بالنظم تلك القفزة النوعية الخاصّة، فنتج عن مبادرته وتجديده هذا اللون من النظم الذي سُمّي بـ (الموشّح).

ولم يذكر أحد من مؤرّخي الأدب الوشاح أو الناقد الذي سمّى هذا النّظم بـ (الموشح). ويبدو أن الاسم وضع مع اختراع الفنّ أو في وقت قريب جدّاً منه.

ووفاة مقدم بن معافى كانت سنة (٢٩٩هـ) تقديراً، أي في أواخر القرن الثالث، وقدّر د. فروخ ولادته بنحو (٢٢٥هـ) تقريباً. ونفهم من هذا أن الموشّح ظهر في النّصف الثاني من القرن الثالث الهجري في مدينة قَبْرة، أو مدينة قرطبة.

---

(١) نسبته إلى قَبْرَة مدينة بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً (الروض المعطار: ٤٥٣) ومقدّم شاعر اشتهر بالمدح، وكان ممن مدحهم الأمير عبد الله والقائد سعيد بن جودي (له ترجمة في هذا الكتاب) ولم يبق من شعره إلا النتف اليسيرة. ولم يبق شيء من موشّحاته المنسوبة إليه.

أصل الموشح:

اختلف مؤرّخو الأدب اختلافاً كبيراً في هذا العنوان: أصل الموشّح. وحشد كل ذي رأي منهم حججاً وبراهين أو ما يُشبه الحجج والأدلّة؛ والاختلاف بينهم واسع.

١) فريق منهم يقول: إن الموشح هو تطوّر لأنواعٍ من النظم معروفة في الأدب العربيّ قبل ظهور الموشّح. ودور الأندلسيين، عند هذا الفريق ليس أكثر من التنظيم والترتيب، أو إعادة التنظيم بما يعطي هذا الشّكل الجديد.

وأصحاب هذا الرأي لا يتّفقون على مُعْطيات واحدة، وحجج معيّنة، وهم يقاربون، ويحاولون.

وأقف عند قطعةٍ لديك الجن الحمصي أوردها د. الشّكعة[1] في دلائله على مشرقية الموشّح. يقول لديك الجنّ:

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي عند المنامْ[2]
(عند الرقاد. الهجوع. الهجودْ. الوَسَنْ)
فعسى أنام فتنطفي نارٌ تأجّجُ في العظامْ
(في الفؤاد. الضلوع. الكبودْ. البدنْ)
جسد تقلّبهُ الأكُفّ..... على فراشٍ من سقامْ
(من قتاد. دموع. وقودْ. حَزَنْ)
أمّا أنا فكما علمتِ فهل لوصلك من دوامْ
(من معاد. رجوع. وجودْ. ثمنْ)

قال د. الشكعة: ((إن تعديلات طفيفة يمكن إجراؤها في هذه المنظومة بحيث تُصبح موشحة أندلسيّة بمسمّيات أجزائها من أقفال وأغصان وأسماط وأدوار

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) المراد أنك تستطيع تبديل كلمة القافية فتصبح القطعة دالية أو عينية أو نونيّة.. وهذا تفنّن من الشاعر في تبديل كلمة القافية (حرف الرويّ) من باب الاتساع اللغوي.

وإنهائها بخرجة مُعربة)). وهذا الرأي لا يتّفق مع الموشّح؛ وهذا الشعر لا يقترب منه ولا علاقة له به كما هو ظاهر!

ورأي هذا الفريق يغفل عن حقائق وثوابت في نسيج الموشّحة وموضوعها مثل الخَرْجَة؛ وبناء الموشحة من أقفال (ومطلع) و (خرجة) وأغصان: تتوالى على نظام معين؛ وتطور الموشحة ـ مع الزمن ـ من الالتصاق بالموسيقى والغناء والطبيعة وذِكر المجالس إلى أغراض أُخرى كالمديح، بل الوصول بأغراض الموشحة إلى الرثاء والهجاء! وشيء آخر مهمّ أيضاً هو انتقال الموشح من موشح غير شعري كما نشأ إلى موشح شعري.

٢) وفريق قال: إن الموشّحات بُنيت على أغان جيلقيّة (إسبانيّة) كانت النساء الجيليقيات في البُيوت العربية يغنينها (وقد اختلطت الأجناس بالزّواج). وإنّ هؤلاء الجيلقيّات كنّ يغنّين بلغتهن في الحفلات، ويهدهدن الأطفال، ويُسَرّين عن أنفسهنّ في ساعات العمل. وهي النظرية التي عرفت باسم المستشرق ريبيرا.

ويدخل في هذا آراء أُخرى أَرجعت الموشّح إلى غير العرب، ووجد من يقول: إن الموشّح مأخوذ عن التّروبادور والجونكلير اللذين كانا شائعين في منطقة البروفانس. والصّواب أن هؤلاء أخذوا عن أصحاب الموشحات العربية؛ لأن الموشح أسبق من ظهور أولئك الجوّالين من الإسبان والفرنسيّين بأكثر من قرنين من الزّمان.

٣) وقدم الدكتور عبد العزيز الأهواني[1] نظرية اطمأنّ إليها، وقدّم عليها الأدلّة والبراهين من أخبار الموشحات والأزجال، ومن معالجة خَرْجات عددٍ كبير من الموشّحات والأَزجال الأندلسيّة.

وهذا الرأي يقول: إن الموشح نشأ في الأندلس استجابةً لدواعٍ مُوسيقية غنائية، وبالاحتكاك مع الأغاني الشعبية الأندلسية[2].

---

(١) الزجل في الأندلس ـ عبد العزيز الأهواني ـ معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٥٧.
(٢) ممّن أخذ بهذه النظرية الدكتور أحمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة.

ونظرية الدكتور الأهواني تجمع بين الموشح والزَّجل في صعيد واحد؛ فقد قال[١] : ((إنه يميلُ إلى القول بوجود أصل مشترك ظهر في البيئة الأندلسيّة منذ عهودها القديمة كان له الفضل في ظهور التّوشيح، وكان له أثر في استقلال الزجل وتطوّره، ذلك الأصل هو الأغنية الشعبية... وهي أغنية مصوغة في لغة عامية عربية، وفي لغة روميّة كان يتحدّث بها كثير من المسلمين في تلك البلاد منذ دخل الإسلام إليها... فالوشّاح ثم الزجّال استفاد من هذا الغناء الشعبي، واستغله ليخرج فناً جديداً يغزو البيئات المثقفة، ويوفق بين ما ألفته هذه البيئات من شعر عربي قديم، ومن تقاليد أدبية، وبين ما عرفته البيئة الشعبية من فنّ كان له سلطان في الحياة الخاصة لهؤلاء المثقفين))[٢] .

تطوّر الموشّح:

١ ـ يذكر مؤرخو الأدب الأندلسي من قديم ثلاثة أسماء أسهمت في نشأة الموشح، وتطويره من جهة أقفاله، ثم تطويره في أغصانه. أما النشأة فكانت على يد مقدّم من معافى القَبْري: وكان يجعل اللفظ العامي أو العجمي مَرْكزاً (والمركز صار يُسَمّي القفل). فالوشّاح الأول إذن كان يَصْنَعُ الخَرْجَة بالعاميّة أو العَجميّة الأَندلسية ويؤسّس عليها سائر الموشّحة باللُّغة الفُصحى. وكانت

---

(١) الزجل في الأندلس ٣.

(٢) في كتاب الحوادث والبدع للطرطوشي ١٤٠، إشارات إلى اختلاط عادات النّاس، وحضور العرب والمسلمين احتفالات شعبية بمناسبات مختلفة، قال: ((من البدَع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان وكذلك على إقامة ينيّر (رأس السنة الميلادية/والاحتفال بسنة جديدة) بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العَنْصَرة، وخميس إبريل بشراء المجبّنات والإسفنج (أنواع من الحلوى) وهي من الأطعمة المُبتدعة. وخروج الرجال جميعاً أو أشتاتاً مع النساء مختلطين للتفرّج، وكذلك يفعلون في أيام العيد، ويخرجون للمصلّى ويقمن فيه الخيم للتفرّج لا للصّلاة...)).. فهذه احتفالات مشتركة...

ـ وسجّل ابن حزم تبديل العامّة للألفاظ العربية، وظهور اللهجات الأندلسية وضرب أمثلة من تبديل الأندلسيين العنب إلى العينب، والسّوط إلى أسطوط، وثلاثة دنانير إلى تلثدا، وهكذا (الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم) ١/٣١-٣٢/دار الآفاق بيروت ١٩٨٣).

إذن ظهرت عامية أندلسية لها خصائصها، بل هي لهجات متعددّة بحسب المناطق، وتوزّع الأقاليم.

الموشّحات الأُولى بسيطة. وكان أكثرها ـ كما قال ابن بسام في (الذخيرة) ـ يُبنى على الأعاريض المُهملة غير المُستعملة[١]، وهي الأعاريض التي أشار إليها الخليل في الدوائر العروضية الخمس.

وكما كان الشاعر يفكّر في وزنه وقافيته، أو يتحسّس ذلك برياضة الذّهن، ومقاربة المناسب، كان الوشاح يبحث عن الخرجة المناسبة لموشّحته، لتكون الأساس الذي يبنى عليه موشّحته. وهذا يعني انطلاق الوشاح من منطقة أُخرى غير التي كان الشاعر ينطلق منها. ولنقل ـ إذن ـ إنها خصوصية الموشّح، واستقلاليته الفنيّة.

ـ وليس بين أيدينا موشحات من هذه الفترة.

٢ ـ وبعد مقدّم بن معافى القبري ومن سار على خطاه في صنعة الموشحة جاء يوسف بن هارون الرّمادي المتوفى ٤٠٣ وهو شاعر ووشّاح فكان ((أوّل مَنْ أكْثَرَ في الموشّحة من التضمين في المراكز)) أي هو أول من أحْدَث في الموشحة تعدّد الأجزاء أو الأشطار في الأقفال.

ويقوم عبادة بن ماء السماء (ت ٤١٩هـ) بمهمّة أخرى في تطوير صناعة الموشح، وذلك بالإكثار من التضمين في الأغصان، أو: ((دقة التجزئة في أشكال الأغصان)) وبذلك تمّت للموشّحة صورتها التي حَملتها العصور التاليّة[٢] .

وقد استغنى الوشاح الأندلسي عن استعمال الأعاريض المهملة، وانتقل إلى الإبداع الخاص، وفق ذوقه، وما يختاره من (إيقاع). ومن هنا يَصْعُب أن نَحْصُر

---

(١) مثلاً بحر الطويل من دائرة المختلف ووزنه فعولن مفاعيلن أربع مرّات على شطرين. ويُستخرج من هذه بحر مهمل، تفعيلاته عكس تفعيلات الطويل، ويجيء على هذه الصورة:

مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن ... مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن

ونظم بعضهم على هذا الوزن المهمل فقال:

لقد أبدت سليمى غداة الجذع وجهاً ... كبدر التمّ حُسْناً وضوء الشمس نورا

(٢) عصر الدول والإمارات الأندلس ـ د. شوقي ضيف ١٥٠.

الأَوزان، أو الإيقاعات التي يستطيع الوشّاح أن يخترعها لكل موشحة من موشّحاته. و لم يعد مُجْدياً أن نبحث عن الوَزن الذي يستعمله الوَشّاح إلا أن يكون المراد التنبّه إلى ما اختار، والانسجام مع نغماته التي اختارها وإيقاعاته التي صنعها لنفسه بنفسه، أو اختارها واقتبسها من وشاح آخر.

ـ ونضرب مثلاً من موشحة الأَعْمَى التُطِيلي(١) :

ضـــاحكٌ عـــن جُمـــان	ســـافرٌ عـــن بَـــدْر
ضـــاق عنـــه الزمـــان	وحـــواه صـــدري

مطلع/قفل أوّل.

آه ممـــا أجِـــدْ	شَـــفّني مـــا أجِـــدُ
قـــام بـــي وقعـــدْ	بـــاطشٌ متئـــدُ
كلمـــا قلـــت قـــدْ	قـــال لي: أيـــن قَـــدُ ؟!

غصن أوّل.

فوزن القفل:	فاعلن فاعلان	فاعلن مفعولن
ووزن الغصن:	فاعلن فاعلن	فاعلن مستعلن

ولا تدخل هذه الأوزان في الأعاريض المهملة، ولكنّها تشكيل خاص من الوشّاح اختاره، وصنع عليه موشّحته.

ولا ننسى أن ابن بسام أشار إلى هذا حين قال: إن أكثر الموشحات على غير أَعاريض العَرب. أي على غير الأوزان والبحور الخليليّة.

(١) انظر إشارة إليه في (شعر المديح) من هذا الكتاب. وهذه الموشّحة في (جيش التوشيح) للسان الدين ابن الخطيب ١٦-١٨.

وقد تُبنى الموشّحة على بحر من بحور الخليل المعروفة، ثم يأتي الوشّاح فيضيف كلمة أو أكثر في بعض الأجزاء أو الأشطار، فيخرج الموشح عن كونه موشحاً شعرياً، ليقال فيه: إنه موشح غير شعري.

ومثال ذلك قول ابن بقي:

صبرت والصبر شيمة العاني. ولم أقل للمُطيل هجراني. مُعَذّبي كفاني!

فقول الوشاح: (معذّبي كفاني) خرج بالموشّحة عن كونها شعريّة. فالبحر دون تلك الإضافة هو المنسرح.

- وقد يزاوج الوشاح بين الوزن الشعري في جانب والوزن غير الشعري في جانب آخر من الموشح، مِثاله موشحةٌ لابن خاتمة الأنصاري(١) جاءت الأقفال غير شعريّة بينما جاءت الأغصان على وزن بحر المجتّث: وتبدأ الموشحة هكذا:

هبّت من النَّوم عَيْنُ تومي بلحظ رقيع إلى اقتبال الربيع
رقّتْ حواشي الزّمانِ والفصلُ يا صاح ثانِ

فالقُفل لا يتّسقُ وزنه مع أي بحر معروف. والغُصن من وزن بحر المُجتثّ.

ولعُبادة الموشحةُ المشهورةُ(٢)؛ ومطلعها (القفل الأول: الرَّأس: المَطْلَع):

مَنْ وَلي في أُمَّةٍ أمراً ولم يعدلِ
يُعْزلِ إلا لحاظ الرشأ الأكحلِ

ويأتي الغصن الأول على هذه الصُّورة:

جُرْتَ في حكمكَ في قتليَ يا مسرفُ
فانصفِ فواجبٌ أن يُنصَفَ المنصفُ
وارأفِ فإنّ هذا الشوق لا يَرْأفُ

(١) ديوان ابن خاتمة (ط دار الفكر) ١٩٤.
(٢) الموشحة تامّة في فوات الوَفيات لابن شاكر ١٥٦/٢

ويتكرَّر في القُفل الثاني كل شيء: عدد الأشطار، وأوزانها، والقوافي كلّها. ثم يجيء الغصن الثاني فيتكرر عدد الأشطار وأوزانها، أمّا القوافي **فتختلف من غصن إلى آخر** برغبة الوشاح واقتراحه وذوقه. وها هو ذا القفل الثاني، يردفه الغصن الثاني:

علّـــــــلِ قلـــبي بـــذاك البـــارد السَّلْســـلِ
ينجلـــــي مـــا بفـــؤادي مـــن جـــوًى مُشْـــعَلِ
إنّمـــــا تـــبرزُ كـــي توقـــد نـــارَ الفـــتنْ
صنمـــــا مصـــوراً في كـــل شـــيءٍ حســـنْ[١]
إن رمـــــى لم يُخْـــطِ مـــن دون القلـــوب الجَنَـــنْ[٢] !

في نظام الموشّحة

أكثر الموشحات تجيء في خمسة أغصان يكنفها ويتخلّلها ستة أَقفال. ولكن الوشّاحين لا يلتزمون بهذا دائماً فقد تنقص فتجيئ أربعة أغصان لخمسة أقفال، أو أربعة وقد تزيد إلى ستة أغصان، وسبعة بل ربما طالت الموشّحة كالذي نجده في موشّحة لسان الدين بن الخطيب[٣] :

جـادَكَ الغيـثُ إذا الغيـثُ همـى يـا زمـانَ الوصـل بـالأندلسِ
لم يكـن وصلـك إلاّ حُلمـا في الكـرى أو خلسـة المختلِـسِ

أما عدد الأَجزاء أَو الأشطار في كل قفل، وكل غصن، وترتيبها، وتنويع القوافي فيها، فموقوفٌ على الوشّاح نفسه فقد يجيء القفل من شطر واحد أو اثنين أو أكثر من ذلك بكثير. ويقال مثل هذا في الأغصان.

(١) قوله ((صنما)) يريد أنّ المحبوبة كالتمثال، أو الصُّورة، وعبَّر عن ذلك بكلمة الصنم ملاءمةً للقافية. والعرب تشبه المرأة الجميلة بالدُّمية. قال في اللسان: الدّمية: الصنم... ويقال للمرأة الدُّمية، يكنّى بها عن المرأة.
(٢) الجَنَن جمع جنّة، وهو ما يستتر به الإنسان من السّلاح.
(٣) سنوردها كاملة في هذا الكتاب.

وليس هناك نظام يحكم العلاقة في عدد هذه الأشطار بين الأقفال والأغصان. فلا ضرورة للتساوي أو الانسجام الخارجي. ودائماً يبقى ذوق الوشّاح هو الحكم والفيصل.

ولا يُستنكر على الوشّاح أن يستعير نظامَ موشحةٍ سَبَقَهُ إليه وشّاح آخر.

ولا بأس عندهم في أن يستعير الوشّاح خرجته من موشّحة وشّاح آخر سبقه كالذي صنعه لسان الدين حين استعار خرجته من مطلع موشحة ابن سهل الإشبيلي[1].

مصطلحات في الموشّح

١ ـ يقال في الواحدة: موشّحة، ويقال موشّح. والجمع موشّحات.

٢ ـ لفظ **المراكز** عند ابن بسام يقابله **الأقفال** عند ابن سناء المُلك، وهو اللفظ الذي شاع في الأندلس بعد اسم المراكز، وثبت في المغرب والمشرق بعد ذلك.

٣ ـ المركز العامي أو العجمي عند ابن بسام هو الخَرْجة. وقد ثبت هذا الاسم في كتب الأدب الأندلسية والمشرقية معاً.

٤ ـ الموشحات (وكذلك الأزجال)[2] تتألف من مقطوعات[3]، وكل مقطوعة تتألف من وحدتين تختلف تسميتها عند القُدَماء. وقد اختار الدكتور الأهواني كلمتي غصن، وقُفل.

٥ ـ إذا ابتدأ الموشح بالقفل فهو موشّح **تام** أو: ذو رأس، أو كامل، أو مُرَأَّس. واخترتُ كلمة: **تامّ**.

---

(١) يقول مطلع موشّحة ابن سهل (الذي صار خرجة في موشحة لسان الدين):

هل درى ظبي الحمى أنْ قد حمى قلب صبٍّ حلّه عن مكنسِ
فهو في حَرٍّ وخفق مثلما لعبت ريح الصّبا بالقبَسِ!

(٢) سنتحدّث عن الأزجال بعد استيفاء الكلام على الموشّحات.

(٣) كما سمّاها د. الأهواني في (الزجل في الأندلس): ص ٥

- ويسمّى القفل الأول في هذه الحال: **المطلع**. ويقال فيه المذهب. وقد اخترت كلمة (المطلع).

٦ - ويسمّى القفل الأخير باسم **الخَرْجة**.

- **والخرجة المُعْرَبة**: هي التي جاءت بلغة عربية فصيحة

- **والخرجة العامية**: هي التي جاءت بلهجة عربية محلّية

والخرجة الأعجمية: هي التي جاءت بلغة رومانثيّة(١). على أن وشّاحي المشرق في ما بعد استعملوا في الخرجة لغات أخرى كالفارسيّة والتركيّة.

٧ - وإذا ابتدأ الموشّح بالغُصن الأوّل (وحُذف القفل الأوّل) سُمّي الموشّح: أَقْرع.

٨ - الغصن الأول من الموشّحة مع القفل الذي يليه يسمّيان معاً باسم **الدَّور** (هذا ما اخترته، وهناك من يسمّيهما باسم آخر).

خصوصيَّة الخَرْجة

- الخرجة عند الوشّاحين أهم جزء في الموشحة. ومقامها عندهم مقام المطلع في القصيدة عند الشعراء. ((يخصّونها بعناية فائقة ويحسبون لها حساباً كبيراً))(٢)، وعبارة ابن سناء المُلك في دار الطراز ((الخرجة أبْزار الموشح ومِلْحُه، وسكّره ومسكه وعنبره. وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة ـ بل السّابقة ـ وإن كانت الأخيرة...)).

- والخرجة تكون فصيحة، وعامية، وأجنبية، كما سبق القول.

- والخرجة تمتاز بالبساطة، والخفّة، كقول أحد الوشّاحين في الخرجة:

---

(١) قال الدكتور الأهواني: اللغة الأعجميّة هي غير اللاتينية التي في الأديرة والكنائس. والخرجات الأعجمية تساوي في الدلالة الخرجات العامية حين يتصل الأمر بالتوشيح.

(٢) الزجل في الأندلس: ٦

أنزلـوا قلبي الشّـجي راكبـاً لم يعـرّج!

وقول الآخر (وقد أوردتُ هنا الغصنَ الأخير فالخرجة):

نـأى بفـؤادي وصَيَّرني حـادي **فَظَلْـتُ أُنـادي:**

محبوبي مسافر صَبّروني!

ـ تُسْبَقُ الخرجة عادةً بكلمة مثل غَنّى، وأنْشَد، ونادى، وما يشبهها (مما يدل على أثر الموسيقى في نشأة الموشحة واستمرارها مدة طويلة). ولاحظ المثال السابق فقد ورد في الغصن الأخير السابق للخرجة كلمة (أُنادي).

وأورد هنا الغصن الأخير، والخرجة من موشحة لابن لبون[1] يقول فيها:

يا طيب وقت وطيب زمانِ قطعتُه بطيب الأماني والبَمُّ **منشدٌ** والمثاني:

ودّعَـتْ وقـالت بتحنـين الله لـك يـا غريـب يامسـكين!

ـ قد تكون الخرجة مشتركة بين الموشّح والزَّجل.

ـ يظهر أثر البيئة الأندلسية في الخَرْجات مثل: السّفر، والاغتراب، والخروج إلى الغزو، وحرب العدوّ.

ويرد في الموشّحات عامة، والخرجات خاصة، ذكر بعض نباتات البيئة الأندلسيّة مثل الحَبق[2]، والحنّاء، والرّيحان (وهذا يرد كثيراً في الخرجة).

ـ ويكثر أن تجيء الخرجات على لسان فتاة.

ـ في موشحات المديح، المألوف أن تكون الخرجة مُعربة.

(١) جيش التوشيح: ١٦٠ .

(٢) الحَبَق: نبات طيّب الرائحة منه سهلي ومنه جبليّ، ويكثر على الماء. ويقال له نعناع الماء، وحبق الماء، ولأهل الشّام أيضاً رغبةٌ فيه: يأكلونه مع الطّعام، ويذكرونه في أغانيهم كما يذكرون الرَّيحان. وهذا مُشترك بينهم وبين أهل الأندلس.

ومن الخرجات المستحسنة التي أعلن الوشّاحون الأندلسيون المعاصرون لصاحبها إعجابهم بها، وسبق الوشّاح دونهم إلى مثلها، قول الأعْمى التّطيلي:

أَمــا تــرى أَحمــدْ   في مَجْــده العــالي   لا يُلْحَــــــقُ!
أَطْلَعــهُ المَغــربْ   فأرِنــا مثلــه   يــا مَشْــرقُ!

أغراض الموشّحات:

ارتبطت الموشحات في نشأتها بالموضوعات المناسبة لتلك النشأة الفنية الموسيقية الشعبيّة: من:

- الغَزل، والنسيب، والتشبيب؛
- ووصف الطّبيعة، ومجالسها؛

وسرعان ما وجد الوشّاح هذا النمط الجديد من النظم ملائماً لغرض المديح؛ الذي يبقى الغزل، ووصف الطّبيعة ملازماً له غالباً. ووجد الممدوحون في الموشّحات شيئاً جديداً، يلفت إليهم الأنظار، ويحقّق لهم نشوة المدح في إطار مفعم بالنَّغم والمُوسيقا وحسن الإيقاع[١].

وصار الموشّح شيئاً فشيئاً يُستخدم في سائر أغراض الشعر كالرثاء والهجاء (وهذا غريب جدّاً)؛ وفي العتاب والشّكوى والحنين، وغير ذلك من الموضوعات والأَغراض.

ووجد أهل الزّهد والتَّصوُّف في الموشح، (وفي الزّجل أيضاً) وعاءً طريفاً لآرائهم وأفكارهم وقضاياهم.

وقد اشتهر من الوشّاحين الذين وظّفوا المُوشح للأغراض الصوفية ابن عربي (الشيخ محيي الدين) وأبو الحسن الشُّشْتَري؛ وزخر ديوان الششتري بالأزجال الصُّوفيّة.

---

(١) وكانت الألحان توضع لموشحات المديح، وتغنى في حضرة الممدوح أحياناً مما يعطي الموشّحة ملمحاً اجتماعياً إضافة إلى الملمح الأدبي والفنّي.

في فنّية التّوشيح

١ ـ إذا نظرنا إلى أصل الموشح ونشأته عرفنا أنّه نشأ تلبيةً لحاجةٍ فنّيـة تتعلّق بالموسيقى والغناء وخصوصاً الغناء الشعبي، وما يقترب منه. والنظم لهذه الحاجـة الفنّيـة لا يقتضـي الجَزالـة في الألفـاظ، ولا القـوة في الـتراكيب، ولا العمـق في المعاني، ولا البُعد في الأخيلة. فالموشـحة تميـل إلى التخفـف مـن ذلـك كلـه، في غالب الأحوال ومعظمها، إلا في القليل النادر (كالذي نجده في بعض الموشحات الصوفية عند ابن عربي مثلاً).

فالنظم الرّقيـق، والمعنـى اللطيـف، والألفـاظ العذبـة ذات الجرس الموسـيقي، والأداء المباشر أو السَّهل الواضح يسيطر على الموشّح ويطبعه بطابعه.

٢ ـ والموشح غير الشّعري خاصة يقـترب مـن النّثر كثـيراً: مـن حيـث لغتـه وأداؤه، وانسياب مقاصده، ووضوح مرماه.

والموشّح بصفة غالبة يميل إلى السُّهولة، والعفوية، والتلقائية.

٣ ـ يراوح الوشّاح بين القوافي المطلقـة والقـوافي المقيّـدة في أجزاء الموشّـحة وأشـطارها. وكثـيراً مـا يكـون تقييـد القافيـة (مجيئهـا سـاكنة) فرصـة للوشّـاح للتخلّص من الحدود النحوية والقيود الإعرابيّة. ولو أُطلقت القوافي لظهـر شـيء من الخلل.

٤ ـ يلاحظ الوشّاح في موشّحاته أن تكون الألفاظ، والعبارات متلائمـة مـع الموضوع المطروح ومنسـجمة معـه. وتسـعفه الحافظـة اللغويـة في هـذا التـلاؤم، والانسجام، وتتداخل مع البَراعة في الصّناعة لتشكّل أسـلوب الوشّـاح وطريقتـه في النظم.

٥ ـ البحور الشعرية التي لجؤوا إليها حين انتقلوا بالموشّـح مـن غـير الشـعري إلى الشعري هي بحورٌ قليلة مثـل: الرَّمَـل، والهَـزج، ومخلّـع البسـيط، والخفيـف، والمتقارب، والمنسرح.

٦ ـ اعتمد الموشّح على التّنويع في النغـم، وهـذا يتعلّـق بالمعرفـة الموسيقية في تغيير الأوزان وتنويع القوافي. وتقاس مقدرة الوشّاح ببراعتـه في صياغـة العبـارة، وأداء المعنى الطريف الجديد، أو المولّد من العتيـق في لبـوس حسـن مـن الشّـكل المعجب والنغم البارع.

٧ ـ قد تبدو العلاقة غير وثيقة بين فقرة وأُخرى داخل الموشـحة الواحـدة إذ يكتفي الوشّاح بالإطار العام للموشّـحة وفكرتهـا العامّـة ــ ولا يجـدون في هـذا بأساً، فقد تُغريهم العبارة الرقيقة والفكرة العارضة في غلاف شفّاف مُرْهَف.

أشهر الوشّاحين:

في الوشّاحين ذوي الأثر في صنعة الموشّح: يوسف بن هـارون الرَّمـادي (ت ٤٠٣ هـ)، وعبادة بن مـاء السّماء (ت ٤١٩ هـ)، وهمـا شـاعران مشـهوران أيضاً. ومحمد بن عبادة القزّاز (ت ٤٨٨ هـ) شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيّة، وقد ترجم له ابن بسام واستحسن موشّحاته في حين لم يستحسن شعره؛ وأبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الملقّب بـالأبيض (ت نحو ٥٢٥ هـ)، وأبو بكر بن اللّبانة (ت ٥٠٧ هـ)، والأعمى التّطيلي، أحمد بـن عبد الله بـن هريـرة القيسي (ت ٥٢٥ هـ)، وهو شاعر مشهور في زمانه وله ديـوان شـعر مطبـوع (مذيّل بعدد من الموشّحات)، وأبو القاسـم المنيشـي (ت نحو ٥٥٧ هـ)، وأبـو عامر بن ينّق (ت: ٥٤٧ هـ)، وأبو بكر محمد بن عبد الله بن زُهر، الحفيـد (ت ٥٢٥ هـ).

ـ ومن موشحات المديح واحدة للأعمى التُّطيلي، اشتهرت بعذوبتها ورقّتها، وفاقت بخرجتها الرشيقة لفظاً البارعة فكرةً ومعنى، قال:

أعْيـى علـى العُـوَّدْ رهـيـنُ بلبـالِ مُـــــؤرّقُ
أذلــه الحـبُّ لا ينكـر الذّلّــهْ مــن يعشــقُ
مـن لي بـه يَرْنُـو بِمُقْلَتَـيْ سـاحِرْ إلى العبــادْ

ينأى به الحسنُ   فينثني نافرْ   صعب القيادْ
وتارةً يدنو   كما احتسى الطائرْ   ماء الثّمادْ
فجيدُه أَغْيَدْ   والخدُّ بالخال   مُنَمَّقُ
تكنفهُ الحجبْ   فلي إلى الكِلَّهْ   تَشَوُّقُ
عطا بلِيتَيْهِ   ومرَّ كالظّبي   لِبيدهِ
فدلَّ عليهِ   تكسُّر الحَلْي   بجيدهِ
تفتيرُ عينيهِ   يُسْرِعُ في بَرْيِ   عميدهِ
فإن أَكُنْ أقصِدْ   منهُ فأَوْلى لي   إذْ يَرْمُقُ
هل يسلمُ القلبُ   وأسهم المقلَهْ   لا ترفُقُ؟!
وددتُ من خِلِّيّ   ومثلُ نشر الكاسْ   في شَعْرِهِ
لو جادَ بالوصلِ   جودَ أبي العباسْ   بِوَفْرِهِ
في الجود والنبلِ   وقل: أجلُّ الناس   في قَدْرِهِ
يا كعبةَ السؤدَدْ   حتى على المالِ   لا تُشفِقُ!
فمثلكَ النّدْبُ   يسابقُ الجِلَّهْ   فَيَسْبِقُ!
يا أيها الحائمْ   هل لك في عَذْبِ   ماء الدِّلا
يَمِّمْ بني القاسمْ   واقصِدْ من الغرب   إلى سَلا
واستمط رواسمْ   تخالُ بالرّكب   وسط الفلا
سفائناً تَجْهَدْ   في أبْحُرِ الآل   ما تغرَقُ
يستبشر الركبُ   وتشتكي الرحلَهْ   الأيْنُقُ!
أدعوهُ بالقاضي   وأمرهُ يقضي   عليَّ لي
أنا به راضِ   لأنه يُرْضي   لأملي

قل غير معتاضٍ بمن على الأرض منه، قُلِ
أما ترى أحْمَدُ في مجده العالي لا يُلْحَقُ؟
أطْلَعَهُ الغربُ فأرِنا مِثْلَهْ يا مشرق!!

وقال الأعمى التُّطيلي(١):

كيف السبيل إلى صبري وفي المعالِمِ أشجانُ
والركبُ وسط الفَلا بالخُرَّدِ النواعمِ قد بانوا!
أقبلنَ يوم الحمى في سندسيات الحُلَلْ
بيْضٌ كمثل الدُّمى سُود الفروع والمُقَلْ
فيا مُعَنّى بما لو ناله نال الأمَلْ
دون ذواتِ الحُلى للسيف والصوارمِ حرمانُ
ابْغِ النجاةَ ولا يغررك بالضراغمِ غزلانُ
لم يَدْرِ شيئاً سوى تعذيبه لِصَبّهِ
وما شكوتُ الهوى إليه خوف عَتْبهِ
وكنت قبل النّوى مكتتماً لِحُبِّهِ
فعندما رحلا فاضت بدمعٍ ساجمِ أجفانُ
أطلعنَ منّي على سِرّي وهل للهائمِ كتمانُ؟
أهدى إليّ السرورْ بحرٌ يفيضُ بالمِنَنْ
إن حاربتني الدّهورْ فهو حسامي والمِجَنّ
فقل لكلّ فخورْ مثل أبي يعقوب كُنْ!

(١) الموشح في ديوان الأعمى: ٢٧٢، وفي جيش التوشيح: ٣٣
ـ وهو موشّح غير شعري. والخرجة فصيحة.
ـ وموضوع الموشّح: المدح، وتقدم المدح غزل رقيق. والممدوح هو أبو يعقوب يوسف بن القاسم.

ذاك الـــذي كمَـــلا وفي جميـــع العـــالمِ نقصـــــــــــانُ
وطالمـــــا عَـــــدلا وللزمـــانِ الظـــالمِ عـــــــــدوانُ
ذو ســـــؤدد لا يُنـــــالْ لـــــو تبعَتْـــــهُ الأنْجُـــمْ
إذا ذكـــرت الــــنزالْ فهـــو الجـريءِ الــمُقْدِمُ
وإن طلبـــت النـــوالْ فهـــو الجـــوادُ المُنعِـــمُ
تـــا للهِ مُـــذْ بـــذلا مـــا قـــام للغمـــائمِ مـــــــــيزانُ
اضـــربْ بـــه المَثـــلا فـــإن جُـــوْدَ حـــاتمٍ بُهْتـــــــــانُ!
ومُزْمِـــــعٍ للسَّـــــفرِ لم يَـــرْضَ غـــيري مستشـــارْ
فقـــال تـــدري ســـفري هـــمْ علـــى البحـــر بحـــارْ؟
فقلـــتُ: سِـــرُّ الخَـــبر عنـــدي، فخـــذهُ باختصـــارْ:
إنْ جئـتَ أَرْضَ سَـلا تلقـــاك بالمكـــارمِ فتيـــــــــــانُ
هـــمْ سـطورُ العُـــلا ويوسفُ بـن القاسـمِ عنـــــــــوانُ!

ـ وقال لسان الدين بن الخطيب(*) :

جَـــادَكَ الغيـــثُ إذا الغيـــثُ هَمـــى يـــا زمـــانَ الوَصْـــلِ بـــالأندلُسِ
لم يكـــنْ وصلُـــكَ إلاّ حُلُمـــا في الكـــرى أو خلســـةَ الـــمُختلسِ
إذْ يقـــودُ الدَّهـــرُ أشـــتاتَ المنـــى نَنقُـــلُ الخطـــوَ علـــى مـــا ترسُـــمُ
زُمَـــراً بـــين فُـــرادى وثُنـــا مثلمـــا يدعـــو الحجيـــجَ الموســـمُ
والحَيـــا قـــد جلَّـــل الـــرَّوض سَـــنا فثُغـــورُ الزَّهـــر منـــهُ تبســـمُ(١)
وروَى النُّعمـــانُ عـــن مـــاء السّـــما كيـــفَ يـــروي مـــالكٌ عـــن أنَـــسِ(٢)

(*) أفردنا في هذا الكتاب ترجمة خاصة بلسان الدين بن الخطيب.

(١) الحَيا: المطر.

(٢) النعمان: شقائق النّعمان (وتُسمّيه العربُ الشَّقِر): نوع من الزهر معروف. وماء السّماء: المطر (وفي البيت تورية). وقوله (روى) يكون من الرواية ويكون من الارتواء.

فكَساهُ الحُسنُ ثوباً مُعلما ... يَزْدَهي منهُ بأَبْهى مَلْبَسِ
في ليالٍ كتمتْ سرَّ الهوى ... بالدُّجى لولا شُموسُ الغُرَرِ[١]
مالَ نَجمُ الكأس فيها وهَوى ... مستقيمَ السَّير سَعد الأثرِ
وطَرٌ ما فيه من عيبٍ سوى ... أنّهُ مرَّ كلمحِ البَصَرِ
حينَ لذَّ النَّومُ شيئاً أو كما ... هجَم الصُّبحُ هُجومَ الحَرسِ
غارتِ الشُّهبُ بنا أو ربَّما ... أثَّرَت فينا عيونُ النَّرْجسِ
أيّ شيءٍ لامرئٍ قد خَلُصا ... فيكونُ الرَّوضُ قد مُكِّن فيه
تنهبُ الأزهارُ فيه الفُرَصا ... أمِنَتْ من مكرِه ما تتَّقيهْ
فإذا الماءُ تَناجى والحَصا ... وخَلا كلُّ خليلٍ بأخيه
تُبصرُ الوردَ غَيُوراً بَرِما ... يكتسي من غيظِهِ ما يكتسي
وتَرى الآسَ لبيباً فَهِماً ... يَسرق السَّمع بأُذنَيْ فَرَسِ[٢]
يا أُهيلَ الحيِّ من وادي الغَضا ... وبقلبي مَسكَنٌ أنتمْ بهِ
ضاقَ عن وجدي بكم رحبُ الفضا ... لا أُبالي شَرْقَهُ من غربهِ
فأعيدُوا عهدَ أنس قد مَضى ... تُعْتِقوا عبدَكُم من كربهِ
واتَّقوا اللهَ وأحْيُوا مُغْرَماً ... يتلاشَى نفَساً في نفَسِ
حبَس القلبَ عليكُمْ كرَما ... أفترضونَ عفاءَ الحُبُسِ[٣]
وبقلبي منكُمُ مقتربُ ... بأحاديث المنى وهو بَعيدْ
قمَرٌ أطلعَ منهُ المغربُ ... شقوةَ المُغْرى به وهو سعيدْ

---

(١) الغُرر جمع الغرّة: غُرّة الجبين.
(٢) الآس: نباتٌ معروف له ثَمر يُؤكل، ويتخذ منه طِيْبٌ حسَن. ويُضْرَبُ المَثل بطول الوقت الذي يبقى فيه الآس نضراً بعد قطافه. وشبه الشاعر ورقة الآس بأذن الفرس في شكلها وانتصابها.
(٣) أي جعله حبْساً أو وقْفاً.

قد تساوى مُحسنٌ أو مُذْنِبُ ... في هَواهُ بين وَعْدٍ ووعيدْ
أحورُ المُقلة معسولُ اللّمى ... جالَ في النَّفسِ مجالَ النَّفَسِ
سَدَّدَ السَّهم فأصْمى إذ رَمى ... بفؤادي نبلةَ المُفترَسِ(١)
إن يكن جارَ وخابَ الأملُ ... ففؤادُ الصَّبِّ بالشَّوقِ يذوبْ
فهو للنفسِ حبيبٌ أوّلُ ... ليسَ في الحُبِّ لمحبوبٍ ذنوبْ
أمرُهُ مُعتمَلٌ مُمتثَلُ ... في قلوبٍ قد براها وقلوبْ
حَكَم اللَّحظ به فاحتكما ... لم يُراقب لي ضعافَ الأنفسِ
يُنصف المظلومَ مِمَّن ظلما ... ويُجازي البرَّ منها والمُسي
ما لقلبي كلّما هبَّتْ صَبا ... عادهُ عيدٌ من الشَّوقِ جديد
جلبَ الهمَّ له مكتئبا ... فهو للأشجانِ في جهدٍ جهيد
كان في اللّوحِ له مكتتبا ... قولُه: ((إنَّ عذابي لشديدْ))
لاعِجٌ في أضلعي قد أضرما ... فهي نارٌ في هشيمِ اليَبَسِ
لم يدَعْ في مهجتي إلا ذَما ... كبقاءِ الصبح بعدَ الغَلَسِ(٢)
سلّمي يا نفسُ في حكم القضا ... واعمُري الوقت برُجعى ومتاب
ودعي ذِكرَ زمانٍ قد مضى ... بين عُتبى قد تقضَّتْ وعتاب
واصرفي القولَ إلى المَولى الرِّضى ... مُلهَمِ التَّوفيقِ في أمّ الكتاب
الكريمِ المُنتهى والمُنتمى ... أسدِ السَّرْجِ وبدرِ المجلسِ
يَنزلُ النَّصرُ عليه مثلما ... ينزل الوحيُ بروح القُدُسِ
مصطفى الله سميُّ المُصطفى ... الغَني بالله عن كلِّ أحدْ(٣)

---

(١) يقال: أصماه إذا أصابه في مكانه (كالصائد بقتل صيده).

(٢) الذّماء: بقية الروح.

(٣) الغني با لله لقب الممدوح.

مَـــنْ إذا مـــاعقدَ العهـــد وفـــى   وإذا مـــافتح الخطـــب عقـــدْ
مـن بـني قيسٍ بـن سـعدٍ وكفـى   حيثُ بيتُ النَّصر مرفـوع العمـد(١)
حيث بيت النَّصر محميُّ الحمـى   وجنى الفضـلِ زكـيُّ المغـرسِ(٢)
والهـوى ظـلُّ ظليـلٌ خيَّمـا   والنَّـدى هـبَّ إلى الـمُغترسِ
هاكهـا ياسـبط أنصـار العُـلا   والـذي إن عـثرَ الدَّهـرُ أقـالْ
غـادةً ألبسَـها الحسـنُ مُـلا   تبهـرُ العـينَ جـلاءً وصقـال(٣)
عـارضَتْ لفظـاً ومعنـىً وُحلـى   قـولَ مـن أنطقـهُ الحـبُّ فقـالْ:
((هَلْ درى ظبيُ الحمى أنْ قد حمى   قلـبَ صـبٍّ حلَّـهُ عـن مَكْنَـسِ
فهـو في حَـرٍّ وخفـقٍ مثلمـا   لعبَـتْ ريـحُ الصَّبـا بـالقبسِ))

ـ وقال لسان الدين بن الخطيب:

يَاحَادِي الْجِمَالْ عَرِّجْ عَلَى سَلاَ قَدْ هَامَ بِالْجَمَالْ قَلْبِي وَمَا سَلاَ
عَرِّجَ عَلَى الْخَلِيجِ وَالرَّمْلِ وَالْحِمَى
فِي الْمَنْظَرِ الْبَهِيجِ بِالبِيضِ كَالدُّمَى
وَالأَبْطَحِ النَّسِيجِ مِنْ صَنْعَةِ السَّمَا
لِلَّهِ مِنْ خِلاَلْ تَخْتَالُ فِي حُلَى لَمْ تُلْفِ فِي اعْتِدَالْ عَنْهُنَّ مَعْدِلاَ
وَطُفْ مِنَ الرِّبَاطِ بِرُكْنِ طَائِفِ
بِمَنْزِلِ اغْتِبَاطِ دَارِ الْخَلاَئِفِ
مُقَدَّسِ الْمَوَاطِي جَمِّ الْمَعَارِفِ
كَمْ مِنْ سَنَا هِلاَلْ بِأُفْقِهِ انْجَلَى أَنْحَى عَلَى الضَّلاَلْ فَانْجَابَ وَانْجَلَى

---

(١) تنتمي أسرة الممدوح إلى سعد بن عبادة الأنصاري، الصحابي الجليل.
(٢) دعيت أسرة الممدوح بني الأحمر، وبني نصر أيضاً.
(٣) في وصف موشحته. والجلاء مصدر جلا العروس: أظهرها في أتمّ زينة لزوجها.

جَنَـى النَّعِيـمِ دَانِ وَالبَحْـرُ وَالغَدِيـرْ
أَهِلَّـةُ الشَّـوَانِي فِـي أُفْقِـهِ تَسِيرْ
وَقَهْـوَةُ الدِّنَـانِ يُدِيرُهَـا مُدِيـرْ
أَغَـرُّ كَـالْغَزَالِ مُقَلَّـدُ الطُّـلاَ يَسْطُو وَلا يُبَالِي بالأُسْدِ فِي الْفَـلاَ
أَوْلَى إِلَيْـكَ أَوْلَـى مِـنْ ذِكْـرِ مَعْهَـدِ
أَكْثَرْتَ فِيـهِ قَـوْلا فِـي كُلِّ مَشْـهَدِ
خُذْ فِي امْتِدَاحِ مَوْلَى نَـدْبٍ مُؤَيَّـدِ
مُمَجَّدِ الْجَـلاَلِ مَشَـهَّرِ الْعُـلاَ قَدْ فَاقَ فِي كَمَالِ وَرَاقَ مُجْتَلَـى
مُوَافِـقُ الْخَلِيـلِ فِي الإسْمِ وَالسِّمَاتِ
ذِي الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ الرَّائِـقِ الصِّفَـاتِ
مُكَـرِّمِ الدَّخِيـلِ(١) وَمُجْـزِلِ الْهِبَـاتِ
وَمُحْسِبُ(٢) النَّوَالِ لِمَـنْ تَوَسَّـلاَ وَرَافِـعُ الْمَعَـالِي سُـحْباً مُضَلِّـلاَ
يَـا مَـنْ عُـلاَهُ دَرَّتْ بِكُـلِّ نَـائِلِ
خُذْهَا إِلَيْـكَ جَرَّتْ ذَيْـلَ الْخَمَـائِلِ
وَفِـي حُـلاَكَ أَزْرَتْ بِقَـوْلِ قَـائِلِ
يَـامَنزِلَ الْغَـزَالِ حُيِّيـتَ مَـنزِلاً فَمَـا أُرَى بِسَـالِ عَنْـهُ وَإِنْ سَـلاَ

٩ـ وقال ابن خاتمة الأنصاري(*) :

(١) الدخيل: الضيف.
(٢) المحسب: المكثر.
(*) أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري (ـ ٧٧٠هـ) من أهل المَرِيّة بالأندلس، كاتب، فقيه، أديب، شاعر طبيب، كتب عن الولاة ببلده، وقعد للإقراء، واتصل بالسلاطين، وتردد على غرناطة عاصمة الأندلس آنذاك، له (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد)، يبحث فيه عن طاعون سنة (٧٤٩هـ)، طبع ديوانه (بتحقيق محمد رضوان الداية)، وطبع ثانية بدار الحكمة ـ دمشق، وثالثة بدار الفكر، وجمع تلميذه ابن زرقا له مجموعة من أشعاره في غرض التورية، راجع كتاب: رائق التحلية في فائق التورية، طبع دار الحكمة ـ دمشق.

ما أحلاك يا قمرَ الأحلاك كَمْ أهواكْ ... وفي الحَشا مثواكْ ولاتدري!

الحسنُ يحار في خدّكْ ... والغصنُ يغار من قدّكْ

والذهن ... وقفٌ على ودّكْ

من حلاكْ بالحُسن ما أحلاك ... لأنساك يا فتنة النُّساك إلى الحَشْرِ

هل سُلوانْ لعاشقٍ هَيْمانْ ... عن عُدوانْ ذا الفاتر الأجفانْ

يافتّانْ ... أسرفتَ في الهجرانْ

قد جرّاك ظُلماً على مُضناك ... مَن أفتاك بالصدّ يافتّاك وبالهَجْرِ

لاصارمْ كلحظك النائم ... ياظالمْ أما تُرى راحِمْ

نائم ... أنتَ به عالِمْ؟

ما أسْباكْ لَلعقلِ ما أصْباكْ ... هل عَيناكْ قد أسكرتْ مضناك

ما عُذْرُ من ضلَّ عن وُدّه ... والبدرُ بادٍ على خدّه

والضُّر ... والنَّفْعُ من جُنْدِه

إن ردّاك ثوب البلى أرداك ... أو ولاّكْ طيبَ الرضى أولاك جَنى البِشْرِ

رُحماكا يا فتنة الخَلْق ... لولاكا ما صرتُ في رِقّ

بلواكا عمت ولم تُبْقِ!

قلّ من رآك وليسَ من أسراك ... مُرْ إيّاكْ ياناظر إياكْ أن اشْ تَدري؟!

الزَّجل في الأَندلس(١)

إن النظرية التي عَرَضها الدكتور عبد العزيز الأهواني ـ رحمه الله ـ في نشأة الموشح، وارتباط ذلك بما قدّم من حجة ودليل: بالأغنية الشعبية تصلح أيضاً للكلام على نشأة فن الزّجل، وذيوع الأزجال الأندلسية في تلك البلاد، وهي فن أدبي باللهجة الأندلسية الدارجة انتقل أيضاً إلى المشرق؛ ونال استحسان الناس هناك، ونسخة ديوان ابن قُزْمان أشهر زَجّالي الأندلس كُتبت في صفد بفلسطين في منتصف القرن السادس! (وهي النسخة الوحيدة الباقية).

قال الدكتور الأهواني(٢) : ((قدّرنا أن الزجل ظهر في الوقت الذي أخذ فيه الترشيح يتجه إلى التعقيد ويبتعد عن البساطة الأُولى، ومعنى هذا أن الزجل يرجع إلى أواخر القرن الرابع الهجري حيث عاش عبادة بن ماء السماء ويوسف ابن هارون الرمادي؛ وهما اللذان أدْخلا التغيير على التوشيح حسب نَصّ ابن بسام)).

ونصوص الزجل الأندلسي التي قيلت في القرن الخامس ضائعة، وأشار ابن قُزْمان(٣) في مقدمة ديوان أزجاله إليها إشارات موجزة.

---

(١) ينظر كتاب: الزَّجل في الأندلس، د. الأهواني.

ـ وقد مرّت كتب تاريخ الأدب الأندلسي بالموضوع كما في عصر الأندلس لشوقي ضيف ١٦٣.

(٢) الزجل: ٥٢.

(٣) سنقف عند ترجمته بعد يسير.

ومن المذكورين من زجّالي القرن الخامس أخطل بن نمارة، وابن راشد، وقد عاب ابن قزمان زَجل ابن راشد لما فيه من صعوبة وخشونة فقال:

زجلك يا ابن راشد قوي متين وإن كان هو للقوّة فالحمّالين!

يقول: لو أن الأمر في الفن أمر قوّة لكان الحمّالون أَوْلى به!

وعلل الدكتور الأهواني ضياع أزجال القرن الخامس، بأن هذا القرن كان عصر القصائد والموشحات وأن ملوك الطوائف: ((كانوا يتشبّهون في حياتهم الأدبية بالعصور الذهبية للشعر العربي في بلاط العباسيين والحمدانيين، فلم يكن للأزجال ـ ولكل ماهو ملحون ـ مكان كبير عندهم)).

وقد تغيّر هذا مع زمان المرابطين (الذين لايتقنون العربية) كما عبرّ الدكتور الأهواني... فازدهر حينذاك الزَّجَل، والتمس أصحابُه لأنفسهم سوقاً يَنْفُق فيه فنّهم..

ـ وهناك زجل يُنسب إلى ابن راشد يبدأ بالغزل وينتهي بالشكوى من ضيق ذات اليد وقد اقترب موسم العيد، وأوّل الزَّجَل:

كل من يعيب حبي أيش يفيدو
ذاهَمُّ ليش يلوم؟ كذاك نريدو

يقول في آخره:

كل حدّ في ذا العيد شرّح وملّح
وعمل على حَبْلُو مبزور مُمَلّح
وأنا فليس عندي كبش فينطح
ولا ماتجوّل السّكين على وَرِيْدُو

وهذا النمط يعد من أبسط أنواع الزجل، ولهذا النوع البسيط نظائر كثيرة في أزجال ابن قزمان، وليس له نظائر في الموشّحات. والظاهر أن هذا النوع كان نوعاً شعبياً، ويُنشد على آلة موسيقيّة[١] .

والنوع الثاني من الأزجال هو الذي تكثر فيه الفقرات، وتتعدّد القوافي وتزدحم، فيشبه من هذه الناحية موشحات القرن الخامس ومابعده. فالنوع الأول المتصل بالأصل الشعبي القديم (بالأغاني) ظل موجوداً بين العامة وفي البوادي (الأرياف) ينظمون فيه أشعارهم ويغنون على البوق. وهذا النوع من الزجل مارسه الزجالون المثقفون من رجال القرن الخامس على قلّة، ولكنهم اتجهوا إلى محاكاة التّوشيح. ومن محاكاتهم لفن التوشيح وقعوا في (الإعراب) أي مقاربة نظم الزجل في مقاطع منه للكلام الفصيح وهذا عيبٌ عند ابن قزمان، وسمّي هذا التصرف من الزجال (التزنيم) دلالةً على كونه عيباً في نظم الزجل.

الزّجْل والهزل:

وجدت لفظة الزجل مع لفظة الهزل في وقت واحد، واستعملها ابن قزمان للدلالة على فن الزجل نفسه. وفرق د. الأهواني بينهما بأَدلّة أوردها وجَعل الزجل للشعر الشعبي، والهزل لما شابَه الموشحات. قال: ثم اختلط المُصطلحان، ولكلام تفصيل لا مجال له هنا.

الزجَالون في الأندلس

عُرِف قبل ابن قزمان إذن عدد قليل: ابن راشد، وأخطل بن نمارة.

وعُرِف في عَصْرِه أبو عمرو بن الزاهد الإشبيلي، وعيسى البليد الإشبيلي، وأبو الحسن المقري الدّاني، وأبو بكر بن مَرْتين إضافة إلى ابن قزمان نفسه. والأسماء المذكورة لانعرف ترجمة لغير اثنين منهم هما ابن قزمان وابن الزّاهد.

---

(١) الزجل: ٥٧

وظهر بعد ابن قزمان زجال آخر مشهور هو مَدْغَلْيس، وسنترجم لهما ونختار من أزجالهما، وابن الزيّات.

ومن الزجّالين المعدودين ابن غرلة، وكان ينظم الموشح والزَّجل. وله من مطلع زجل:

مشى السهرحيرانْ حتى رأى إنسانْ(١) عيني وقف!

وظهر عدد من الزجالين في القرن السّابع وماوراءه، ولكنهم لم يشتهروا شهرة ابن قزمان ومدغلّيس، ولم يبق من أزجالهم إلا القليل، أو النتف اليسيرة؛ ماعدا الزجل الصُّوفي الذي برع فيه أبو الحسن الششتري خاصّة..

- ومن هؤلاء ابن جَحْدر الإشبيلي الذي نظم زجلاً في فتح جزيرة ميورقة أوّله:

من عاند التوحيد بالسيف يمحق أنا بري ممّن يعاند الحقّ

ابن قُزْمان(٢) : هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان ولد نحو (٤٨٠هـ) وتوفي سنة (٥٥٥هـ).. فأكثر حياته كان في عصر المرابطين، على أنه أدرك صَدْر دولة الموحّدين. وأسرة ابن قزمان أسرةٌ نبيلة كانت بين عالم ووزير ورئيس. نشأ في قرطبة نشأة علمية أدبيّة. وقد نظم الشعر والموشح والزّجل. ولكنه مال إلى الزجل لـمّا رأى نفسه مجلّياً فيه مقصّراً في غيره، وصار ـ كما يقول ابن سعيد في (الـمُغرب)-: إمام أَهْل الزّجل المنظوم.

ويبدو أن ابن قزمان عاش حياته في لهو وإسراف حتى ضيّع ماله وتكسّب بزجله، ويتمثل ابن قزمان في أزجاله ((مُكدياً(٣) دائم الإلحاف في طلب أنواع

---

(١) إنسان العين: البؤبؤ، وفي الزجل تورية لطيفة.

(٢) ترجم له ابن سعيد في المُغرب ١/١٠٠ و١/١٦٧، وتحفة القادم (الترجمة رقم ٢٥)، والإحاطة في أخبار غرناطة ٢/٢٩٤، والوافي بالوفيات ٤/٣٠٠.

(٣) انظر في الكُدْية والمكدين بحث المقامات من هذا الكتاب.

الملابس وفي تشهّي خروف العيد وفي طلب القمح..))[1] وفي أخباره أنه دخل السّجن، وأنه توسل بالأمير محمّد بن سير فأنقذه منه وهذه قطعة من زجل له يشكو فيها القاضي ويشكر الأمير:

لقد اشتدّ حبلي وانقطع بعد ما اشتدّ
وإنما نشكر الله وابن سير محمّد
للقتل كان رفعني ولد ابن المناصف!
وعدّ منّي منافق وحسبني مخالف
لس عندك مصيبة لو خرج روح واقف
أو نرى السيف بعيني لقطوع راسي يِجْبَدْ!
لم يُرَ قطّ لعمري قاضٍ يعمل ذا الأعمالْ
أن يسكّن جواري كل حوّاس وقتَالْ
با الله ما أطول الليل إذْ نبيت مشغول البالْ
ليل انْ آخر يزاد فيه أو حبلْ صُوره يمتدّ!

ولايقلّ الجِدّ وجوداً في زجله عن الهزل فلكلّ كلام مقامه ومناسبته، وهو ذا يمدح في أحد أزجاله، ويدخل في الموضوع دون مقدّمات غزلية:

مثل ابن تاشفين يقال أميرْ والخلافهْ من بعدُ عادت تسيرْ

بارك الله في هاذا الأيّامْ
تجي أعوام إذا مضت أعوامْ
ويجعلهم سلاطين الإسلام
ونصرهم كما هُو نَعْمَ النّصيرْ

---

(١) الزجل في الأندلس وعصر الطّوائف والمرابطين ٢٦٨.

وقد اهتم المستشرقون بأزجال ابن قزمان، وقد عدوا اكتشاف ديوانه حدثاً مهماً في تاريخ الشعر الأندلسي بل الأوربي كله[١] لأهميّته في الدراسات العربية والرومانية في القرون الوسطى، وكثرت البُحوث حوله من جوانب متعدّدة: الأدب واللّغة والاجتماع وغير ذلك.

مُدْغَلّيس:

اتّصلت الأزجال منذ نشأتها إلى آخر عهد ابن قُزمان بالتّوشيح والغِناء. فلمّا جاء مدغَلّيس ظهر على يديه، أو اقترن باسمه نوع جديد من الزَّجل هو القصيدة الزجليّة.

وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قُزمان في الزّجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغلّيس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة (يريد: الطبع والصّنعة) فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت للفظ..[٢]

وكان لمدغلّيس ديوان زجل نقل عنه صفّي الدين الحِلّي في كتابه: (العاطل الحالي والـمُرْخَص الغالي)

- ومن زجله في حوار بينه وبين النسيم:

لقد أقبلت يانسيم السَّحر بروائح قد بوّرت للمسوكْ
توقد أنفاسك الذكيّة شمع في قلوبنا متى مانستنشقوك!

- ومن زجله في المديح (مدح ابن صناديد):

أبو عبد الله الذي أسّس لُ جاه بن صناديد تبنّى واحتفلْ
ولُ هِمّة قد علت فوق الهمم فهو لايرضى الثريّا عن نَعلْ
الرفيع الماجد الحرّ الشريف الشجاع الفارس الليث البَطلْ

---

(١) الزجل ٦٩.
(٢) من عبارةٍ للمقّري في نفح الطيب ٣٥٦/٤.

ويذهب الدكتور الأهواني إلى أن: الباقي من أزجال مدغلّيس محكوم بأذواق الأدباء الذين اختاروا. وهو على كل حال لايَرْقى إلى مستوى أزجال ابن قزمان فكأنه هو أمير زجَالي الأندلس بلا منازع.

أبو الحسن الشُّشْتري(١)

هو أبو الحسن عليّ بن عبد الله النُّميري الششتري الأندلسي. نسبته إلى ششتر إحدى قرى وادي آش في جنوب الأندلس، ولد سنة (٦١٠هـ) درس علوم عصره، وخصوصاً: علوم القرآن والحديث والفقه والأُصول، وزاد دراسة الفلسفة، وعرف مسالك الصُّوفية ودار في فلكهم، وكان يُعرف بلقب: عروس الفقهاء.

- نظم الشّشتري القصيد، والموشح، والزَّجل. وذاع صيته شرقاً وغرباً.

- وبدأ حياته تاجراً جوّالاً في الأندلس والمغرب، ولقي أبا مدين شعيب التّلمساني الصوفي المشهور في بجاية فتبعه، ثم تبع ابن سبعين (أحد كبار المتصوّفة ومشهوريهم).

- أدّى فريضة الحجّ، وسكن القاهرة مدّةً، ولقي أصحاب الشاذلي حتى عدّوه منهم، وزار الشام سنة (٦٥٠هـ)، ولقي نجم الدين بن إسرائيل الصوفي الشاعر.

- كان الششتري يطوف في البلاد ويردّد أشعاره وموشحاته وأزجاله على أنغام آلته الموسيقية التي عُرفت باسم (الششتريّة) ويتبعه الأشياع والأصحاب ممّن تسمّيهم المصادر بـ(الفقراء).

- وفي أخباره أن أهل طرابلس عرضوا عليه ــ حين نزل عندهم ــ منصب القضاء فأبى فنسبوه إلى الجنون، فقال قطعة أولها:

---

(١) تنظر ترجمته في (عنوان الدراية ١٤٠ ونيل الابتهاج ٢٠٢)

ــ ولأبي الحسن ديوان مطبوع حققه الدكتور علي سامي النشار، وطبع في منشأة المعارف بالإسكندرية.

رضي المتيّم في الهوى بجنونه   خلّوه يُفني عُمْرَهُ بفنونه

في أزجال أبي الحسن الششتري(١) زجل يجري على نسق الموشح من حيث شكله بترتيب الأقفال والأغصان، يبدأ بالمطلع وينتهي بالخرجة، ويلاحظ على الأقفال أنها تتألف من ثلاثة أجزاء يتجدد الأوّل في كل قفل ويتكرر الثاني والثالث؛ على نهجٍ يساعد الزجّال على تقريب مقصده إلى مَنْ حوله وتابعيه، ويساعده في التّوكيد اللفظي والمعنوي، ويبدأ الزجل على هذه الصورة:

اسمع كلاماً ملتقط   افهمني قَطّ   افهمني قطّ

إيش قال لي واحدْ عَلَّهُ

ذا المعنى افهم شرْحَهُ

إيش اسم حبّك قلت: هُو

اسم المليح ما يختلطْ   افهمني قط   افهمني قطّ

وقال أبو الحسن الششتري(٢):

شُويخْ مِن أرضِ مِكْناس   وسْطَ الأسواق يُغَنّي

أشْ عَلَيَّا مِن النّاس   وأشْ على النّاسِ منّي

أش عليّا ياصاحب   مِن جَميع الخَلايقْ

إفْعَل الخيرَ تنْجُو   واتبعْ أهلَ الحقائق

لاتقُلْ يا بني كِلْمَهْ   إلاّ إنْ كنتَ صادِق

خُذ كلامي في قُرْطاس   واكْتُبُوا حِرْزَ عَنّي

أشْ عَلَيَّا مِن الناس   وأشْ علَى النّاسِ منّي

ثمَّ قَولٌ مُبينٌ   ولايحْتاج عبارَهْ

---

(١) ديوانه ١٧٧.

(٢) الديوان ٢٧٣-٢٧٥.

أشْ عَلَى حَدْ من حَدْ ... إفْهَمُوا ذِي الإشارة

وانْظُرُوا كِبْرَ سِنِّي ... والعصا والغَرَارَه

هكذا عِشْتُ في فاسْ ... وكذاك هُونْ هُونِي

أشْ عَلَيَّا منَ النَّاس ... وأش على النَّاسِ منِّي

ومأحْسَنْ كَلامُو ... إذْ يَخْطُر في الأسْواق

وتَرَى أهْلَ الحوانتْ ... تلْتفِتْ لو بالأعناقْ

بِغَراره في عُنْقُوا ... وعُكَيْكِزْ وأقراق

شُوَيْخ مَبْنِي عَلى أساس ... كما أنشَا اللهُ مَبْنِي

أش عليَّا منَ النَّاس ... وأشْ على النَّاسِ منِّي

لَوْ تَرَى ذا الشوَيَّخ ... مَا أرَقُّوا بمعنى

إلتفتْ لِي وقالْ لِي ... أش نراكْ تَتْبَعْنا

أنَا نَنْصِبْ لِي زَنْبيل ... يَرْحَمُوا من رَحِمْنا

وأقامُوا بَيْن أجناس ... ويقُول دَعْنِي دَعْنِي

أش عليَّا مِنَ النَّاس ... وأشْ عَلى النَّاسِ منِّي

مَنْ عَمِلْ يابْنِي طَيِّبْ ... ما يُصِيب إلاَّ طَيِّب

لِعُيوبُوا سَينْظُر ... وفِعالُوا يُعَيِّب

والْمُقارِبْ بِحالي ... يَبْقَى بَرًّا مُسَيِّب

مَنْ مُعُوا طِيبَةَ أنفاس ... يدْري عُذْرَ المغنّى

أش عليَّا مِنَ النَّاس ... وأشْ عَلى النَّاسِ منِّي

وكذاكْ إشْتغالُوا ... بالصَّلاهْ على مُحَمَّد

والرِّضَا عَنْ وَزِيروا ... أبي بَكْرِ الْمُمَجَّدْ

وعُمَــــر قـــــائِلَ الحــــقِّ   وشَــــهيد كُـــــلِّ مَشْــــهَد
وعَلِـــى مُفْتِـــى الأرْجـــــاس   إذا يَضْـــــرِبْ مـــــايْثِني
أش عليَّـــــا مِـــــنَ النَّـــــاس   وأشْ عَلـــى النَّـــاسِ منّـــي
يـــــا إِلهـــــي رَجَوْتُــــك   جُـــــدْ عَلَيَّـــــا بِتوْبَـــــه
بـــــالنَّبي قَـــــد ســــألتُكْ   والكــــــرامِ الأحِبــــــه
الرَّجيــــم قـــــد شَـــغَلْني   وأنـــــا مَعُـــــوا في نُشْـــبَه
قـــد مَـــلاَ قلْـــبي وَسْـــوَاس   مِمَّـــا هُـــو يَبْغِـــى مِنّـــي
أش عليَّـــــا مِـــــنَ النَّـــــاس   وأشْ عَلـــى النَّـــاسِ منّـــي
ثـــــمَّ وَصْــــفُ الشُّــــوَيْخْ   في مَعـــــانِي نِظــــــامي
وإنّــــي خَـــوَّاص ونُقْـــرِي   لأهـــــل فَنّـــــى سَـــــلامِي
وإذا جَوَّزُونِـــــــــــــــــــي   نقُـــــل أوَّلْ كَلامِـــــــي
شُـــويْخ مـــن أرضِ مِكْنـــاس   وسْـــطَ الأسْـــواق يُغَنّـــي
أش عليَّـــــا مِـــــنَ النَّـــــاس   وأشْ عَلـــى النَّـــاسِ منّـــي

الفصل الثالث

النثر الفني في الأَندلس

الكتابة الديوانية	٢١٣
الرسائل الإخوانية	٢٢٧
الرسائل الأدبية	٢٣٤
المقامة في الأندلس	٢٥٦
أدب الرحلة	٢٦٧

الكتابة الديوانية

بدأت النُّصوص النَّثرية في الأندلس ـ كما بدأ الشعر ـ بالقليل المرويّ عن شخصياتٍ مشرقية دخلت الأندلس واستقرت هناك من الولاة، والقادة، وذوي المكانة الذين تُحْفَظُ عنهم الآثار والأخبار.

وهذا خبر رواه صاحب (البيان المُغرب)[1] عن عُبَيد الله بن الحَبْحاب الذي كان والياً على إفريقية والمغرب والأندلس، وكان رئيساً نبيلاً، وأميراً جليلاً بارعاً في الخطابة والفصاحة. واتّفق أنْ وَرد على عبيد الله بن الحبحاب عقبةُ بن الحجّاج السّلولي يهنئه بالولاية فأكرمه عُبيد الله، وبالغ في إكرامه فاغتاظَ أبناء عبيد الله لذلك، وعرف عبيد الله من أبنائه موقفهم؛ فجمع الناس، وقام فيهم خطيباً فقال:

((أيُّها الناس! إنّ بَنِيَّ هؤلاء غَرَّتْهُم غِرّة الشّيطان لعِزّة السُّلطان[2] فأرادوا أمراً أخْرُجُ به عن الحقّ، وأنكروا ما رأَوْا من برّي لهذا الرَّجُل. وإنما أُخبركم أنه مولاي (من معنى المولى: السيّد) وأن أباه أعتق أبي!وأنا أكرهُ كِتمان أمرٍ، الله سُبحانه شَهَيد عليَّ به))!

وهذا القدر من الكلام يدل على الإيجاز والاختصار، والقصد إلى إبلاغ الأفهام مجرّداً عن زينة وزخرف؛ وهو كلام مباشر: أدّى الغرض، وأبلغ المَقْصُود.

وفي رسالة من عبد العزيز بن موسى بن نُصَير، وهي نصّ معاهدة مُبرمةٍ مع تُدْمير آخر ولاة القُوط على منطقة فتحها عبد العزيز أو أعاد فتحها:

---

(١) البيان المغرب لابن عذاري ١/٥٠ ـ ٥١

(٢) يقول: إنهم داخلهم الغرور بوسوسة من الشيطان، وهي غِرّة الشيطان وغروره بما نالهم، ونال أباهم من السلطان من عِزّة السُّلطان وهي قوة الحكم وسطوته.

((من عبد العزيز إلى تُدمير: أنّه نزل على الصُّلح، وأنّ له عهد الله وذمّته: ألاّ يُنزع عن ملكه، ولا أَحد من النصارى عن أملاكه، وأنّهم لا يُقتلون ولا يُسْبَوْن: أولادهم ونساؤهم، ولا يُكْرَهُون على دينهم، ولا تُحْرَقُ كنائسهم ما تَعبَّد ونصَح، وأنه لا يؤوي لنا عدوّاً، ولا يخونُ لنا أمناً، ولا يكتم خبراً علمه)).

والنصّ يذكرنا بالنصوص المشابهة في صدر الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، والدولة الأمويّة.

٢ ـ استقرت أحوال الأندلس من النّاحية الإداريّة، في عصر الإمارة الأمويّة، وتبع ذلك كثرة الكتّاب الذين كانت تناط بهم المهامّ الإداريّة في دائرة الدولة المختلفة. وكان لا بدّ للكاتب ـ لكي يصل إلى رُتبة الكتابة ـ من أن ينال حظّاً من الثقافة والمعرفة والمعلومات العامة من جهة، ومن المعلومات الخاصة التي تؤهله للعمل في الكتابة الديوانيّة، وتسيير الشؤون المناسبة.

وكانت رُتبة الكاتب، رتبة رفيعة في الأندلس. وكانت لفظة الكاتب تُطلق(١) على: كُتّاب الرّسائل، وكُتّاب الزّمام. أما كتابة الرسائل فمعروفة، وأما كتابة الزّمام فينخفض بها المسؤولُ عن شؤون الخراج. ويضاف إلى هذين النوعين من الكتّاب، الكاتب الخاصّ، وكان لدى كلّ أمير كاتب خاص. وكانوا يُطلقون عبارة (الكتابة العليا) على الهيئة العامة للكتابة في الدّولة أو الإمارة.

والنّصوص في صدر الدولة الأمويّة قليلة لا تقدّم القدر الوافي من أنواع الترسُّل لإقامة دراسة موسّعة، تُطلق فيها الأحكامُ عن استقراء كاف. وعلى ذلك يستظهر الدارسون من خلال النّصوص اليسيرة المفرّقة في الأُصول والمصادر سمات عامّة للكتابة في هذه المدّة. من ذلك قول بعض الدارسين المُعاصرين(٢): إن الكتابة الرسمية تدلُّ ـ في هذه المرحلة ـ ((على تفضيل الإيجاز والقصد في التعبير وإيثار المعنى)). ومن هنا فضّلوا الرسائل القصار، والأجوبة القريبة من شكل التوقيعات(٣).

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة ـ د. إحسان عباس: ٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ٣٢٦. وهذا مطابق لموقف عبد الرحمن الدّاخل في أساليب الكتابة.

(٣) راجع إحكام صنعة الكلام لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي: باب التوقيعات.

ومن النُّصوص في هذا العصر ما أورده ابن عذاري في تاريخه[١] قال:

((كان الإمام عبد الرحمن (أي ابن معاوية الداخل) فصيحاً بليغاً، حسَن التوقيع، جيّد الفصول، مطبوع الشعر. ومما أمْلاهُ على كاتبه إلى سليمان بن الأعرابيّ:

أما بعد[٢]:فدَعْني من مَعاريض المَعاذِير، والتّعسُّف عن جادَّة الطريق. لَتمدَّنَّ يَداً إلى الطّاعة، والاعتصام بحبلِ الجَماعة، أو لأُلْقيَنَّ بَنانَها على رَضْفِ المعْصية، نَكالاً بما قدَّمت يداك، وما الله بظلاّمٍ لِلعَبيد)).

والمعاريض ما عُرض به ووُرِّيَ. والرّضف: الحجارة المحمّاة.

- ونقل ابن عذاري أيضاً قال: كتب أمية بن زيد كاتب عبد الرحمن الداخل إلى بعض عُمّاله يَستقصره فيما فرَّط من عمله. فأكثرَ وأطال الكتاب. فلما لحظهُ عبد الرحمن بن معاوية، أمر بقطعه؛ لطوله، وكتب بخط يده: ((أمّا بعد، فإن يكن التّقصيرُ لَكَ مُقدّماً فَعسى الاكتفاء أن يكون لك مؤخراً. وقد علمتَ بما تقدَّمت، فاعتمد على أيّهما أحببت)).

وهذا كتابٌ قريبٌ من كتابٍ بعث به الخليفة الأموي يزيد على الوليد كما رواه الجاحظ[٣] :

((بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد: أمَّا بعد فإني أراك تُقدّم رِجلاً وتؤخّر أُخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمِد على أيّهما شئت والسلام)).

- وكان مروان بن محمد قد تلكأ في المبايعة ليزيد بن الوليد.

(١) البيان المغرب ٢/٥٨

(٢) البيان والتبيين: ٢/٣٠٢

(٣) البيان والتبيين ٢/٣٠٢

ومن توقيعات الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ) ماكتبه على رُقعة أحد رجاله، وذلك أن عبد الرحمن أعطى المغني زرياب ثلاثة آلاف دينار، ولحقه أولاده وحشمه يطلبون منه شيئاً منها، فنثرها عليهم جميعاً، فكتب ذلك الرجل بخبر زرياب بصيغة السِّعاية، فعلّق على ذلك ووقّع بما نصّه:

((نبّهتَ على شيءٍ كنا نحتاج التنبيه عليه، وإنما رزقُه نطق على لسانك، وقد رأينا أنه لم يفعل ذلك إلا ليحبّبنا لأهلِ داره، ويغمرَهم بنِعَمنا، وقد شكرناه، وأمرنا لهُ بالمال المتقدم ليُمسكه لنفسه. فإن كان عندك في حَقّهِ مضرَّةٌ أُخرى فارفَعها إلينا))[1].

والنصُّ رسالة قصيرة، من نوع التوقيعات. ويظهر فيها الأسلوب المُرسل القاصِد، الذي يكتفي بعرض المعنى المقصود في أقرب الألفاظ، وألصقها بالغرض.

ـ وعُرف الأمير عبد الله بن محمد بأنه كان متفنّناً في ضروب العلوم، فصيح اللسان، حسن البيان، بَصيراً باللغات، (وفي رواية للنص: بصيراً بلغات العرب، وهذا هو المقصود)، حافظاً لأشعار العرب، وأيامها وسير الخلفاء.. إلخ .. وأملى كتاباً إلى بعض عماله[2] فيه:

((أما بعد. فلو كان نظرُك فيما خَصصناك به، واهتبالُكَ به على حسب مُواترَتك بالكتب واشتغالك بذلك عن مُهِمّ أمرك، لكنتَ من أحسن رجالنا غَناء، وأتمّهم نظراً، وأفضلهم حَزْماً. فأقِلْ الكُتْبَ (الكتابة) فيما لا وجه له ولا نفع فيه. واصرفْ همتك وفكرك وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غناؤك، إن شاء الله)).

ـ وبعث وليد بن عبد الرحمن بن غانم رسالة إلى الأمير محمد يسأله فيها، بأسلوب لطيف أن يقرّبه ويسند إليه بعض المناصب الكبيرة:

---

(١) البيان المغرب ١٥٢/٢

(٢) البيان المغرب ١٥٤/٢

((عَظُمت نِعمةُ الأمير ـ أبقاهُ الله ـ عن الشُّكر، وجلَّت أياديه عن النشر. فمتى رُمْتُ شكر أدنى ما غمرني، وحمد أيسر ما اشتملَ عليَّ تكاءَدني الشكر[1]، وعَجز بي الجَهد، ولستُ بمؤمّل مع ذلك عن الاستفراغ في القول، والاجتهادِ في العمل؛ إذ لم أرهما يَدوران إلا على نعمةٍ أزلفتْ، ويقتصران إلاّ على زيادة انتُظرتْ، وأنا بهما مخيّم، وعليهما معوّلٌ، والله الناقلُ لعباده بطاعتهم لهُ، وشكرهم أياديه، من دارِ الشقوة إلى دار السّعادة، ومن نَصبِ العاجلة إلى راحة الآجلة)).

وردَّ عليه الأمير محمد:

((إنَّ الله شاكرٌ يحبُّ الشاكرين، وقد ناديتَ فأسمعت، ولكلّ أجلٍ كتاب)).

ـ وتظهر على الرّسالة بوضوح آثارُ الأسلوب المرسل المجوّد، الذي يعتني بالعبارة الواضحة، والفكرة الجلية، في ثوبٍ من الألفاظ المعبّرة الدالّة، المنتقاة لملاءمة المعنى من جهة، وإيقاع الصدى في النفس من جهة أخرى. وفي الرسالة من الأسلوب الذي انتهى إليه الجاحظ ملامحُ واضحة.

وتدور النصوص الباقية من فترة الإمارة المروانية حول: المراسلات السياسية، والمراسلات الإدارية، وكتب المبايعة والتولية وعقود الأمان والتوقيعات.

وفي الأصول الأندلسية والمغربية نُتف يسيرة في النثر التأليفي المتبقّي من هذه المدة.

ونشير هنا إلى رأي الدكتور إحسان عباس الذي أورده، وهو يناقش النصوص النثرية الأندلسية إلى أواسط القرن الهجري الرابع فقد قال:

((وظل أمر الكتابة بسيطاً، لا تحلية فيه، حتى أواخر أيام المستنصر، وكان السَّجع يجيءُ في الرَّسائل عفواً دون تعمُّد، حتى مقدّمات الكتب، كمقدمة كتاب (قُضاة قرطبة) للخُشني. ظلّت عارية من السجع إلا فيما ندر.

---

(١) تكاءدني الشكر: صَعب وشقّ.

وجعل الدكتور عباس الكتابة الفنية في الأندلس منذ البداية إلى أواسط القرن الخامس في مرحلتين.

المرحلة الأولى: وقد بيّنا رأيه فيها من خلال النصوص القليلة المبثوثة.

والمرحلة الثانية: التي تبدأ في أواسط القرن الرابع، وتمتد إلى ما بعد منتصف القرن الخامس. وفيها من الكُتّاب: ابنُ بُرد الأكبر، وعبد الملك بن إدريس الجزيري، وابن دراج القسطلي، وابن شُهَيد، وابنا حزم (أبو محمد، وأبو المغيرة) والحنّاط، وابن حيّان المؤرخ وابن زيدون وغيرهم.

وهي قسمةٌ مقبولة. وسيظهر فيما وراء المرحلة الأولى من هؤلاء الكتاب من يرسِّخ قواعد الكتابة وأصولها ويترك آثاراً كتابيّة واضحة الخصائص، ومَنْ تميَّز بطريقةٍ في الكتابة لا تعدّ محاكاة خالصة لأدباء المشرق. وفي أخبارهم أن الأندلسيين كانوا يتناقلون رسائل ابن درّاج القسطلي ويُعجَبُون بها. وكان رؤوس الكتّاب يَطلبون ممن يزاول هذا العمل الإتقان والتجويد كالذي نجده في أخبار والد الفقيه أبي محمد بن حزم، وكان كاتباً مشهوراً في الدولة العامرية: ((إني لأعجبُ ممن يلحنُ في مخاطبة أو يجيءُ بلفظة قلقة في مكاتبة؛ لأنه ينبغي أنه إذا شكَّ في شيءٍ أن يتركه ويطلب غيره، فالكلام أوسعُ من هذا)).

وألّف ابنُ شُهَيد كتباً في البلاغة، تحدث فيها عن أساليب الكتابة وأصولها. ومما بقي من آثاره، وقد أورده عَرَضاً في (رسالة التوابع والزوابع)[1]، تقسيمه لمراحل تطوّر الأساليب النثرية؛ وجعلها أربعة أنواع:

أ ـ طريقة الكتاب الأوائل الذين كانوا في صدر الإسلام.

ب ـ ثم طريقة عبد الحميد، وابن المقفع، والجاحظ وسهل بن هارون.

جـ ـ ثم طريقة بديع الزّمان الهمذاني، وشمس المعالي قابوس بن وشمكير وغيرها. وتبرز في هذه المدة أنماطٌ أُخر من الكتابة الرسمية (الديوانية) في

---

(١) راجع رسالة التوابع والزوابع لابن شُهَيد في الجزء الأول من القسم الأول من الذخيرة.

موضوعات كانت من مجال القضايا الشعرية، التي تعتمد الخيال، ونجد أمثلة لذلك في رسائل ابن شُهَيد، وأبي حفص بن بُرد الأصغر: كرسالة المفاخرة بين السيف والقلم.

وقد ظهر عددٌ من الكتاب والخطباء في مدّة خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) وهيأ استقرارُ الدولة للتبحّر في الأمور الثقافية والعمرانيّة والحياتيّة. ومن الرسائل الباقية من مدة عبد الرحمن الناصر، رسالة سلطانيةٌ (منشور) وجّهه إلى حكام الأقاليم ليخبرهم باتخاذ لقب (الخليفة)، قال فيه:

((بسم الله الرّحمن الرّحيم. أما بعد! فإنا أحقُّ من استَوفى حقّه، وأجدر من استكمَل حظَّه، ولَبس من كرامة اللهِ ما ألبسه، للذي فضّلنا به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسَّر على أيدينا دَركه، وسهَّل بدَولتنا. والحَمدُ للهِ وليِّ الإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضَّل علينا فيه.

وقد رأينا أن تكون الدعوةُ لنا بأمير المؤمنين، وخُروج الكتب عنا ووُرُودها علينا بذلك، إذ كلُّ مدعوٍّ بهذا الاسم غيرنا منتحلٌ له، ودخيلٌ فيه، ومتسمٍّ بما لا يستحقُّه. وعلمنا أنَّ التّمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حَقٌّ أضعناه، واسمٌ ثابتٌ أسقطناه، فَأْمُرِ الخطيبَ أن يقولَ به، وأجْرِ مخاطبتك لنا عليه، إن شاء الله. والله المستعان))(١).

ولا يختلف الأسلوب في هذا المنشور (الرّسالة / الكتاب) عن أساليب المرحلة الأولى من الاعتدال والقصد والجلاء، وطلب الفكرة، وإيضاحها بعبارة بسيطة دالّة. ولا نلمحُ أثراً للسّجع والتكلّف، ولا أثراً لصنعة زائدة، سوى هذه القسمة في العبارات، والتوازن ـ أحياناً ـ مع دقة في اجتلاب الكلمة المناسبة، وبراعة في اختيار المعاني، في تلوينٍ صوتي مُعجب.

---

(١) النص في البيان المغرب لابن عذاري ٢/١٩٨ ـ ١٩٩، وتاريخ هذا المنشور هو سنة ٣١٦ هـ.

وهكذا: جرت أَحوال الكتابة الديوانية على الأَحوال المألوفة منذ عهد عبد الرحمن الداخل إلى عهد عبد الرّحمن الأوسط الذي يُعَدُّ ((مؤسّس الحَضارة الأَندلسيّة ونظمها الإدارية))(١)، فقد اتخذ ما يماثل مجلس الوزراء، وقسم شؤون الدولة في القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط، واقتضى ذلك تعدد الكتّاب مع الوزراء وأصحاب الخطط، ممّا كان له أثره في نهضة الكتابة الديوانية.

ويحفظ التاريخ أَسماء عدد كبير من كُتّاب الدولة الأُمويّة الذين ساروا على الأسلوب المرسل في الكتابة حتى كان زمانُ هشام بن الحكم؛ ومدبّر دولته الحاجب المنصور، وولديه المظفر والناصر فظهرت الرسائل الديوانية المسجوعة كما في كتابة ابن بُرْد الأَكْبر (ت ٤١٨ هـ).

٣ ـ فلما أظلّت الأَندلس دولُ الطّوائف كَثُر كتاب الدواوين كثرةً بالغة؛ فقد صار كل بلاطٍ أو قصرٍ أو دار حكمٍ في مدينةٍ أو مقاطعة في حاجة إلى رُسوم السُّلطة وأُبَّهة الْمُلك. وكان الكاتب (الوزير في الوقت نفسه غالباً) أَبْزارَ تلك الرسوم ومِلْحَها الأَساسيّ، وأصبح السَّجع في رسائل الكتّاب: ((أشبه بقانونٍ عامٍ في جميع الرّسائل الديوانيّة))(٢).

ومن هؤلاء الكُتّاب في هذه المُدّة ابن بُرد الأصغر كاتب معن بن صُمادح أَمير المَرِيّةِ، وأبو محمد بن عبد البَرّ كاتبُ مُجاهد العامِرِيّ وابنه عليّ، وكانوا في دانية بشرق الأَندلس، وأبو المُطَرّف بن مثنّى كاتب المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، ومحمّد بن أيمن كاتب المتوكل بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوس.

ولابن أيمن رسالة كتبها عن المتوكّل المذكور إلى يوسف بن تاشفين أمير المغرب يستنجد به باسمه وباسم الأندلس كلها ضد ألفونس (يسمّيه العرب أذفونش) ملك قشتالة وغيره من ملوك نصارى الشمال الطّامعين، الذين أنهكوا البلاد والعباد، قال:

---

(١) الأندلس. د. شوقي ضيف: ٣٩٢

(٢) المصدر نفسه: ٣٩٤.

((... لمّا كان نور الهدى دليلك، وسبيل الخير سبيلك؛ ووضحت في الصّلاح معالِمُك، ووقفت على الجهاد عَزائمك؛ وصحَّ العِلْمُ بأنّك لدعوةِ الإسلام أَعزُّ ناصر، وعلى غَزْوك الشّرك أَقْدر قادِرْ؛ وجب أن تُسْتَدعى لِمَا أعضل من الدّاء، وتُستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء. فقد كانت طوائف العدو المُطيفة، بها ـ أهلكهم الله ـ عند إفراطِ تَسلُّطها واعتدائها، وشدّة كَلَبها واستشرائها، تلاطَفُ بالاحتيال، وتُستنزَلُ بالأموال...)).

وتستمرُّ الرسالة على هذا النمط من الأُسلوب المسجوع، على أنه أسلوبٌ مقبول، وسَجْعُه غير ثقيل؛ ومقدرة الكاتب اللغوية أتاحت له اختيار المناسب من الألفاظ فجاءت مناسبةً، حسنة القَبُول.

والموضوع كان ابن الساعة آنذاك. لقد انضمّ ابن الأفطس إلى الجمهرة الأندلسية، وهي تدعو ابن تاشفين لدخول الأندلس وردّ عادية غزاة الشمال.

٤ ـ وعَصْر الطوائف أفضى بكثير من كتّابه وأُدبائه إلى عصر المرابطين[١]، وبَرز من كتّاب أمراء المرابطين وحكّام المناطق أبو القاسم بن الجَدّ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال (وهما من كتّاب أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين، وسنقف وقفة خاصّة عند ابن أَبي الخصال) وفيهم عبد المجيد بن عبدون وكان شاعراً وكاتباً، وأبو الحسن عليّ بن الإمام.

ـ وبرز من كتّاب دولة الموحّدين ابن عَيّاش (أبو عبد الله محمد ٥٠٠ ـ ٥٨٦ هـ) وأبو عبد الله محمد بن يَخْلُفْتن الفازاري القرطبي، وابن جُبَير صاحب الرحلة ولنا معه وقفة خاصّة، وابن هَرَوْدس (وكان شاعراً ووشّاحاً أيضاً).

ـ وأعْقَب دولة الموحدين، وكان في أثناء أيّامها الأخيرة، مجموعة من المتغلبين على بعض مناطق الأندلس في ما عُرِف في التاريخ أحياناً باسم عصر الطوائف الثاني. وأثّر هذا في ظهور مهمّة الكاتب (والكاتب شخصية ملازمة لكل أمير

---

(١) يدرس عصر المرابطين من الناحية الأدبية ـ عادةً ـ مع مدّة الطوائف.

أو حاكم أو متنفّذ يحاول سلطة أو حُكماً) إلى أن استقرت أحوال الأندلس الباقية في يد محمد بن الأحمر (مؤسس دولة بني الأحمر، أو بني نصر) في مملكة غرناطة.

وفي كتاب هذه المدّة: أبو يحيى بن هشام القرطبي، وأبو جعفر بن طلحة، وابن الجَنّان، وأبُو المطرّف بن عميرة المخزومي (وكان شاعراً مشهوراً وكاتباً بارعاً) وابن الأبّار (وكان شاعراً أيضاً وله ديوان مطبوع).

ـ وأبو المطرّف هو أحمد بن عبد الله المخزومي[1] (٥٨٢ ـ ٦٥٨ هـ) من أهل جزيرة شقر (مدينة ابن خفاجة) طلب العلم في مدن كثيرة، واشتغل بالكتابة في بلنسية ومرسية وإشبيلية عند عدد من الأمراء والحكّام. وعبر البحر إلى سبتة في مدّة اضطراب الأندلس، عند واليها ابن خلاص، ودخل مراكش مع الخليفة الموحّدي الرشيد، وخدم غيره من خلفائهم، ثم دخل تونس. وجال في عدد من مدن المغرب الأدنى والأوسط. وخدم بعض خلفاء الحفصيّين في تونس إلى وفاته غريباً عن وطنه سنة (٦٥٨ هـ).

ولأبي المطرف رسائل مجموعة[2] . ومنها رسالة كتب بها عن ابن هود، فيها عقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء للخليفة العباسي ببغداد المستنصر، وفيها البيعة لنفسه، ولابنه وليّاً للعهد من بعده، جاء في ذلك العقد:

((الحمد لله الذي جعل الأرض قراراً، وأرسل السماء مدراراً، وسخّر ليلاً ونهاراً، وقدّر آجالاً وأعماراً، وخلق الخَلْق أطواراً، وجعل لهم إرادةً واختياراً، وأوجد لهم تفكُّراً واعتباراً، وتعاهدهم برحمته صغاراً وكباراً.

---

(١) ترجم له في معجم أصحاب الصّدفي ١٦٣، وتحفة القادم الترجمة ٩٢، واختصار القدح المعلّى ٤٢، والمغرب ٣٦٣/٢، وجذوة الاقتباس ٧٢، وعنوان الدراية ١٧٨، والإحاطة ١٧٣/١

ـ وللدكتور محمد بن شريفة دراسة عن أبي المطرّف (ط الرباط) نشر المركز الجامعي للبحث العلمي.

(٢) لأبي المطرف رسائل مجموعة في كتاب (في الرباط ـ بالخزانة العامة مخطوطتان منه).

نحمده حَمْدَ من يرجو له وقاراً، ونبرأ ممن عانده استكباراً، وأَلْحَدَ في آياته سفاهةً واغتراراً.

وصلى الله على سَيِّدنا محمد الشريف نجاراً، السامي فخاراً، رفع الله من شريعته للأُمّة مناراً، وأطفأ برسالته للشّرك ناراً، حتى علا الإسلامُ مقداراً، وعزّ جاراً وداراً، وأذعن له الكفر اضطراراً، واستسلم ذلّةً وصغاراً، فمضى وقد ملأ البسيطة أنواراً، وعمَّها بدعوته أنجاداً وأغواراً، وأوجب لولاة العهد بعده طاعةً وائتماراً...)).

ويستمرّ العقد على هذه الصُّورة من العناية، والأَناقة، والصنعة الفنية. ويلاحظ القارئ التّطويل، واستعراض المقدرة البيانيّة، ولجوء الكاتب للأسلوب المسجوع. وزيادة: لزوم مالا يلزم، ذلك بأنّه التزم حرف الراء في السّجع.

وعلى الرغم من إحكام الصنعة ولزوم مالا يلزم جاء النصّ منساباً في أفكاره، ومقاصده، وساعد الكاتبَ على هذا مقدرته اللغوية، وسعة معجمه اللغوي، وإتقانه صنعة الكتابة.

٥-الكتابة في عصر غرناطة

معروفٌ من المقدّمات التاريخية أن الأندلس صغرت في المكان والسّيطرة على البلاد، وانحازت إلى قطاع من الجزيرة الكبيرة في الجنوب والجنوب الشرقي الذي شكّل دولة غرناطة (دولة بني نصر - بني الأحمر).

ولكن الأندلس بقيت على المتابعة الحضاريّة التي عرفتها أيام العزّ القديم، مع الامتثال للظروف الجديدة، والمُعْطيات الحاضرة.

أما الشعر والكتابة فاستمرت الحال معهما على النّشاط، بل عادت إلى بعض الأغراض الأدبية صَحْوَتُها في ظلال دولة غرناطة. وقد نبغ في الكتابة أدباء كانوا هم أيضاً البارعين في الشّعر، على نَمطٍ يقلُّ وجودهُ مثل ابن الحكيم الرُّندي، وأبي الحسن بن الجَيّاب، ولسان الدين بن الخطيب، وابن زَمْرَك...

وظهرت أُسَرٌ اشتهر أفراد كثيرون منها بالإبداع الأدبي، ونذكر من الكتاب أسرة بني الخطيب وفيهم لسان الدين، وأبوه، وابنه، وأُسرة بني جُزَيّ، وهم جمهرة، فيهم ابن جزيّ الذي دوّن رحلة ابن بطوطة، وأسرة بني الحكيم وأصلُهم من مدينة رُندة[١].

وفي (نفح الطيب) و (أزهار الرّياض) وغيرهما نماذج من الرسائل الأدبية من هذا العصر تشير إلى استمرار نهضة الأدب، وظهور الكتّاب البارعين الذين تخرَّجوا في دواوين الدَّولة الرسمية من جهة وتحت نظر العلماء والأُدباء في مجالس الدرس والبحث والعلم من جهة ثانية.

والأدب في هذه المدّة، والنثر الفني خاصّة، يتجاوز مرحلة نهضة النثر إلى مرحلة تالية لها، كما يقدّر الدكتور ضيف.

فبعد نهضة النّثر الفنّي في الأندلس، وبروز أعلامه الكبار، ظهرت عليه علامات المراوحة في المكان، وعدم التّجديد المؤدي إلى حيوية الكتابة أو ما سمّاه د. ضيف: جمود النّثر الفنّي[٢]، فالأدب الذي يظهر ــ كما يقول ــ هو أدب مكرّر مُعاد: كرّرت أساليبه، وأُعيدت عباراته مئات المرّات بل آلاف المرّات، ولا جديد فيه إلاّ ما يتصنّع له الكاتب من مصطلح علمي أو لون بديعي أو إشارة إلى مَثل، أو استخدامٍ لغريب؛ أو نحو ذلك مما كان يُعدّ آيةً في هذه العصور على بلاغة الكاتب ومهارته الفنية.

ولقد نبغ لسانُ الدّين بن الخطيب في القرن الثامن الهجري وكان أعجوبة عصره في الجمع بين السياسة والأدب، وفي الجمع بين الشعر والنّثر، وفي تنوّع الاهتمام بفنون شتى مختلفات، وهو ـ كما يصفه في الفنّ ومذاهبه ـ أبرع كاتب

---

(١) للتفصيل: انظر الدراسة المفصلة عن (ابن الأحمر) وكتابه نثير فرائد الجمان في كتابنا: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، لأبي الوليد بن الأحمر ـ طبع دار الثقافة ـ بيروت ــ ١٩٦٧ ــ وتحقيق محمد رضوان الداية.

(٢) الفنّ ومذاهبه في النثر العربي (ط ٩): ٣٣٢

أخرجته الأندلس في عُصورها الأخيرة وهو لم يقف في كتابته عند الرسائل الديوانية أو الشخصية بل كتب كتباً كبيرة في التاريخ والتصوف والموسيقى والفقه والطّب، ونهج لسان الدين في كتبه نهج السّجع وإن لم يلتزمه دائماً. وكان له نفس طويل يظهر في رسائله المُسهبة. وقد تنبّه المقّري إلى الكثرة والطول في رسائله فقال فيه:

((إنه كاتب مترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار الذي لا يخلو من عثار؛ والإطناب الذي يُفضي إلى الاجتناب، والإسهاب الذي يَقُدّ الإهاب)).

وقد نَبّه لسان الدين على غلبة السجع على ذوق العصر، وهو يخرج عن ذلك الذّوق؛ عودةً إلى الأصل وهو الكلام المُرسل؛ قال في مقدمة رسالة من رسائله الديوانية ـ السلطانية[1]: ((ولما وصل السلطان أيّده الله من غزاة أطريرة بعد استفتاح حصن أشر المتقدّم الذّكر[2]، صدر عني في التعريف بذلك سلطان المغرب ((وهو من الكلام المرسل الذي قلّما ألوى على سجع، ولا وقف على قافية))؛ لشفوف هذا الغرض في هذه الأقطار.

فالناس آنذاك يسجلون رسائلهم بالأسلوب المسجوع، ولكنّ بعضهم يكتب بالأسلوب المُرْسَل، كما أن الذين يتخذون أسلوب السّجع يخرجون عنه إلى المرسل أيضاً.

ويلاحظ أن بعض المؤلفات كانت تدوّن بالأسلوب المسجوع كالذي نراه في (الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من أهل المئة الثامنة) للسان الدين وفي (نثير الجمان في من جمعني وإياه الزمان) لأبي الوليد بن الأحمر.

وتفنن لسان الدين في السجع، وخرج أحياناً إلى ما سمّاه د. ضيف السجع المركّب (في مقابلة السّجع البسيط). ففي القطعة التالية من إحدى رسائله بنى

---

(١) ريحانة الكتاب ١٥٢/١ وهي رسالة من سلطان الأندلس إلى سلطان المغرب.

(٢) في رسالة سابقة.

الكلام على سجعة الفاء، ثم داخل بين أجزاء الجملة بحرف آخر، حتى يكون في كل فقرة سجعة الفاء في آخرها إلى جانب سجعة أو أكثر بحرف آخر، قال مثلاً:

((الخلافةُ التي ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل قواعد الخلاف؛ واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزّها الذائع، على ما أسّسه الأسلاف؛ ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم، الاعتراف؛ ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكناف؛ فامتزاجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف كما امتزج الماء والسُّلاف؛ وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تأرّجت الرياض الأفواف...)).

فنلاحظ العين سجعة مستقلة داخل الفقرة الأولى، والميم في الفقرة الثانية، والفاء في الثالثة، والميم في الرابعة، مع بقاء السجعة الأصلية: الفاء المسبوقة بألف ممدودة.

وكان (البديع) بفنونه المختلفة بين يدي الكاتب ليختار منه ما يزيّن به كتابته، ويرصّع أسلوبه، كاللجوء إلى الجِناس بأنواعه.

الرسائل الإخوانية

ويقال فيها: الرسائل الشخصيّة؛ لإظهار اختلافها عن الرسائل السلطانية أو الديوانيّة. وهي رسائل يعبّر فيها الكاتب عن قضايا خاصّة وأمور شخصيّة، أو تتعلق بشأن من شؤونه في علاقاته مع الأهل والأصدقاء ممّن قَرُب مكانُه أو بَعُد مزاره، ويدخلُ في ذلك التهاني، والعتاب، والاستعطاف، والاعتذار، والتّعازي، والثّناء والشكر، وما شابه ذلك من الموضوعات والأَغراض.

ومن المألوف أن يكون كُتّاب الدواوين المشهورون هم كُتّاب الرّسائل الإخوانية والشخصية في أَغْلب الأَحوال.

١ ـ ومن أوائل من بقي شيء من رسائلهم ابن درّاج القسطلي الذي اشتهر شاعراً كبيراً أيام الحاجب المنصور، وفي أوائل القرن الخامس. وقد أثنى ابنُ شُهَيد وابن حزم على رسائله؛ وهي مفقودة إلا النُّتف اليسيرة في كتاب الذخيرة[1].

ومن نثره قطعة يُثني فيها على منذر بن يَحْيى، فيها:

((حَيّاك بتحية المُلك مَنْ أحْيا بك دعوة الحقّ، ورَدّاك رداءَ الإعظام مَنْ أعلى بك لواء الإسلام: مُجري الأقدار بإعلاء قدرك، ومُصرِّف الليل والنَّهار بإعزاز نصرك، ومُظهر مَنْ أطاعك على من عصاك، ومدمِّر من عاداك بسيوف من والاك. قد جعل الله أوّل أسمائك أَوْلى بأعدائك، وأَقْرَبَ اعتزائك صفواً

---

(١) الذخيرة ١/١: ٦٢ ـ ٦٦

لأوليائك. ثم سَما بك حاجب الشمس، نوراً وأُنساً لهذا الإنس، ونفس حياة لكلّ نفس:

ثم أحييتَ فَجْرَهُم يا ابن يَحْيى ... بسراجين: نور دين ودُنْيا
وخلفت السحاب ظلاً وَجُوداً ... فوسعت الإسلام سَقْياً ورَعْيا
وتحلّيت من ((تجيب)) سناء ... كنتَ فيه للدين والمُلك مَحْيا!

ونلاحظ في الرّسالة بواكير إحكام السَّجع في الرّسائل، ومحاولة الكاتب تركيب السّجع (اعتماد سجعة إضافية مع السّجعة الأصلية في العبارة) ممّا سنراقب التوسّع فيه، مع الأَعْصُرِ التّالية.

٢ ـ وكَثُر الكُتّاب في عصر دُول الطّوائف كثرةً واضحة. ومعلومٌ أنّ هذا العصر (القرن الخامس) شَهِدَ ظهورَ دُوَيلاتٍ وإمارات ورثت الدّولة الواحدةَ (دولة بني أُمَيّة) وهي إماراتٌ حرصت على اتّخاذ أُبّهة المُلك والسّلطان ومتمّمات رسوم الدّولة!

وعكست رسائلُ الأدباء الإخوانية (أو الشخصية) في هذا العصر ظروفه الاجتماعية، وحياة الأديب في ظلال ذلك الزمان المضطرب سياسياً، والمضطرب اجتماعياً أيضاً ـ بصفة عامّة ـ. ومثلما نجدُ رسائل الشكوى وقسوة الحياة من جهة نجدُ رسائل التّهاني، واللقاء على مجالس الأنس وحفلات الناس من جهة ثانية.

ونقرأ رسالةَ شُكر للوزير الكاتب أَبي عُمر بن الباجي[١] وهو من بلغاء الكُتّاب بالأندلس، كتبها عن المُقتدر بن هود ملك سَرَقُسْطة إلى ابن ذي النُّون ملك طُلَيْطلَة يشكرُه فيها على إطلاق أبي مروان بن غُصن الحجاري من السّجن[٢]. قال فيه:

((كتابي ـ أيّدك الله ـ كتابٌ أَعريْتُه من ذِكر الوداد، وعَدَلْتُ فيه عن وصف

(١) والكاتب هو يوسف بن جعفر الباجي كان فقيهاً جليل القَدْر. رحل إلى المشرق وحجّ. وولي قضاء حلب. وعاد إلى الأندلس، فجَلّ قَدْرُه عند المقتدر بن هود ملك سرقسطة.

(٢) النصّ في الذخيرة ١٩٣/٢

الاعتقاد، خَرقاً لعادة المتودّدين، وصفحاً عن طريق المُتَصنّعين. على أنّي ـ علم الله ـ في الصدر المُقَدّم ممّن يُواليك، والرعيل الأوّل ممّن يتشيَّع فيك. وأفردتُه بشكر يدك البَيضاء، وحميد صنيعتك الغَرّاء، التي طوّقتَ بها جيدَ الأدب طوقاً يبقى على الحِقَب؛ ووضعتَ على نار الذّكاء وَقُوداً يسطعُ بطيب الثّناء. مزاحماً بهمّتَك كلكلَ الزّمان، وقد أناخَ على الفَهْم بجِران[1] ، ومحافظاً على حُرمة الكَرَم وقد أعرضَ عن ثقلها الثّقلان، أنفةً من أن يضيعَ حِذاءَ نظرِكَ حقُّ أديب، وتُقطعُ بمَرْأى عينك نَفْسُ لبيب. وأنت عينُ الآداب، وعمدةُ ذوي الألباب؛ فيعود عليك من أهلها مَلام، ويقول قائلُها: ضاعَ عند أوفى البَريّة ذِمام. فللهِ هِمَّتُكَ التي أبَتْ إلا الحفاظَ السّليم، وشيمَتُك التي لم تَرْضَ إلا المقام الكريم، ويَدُكَ التي انتعشت بها الأديبَ أبا مروان بن غُصن من هُوّة العِثار، وفككتَهُ من قبضة الإسار، فأحييتَهُ وهو مُشفٍ على البَوار[2] ...)).

فقد دخل الكاتب ـ دون مقدمات ـ في الموضوع، وأطال الثناء على ابن ذي النُّون لإطلاقه سراح الأديب ابن غُصن. بلغة حسنة، وعبارة قريبة، وحماسة قويّة لذلك الصنيع الكريم. وكأنّ الكاتب يجد في الدفاع عن ابن غصن دفاعاً عن (الأديب) عامّةً. والأسلوب مسجوع، لكنه سجع بسيط، لم يؤثّر في وضوح المعاني، ولم يقلل من حرارة الموقف وانفعال الكاتب.

٣ ـ وأدخل مؤرّخو الأدب في الرسائل الإخوانية رسائل متبادلة بين الأدباء في ما بينهم، وبينهم وبين غيرهم أيضاً، لها علاقة بالأزهار والأنوار سمّاها بعضهم: ((الرّسائل الزّهرية))[3] . ونجد منها في كتاب (الذخيرة) لابن بسّام، وفي كتاب (البديع في وصف الرّبيع) لأبي الوليد الحميري[4] .

---

(١) الكلكل: الصّدر. والجِران: مقدّم عنق البعير من مَذْبَحِه إلى مَنْحَرِه. ويقال: ألقى فلان جرانه، وضرب بجرانه أي ثبت واستقرّ.

(٢) البوار: الهلاك.

(٣) الذّخيرة ٢/١٩٤ الحاشية: ٢

(٤) ويقال فيه: البديع في فصل الرّبيع. وله ـ إلى الآن ـ ثلاث طبعات بدأها المستشرق هنري بيريس ١٣٥٩ هـ.

ومن هذا المقصد رسالة للوزير الكاتب أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري[١] رفعها إلى المنصور (الحاجب) محمد بن أبي عامر عن بنفسج العامريّة؛ والرسالة ثناء وشكر ومديح من جهة، وكلام في (الزهريات) بمناسبة الربيع وزهر البنفسج من جهة أُخرى. قال[٢] :

((... إذا ترافعت الخُصوم وتنافرت في مفاخرها فإليك مَفْزَعُها وأنت المقنعُ في فصل القضيّة بينها، لاستيلائك على المفاخر بأَسْرِها، وعلمك بسِرّها وجهرها. وقد ذهب البَهارُ، والنَّرْجِسُ في وصف محاسنهما، والفخر بمشابههما كلّ مَذْهب؛ وما منهما إلا ذو فضيلة غير أنَّ فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعْرَفُ من الغمام الذي يسقينا...)).

وكتب الجزيري أيضاً إلى المنصور عن بَهار العامرية في كانون الأوّل سنة (٣٨٣ هـ)؛ وجَعل الكلام على لسان تلك الزهرة مباشرة على سبيل التخييل والتشخيص[٣] :

((... إني ـ أيّد الله المنصور ـ لمّا استقلّت بزهرتها مائلةُ قُضبي، وتنبّهت من سِنَتها نائمةُ جفوني، ونَمّت بعطرها ساطعة روائحي، وافترشْتُ ديباج حديقةٍ بَكّر وسْمِيُّها، وتتابَع وَلِيُّها. فالتقى ثَرَياها، وأخذت الأرض زخرفها وازّينت، وطار صعيدها حتى كأنَّ ترابَها فتيتُ المِسك، أو سحيقُ الكافور عَنّ لي زهو بحسني، وارتياحٌ لحالي، وإعجابٌ بمكاني. وشاركت ذلك دواعي هزّة الشوق إليك، وشواجي لوعة البعد عنك حين فارقْتَ محلّي، وآثَرْتَ بالزيارة غيري، فحرّكن مني ساكناً، وبعثن لي على مناجاة الشعر خاطرا...)).

ويورد الكاتب الشاعر بعد سطور قطعة من الشعر يقول في أولها:

---

(١) من وزراء الدولة العامرية وكتّابها. انظر ترجمة له في الذخيرة ٤/٤٦، وجذوة المقتبس ٢٨٠ برقم ٦٢٤).
(٢) البديع في وصف الربيع: ٨٠
(٣) البديع: ١٠٢ ـ ١٠٣

حَدقُ الحسان تُقِرّ لي وتغارُ   وتضلُّ في صفة النُّهى وتَحارُ
طلعت على قُضبي عيون كمائمي   مثل العيون تحفُّها الأشفارُ
وأخصُّ شيءٍ بي إذا شبَّهتني   درر تنطّق سلكَها دينارُ
أهدتْ لهُ قضب الزمرّد ساقه   وحباه أنْفَسَ عطره العطّارُ
أنا نرجسٌ حقّاً بهرتُ عقولهم   ببديع تركيبي فقيل بَهارُ

إلى أن يقول الكاتب الشاعر ذاكراً صفة الجود عند المنصور ملمّحاً بقصده من طلب العَطاء بصورة غير مباشرة:

((وأقلُّ جودِ العامريّ محمّدٍ   ألْفٌ حكتْ حَدَقي وتلك نُضَارُ
عشرٌ تُعَدُّ من المئين لأنْمُلٍ   عشرٍ يصرّفها وهُنَّ بحارُ!))

فالنصّ هو رسالة، قطعة نثريّة موصولة بقطعة شعرية. وقد أضاف الكاتب أبيات الشعر استكمالاً لقضيّته في الرسالة.

ـ والرّسالة واحدة في (الزهريّات) التي فشا نَهْجُها، وكَثُرَ استخدامها لأغراض شتى. والكاتب الشاعر الجزيري أراد أَن يؤكد الصّلة بينه وبين الحاجب المنصور، فاستفاد من نرجسة مبكّرة ظهرت زهرتها في كانون الأول (ديسمبر) في عزّ البَرْد، وجعلها جديرة بأن تكون للمَمْدُوح، وأن تمثل بين يديه.

ـ وأنطق الكاتب النّرجسة على سبيل الاستعارة فتحدّثت عن خصائصها الزهريّة شَكْلاً وعطراً، وألواناً زاهية.

ـ وأجرى العتاب على لسان الزّهرة المذكورة حين غادر المنصور ديارها وآثر بوجوده غَيْرَها.

ـ وجعل فكرة المعاتبة وسيلة للانتقال من النثر إلى الشعر، ولتكون الزهرة نثرها وشعرها هدية للمَنْصُور عسى أن تحظى هي، ويحظى الكاتب ـ بالمناسبة ـ برضى المَنْصُور، وأريحيّته أيضاً.

ـ وقد استفاد الكاتب من اسم النّرجس كما يقوله الأندلسيون وهو البَهار، وحرّك المقاصد المعنوية في إطار المقاصد اللغوية بشيء حسن من المهارة وحُسن التصرُّف، فالنّرجس لم يُسَمَّ بهاراً إلا لأنه يغلب ويَبْهَر!

٤ ـ وكتب ابنُ أبي الخصال[١] إلى أحد القضاة من أصحابه، وكان قد نُحّي عن خطة القضاء ثم أُعيد إليها[٢] ،

((... وما زالت خُطّة القضاء تضيق عليها بعدك سعَةُ الفَضاء، وتقلّب وجْهَها في السَّماء لِتُوَلّى قِبْلَةً تَرضاها، وتُحلّي عصمةَ ماجدٍ يَجْمَعُ فوضاها؛ وتنوحُ على ذلك النّصاب الرفيع أحَدَ نَوْح، وتبكي ممّن تقلّدها بكاءَ الخَزّ من رَوْح، وتستوحش ـ وحُقّ لها ـ من جُفاةٍ أجلاف، وتنكر بَعْدَ محاسنِ الجياد مساوئ أظْلاف، وتتلفّتُ نَحوك تلفُّت الصمة إلى الحَيّ، وتندم ندامة من ترك الرأيَ بالريّ، وتحنُّ إليك حنين من طرحه اغترابُه، وبان عنه تُرابه، وفارقه أُلاّفه وأترابُه...)).

فهو يُثني على صاحبه، ويذكر مكانته، ويرفع شأنه عن طريق تصوير شَوْقِ منصب القضاء إليه، وتوق تلك الخطة نحوه.. واعتمد الكاتب على أسلوب السَّجع، والتزم زيادة على ذلك لزوم مالا يلزم، وأكثر الكاتب من الإشارات التاريخية واللمحات الأدبية.

ـ وقول الكاتب: ((... بكاء الخزّ من روح)) فيه إشارة إلى قول حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري في زوجها روح بن زنباع:

بكى الخزُّ من روحٍ وأنكر جلدَهُ وعجّت عجيجاً من جذام المطارِفُ

ـ وقوله: ((تلفّت الصمّة إلى الحيّ)) فيه إشارة إلى شعر للصِّمَّة القشيري أحد شعراء الغزل العذري في العصر الأموي قال فيه[٣] :

---

(١) له ترجمة في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وانظر: الرسائل الديوانية.

(٢) رسائل الكاتب الفقيه: ٣٩٨ ـ ٣٩٩

(٣) الحماسة بشرح المرزوقي (رقم ٤٥٤، ص: ١٢١٨).

تلفَّتُّ نحو الحيّ حتى وجَدْتُني وَجِعْتُ من الإِصغاءِ لِيْتاً وأَخْدعا!

وتقترب خَصائص الرسائل الإخوانية من خصائص الرسائل الدّيوانيّة، غير أن الدّيوانية أَطول، وتُلتزم فيها عادةً أصول الكتابة، ورسوم المخاطبات الملوكية والسُّلطانيّة...

الرسائل الأدبيّة

كَثُرت الرَّسائل الأدبيّة في التراث الأندلسي، وتعدّدت أغراضُها؛ وأظهر الأَديب الأندلسي براعةً في تناول موضوعاته، وتلوينها، وصدرت رسائل أدبيّة تعالج جوانب ذات علاقة بالخصوصية الأندلسية مثل الرسائل التي: ((تتّخذ الجهاد والاستنفار للحرب، وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها))(1)، والرسائل التي تقال على لسان الأزهار والأنوار وما يخص الطبيعة، والرسائل التي يعتمد كاتبها فيها على عُنصر الفكاهة والدُّعابة.

ونذكر من أسماء الكتّاب المشهورين: ابن شُهَيد ورسالة (التّوابع والزّوابع) وابن زيدون و (الرّسالة الهزليّة) وأبا الحسين سراج بن عبد الملك، وابن أبي الخصال في الرسائل الزرزورية، وابن خفاجة في وصف الطبيعة، وابن حزم في (طوق الحمامة) والكلام على الحبّ والمحبّين.

١ ـ ولمحمد بن مَسْعُود رسائل وقصائد هزليّة:

أورد ابن بسام منها نتفاً تدل على اكتمال شخصية الرجل وأُسلوبه الهزليّ، ولو بقيت آثاره لكان له ذِكْرٌ خاصٌ ومكانة مهمّة في الأدب: شعره ونثره.

وله رسالة اقتطف منها في الذخيرة مقتطفات بعث بها إلى ابنٍ له كان قد توجَّه إلى غرب الأندلس، ثم بلغه عنه انهماكُه مع أهل البَطالة وتضييعه ما يلزم من الرَّزانة؛ وجعل الكاتب رسالته الهزلية نوعاً من التَّوبيخ التهكّمي. ومما جاء فيها:

---

(١) الأندلس. د. ضيف: ٤٤٧

((.. فأخبرني يا تاجر البحرين، وسمسار العراقين، ودليل الحجازين، وخِرّيت الفلاتين، وابن عظيم القريتين: أتعسْ بِكَ من خرّاجٍ ولاّج، ماضٍ على السُّرى والإدلاج، جريءٍ على الليل الدّاج، كالسّراج الوهّاج، والعارض الثّجاج، وصِفْ لي موقع الشمس في العين الحمئة، وكيف كان مَخْلَصُكَ من تلك البلاد الوبئة، وكيف رأيت مدينة يونس، وجَنّة إرم، والبركان المؤنس، وجزيرة الغنم، والزاوية، وصخرة العُقاب، وبئر الهاوية...)).

وفي جزء آخر منها؛ وفيه تعريض وتهكُّم:

((صحَّ عندي أن العسل[1] في تلك الجهة ممكن غير غال، ومنحطٌّ غير عال، فتناول إقامتَهُ وتركيبَهُ، وأتْقِنْ صناعته وتربيبه، لقد نسيتُ يا بُنَيّ أن أبعث إليك بنسخة في تربيب العسل المشروب، مطابقة للمرغوب، التقطتُها مغتنماً عن (فلان) اليهودي كان انتخبها للمنصور بن أبي عامر وأصحابه كعيسى بن سعيد وعبد الله بن مسلمة. ولستَ ـ بحمد الله ـ دونهم، فنجابَتُك قد ظهرت والدّرةُ قد نَدَرَت؛ ومَخايلُ السعود طالعة، وآيات الفلاح ساطعة، كما سُمّي اللديغُ سليماً، وسُمِع عن طهر الإوَزّ قديماً...)).

٢ ـ الزرزوريّات:

رسائل (الزرزوريّات) فيها من الطرافة، والتنويع ما يقتضي الإشارة إليها، ولو كانت الإشارة سريعة.

أوّل ما وردت عبارة الزّرزور كانت في رسالة كتبها أبو الحسين بن سراج إلى أحد رجال عصره يشفع فيها لرجل يعرف بالزّريزر (مصغّر زرزور). وقد استثار الكاتب اهتمام المرسل إليه، فاستفاد من لقب الرّجل الذي يتوسّط من أجله (وهو الزّريزير) ورجع إلى الطائر المعروف باسم الزّرزور، وأضفى على

---

(١) يلمّح الكاتب إلى الاستفادة من العسل في صنع بعض أنواع الشراب.

الرسالة نوعاً من الدُّعابة الطريفة، فقال في دَرْج الرّسالة إن كتابه هذا ـ أي رسالته ـ يحمله زرزور[١] أو:

((يصل به ـ وصل الله علوّك، وكتب عدوّك شخص من الطيور يعرف بالزّريزير، أقام لدينا أيام التحسير[٢]، وزمان التبلّغ بالشّكير[٣]. فلما وافى ريشه، ونَبَتْ بأفراخِه عشوشه أزمعَ عنا قطُوعا، وعلى ذلك الأفق اللون تدلّياً ووقوعاً، رجاء أن يلقى في تلك البساتين مَعْمَرا، وعلى تلك الغصون حَبّاً وثمرا)).

فقد أَعجب ابن السّراج أن يجعل الرجل الذي يحمل رسالته ((زرزوراً)) ومن هنا استطرد الحديث إلى ما يُشاكل الطائر من ريش وفرخ وعش وتحسير...

وفتحت هذه الرّسالة باب الكتابة في هذا الموضوع بطرافتها، وأُسلوب كاتبها، والجِدَّةَ الجديدة فيها، فممّن كتب في هذا الموضوع أبو القاسم بن الجَدّ، ومن ذلك قوله في رساة:

((لئن سُمّي زُرَيْزير، لقد صغَّر للتّكبير... ومعلومٌ أنَّ هذا الطائر الصافر يفوقُ جميع الطيور في فهم التلقين، وحُسن اليقين؛ فإذا علم الكلام لهج بالتسبيح، ولم ينطق لسانه بالقبيح، ثم تراه يقوم كالنصيح، ويدعو إلى الخير بلسان فصيح فَمَن أَحَبّ الاتّعاظ لقي منه قَسّ إيادٍ بعكاظ، أو مال إلى سماع البسيط والشديد، وجدّ عنده نخب الموصلي للرَّشيد...)).

وشارك ابنُ أَبي الخِصال[٤] في الكتابة عن الزّرْزور، ونقل الموضوع من الرسالة إلى الخُطبة، وتَحوَّل به فأصبح المتحدّث فيه هو الزّرزور نفسه[٥] وليس شخصاً يحتاج إلى شفاعة وتوصية، وإذا هذا المتحدّث حين يكلّم الناس عن توبته أو يستثيرهم إلى السخاء من أجله وينال نقودهم عن طريق الوَعْظ صورة لبطل المقامة..

(١) وُصِفَ الزّرزور بأنه عصفور كالقُبَّر، ولكنه أَملس الرّأس. ويقال في اسمه: الزّرْزَرُ، والزُّرْزور.

(٢) يقال حَسّر الطائر أي خرج من ريشه العتيق إلى ريشه الجديد.

(٣) الشَّكير: أول النبت على أثر النبت الهائج المغبرّ، وما ينبت حول الشجرة من أصلها.

(٤) لابن أبي الخصال ترجمة في هذا الكتاب، وانظر: الرّسائل الديوانيّة، والمقامات.

(٥) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي ـ الدكتور إحسان عباس ٢٩٩/٢

- وهذه إحدى رسائله الزّرزورية[١] :

أيهـــا الســــاطعُ نَشْـــراً وأَرَجْ ... كيـفَ يَسْـتَأذِنُنا مـن قَـد وَلَـجْ؟

كيـــفَ يَسْـــتأذن مـــن مَسْـكَنُهُ ... في عيـــونٍ ونفُـــوسٍ ومُهَـــجْ؟

ما على المسكِ ولا البَـدْرِ ولا الصّـ ... ـبحِ مـن إذنٍ إذا الصُّبْـحُ انبلَـجْ!

إنّمــا أنــتَ مَتــى تُهـدِي شَـذًى ... في سنًى بـالقلبِ والــرُّوحِ امتزَجْ

وافَتْني لِسَيّدي وظَهيري - لا زالت هِمَّته تعلُو الهَمَم وتَفُوتُها، ونَفاسَته تغْذُو النُّفوسَ وتَقُوتُها - رُقعةٌ خلَع عليها سَناهُ، وعُنِيتْ بحوكها يُمناه، فجاءَت كالْحُلَّةِ يُضاحِكُ الشمسَ إبريزُها[٢] ، ويُحاسِـن الـرَّوْضَ تَفْويفُهـا وتطريزُهـا[٣] ؛ بدائـعٌ ينحطُّ عن ذروتها البَديع[٤] ، ويقتبسُ من جُذوتها الأَشْقَرُ الصَّديـع[٥] . سـامَرَها الأدب مُعيناً، وخامَرَها الطَّبْعُ مَعيناً، فجلاها حُوراً عِيناً؛ فلله طِرْسُكَ وما نسَق، وبِرُّكَ لقَد عَلا وبَسق!

وأهلاً بك من عريقٍ سَبق، وسَليلِ خَطّيٍّ صَدق. لشَدَّ ما اسْتَوْلَيْت على مَداك، واستَويْتَ إلى سَماءِ مُنْتَداك، وتقيّلْتَ أبـاكَ[٦] ، وطعنتَ في ثُغر النُّحور عِداك, ولعاً لك من مُنتمٍ إلَى سابقٍ لم يَلحَقْهُ عِثار، ولا شُقَّ لـهُ غُبـار. لا تُـرَعْ! فمن الشّعاب تحتفل فتزخرُ الأنهار، وأوَّلُ قُرَّحِ الخيل المِهار[٧]

وحَبَّذا مُنْتَماكَ! لقد ذَكَّرَ جـواراً، وحَرَّك مـن عهدنـا المـاضي حُـواراً[٨] . لا جَرَمَ! إن عَهْدِي لكَ ناضِرٌ، وإنَّهُ بك على الغَيْبَةِ القَصِيَّة حـاضر، ويـا مـاءَ مَـنْ أنبأكَ أنّي صَادٍ[٩] ، ويا صبحُ قَد كانت عَيني لـكَ بمرصـاد. ومُحالٌ أن يستأذنَ

---

(١) البوار: الهلاك.

(٢) الإبريز من الذهب: الخالص.

(٣) المفوّف من الثياب: الرقيق أو ما فيه خيوطٌ بيض.

(٤) يعني أبا الفضل بديع الزمان الهمذاني. وسيرد عنه خبر في القطعة [بعد التالية].

(٥) الصَّديع: الفجر.

(٦) تقيّل أباه: أشبهه وعمل عمله.

(٧) القُرّح جمع القارح وهو من الخيل ما بلغ خمس سنوات. والمِهارُ جمع الكثرة للمُهر.

(٨) في أمثال العرب: ((حرك لها حوارها تحِنّ)) (أمثال العسكري ١/١٠٠).

(٩) صاد اسم فاعل من صدي: عطش.

على النَّفسِ مُناها، وعلى الكبد الحرى ريّها وبُشراها، وعلى العَين السّاهرة كَراها وسَناها:

أنتَ الكرى مُؤنساً عيني وبعضُهم مثلُ القَذى مانعاً عيني من الوَسَنِ!

ورَعى الله داعِياً إلى البرّ دَعا، ورَحِمَ مَنْ نَبتَ على دِمْنَتِه[١] الْمَرْعى.

وأقرأُ عَليكَ سلاماً هو المسكُ فتيتاً[٢]، والدّرّ نظيماً وشَتِيتاً. يُواليك مَقيلاً ومَبِيتاً، ويُطاوِلُكَ العُمْرَ كَرِيتاً[٣]؛ إنْ شاءَ الله عَزَّ وجَلّ.

٣ ـ الرسائل النبوية:

كَثُر من أُدباء الأندلس: شعرائهم وكتّابهم مَدْحُ رسول الله ﷺ، والتشوق إلى زيارة المدينة والصلاة في مسجدها النبوي وزيارة رسول الله ﷺ والاكتحال برؤية الروضة الشريفة والدّيار التي سكنها أو مَرَّ بها أو كانت له فيها ذكريات حفظها المُسلمون جيلاً عن جيل.

ومن نشاطهم الأدبي في هذا المجال رسائل سطَّروها، وحَمَّلوها إلى الحجّاج القاصدين إلى الديار المكرّمة معنونة باسم النبيّ المعظم المكرّم، وكثرت هذه الرسائل من أواخر عصر الطوائف وهلم جراً إلى آخر عصور الأندلس العربيّة.

١ ـ فالأندلس بعيدةٌ عن الحرمين الشريفين: فالاستطاعة ـ بالمقياس الشرعي ـ أقلّ وجوداً من هذا الجانب. ومع البعد عوامل أُخرى معتبرة عند الفقهاء.

٢ ـ وكان خروج ركب الحاج من كل مدينة أو قرية يثير في النفوس المعاني الإسلامية مع الوجد والشوق واللهفة ﴿واجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧].

٣ ـ وأثَّرت الحوادث السياسية (السلبية) والعسكرية في هذا الجانب من الفتن والكوارث، أو من هجمة العدوّ من الدّول الشمالية التي كثيراً ما تحالفت مع أوربة في حرب صليبية قاسية: كان العدو ينتهك المعايير الدّولية والإنسانية.

---

(١) الدّمنة: آثار الدار، والناس. وتستخدم الكلمة لمعنى القبر.

(٢) الفتيت: وزن فعيل من: فتّ الشيءَ إذا كسره ودقّه.

(٣) الكريت من السنين والشهور والأيّام: التامّ.

٤ ـ وكان الذين يؤدّون فريضة الحج مرّة يتوقـون إلى العـودة ثانيـة إلى تلـك الدّيار، وكانت قلوبُهم تقفزُ من الشّوق، وكانت ألسنتهم تنطلق ـ حـين القـدرة على ذلك ـ فتسَطّر تلك المشاعر شعراً أو نثراً فنّياً جميلاً. وقد خرج ابن جبير[١] بعد أداء الفريضة في رحلتين أُخريين.

٥ ـ ورافقت هذه الظّاهرة الإسـلامية ــ الأدبيـة أيضـاً نشـاط الأندلسـيين في كتابة السيرة النبوية وما يتفرع عنها من قضايا كثيرة جدّاً من خصـائص النبي، ﷺ، وشمائله وخصالـه ودلائـل نبوّتـه... وقـد أسـهم الموحّـدون في هـذا الجـانب فشجّعوا عليه؛ وأشهر كتاب في الخصائص والشمائل صدر عن هذه المدّة، وهـو كتاب (الشفا في التعريف بحقوق المصطفى) للقاضي عياض، رحمه الله[٢].

هذه رسالة كتبها أبو القاسم بن الجَدّ (ت: ٥١٥ هـ) على لسان صديـق لـه كان قد حجّ وزار، وتاقت نفسه إلى العودة:

((ولما صدرتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأتْ هيبتُكَ ومحبَّتُكَ أرجاءَ فكري، وفضاءَ صدري، وغَشِيَني من نور برهـانك مـا بهـر لبّـي، وعمـر قلبي، لحقني مـن الأسَـفِ لبعـد مَـزارِكَ، والحنين إلى شَـرَفِ جـوارك، مـا أودع جوانحي التهاباً، وأوْسَعَ جوارحي اضطراباً، وأشعر أملي عَوْداً إلى محلِّـكَ المعظَّـم وإياباً، وكيف لا أحِنّ إلى قربك، وأتهالكُ في حبِّـك، وأعفِّـر خـدِّي في مقـدَّسِ تُرْبك، وبك اقتديت فاهتديت، ولولاك ما صُمتُ ولا صلَّيـت، ولا سـعيت ولا طفت، بل كيف لا يتحرّك نحوك نزاعي، ويتأكَّد انقطـاعي، وبـك استشـفاعي، وإليك مفزعي يوم الدّاعي. فـلا تنـسَ لي يـا رسـول الله عيـاذي بـك وليـاذي، وإسـراعي إلى زيـارتك وإغـذاذي، واذكرنـي في اليـوم العظيـم المشـهود، عنـد حوضك المورود، وظلّكَ الممدود، ومقامك المحمود))[٣].

(١) تحدّثنا عنه في (أدب الرحلة) من هذا الكتاب.

(٢) انظر بحثنا عن (السيرة النبويّة في التراث الأندلسي) في كتاب (أندلسيات شامية) صدر عن دار الفكر بدمشق.

(٣) النص في الذخيرة ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٧

واخترنا رسالة نبويّة لابن أبي الخصال تجدها في ترجمته من هذا الكتاب في الباب الرابع.

٤ ـ رسائل ابن بُرد الأصْغر:

عُرِف من آل بُرد في الأدب والكتابة والخدمة والسلطانية اثنان هما أبو حفص أحمد بن برد (الأكبر) وحفيده أبو حفص أحمد (الذي عرف بابن بُرد الأَصغر). وكان معاصراً لابن زيدون، وهو الذي خاطبه بقصيدته[1]:

ما على ظنّي باسُ يجرحُ الدّهرُ وياسو

وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن بُرْد[2] (توفّي نحو سنة ٤٥٠ هـ) تعرَّض أهله مدّة الفتنة بقرطبة إلى اضطهاد ابن حَمُّود المتغلب عليها، فتنقل في البلاد. واستقر كما يبدو بعد تطواف في المَرِيّة عند بني صُمادح. وآخر أخباره أنّه كتب لمعن بن صمادح ووزر له أيضاً، ودام حكم معن هذا ما بين (٤٣٢ و ٤٣٣) وهو مفقود. ولا يُدْرى إن كان ابنُ برد أَدرك عهد المعتصم بن معن بن صمادح الذي خلف أباه. فإن تاريخ وفاته مجهول.

ـ اشتهرت رسائل ابن برد الأصغر، السياسية الإدارية والرسائل الأدبية، والرسائل الإخوانيّة. وفي رسائله الأدبية: رسالة عقدها للمفاضلة بين السّيف والقلم، ورسالة النخلة، ورسالة أُهب الشاء.

ـ وقد كتب ابن برد رسالته في السيف والقلم إلى الموفّق أبي الجيش مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية (تسمّى الآن جزر الباليار).

تدور الرسالة حول منافسة، ومفاخرة بين السيف والقلم، واسترسل الكاتب مع كلٍّ منهما: يضع من عباراته، وحُججه على لسان القلم تارة، وعلى لسان

(١) أوردنا القصيدة في هذا الكتاب.

(٢) ترجم له في الذخيرة ١/١: ٤٨٦، وجذوة المقتبس (المصرية) ١١٥، وبغية الملتمس ١٥٣، ومعجم الأدباء ٤١/٥، والوافي بالوفيات ٣٥/٧، والمطرب ١٢٧، والمغرب ٨٦/١، ونفح الطيب ٥٤٥/٥ .

السَّيف تارة أُخرى. ولّما كثر تقديم الحجج، ودحض أقوال الطرف الآخـر، ولم يتقاعس أي منهما عن المبادرة إلى الإجابة وتجديد الفخر بـادرا معـاً إلى التفـاهم والمصالحة قائلين: إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا، وتتفرّق آراؤنا، وقـد جمعنـا الله في المألف الكريم...

- وهي رسالة أظهر فيها الكاتب براعته في فـنّ الترسّـل؛ واستعرض معارفه اللغويّة، ومقدرته البيانية، وساق فيها الحجج على لسان كل من السيف والقلـم باستنباطٍ دقيق، وخيال محلّق، واستطرادٍ طَلْق. ويشعرُ القارئُ أنَّ الكاتب يَغْرف من بَحْر، ويتصرّف بالكلام عن مقدرة، ويطيلُ الحديثَ عن وَفْرة.

فالرّسالة - شأن رسائله الأُخرى - تعلّل المكانة الأدبية العالية التي وصل إليها ابن بُرد الأصغر عند أمراء الطوائف، وعند أقرانه من كتّاب العصر.

وهذه مقتطفات من رسالة في السيف والقلم[1]:

((... أمّا بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه، والصلاة على خاتم أنبيائـه، فإن التسابقَ من جوادين سَبَقا في حلبة، وقضيبين نُسِقا في تُربة، والتحاسدَ من نجمين أنارا في أُفـق، وسـهمين صـارا علـى نَسـق؛ والتفـاخُرَ مـن زهرتـين تفتّحتـا مـن كِمامة، وبارقتين توضّحتا من غمامة لأحمدُ وجوه الحسد - وإن كان مذموماً مع الأبد[2] -، وربّما امتدّ أحدُ الجوادَيْن بخطوة، أو خُصَّ أحد القضيبـين بربـوة، أو كان أحد السهمين أنفذَ مصيرا، أو راح أحد النجمـين أضـوأ تنويـرا، أو غـدَتْ إحدى الزهرتين أندى غضارة، أو أمست إحدى البارقتين أسنى إنـارة. فـالمقصّر يرتقبُ تقدّما، وتقارب الحالتين في المجانسة يشبّ نار المنافسة، وإن حال بينهمـا قَدْحُ النُّقّاد، وقُبْحُ تحاسد الأضداد.

وإن السَّيف والقلم لّما كانا مصباحَيْن يهديان إلى القَصْد من باتَ يسـري إلى المجد وسُلّمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لساميات المراتب، وطريقين يشرعان

---

(١) الذخيرة ٥٢٣/١. وكتب بها إلى الموفّق أبي الجيش مجاهد.

(٢) أي وإن كان الحسَدُ مذموماً...

نهج الشرف لمن تقرّى إليه، ويجمعان شمل الفخر لمن تأشّب عليه، ووسيلتين يُرشِفان العُلا فم عاشقها، ويبسطان في وصال المنى يدَ وامقها، وشفيعين لا يؤخّر تشفيعُهما، ومُجَمّعَيْن لا يفرّق تجميعهما، جرّرا أذيالَ الخيلاء تفاخُرا، وأشَمّا بأنف الكبرياء تنافرا، وادّعى كلُّ واحدٍ منهما أنَّ الفَوْزَ لِقدْحِه، وأنَّ الوَرْيَ لِقَدْحِه، وأنَّ الدرّ من أصدافه، وأنَّ البكر من زفافه، وأنَّ البناء من تشييده، وأنَّ الملاء من تعضيده، وأنَّ كباء الثناء موقوف على مَجامِره، وأنَّ خطيب الفخر محبوسٌ على منابره، وأنَّ حلل المآثر من نسيجه، وأنَّ أفراد المَفاخر من تزويجه.

وحين كشف الجدالُ قناعه، ومَدَّ الخصامُ ذراعه، وهزَّ الإباءُ من عِطْفه، وأشمَّ الأنفُ من أنفه، قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخِصال، ويصفُ كلّ واحدٍ منهما جلال نفسه، ويذكرُ فَضْلَ ما اجْتُنِيَ من غَرْسِه، ويَبْأى[1] بمنقبةٍ نافرت السُّها[2]، ومرتبةٍ رَيِّضةٍ خيّسها[3]، ورياسة من ذوائب الجَوْزاء[4] صادها، ونباهةٍ في صهوةِ العيّوقِ[5] أفادها)).

وتستمر الرسالة بعد ذلك طويلاً ليقدم كل من القلم والسيف على التناوب حججه، وشواهده على السبق والتفوّق. وتنتهي الرسالة بقطعة شعرية يصل منها الكاتب إلى غايته العملية وغرضه الشخصي، وهو مدح أبي الجيش مجاهد، والثناء عليه بحيازته البراعة في السيف والقلم معاً. ويسوّي الكاتب بين السيف والقلم حسماً للمفاخرة التي طالت في رسالته والتي تردّدت في آثار الأدباء والكتّاب منذ زمن بعيد في صدر الدولة العباسيّة. وفي ذلك الشعر ـ ونورد منه هنا على سبيل الاستئناس ـ :

---

(١) يبأى من البأو: وهو الفخر والتكبُّر.

(٢) السُّها نجم شديد البُعد في السّماء، يضربَ به المثل في العلو والبُعد.

(٣) خيّس: ذلّل، وطوّع.

(٤) الجوزاء: نجم، وبُرج من الأبراج الاثني عشر.

(٥) العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن، يتلو الثريّا. ويضرب به المثل في البُعد.

قد آنَ للسَّيف ألاّ يَفْضُل القلَما ... مُذ سُخّرا لفتىً حازَ العُلاَ بهِما
إن يُجتنى المجدُ غضّاً من كمائمه ... فإنّما يُجتنى من بعض غرسهما
ما جاريا أملاً فوافيا أمداً ... إلا وكانت خصال السَّبْق بينهما

ـ واشتهر من رسائل ابن بُرْد أيضاً رسالته في النّخلة، ورسالة أُهْب الشّاء، فَضّل فيها أُهْبَ الشّاء على ما يُفْتَرشُ من الوطاء.

٥ ـ ابن شُهَيد[١] ورسالة (التوابع والزوابع):

١ ـ في شعراء الأندلس في عصر الخلافة (في مدّة تسلط الدولة العامريّة) أبو المطرّف عبد الرحمن بن أَبي الفهد الأَشجعي؛ أصلُه من إلبيرة، وسكن مدينة قُرطبة وقد وصفه ابن شُهَيد ـ وهو أَشجعي أيضاً ـ فقال فيه: كان من أشعر من أَنبته الأندلس ووطئ ترابها بعد أبي المخشي أولاً وابن دراج آخِراً؛ إلى أن قال: وهو غزير المادّة، واسع الصدر؛ حتى إنه لم يكن يبقي شاعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه، وفي كل ذلك تراه ((مثل الجواد إذا استولى على الأمد))، وقال أبو عامر ابن شُهَيد: إن أبا المطرّف عمل بحضوره أربعين بيتاً على البديهة مهملة الحروف (ليس فيها حرف منقوط) أولها (حلمك ما حدّ حدّهُ أحَدُ)، وإنه نقض كل شعر قاله يمانيّ في مفاخرة المضريّة[٢]

وأبو المطرّف هذا الذي يمتُّ بقرابة إلى أَبي عامر بن شُهَيد صاحب رسالة (التوابع والزوابع)، المسمّاة أَيضاً شجرة الفكاهة، قد يكون هو المثال أو النموذج الذي أعجب أبا عامر، وفتح له الباب لمعارضة عدد من الشعراء والكتّاب ذوي الشأن والمكانة في تاريخ الأدب العربي في الجاهلية والإسلام.

---

(١) ترجم له الحميدي في جذوة المقتبس، والضبيّ في بغية الملتمس ٣٥٦ ـ ٣٥٧

(٢) في ترجمة أبي المطرّف أنه خرج عن الأندلس في العشر الأخير من القرن الرابع الهجري إلى المشرق ولم يعرف له خبر بعد ذلك.

٢ ـ وابن شُهَيد(١) هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيد الأشجعي، القرطبي (٣٨٢ ـ ٤٢٦ هـ)، وكان أبوه أديباً، وزيراً من المقرّبين إلى الدولة العامرية. نال ابن شُهَيد قسطاً وافراً من معارف زمانه، وبرع في الكتابة والشعر. ومدح بشعره عدداً من الخلفاء وذوي الشأن في مدة الفتنة التي ضربت بلاد الأندلس (٤٠٠ ـ ٤٢٢ هـ)، ووزر لعبد الرحمن المستظهر الأموي الذي لم يطل عهده أكثر من شهرين سنة (٤١٤ هـ).

كان ابن شُهَيد يعاني من ضيق التنفُّس (لعلّةُ الرّبو)، وألحَّ عليه المرض حتى توفي عن سنٍّ مبكرة سنة (٤٢٦ هـ) بعد أن قضت الدولة الأموية نحبها أيضاً.

والآثار الأدبيّة الباقية من تراث ابن شُهَيد تدلُّ على شخصية أَديب، كاتب، شاعر، ناقد، متعدّد المواهب(٢).

والتّوابع والزّوابع هذه:

رسالةٌ خاطب بها صديقاً له اسمه أبو بكر بن حزم، وفيها رحلةٌ خيالية إلى عالم الجنّ. وعَناهُ من الجنّ شياطينُ الشعراء ومُلهمو الأدباء. وسمّى تابعه أو شيطان شعره: زهير بن نُمير، وجعله من (أشجع) غير أن ابن شُهَيد أشجعيّ الإنس وذاكَ أشجعيُّ الجنّ!! ولقي ابنُ شُهَيد مع صاحبه شياطين بعض الأموات كما لقي شياطين بعض الأحياء (من الأدباء) ولقي من شياطين الكتّاب تابِعِيْ: عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، والجاحظ، وبديع الزّمان.

والرسالة بحسب ما رواها ابن بسّام أو اقتبَس منها في ثلاثة أقسام متوالية:

---

(١) ترجم له في جذوة المقتبس: ١٢٤ (الدار المصريّة)، وبغية الملتمس ١٧٧، ومطمح الأنفس ١٦، والذخيرة ١/١٩١، والمُغرب ١/٧٧، والخريدة (قسم المغرب والأندلس) ٥٥٥، والمطرب: ١٥٨.

(٢) جُمع شعر ابن شُهَيد وطبع في بيروت (بعناية شارل بلا) وفي مصر (صنعه يعقوب زكي) ـ واستخرج الباقي من (التّوابع والزّوابع) من الذّخيرة، وطبع في كتيب مفرد في بيروت، عن أصل الذخيرة.

قسم أول: لقي فيه شياطين (مُلهمي) الشعراء والكتّاب، وحاكاهم، وأظهر مقدرته على مجاراة أساليبهم، وأظهر شُفوفه وتميُّزه على أهل بلده (الأندلس).

وقسم ثان: فيه ملاحظات أدبية ونقدية، تدور حول مشكلة أخذ المعنى الواحد وتداوله بين الشّعراء (قضية السرقات الأدبية).

وقسم ثالث: فيه مفاضلة بين شعرين لحيوانين من عُشاق الجنّ (حمار وبغل)، وفيه رسم لصورة إوزّة سَمّاها (العاقلة). وغَرضُه من المشهدين التندّر بأشخاصٍ لم يذكرهم في رسالته بأسمائهم.

ـ وجعل ابن شُهَيد رسالته مَعْرِضاً لنماذج من شعره ونثره، ومجالاً لإظهار تقدُّمه وتفوُّقه على أقرانه (في الأندلس)، ومعارضته المتكافئة لعدد من شعراء المشرق وكتّابهم المعروفين المتقدّمين.

وهذه قطعة من التوابع والزوابع تبيّن نهجه في الرسالة وتكشف عن طرف من أسلوبه الغني[1] :

((... قال لي زُهير بن نمير (وهو تابعه وشيطانُ شعره): ومَن تُريد بعد؟ قلت له: خاتمة القوم، صاحب أبي الطيب! فقال: اشدُدْ له حَيازيمك، وعطِّر له نسيمك، وانثر عليه نجومك.

وأمال عنان الأدهمِ (فرسه) إلى طَريقٍ، فجعل يركضُ بنا، وزهير يتأمَّلُ آثارَ فرسٍ لَمحناها هناك. فقلتُ له: ما تتبُّعك لهذه الآثار؟ قال: هي آثارُ فرس حارثة ابنِ المغلّس، صاحب أبي الطيب، وهو صاحب قنص. فلم يزل يَتقرّاها (يتبع آثارها) حتى دَفعنا إلى فارسٍ على فرسٍ بيضاء كأنه قضيبٌ على كثيب، وبيده قناةٌ قد أسندها إلى عنقه، وعلى رأسه عمامةٌ حمراء، قد أرخى لها عَذبةً صَفراء[2] . فحيّاهُ زهير، فأحسنَ الردَّ ناظراً من مُقلة شَوساء، قد مُلئت تيهاً

---

(١) الذخيرة ١/٢٦٥

(٢) العذبة: طرف الشيء، ومن ذلك عذَبةُ السّوط، وعَذبةُ العمامة.

وعُجباً. فعرَّفه زهير قَصدي وألقى إليه رَغْبتي، فقال: بلغني أنه يَتناول! قلت: للضَّرورة الدّافعة، وإلاّ فالقريحةُ غير صادعة، والشّفرةُ غيرُ قاطعة. قال: فأنشدني، وأكبرتهُ أن أستنشده، فأنشدته قصيدتي التي أوَّلُها:

(أبرقٌ بَدا أمْ لَمْعُ أبيضَ قاصِلِ)

حتى انتهيتُ إلى قولي:

تـردَّدَ فيهـا الـبرقُ حتـى حَسـبتهُ ... يُشـير إلى نجـمِ العُـلا بالأنـاملِ
رُبىً نسجت أيـدي الغَمـام للبسـها ... غلائـلَ صُفْـراً فـوقَ بيـضِ غلائـلِ
سهرتُ بهـا أرعـى النجـومَ وأنجمـاً ... طوالـعَ لـلرّاعِينَ غـير أوافـلِ
وقـد فغـرتْ فاهـاً بهـا كـلُّ زهـرةٍ ... إلى كـلِّ ضَـرْعٍ للغَمامـةِ حـافلِ

...إلخ

فلما انتهيت، قال: أنشدني أشدَّ من هذا، فأنشدتهُ قصيدتي:

(هاتيكَ دارُهُم فقِفنَ بمعانِها)

فلما انتهيت، قال لزهير: إن امتدَّ به طلقُ العمر، فلا بد أن ينفث بِدُرّ، وما أراه إلا سيختصر بين قريحة كالجمر، وهمة تضع أخمصه على مفرق البدر. فقلت: هلا وضعته على صلعة النسر؟ فاستضحك إليَّ وقال: اذهبْ! فقد أجزتك بهذه النكتة. فقبّلت رأسه وانصرفنا!))

أقوال في رسالة التوابع والزوابع وآراء:

وقع بعض الباحثين في الوهم حين ظنّ أنّ أبا بكر بن حزم الذي خاطبه ابن شُهَيد في هذه الرسالة هو أخو أبي محمد بن حزم الفقيه المشهور. وترتب على هذا الوهم تحديد وقت الرّسالة بزمن سابق على زمان وضعها الحقيقي؛ وهذا أتاح الفُرصة للربط بين رسالة الغفران للمعري، ورسالة التوابع والزوابع لابن شُهَيد.

وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى هذا الوهم[1]، ونبَّه على أُمور:

---

(١) الأندلس: ٤٥٧ ـ ٤٥٨. وقد وقع في الوهم د. زكي مبارك في (النثر الفني في القرن الرابع) وتابعه د. عمر فروخ في تاريخ الأدب العربيّ ٤/٤٥٦

أحدها: أنهما رحلتان وراء الواقع. لكنّهما تختلفان، فرحلة أبي العلاء المعرّي تدور على عقيدة المَعاد وما يتصل بها من أهوال الحشر، والصّراط... ولقاء بعض مَنْ غُفِر لهم من الشعراء واللغويين في الفردوس، ورؤية إبليس وبشار وأمثاله من الزنادقة في الجحيم.

أمّا رحلة التوابع والزوابع فتدور على ما شاع في العصر الجاهلي (الوثني) من تصوّر شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم.

والثاني: أنَّ الذي أوحى إلى ابن شُهَيد بالرسالة هو بديع الزمان الهمذاني في المقامة الإبليسية؛ فقد لقي (عيسى بن هشام) بطل المقامات عنده إبليس في وادٍ من أودية الجنّ، وجرى بينهما حوار.

وهذه الرسالة ـ كما أشار الدكتور إحسان عباس[1] كشف ابن شُهَيد عن كثير من آرائه في النقد، ومن صور الصراع بين الموهبة وسعة الاطلاع، وقدم خير ما يختاره من نظمه ونثره، مبيّناً على المعارضة، ومزج ذلك بشيء من التخيُّل، وقسط قليل من الفكاهة، وكمية أكبر من العُجب والعُنف!

٦ ـ طوق الحمامة لابن حزم:

١ ـ وابن حزم[2] يعرف أحياناً بابن حزم الكبير تمييزاً له عن عدد من العلماء والأدباء انتسبوا هذه النّسبة. وهو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم

---

(١) عصر الطوائف والمرابطين: ٣٤٠

(٢) ترجم له في الذخيرة ١/١: ١٦٧، وجذوة المقتبس ٢٩٠ (المصرية)، وبغية الملتمس ٤٠٣، ومطمح الأنفس ٥٥، ومعجم الأدباء (دار المأمون) ١٢/٢٣٥، وسير أعلام النبلاء ١٨/١٨٤ وفي حواشيه مصادر وافية.

ـ وصدرت دراسات كثيرة عن ابن حزم منها: ابن حزم الكبير د. عمر فروخ، وابن حزم لمحمد أبو زهرة، وابن حزم (أعلام العرب) د. زكريا إبراهيم.

ـ وانظر تاريخ الأدب الأندلسي د. إحسان عباس، وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس: محمد رضوان الدّاية.

ـ وانظر مقالة عن (طوق الحمامة) في كتابي (أندلسيات شامية) صدر عن دار الفكر بدمشق.

القرطبي. ولد سنة (٣٨٣ أو ٣٨٤ هـ) في بيت جاه وثروة وترف وسلطان وعلم. وزر أبوه للمنصور محمد بن أبي عامر حاجب الدولة الأموية المتغلّب عليها. ونال آل حزم ملاحقة وحيف حين استردّ هشام المؤيد الأموي بعض قوّته، وحين حكم قرطبة علي بن حَمُّود (الحسني). وعُيِّن وزيراً لمدة قصيرة ـ مع صديقه ابن شُهَيد ـ في مدّة صديقه المستظهر الأموي، ولم تمتدّ هذه الوزارة أكثر من شهر وبعض شهر بسبب مقتل المستظهر. وسُجن ابن حزم الخليفة الجديد المستكفي ثم أطلق سراحه سريعاً.

ترك ابن حزم العمل السياسي نهائياً والتفت إلى العلم يلقيه على الطّلبة والأشياع الذين يتابعونه، ويؤلّف كتبه وينشرها في النّاس.

وتنقل في أكثر من مدينة في الأندلس نظراً لملاحقة السلطة له أحياناً أو تحريض العلماء في زمانه ضدّه، لآرائه التي قد لا تُعجبهم، أو اجتهاداته التي يخالفهم فيها.

وقد اختار ابن حزم ـ بعدَ دراسة وتوسُّع ـ المذهب الظاهري. وكُتبه الباقية هي المعتمدة في هذا المَذْهب الذي أسَّسه في بغداد ابن داوود الظاهري.

وابن حزم من أَشهر شخصيّات العلم والفكر والثقافة العربية الإسلامية في الأندلس ـ ولابن حزم مؤلّفات كثيرة في علومٍ شتّى من الفقه، وأصوله؛ وتاريخ الأديان، والأنساب، والتواريخ، والتراجم؛ والأدب، والشعر.

وبقي من كتبه ما يكفي لجعله من أَشهر رجال الفكر والفقه والثقافة العربية عامّة.

٢ ـ اسم الكتاب (طوق الحمامة في الأُلفة والأُلّاف) واشتهر اختصاراً بـ (طوق الحمامة). ألّفه ابن حزم سنة (٤١٨ أو ٤١٩ هـ) بمدينة شاطبة على الشاطئ الشرقي للأندلس، وموضوع الكتاب: دراسة الحبّ العُذري.

والكتاب[١] وإن كان يبدو ـ في ظاهره ـ أدباً خفيفاً يصف مظاهر الحياة الإنسانية في الأُلفة والأُلاّف (أي في الحبّ والمحبّين) فإنه في حقيقته نظرة ثاقبة في أعماق النفس الإنسانية والحياة الاجتماعية. ويجد الدارس في (طوق الحمامة) ملامح كثيرة من شخصية ابن حزم وأحواله، وأخباراً يصح أن تكون جزءاً من ترجمته الذاتية (أو سيرته الذاتية) ولمحات في الحياة تعبّر عن نظرات المؤلف الشخصية.

- أبواب الكتاب ثلاثون، مقسّمة على هذا النحو:
- عشرة أبواب في أُصول الحبّ؛
- واثنا عشر في أعراض الحُبّ، وصفاته: محمودها ومذمومها؛
- وستة أبواب في الآفات الداخلة على الحبّ.
- وخاتمة في بابين: أحدهما عن قُبح المعصية والآخر في فضل التعفُّف.

وإنّما أَضاف هذين البابين ((لكي يقرن الحبّ بروح التديُّن، ويكون كلامه فيه داخلاً في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))[٢].

ـ وقد طرّز ابن حزم مواضع كثيرة من الكتاب بنماذج من أشعاره، في قطع ملائمة ـ من حيث معانيها ومقاصدها ـ للباب الذي يكتبه أو لجانب من جوانبه.

ـ واختار في (طوق الحمامة) الأسلوب المرسل الذي يجري هيّناً سلساً دون تكلُّف، ودون سجع.

٣ ـ ومن باب الوفاء، وهو الباب الثاني والعشرون، قوله:

((ومن حميد الغرائز[٣] وكريم الشّيم، وفاضل الأخلاق في الحبّ وغيره: الوفاء. وإنه لمن أقوى الدلائل، وأقوى البراهين على طيب الأصل وشرف

---

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ٤/٥٢٦

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي د. إحسان عبّاس ١/٣٤٢

(٣) الغرائز جمع الغريزة: الطبيعة.

العُنصر[١] . وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات، وفي ذلك أقول قطعة منها:

أفعال كل امرئٍ تنبي بعنصره والعَيْنُ يُغنيك عن أن تطلب الأثرا[٢]

ومنها:

وهل ترى قطّ دِفْلى أنبتت عنباً أو تَذْخَرُ النَّحْلُ في أوكارها الصّبرا[٣] ؟

وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له، وهذا فرض لازم، وحقّ واجب على المحبّ والمحبوب، لا يحول عنه إلا خبيث المحتد، لا خَلاق له، ولا خير عنده...)).

٧ ـ ابنُ زَيْدُون ورسالتاه:

بقي من آثار ابن زيدون النّثرية: رسالتاه المشهورتان عُرفت إحداهما بالرِّسالة الهزلية، والأُخرى بالرسالة الجدِّيّة[٤] .

أمّا الهزلية فأنشأها الكاتب على لسان ولاّدة يعبث فيها بابن عَبْدُوس؛ على سبيل التهكُّم به، والسخرية، و (تصفية الحسابات)، كما يقال الآن. والرسالة قطعة أدبيّة معجبة من حيث أسلوبها، وصياغتها وتتابع الأفكار فيها. وظاهر أن ابن زيدون استفاد من رسالة الجاحظ المسماة بـ (التربيع والتدوير) التي أدارها على رجل اسمه محمّد بن عبد الوهّاب.

وقد أحسن ابن زيدون التعبير والتصوير، وبلغ مراده من إثارة السخرية والضحك، والتهكُّم البالغ.

وقد مضى ابن زيدون على شاكلة الجاحظ فأكثر من ذِكر أسماء الرجال[٥] وما يتّصل بهم من التّاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة في أن

---

(١) العنصر: الأصل.

(٢) العين هنا من قولنا عين الشيء أي نفسه وحقيقته.

(٣) الدّفلى: شجر مرّ لا يُؤكل (لا يصلح لإنسانٍ ولا حيوان) لمرارته وهو من نباتات الزينة في الشوارع والحدائق.

(٤) الأندلس د. شوقي ضيف: ٤٦٧ .

(٥) شرح ابن نباتة الرسالة الهزلية في كتاب مطبوع بعنوان: (سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) من آخر من طبعها: دار الفكر العربي بالقاهرة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ١٩٦٤ .

يكون لرسالته سماتها الخاصة في طريقة عرضه لأولئك الرجال، وفي إكثاره من ضرب الأمثال، ونثر الأبيات الشعرية، وجلب الأشطار من شعراء آخرين بما يوافق السِّياق والمقصد، حتى صارت الرسالة في حاجة إلى شرح وتعريف بالأعلام والأشعار وبسط للإشارات ومختصرات الأخبار.

وتبدأ الرِّسالة على هذا النَّحو:

((أمّا بعد! أيها المُصَاب بعقله، المورّط بجهله، البيّن سقطه[١]، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، السّاقط سقوط الذباب على الشَّراب، المتهافت تهافُتَ الفَراش في الشِّهاب[٢]؛ فإن العُجْبَ[٣] أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصْوَب.

وإنّك راسَلْتني مُستهدياً من صِلتي ما صَفِرت[٤] منه أيدي أمثالك... مُرسلاً (فلانة) مُرْتَاده... وإنّها أَعْذرت في السّفارة لك[٥]، وما قصّرَت في النيابة عنك، زاعمةً أنَّ المُروءة لفظُ أنت معناه، والإنسانيّة اسمٌ أنت جسْمُه وهَيُولاه[٦]، قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخِلال[٧]، حتّى خيّلت أنَّ يوسف، عليه السلام، حاسَنكَ فغضضتَ منه[٨]، وأن امرأة العزيز رأتْكَ فسَلتْ عنه؛ وأنّ قارون أصابَ بَعْضَ ما كَنَزْتَ، والنَّطِفَ[٩] عثر على فضل ما ركزت، وكسرى حملَ

(١) السّقط: الرّديء.
(٢) تهافت النّاس على الشيء: تتابعوا. والشهاب: الشعلة الساطعة من النار.
(٣) العُجب: الكِبر.
(٤) صَفِر: خلا. والصّلة: المودّة، والتقريب.
(٥) أَعذرت: بلغت العُذر باجتهاده في الأمر.
(٦) الهَيُولى: الصورة المعنوية التي يُصَبّ الجسمُ على مثالها.
(٧) الخلال جمع الخَلّة وهي الصّفة.
(٨) حاسنك أي: نافسكَ في الحُسْن (ليظهر أيّهما أكثر حسناً)، وغَضّ منه: نقص من قدره.
(٩) النَّطِفَ: رجل من تميم أغار على قافلة كانت خارجة من اليمن إلى كسرى فأصاب منها مالاً كثيراً وثروة نفيسة. والرّكاز: ما دفن في الجاهليّة من كنوز.

غاشِيَتِك[١]، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكَنْدر قَتَل دارا[٢] في طاعتك! وأَرْدَشِيْر جاهَد مُلوك الطّوائف لخروجهم عن جماعتك[٣]، والضَّحّاك[٤] استَدْعى مُسالَمتك، وجذيمة الأبرش[٥] تمنّى منادمتك، وشيرين قد نافست بوران فيك[٦]!... ...)).

الرّسالة الجِدّيّة:

كان دخول ابن زيدون السّجن تجربة فاصلة في حياته وفي نظرته إلى النّاس، وتعامله معهم: من كبير وصغير على حَدٍّ سواء.

ولدخول ابن زيدون السّجن قصّة: في وقت واحد، أَو في مُدَّتين متقاربتين جدّاً: وقع الشّاعر الكاتب ذُو المكانة الاجتماعية والسّياسية في ورطتين. الأُولى أَنَّ وكيل أعمال ابن زيدون اعتدى على أرض مملوكة لسيّدةٍ لم تشأ أن تبيع تلك الأَرض فاشتكت للقاضي وكان معروفاً بالشدّة مع ((المَسْؤولين)) وذوي النّفوذ إذا وقَعُوا بين يديه، فأمر بسجن ابن زيدون ولم يقبل أي حلّ آخر.

والثانية: أنَّ ابن جَهْور - على رغم مكانة ابن زيدون وسابق خدمته وطاعته - شكَّ فيه، وظنَّ أنَّ له يداً في حركة كانت تدبّر ضدّه. فسكت عن دخوله السّجن، ولم يعمل على إخراجه. ولبث فيه خمس مئة يوم كما ذكر ابن زيدون نفسه؛

ومن ها هنا كان التفاتُ الشّاعر في سِجنه إلى أَبي الحزم بن جهور بالشعر، والنثر معاً في محاولةٍ منه لاسترضائه، ودعوة ضارعةٍ لفكِّ قيد السِّجن عنه.

---

(١) الغاشية: غطاء السّرج أو المظلّة.

(٢) الإسكندر المقدوني هزم دارا ملك الفرس، وقتله واحتلّ مملكته.

(٣) أردشير وحّد أمراء فارس (الذين تفرقوا بعد مقتل دارا) وأسّس دولة جديدة.

(٤) الضَّحّاك رجل قديم كوّن ملكاً وكان طاغية جبّاراً.

(٥) جُذَيمة ملك الحيرة، كان له نديمان فقتلهما فضرب بذلك المثل.

(٦) شيرين زوجة أبرويز بن هرمز أحد ملوك الفُرس. وبوران هي بنت أبرويز، وحصلت على المُلك بعده.

وتنصّل الشاعر في أكثر من قصيدة من ((التُّهم)) و ((الرّيب)). وتصريحُه بالولاء والوفاء يدلُّ على ما رُوِيَ من تغيُّر قلب ابن جهور على ابن زيدون، وتركه في السجن تخلُّصاً منه، وإخفاءً له عن السّاحة السياسيّة، أو تأديباً له (لو أحْسَنّا الظنّ بابن جَهْور). على أنّ قلوب معظم حكّام دول الطوائف كانت قلوباً جافية قاسية، فأكثرهم لا يصلحون للحكم ولا تليقُ بهم الرّياسة.

- بعث ابن زيدون برسالته إلى أبي الحزم بن جَهْور، وهو في قمة التأثُّر والانفعال والتهاب العاطفة: أسفاً على شدّة العقوبة، وسقوط الوضع الاجتماعي، ونزول مكانته عند الحاكم نفسه وعند الناس!

- وتتألف الرسالة (الجدّية) من جزأين متكاملين: قسم منثور وقسم شعري فيه قصيدة: تتمّ المقصد، وتستنفد الطاقة النفسية المتوهّجة.

- تبدأ الرّسالة بتبيانِ العلاقة القديمة الوثيقة بين ابن زيدون وابن جَهْوَر: ((يا مولاي وسيّدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه)).

والدّعاء له في مستهلّ الكلام ترقيقاً له واستمالةً لقلبه: ((ومَنْ أبقاه الله ماضيَ حَدّ العزم، واريَ زند الأمل، ثابت عهد النعمة)).

والإشارة إلى ما أصابه من نكبة السّجن، وتسويغ ما درى له بما تخبّئه المقادير: ((إن سَلَبْتني - أعزّك الله - لباس إنعامك وعطلتني من حَلْي إيناسك، وأظمأتني إلى بَرُودِ إسعافك، ونفضتَ إلى كفّ حياطتك، وغضضت عني طرف حمايتك - بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمّ ثنائي عليك، وأحسّ الجَمادُ باستنادي إليك - فلا غَرْوَ، قد يغصّ بالماء شاربُه، ويقتل الدواء المستشفيَ به، ويُؤتى الحذِرُ من مأمنه...)).

والأَمل في نجاح مقصد رسالته هذه: ((هذا العتب محمودٌ عواقِبُه، وهذه النبوة غمرةٌ ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة صيف عن قريب تَقَشّعُ...)).

ويقف ابن زيدون عند جوهر القضيّة من وجهة نظره، وهو براءته ممّا نُسب إليه، وصحّة علاقته ببني جَهْوَر، وتلقّيه ـ على الرغم من ذلك ـ عقاباً لا يستحقّه: ((وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذي لم يسَعْه عفوك؟ والجهل الذي لم يأتِ من ورائه حلمك؟)).

ويناقش ابن زيدون أبا الحزم في قضيّته: ((ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مُسيئاً فأين الفضل؟:

إن لا يكن ذَنْبٌ فعفوك واسعٌ ... أو كانَ لي ذنبٌ فعفوُكَ أوسعُ))

وتخرج الرّسالة (الجدّية) كما خرجت الرّسالة (الهزلية) إلى تطويل يخدم قضية الرّسالة، وهو تطويل يستعرض فيه ابن زيدون ثانية معارفه اللغوية والأدبية والفقهية والتاريخيّة وغير ذلك ممّا زخرت به ثقافته الواسعة، ويوظف ذلك كلّه في سياق الرسالة وغرضها؛ فيقول:

((وما أراني إلاّ لو أنّي أُمرت بالسجود لآدم فأَبَيْت واستكبرت، وقال لي نوح: ﴿ارْكَبْ مَعَنا﴾. فقلت: ﴿سَآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ﴾، وأَمَرْتُ ببناء الصّرح ﴿لَعَلّي أَطّلِعُ إلى إلهِ مُوْسى﴾ وعكفْتُ على العجل، واعتديتُ في السّبت، وتعاطيتُ فعقرت، وشربت من ماء النّهر الذي ابتليَ به جنود طالوت، وقُدْتُ الفيل لأبرهة، وعاهدت قريشاً على ما في الصّحيفة...)).

إلى أن يقول بعد تهيئة السامع لقبول فكرة براءته، وحسن تصرُّفه، وسلامة نيّته، وصحّة طويته: ((فكيف ولا ذنب لي إلاّ نميمةٌ أهداها كاشحٌ، ونبأٌ جاء به فاسق، وهم الهمّازون المشّاؤون بنميم، والواشون الذين لا يلبثون أن يَصْدَعوا العصا، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً...)).

ويَحْلِف وقد آن أوانه من هذه الرسالة: ((والله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انحرفت عنك بعد الصّاغية، ولا نصبْتُ لك بعد التشيُّع فيك...)).

ويطلب إقالته من عثرته بعد أن طالت نكبتُه: ((ومالك لا تمنع منّي قبل أن أُفترس، وتدركني ولمّا أُمزّق؟)).

ويذكر ابن زيدون ـ شاهداً على ولائه ـ تلك القصائد التي ذكر فيها أبا حزم بالثناء، وأثبت لنفسه فيها الولاء: ((وهل لبسَ الصباح إلا بُرداً طرزته بفضائلك، وتقلّدت الجوزاء إلا عقداً فصلتُه بمآثرك، واستملى الربيعُ إلا ثناءً ملأتُه من محاسنك؟))...

ويقدّم دليلاً آخر فيقول: إنه كان يستطيع مغادرة قرطبة إلى جهات كثيرة تستقبله، ولكنّه راغب في جوار ابن جهور، باقٍ على الولاء والوفاء ومَنْ كان كذلك كان جديراً بالاصطناع والتقريب.

ويُنهي ابن زيدون رسالته بقصيدةٍ تشفع النَّثْر بِنَظم، وتجمع بين نوعي الأَدب، وتعرض من مواهبه الأدبية ما يلفت إليه النظر، ويدعو إلى المُجازاة الطيّبة بالرّضا والقَبُول.

المقامة في الأندلس

دخلت المقامات الأندلس في حينها، في أثناء الحركة الحياتية والثقافية المتبادلة بين الأندلس والمغرب من جهة والمشرق من جهة أُخرى. ووصول مقامات بديع الزمان إليهم لم يحفز على إنشاء مقامات مماثلة تجري على النهج الذي سارت عليه؛ وإن أنشؤوا مقامات مقاربة، أو استفادوا منها في نُصوصهم الأدبية، أو رسائلهم الفنّيّة[1].

والمقامات الباقية لمن قلّد البديع أو حاول مجاراة بعض خصائصه قليلة، وهي أَشبه بالرَّسائل منها بالمقامات لغياب عنصر الكُدية، وغياب عناصر الإِضحاك أو المفاجأة، وخلوّها من حيويّة مقامات بديع الزمان.

ومن هذه المقامات:

- مقامة أبي حفص عمر بن الشُّهَيد[2]، وهو من شعراء المعتصم بن صمادح صاحب المَرِيّة. اختار ابن بسام قطعاً من مقامته.

- ومقامة أبي محمد بن مالك القرطبي[3]، واختار ابن بسام قطعاً منها، وتدور حول مدح المعتصم بن صمادح ووصف انتصاراته، وتنتهي بطلب العطاء من الممدوح، فكأنها قصيدة مديح طويلة...

---

(١) تُنظر مطالعات د. شوقي ضيف، والدكتور إحسان عباس. وقد تابَعهما د. عبد الملك مُرتاض في (فَنّ المقامات في الأَدب العربي) ط٢ ـ الدار التونسية ـ ١٩٨٨

(٢) الذخيرة ١/٦٧٠. وله ترجمة في الجذوة ٢٨٣، والبغية ٣٩٤، والمغرب ٢/٢٠٩

(٣) الذخيرة ١/٧٣٩. وله ترجمة في القلائد: ١٧٠

ـ ومقامة لابن المعلم (محمد بن عبد العزيز) اختار ابن بسام منها، ويرجح أن تكون في المعتضد بن عباد، وهي تجري على النسق الذي وصفنا في الفقرة السابقة.

والتفت الأندلسيون ـ بعد مرحلة الهمذاني ـ إلى مقامات الحريري، وصاغوا على منوالها، وقلّدوها. وقد سمع عدد من الأندلسيين هذه المقامات من صاحبها الحريريّ، ونقلوها معهم إلى بلاد الأندلس، وهيّؤوا لها جوّاً لم يهيّأ مثله لمقامات الهمذاني. ومن أشهر هؤلاء أبو القاسم بن جحدر الذي أقرأ مقامات الحريري لعدد كبير من الدارسين وطلبة العلم، وممّن سمعها أبو العبّاس الشّريشي[1] أخذها عن أبي بكر بن أزهر الحجري صهر أبي القاسم بن جَحْدَر، وعن أبي بكر بن مالك الفهري، وهو صهر آخر لابن جحدر. وأخذها أيضاً عن عدد من الأدباء مثل ابن جُبير الرّحالة المعروف. وقد ألّف الشريشي شروحاً على المقامات الحريرية: الكبير، والأوسط، والأصغر.

ـ وقد شَرح مقامات الحريري في الأندلس أُدباء آخرون واهتموا بهذه المقامات رواية وشرحاً ومعارضة.

وممّن عارض مقامات الحريري أبو عبد الله بن أبي الخصال في ديوان رسائله مقامة واحدة مطوّلة[2]، وتختلف عن مقامات الحريري[3] في طولها، ومبنى مستهلها إلى أن يجرّب قلمه في وصف عدة مقامات فهناك منظر في الريف، وآخر في بيت الحارث بن همّام (راوية المقامة) ثم ثلاث قصائد متتابعة، ثم التفتيش عن أبي زيد السُّروجي (البطل) ثم وصف لإحدى الخانات وحوار طويل مع

---

(١) أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (٥٥٧ ـ ٦١٩ هـ) أديب واسع المعرفة بعلوم اللغة، بارع في فنون النحو والشعر والأدب. أكثر من التأليف ولازم التدريس والتّعليم. وكان ناجحاً في تآليفه ومحاضراته معاً. ومن كتبه: شروحه الذائعة على المقامات الحريرية. وله شيء من الشعر المطبوع. ولشرح الشريشي طبعات عديدة، أولها طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٢٠

(٣) تنظر مطالعة د. إحسان عباس ٢/٣١٧

صاحبها، ثم لقاء بين الحارث والسروجي فيه حوار طويل... ولا يلتزم هذا المنهج إلاّ كاتب لا يودّ أن ينشئ عدة مقامات متفرقة؛ وإنما هو ينشئ مقامة أو اثنتين، ويحاول أن يعرض براعته في رسم مناظر متعدّدة يجمعها معاً في مقامة واحدة.

فابن أبي الخصال احتفظ بشخصيّتي مقامات الحريري: وهما الحارث بن همّام، وأبو زيد السّروجي[1].

ـ تحدّث الحارث في أول المقامة عن جوّها وإطارها. فهو في منطقة من الرّيف، وقد ابتهجَ المُشتغلون في الأرض بنزول المطر الغزير، وتوقّع الموسم الوفير. وبينما كان الحارث مع أولئك الفلاّحين إذ برَز رجلٌ رفعَ صوتاً جهورياً لفت إليه الأنظار وحثّهم على صلته وبرّه: قال

((أيُّها الجَمْعُ الأريض[2]، والسُّؤدد العريض، والنفر البيض، والنائل المستفيض؛ والهمم السامية، والحفائظ الدّامية، والسيوف الماضية، والليوث الضارية؛ والقروم المصاعب والوشيج الزّاعب[3].

حقّاً إنكم لقطب الرّجاء، ورحى الهَيْجاء، وكشفُ الغمّاء، وجَلا العمى والعَماء. أما والذي كلأكم، وأنبأ كلأكم[4]، ملأ بالخَيْرات ملأكم؛ إن للنعم لَشُكراً هو أوسع غاية، وأرفع راية؛ وأرقّ أنفاساً، وأضفى لباساً؛ وأعلى مظاهر، وأزكى بواطن وظواهر؛ وأربح مسالك، وأنجع مآلك[5]؛ وأسرع قبولاً، وأبعد ذبولاً. كلاّ ليس الهِناءُ بالدّسّ[6]، ولا النداء بالهمس؛ ورئمانُ العلوق غصّة في

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٢٣ ـ ٤٢٤

(٢) أَرض فلان: صار خيّراً متواضعاً، فهو أريض.

(٣) الوشيج: شجر الرماح. زاعب رجل أو أرض تُنسب إليها الرّماح.

(٤) كلأ: رعا. والكلأ الثانية: عشب المَرْعى.

(٥) مآلك جمع مألكة: رسالة.

(٦) الدّسّ: عدم إتقان طلي الجمل الأجرب بالقطران.

الخُلوق[١] ؛ قد شكرتم قَوْلاً فاشكروا طَوْلاً؛ وأثنيتم لفظاً فاثنوا لدى البرّ والصّلة لحظاً؛ وبادِرُوا بالحسناتِ قبل فَوْتها، وانظروا إلى رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد مَوْتها. ألا واثِقٌ بالخَلف؟ ألا مُقْتَدٍ بالسَّلف، ألا يدٌ تطول؟ ألا حُرٌّ يَنُول؟ ألا مُعْطٍ من يسار؟ ألا مُوَاسٍ من قُصار؟ ألا مؤثرٌ من إقتار؟

يا ينابيع الندى، ومصابيح الهدى، ومفاتيح الجَدا...)). ثم ذكر الحارث زوجته وأولاده، وشكا للناس سوء حالهم، وكثرة احتياجهم... وهكذا تنفتح أكياس القوم وصررهم، وتتوالى عليه عطاياهم ودراهمهم.

((قال: فما زلتُ أرمقُه، وسهام العطاء تَرْشُقه، وأتوسّمه وتلك النوافل تتقسّمه، حتى تعلّقت عيني بخَللٍ إزاء خدّه، أذهله الطمع عن سدّه فأثبتّ عَيْنَه، وعرفْتُ مينَه[٢] !...)).

إذن اكتشف الحارث شخصية أبي زيد السّروجي المتخفّي الذي زعم المزاعم عن زوجته وأولاده ليستجدي عَواطف الناس، ويأخذ أموالهم بالكُدْيَة!..

وتسلل الحارث وراء ((الشيخ)) ثم تعارفا، وتناولا الطعام، ولم يقبل السروجي أن ينام عند الحارث ـ كأنه خشي أن يأخذ من ماله الذي جمعه ـ وفي الصّباح يفتقد الحارث صاحبه. ثم يعرف أنّه سجين: ارتهنه صاحب حان بدينه، ثم يعرف الحارث موضع صاحبه من الجُبّ التي سجن فيه فيخلّصه... ويقضيان وقتاً ممتعاً، ويطلب الحارث من السروجي أن يخلده في شيءٍ من شعره... وتنتهي المقامة بقطعة من الشعر لأبي زيد السُّروجي.

وعارض مقامات الحريري أيضاً: أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي المازني، القرطبي، (السَّرَقُسطي، الإشْتَرْكُوبي): أصله من إشتركوية وهو

---

(١) رئمان: محبة وعطف. العلوق، النفيس الذي يتعلق به القلب.

(٢) المين: الكذب.

حصن قرب تطيلة في شمال الأندلس، وولد بسَرَقُسْطة ونشأ بها، ثم سكن قرطبة فَنُسب إليها أيضاً[١].

وكان أبو الطاهر أديباً، كاتباً، شاعراً، من علماء العربيّة في زمانه. ومن كتبه المطبوعة (المسلسل) وهو كتاب لغوي، و (المقامات اللزوميّة).

ومقامات أبي الطاهر خَمْسُون مقامة. وقد التزم فيها ما لا يَلْزَم؛ فَعُرِفت بالمقامات اللزوميّة. وهي مبنيّة على السَّجع: واللزوم فيها أن يلتزم في السَّجع حرفين اثنين بدلاً من حرف واحد كما هو مألوف. وربما التزم ثلاثة أحرف كالذي نجده في المقامة السّادسة عشرة. وسمّى الثامنة عشرة المدبّجة لأنه جعل الكلمات في كل سجعتين تتقابل في نهاياتها وتتعادل كقوله من أوّلها: ((قال: كنت في رَيّان الحداثة والشباب، ورَيْعان الدّماثة والخِباب؛ قد خلعتُ الرسنَ والعِذار، وقطعتُ اللّسَنَ والإعذار...))[٢]؛ والتزم في الثانية والثلاثين أن يختم سجعاتها بحرف الهمزة، وفي الثالثة والثلاثين أن يختم السجعات بحرف الباء... إلخ. وفي هذا شيء من التّعقيد، أو العُسر. ولكن سَجْعه في غير ذلك: ((تشيع فيه العذوبة والسهولة والقدرة على التفنّن في الوعظ والوصف ونسج الكلام))[٣].

والشخصيّتان الرئيسيّتان في مقاماته هما: السّائب بن تمّام والشيخ أبو حبيب. وهو عنده رجل سدوسيّ محتال أَصْلُه من عُمان. وقد ينزل في مقاماته راوية اسْمُه المنذر بن حمام، ولا دخل له في أحداث المقامة، ولكنه يتلقى المقامة عن السائب (وقد ورد في تسع مقامات).

وقد يشترك في المقامة فَتَيان هما ابنا الشيخ أبي حبيب: غريب وحبيب.

---

(١) انظر دراسةً عنه في: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ــ محمد رضوان الداية ــ الطبعة الثانية ٣٥٢.
وانظر في مقاماته أيضاً: عصر الطوائف والمرابطين: ٣١٧ والأندلس د. شوقي ضيف: ٥٢٢؛

(٢) المقامات (مصر): ٢٣١

(٣) الأندلس: ٥٢٤

وبنى السّرقسطي مقاماته (كالحريري) على عَرْض حيل مكد (شحاذ أدبـي) كبير هو الشيخ أبو حبيب.

ومقامات السّرقسطي الخمسون: بَعْضُها حظي من المؤلف باسم جعله عنواناً لها، وبعضها جاءَ غُفْلاً من ذلك. ومّمـا سمّاه: السـابعة (وهـي البحريـة) والثانيـة عشرة (وهي الفارسـية) والسادسـة عشـرة (وهـي المثلثـة) أي التزم فيهـا ثلاثـة أحرف، والسابعة عشرة (وهي المرصَّعة)، والثامنة عشرة وهي المدبّجة (وسمّيـت في إحدى النسخ المخطوطة: الموشّحة)... إلخ.

وقد أثنى د. ضيـف علـى المقامـات اللزوميـة، وقـال فيهـا: إنها أروع آثـار السّرقسطي، وإنّها مـن أروع مـا قدّمـت الأندلـس لـلأدب العربـي مـن أعمـال أدبية[(١)].

وهذه مقامةٌ من مقامات أبي الطـاهر، نقدمهـا تامّـة ليظهـر للقـارئ صنيعتـه وأُسلوبه وثقافته الواسعة.

المقامة الثانية[(*)]

حَدَّثَ الْمُنْذِرُ بنُ حُمام، قال: حَدَّثَنـا السّـائِبُ بـنُ تمـام، قـالَ: لَمَّـا فـارقتُ جُرْجـانَ، أُريـدُ أَرَّجـانَ[(٢)] بَـرَّحَ بِـي الشَّـوقُ، وجَـدَّ النِّـزاعُ والتَّـوْقُ، فَسِـرْتُ أَسْتَصْحِبُ الرِّفَاقَ، وأجُوبُ الآفاقَ، حَتَّى فارقتُ المأهُولَ، وركبـتُ الْمَجهُـولَ، وإذا أنا بِلُمَّةٍ رِحـالٍ[(٣)]، علـى نجـائبَ[(٤)] عِجَـالٍ، يَخِبُّـونَ[(٥)] في أرضٍ نَطِيَّـةٍ[(٦)]،

---

(١) الأندلس: ٢٢٥.

(*) المقامات اللزومية للسرقسطي (ط مصر): ١٦؛ (ط المغرب): ٢٥.

(٢) جرجان مدينة بين طبرستان وخراسان. وأرّجان: مدينة قريبة من شيراز والأهواز بفارس.

(٣) لمّة: جماعة.

(٤) النجائب جمع النجيبة: الإبل الخفيفة السريعة.

(٥) يخبّون: من الخبب وهو نوع من السير السريع.

(٦) نطيّة: بعيدة.

وينطوون على عزمةٍ وطيَّةٍ[١]، فعطفوا عليَّ الزِّمامَ، وبذلوا التَّحيَّةَ والذِّمام[٢]، ثُمَّ قالُوا: ((مَنِ الرَّجُلُ الوَحِيدُ؟ وإلى أَيْنَ عَنِ الْمَهْيَعِ[٣] تَحِيدُ؟)) فقلتُ: ((مَنْ قَذَفَتْهُ المَسَارِبُ، ورمَتْ بهِ الْمَشارِقُ والمغارِبُ)). فقالوا: ((رُزِقْتَ الْمُنى، ووُقِيْتَ الْمَنى[٤]، ويُسِّرَ لَكَ الطَّرِيقُ، وبُشِّرَ بكَ المَعشَرُ والفريقُ، هَلْ لكَ عهدٌ بالعُذَيبِ والغَميمِ[٥]؟ وهل لاقَيْتَ حَيَّيْ أَسَدٍ وتَميمٍ؟ وهل مررتَ بالوَعساءِ[٦]، وعُجتَ على الأجارِعِ والأَحْسَاءِ[٧]؟)) فَقُلْتُ: ((وسَقَطَ السَّائلُ على الخَبيرِ[٨]، وأَتاهُ بالقَبيلِ والدَّبيرِ[٩]، تَركتُها والكلأُ جَميمٌ[١٠]، والنَّبْتُ عَميمٌ، مِن أرضٍ صَفَتْ مِنها المَشَارِعُ، وضفتِ[١١] الأباطحُ والأجارِعُ، فتضاحكتِ الأزهارُ والأنوارُ، وتأَلَّفَ الفِزْرُ والصِّوَارُ[١٢]. وتصاحَبَ الآنِسُ والنَّوارُ[١٣]، وتغايرتِ الأنجادُ والأغوارُ. يالَهُ مِن مرتعٍ خَصيبٍ، وحظٍّ لِرائدِه مُصيبٍ، غيرَ أنَّ بها مِنْ أسدٍ وسُلَيْم[١٤]، كُلَّ أسدٍ وأَيْمٍ[١٥]، فقد تقصَّدت عليها الذَّوابلُ[١٦]، وتفانَتِ

---

(١) الطيّة: النيّة.

(٢) الزمام: حبل الدابة تُقاد منه. والذّمام: العهد.

(٣) المَهْيَع: الطريق الواضح الواسع.

(٤) المَنى: القدر والموت.

(٥) العُذَيب: ماءٌ بين القادسية والمغيثة أو هو واد في بلاد بني تميم. والغميم موضع بين مكة والمدينة.

(٦) الوَعْساء: موضع (قال ياقوت: هو بين الثعلبية والخزيميّة، وهي شقائق رمل متّصلة) وهي التي ذكرها ذو الرّمة:

أيا ظبيةَ الوعساءِ بينَ جلاجلٍ ... وبينَ النّقا آأنتِ أمْ أُمُّ سالِمِ؟

(٧) الأجرعان: موضع باليمامة والأحساء مواضع كثيرة، ومنها مدينة مشهورة بالبحرين (شرق الجزيرة العربية).

(٨) في أمثال العرب: ((على الخبير سقطت)).

(٩) أي أتاه بظاهر الأمر وباطنه، وأصله من قبيل الفتل (باطنه) وظاهره: دبيره.

(١٠) جميم: مجتمع كثير.

(١١) ضفت: كثرت.

(١٢) الفِزْر: القطيع من الغنم، والصّوار: القطيع من البقر.

(١٣) النّوار: ما ينفر من الظباء والوحش.

(١٤) أسد وسليم: من القبائل العدنانية.

(١٥) الأيم: الحيّة.

(١٦) تقصّدت: تكسرت، والذّوابل: الرّماح.

القبائِلُ والقنابِلُ(١) ، فجُدِّدتْ عليْها الذُّحُولُ(٢) ، وهانَتْ عِندَها المُحُولُ(٣) ، وتأكَّدتِ الأحقادُ، وتأبَّدتِ الأحْقاف(٤) ، والأعْقادُ؛ وأُذِيلَ عَليها المَصُونُ(٥) ، واتُّخذتِ الصَّياصي(٦) والحُصُونُ، ففارقَتْ تَميمُ جِماهَا، ورَماها بالصَّغارِ مَن رَماها. فتميَّزَ مِنهم فَتًى يرفُلُ مِنْ همَّتِهِ في كَرَمٍ(٧) ، ويَأْوِي مِن بَأْسِهِ إلى حَرَمٍ، فهلَّلَ وكَبَّرَ، وأقبلَ وأدبرَ، وقال: لأُمِّ الرَّائدِ الهَبَلُ(٨) ، ولا جادَ القَطْرُ ولا السَّبَلُ(٩) ، أ للهِ إنَّ الفَوْزَ لأسدٍ، وما القَومُ مِنْ لِيْفٍ ولا مسَدٍ. لقد أهدَيتَ العَجبَ العَجيبَ، وبَعَثتَ الشَّجنَ والوَجيبَ. لقد أتى الزَّمانُ بعَجَبه، وأطلعهُ قبلَ رَجَبِهِ(١٠) ، فعوَّضَ مِنَ الرَّأْسِ بالرِّجلِ، ومِنَ التَّاجِ بالحِجْلِ(١١) ، وغَلَّبَ الوشيظَ على الصَّميمِ(١٢) ، والحَميدَ على الذَّميمِ، والجُعَ على الزَّميعِ(١٣) ، والفذَّ(١٤) على الْجَميعِ، والتَّوالي عَلى الهَوادِي(١٥) ، والعَيْرَ(١٦) على الجَوادِ، والفِدانَ على البَاسِلِ(١٧) ، والنَّابحَ على العَاسِلِ(١٨) ، والأنزل على الطَّامِحِ(١٩) ، والأعْزلَ على

---

(١) الطّائفة من الناس والخيل.

(٢) الذحول جمع الذحل: الثأر.

(٣) المحول جمع المَحْل.

(٤) الأحقاف: مكان، وأصله جمع حقف: ما اعوجّ من الرمل. وتأبّدت: توحّشت. والأعقاد جمع العقد: المتراكم من الرمل.

(٥) أُذيل: امتهن.

(٦) الصّياصي بمعنى الحصون.

(٧) أصله من رَفَل في ثوبه جرّه (لطوله) وفي الكلام استعارة.

(٨) الرائد: الذي يسبق القوم لمعرفة الطريق. والهَبَل: الثكل.

(٩) السَّبَل: المطر.

(١٠) إشارة إلى المثل: عش رجباً تر عجباً.

(١١) الحجل: الخلخال.

(١٢) الوشيظ: الدخيل، والصميم: الأصيل.

(١٣) الجُع: الأحمق، والزميع: الشجاع المقدام.

(١٤) الفذّ: الفرد.

(١٥) التوالي: الأعجاز والهوادي: الأعناق. والعرب تقول: ليس هوادي الخيل كالتّوالي.

(١٦) العير: الحمار.

(١٧) الفدان: الثور. والباسل: الأسد.

(١٨) العاسل: الذئب.

(١٩) الأنزل: المنخفض. والطّامح: العالي.

الرَّامِـحِ[١] ، وابْـنَ النُّبُـونِ[٢] علـى العَـوْدِ، والسَّـبَلَ عَلـى الجَـودِ[٣] ، والشَّـاحِجَ عَلـى الصَّـاهِلِ[٤] ، والطَّامِيَ عَلى النَّاهِلِ[٥] ، وفاضِلَ النَّبعَ بالغَرَبِ[٦] ، والعَجَمَ بالعَرَبِ.

فانبرى سَيِّدُ القَوْمِ، فَقَالَ: لقد ثَنيتَ العَزائِمَ، ونَبَّهتَ النَّوائِمَ، وأَبَّنْتَ الأَحْياءَ، وذَمَرْتَ القَبائِلَ والأَحْيـاءَ[٧] . ثُـمَّ أَشـارَ إلى شـيخٍ كـالعُرجُونِ[٨] ، يَمْـزُجُ صَفْـواً بأُجُونٍ[٩] ، ووَقَاراً بمَجُونٍ، فقالَ: وأنتَ يا أخـا اللَّسَـنِ، والبيـانِ الحَسَـنِ، فمـا رَأْيُكَ وقد طرحتنا الطَّوَارِحُ، فيما جرَتْ بِهِ السَّوانِحُ والبوارِحُ؟ فقـالَ: أرى أن تُحْمِلَني جواداً، وترقبَ مِني عِوَاداً، وتَقدحني وارِيـاً، وترسِلَني سَـارِياً، وأَنتَـابُ القومَ، وأُطِيلُ الحَومَ، وأَتَخلّلُ القَبائِلَ والشُّعُوبَ، وأَستَخبِرُ الصَّـادِحَ والنَّعُـوبَ، وآتيكَ بالخَبرِ مِنْ فَصِّهِ[١٠] ، وبالحَديثِ علـى نَصِّـهِ، وأُوشِـكُ نحوَكُـمْ إيابـاً، ولا أُطيلُ عنكُم غِيابَاً، فتعلَمُ أيـنَ اسـتَقَلَّت بعشـائرِكَ المَنـازِلُ، وعَمَّـا انقلَـبَ العـدوُّ المُنـازِلُ، فقـالَ: إنَّ الـرَّأيَ رَأْيُـكَ، وإن شـاقَنا بُعـدُكَ ونَـأْيُكَ. قـالَ: فـامتَطَى اليَعبُوبَ[١١] ، ونَفـضَ الجُيُـوبَ، وتَقلَّـدَ الحُسَـامَ، وتَوفَّـرَ الجِسَـامَ، ومـلأَ المَـزادَ، واحتقَبَ الزَّادَ[١٢] ، وقالَ: أستَودِعُ اللهَ مِنْكُم كِرَاماً، وأسأَلُهُ أن يُيَسِّرَهُ مَرَاماً.

فَتَبِعْتُهُ مُوَادِعـاً، وحَسِبْتُهُ مُخادِعـاً، فأَرَابَـهُ مِنِّـي مُرِيـبٌ، وقـالَ: حَنـانَيْكَ يـا غَرِيبُ! وأَنْشَدَ:

---

(١) الرامح: ذو الرمح، وفي الكلام تورية بأسماء النجوم.

(٢) ابن اللَّبون من الإبل: الفتيّ. والعود: المسنّ.

(٣) السَّبَل: المطر والجود الكثير منه.

(٤) الصّاهل: الحصان، والشاحج: الحمار.

(٥) النّاهل: الذي يرتوي.

(٦) النبع: شجر تتخذ منه السّهام والقسي. والغرب: شجر أضعف منه.

(٧) ذمره: حضّه وشجّعه.

(٨) العُرجون: عذق النخلة إذ يبس واعوجّ.

(٩) الأجون: الماء المتغيّر الطّعم واللون.

(١٠) أي من أصله. وفي أمثال العرب: يأتيك بالأمر من فصّه.

(١١) اليعبوب: اسم فرس مشهور، وهو في الأصل: الطويل السّريع.

(١٢) ملأ حقيبته.

أمَـا تَـرَى الآلَ والسَّـرابَا والدَّهْـرَ بالحُرِّ قَـدْ أرَابَـا
إذَا أرَاكَ الزَّمَـانُ وَجْهـاً فَسِـرْ عَلَـى وَجهِـكَ انسِرابا
ولا تُبـلْ عَـنْ سَـلام قَـوْمٍ قَـدْ أرْسَـلُوا نَحْـوَكَ الحِرابـا
وَلا تَكُـنْ عَـاجزَ المَسَـاعِي وامْـلأ إذَا أمْكَـنَ الْجرابـا
وَرِدْ بِمَـاءِ غَدِيـرَ خُـمٍّ تَسْـتَعْذِبِ المَـاءَ والشَّـرَابَا
وَكُـنْ بأنْبَائِهـا عَليمـاً والْـقَ بِهَـا الذِّئْـبَ والغُرَابَـا
ولا تَهَـبْ مِنْهُـمُ جُموعـاً واغْـنَ بِهَـا بَلْقَعـاً خَرابـا
كُـلٌّ عَلَـى ظَهْرِهَـا غَرِيـبٌ فَكَيْـفَ تَشْـكُو بِهـا اغْتِرَابَـا؟
وَكُـلُّ مَـا فَوْقَهـا تُـرابٌ فَمَـا لَنـا نُمْسِـكُ التُّرابـا؟

فَقُلْتُ: «الشَّيْخُ، واللهِ، أبو حَبيبٍ، ومَنْ لكَ بذلِكَ التَّشْبيبِ أو التَّسْبيبِ؟ وكَمـا راجَعَتْـكَ الفُتُـوَّةُ، هَـلاَّ عَـاوَدَتْكَ المُروَّةُ، لَشَـدَّ مَـا دَارَيْـتَ النُّصُـولَ[1]، وَازْدَرَيْتَ الذَّوَابِلَ والنُّصُولَ[2]، فمضَى عَنِّي وَهُوَ يَقُولُ:

هَيهَـاتَ مِنـكَ عَـوادِي والدَّهْـرُ جَـمُّ العَـوادِي
وَذُو الحِزَامَـةِ غَـادٍ بِكُـلِّ شِـعْبٍ وَوَادِي
والمَـرْءُ بَيْـنَ سَـبيلَيْ رَوائِـحٍ وَغَـوَادِي
وَلِلْعَوَاقِـبِ يَومـاً طَواهِـرٌ وَبَـوادِ
قُـلْ لِلْعِرَاقِيـن عَنِّـي وَقُـلْ لأهْـلِ السَّـوَادِ:
مَـا لِلْحَواضِـرِ تَغْـرِي بِكَيْـدِ أهْـلِ البَـوادِي
للهِ أبيَـضُ حُـرٌّ خدعْتُـهُ بِسَـوادِي
وَرُبَّ سَـمْحٍ جَـوَادٍ رَزَأْتُـهُ بِجَـوَادِ

---

(١) نصل الشعر: زال عنه خصابه.
(٢) الذّوابل: الرِّماح، والنُّصول: السُّيوف.

كَـم ضَـرَّ قُـرْبُ وِسَـادٍ　　وَغَـرَّ طُـولُ سِـوَادِ[١]
هَـل يَمْنَـحُ الدَّهْـرُ يومـاً　　رِيَّ النُّفُـوسِ الصَّـوادي؟
فَقَـد أطَـالَت إليـهِ　　شَـكوَى الجَـوَى والجَـوَادِ

ـ وقد ظهر عدد من المقامات في الأعصر التالية في الأندلس ((وليس فيها ما يشيرُ إلى تطوّر ما في طبيعة المقامة، أو موضوعها))[٢] . فمن ذلك مقامات لسان الدين بن الخَطيب، وتَدُور في الأكثر على الرّحلات ووصف البُلدان. وقد درسها د. ضيف في الرّحلات لفقد كثيرٍ من خَصائص المقامات منها. ومعلوم أنّ في المقامات نوع يخلو من الراوي والبطل، كمقامات الزمخشري التي تدور كلها على الوعظ[٣] .

(١) السّواد: المسارّة، وفي أمثال العرب: ((قُرب الوساد وطول السّواد))، وله قصة انظرها في أمثال الميداني.
(٢) عصر الطوائف والمرابطين: ٣٢٦
(٣) المقامة ـ د. ضيف ـ ص: ٨١

أَدب الرِّحلة[1]

نشط التأليف في فنّ الرّحلة، وتسجيل وقائع تلك الرحلات، ومجرياتها في عصور الأدب العربي المختلفة، ولفتت الرّحلات الأَندلسيّة النّظر، لِبُعد بلادهم عن المشرق، ووجود عنصر المُخاطرة والمغامرة في خط سير الرحلة برّاً وبحراً. ولمزج بعض الرحّالة بين عناصر الرّحلة، ولقاء العلماء، وتسجيل بعض الوقائع الثقافية والحضارية.

ومما أَثّر في نشاط الرّحلة:

ـ السعي الحثيث من أنحاء الأرض لأداء فريضة الحجّ، وقصد المسجد النّبويّ والمسجد الأقصى.

ـ والإغراب في الأرض مع جيوش الفتح.

ـ والرحلة في طلب الحديث، والعلوم المختلفة، ولقاء العلماء والأخذ عنهم.

ـ وروح المغامرة، وعقلية البحث والكشف والاستقصاء.

ـ واتّساع رقعة الدولة العربية الإسلاميّة.

ومن الرّحلات القديمة الباقية رحلة ابن فضْلان[2] التي كانت سنة (٣٠٩ هـ).

---

(١) يُنظر كتاب: تاريخ الأدب الجُغرافي: كراتشكوفسكي (جـ١، ٢).

(٢) نشرت الرّحلة بتحقيق د. سامي الدّهّان في المعهد الفرنسي بدمشق. وصدر منها نسخة مختصرة عن وزارة الثقافة بدمشق.

والرّحلات على وجه من وجوهها، لاحقةٌ بعلم الجُغرافية، لما يقدّمه الرّحّالة من معلومات وصفية، ويرصد من ظواهر طبيعيّة، ويسجّل من أرقام وحقائق في طبيعة الحياة، وفي ظروفها الاقتصادية والبشرية.

والرحلات معرضٌ لمعلومات تاريخية، تعدّ رافداً من روافد التاريخ، وقد تكون بالغة الأهميّة، وخاصّة حين ينفرد الرَّحّالة بما يسجّل أو يشاهد..

والذي يُتابع الرحلات يرصد كثيراً من الظواهر الثابتة والمتغيرة في نواحي الحياة في المجتمع الواحد أو في المجتمعات الإنسانية الواسعة.

والرحلات ـ وإن كانت لاحقةً بواحدٍ أو بأكثر من واحدٍ من العُلوم ــ هي فَنٌّ من الفُنون الأَدبيّة: فيه جوانب متعدّدة من الفائدة، والإمتاع الإخباري، والإبداع الفنّي، والجمال الأُسلوبي، والإثارة التي تجمعُ ــ عادةً ــ بين الحقيقة التّاريخية والرؤى الأَدبيّة.

وتدوين الرّحلة يكون:

ـ تسجيلاً لذكريات شخصية، ورصداً لرؤية الرّحالة في ما حوله من أُمور الحياة، وحكايةً لما يرى في بلاد الله الواسعة؛ وقد نجد أثر هذا في عنوان الرّحلة نفسها، فقد سمّى ابن جبير رحلته بـ (تذكرة بالأخبار عن عجائب الأسفار)[1].

ــ ويكون تسجيل مجريات الرّحلة ممتزجاً بتسجيل مجريات الرواية عن العلماء، والترجمة للشيوخ الذين لقيهم الرّحّالة، وتسجيل أسماء الكتب والمرويات التي تلقّاها في تطوافه؛ ونجد مثل هذا في رحلة أبي البقاء البلوي (تاج المَفْرِق بتحلية عُلماء المَشْرِق)[2].

ـ وقد تمتزج الرحلة بالترجمة الذاتيّة؛ ومثال ذلك رحلة ابن خلدون وعنوانها: (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً)[3].

---

(١) سنرجع إلى هذا الكتاب.

(٢)طبع في نشرة مشتركة بين المغرب ودولة الإمارات (منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ أبو ظبي).

(٣) هو الجزء الأخير من تاريخه، وقد طبع وحده بتحقيق محمّد بن تاويت الطنجي.

ـ على أن وراءَ الرّحلات المتوجّهة نحو المشرق هدفاً أسْمى، وهو أداء فريضة الحجّ، وزيارة قبر رسول الله ﷺ، والمسجد النّبوي، وزيارة المسجد الأقصى.

ويلاحظ قارئ الرّحلات، على امتداد الأعصر أن الخلافات المستحكمة بين الدول، في بعض الظروف، لم تكن لتمنع حركة الرحلة، أو تحول دون الوصول إلى الأراضي المقدّسة، أو تحجز عن لقاء أهل العلم، أو حركة التجارة وغيرها..

ويلاحظ حيوية الحضارة العربية الإسلاميّة، وعمق أصالة العلم، ونزاهة العلماء، واستمرار التدفق في نسغ العُلوم والآداب والفنون على الرغم من الظروف القاسية أحياناً...

وقد أدّت الرحلات مهمّات جليلة: فهي وصلت بين المشرق والمغرب، وعقدت الأواصر العلمية والثقافية بين هذين الجناحين، وعرّفت الأندلسيين والمغاربة بالطرق والمسالك والممالك والمدن، وقرّبت بين اللّهجات، ونقلت العادات والتقاليد في ما بين البلدان شرقاً وغرباً، وعرّفت بعدد من جلّة العلماء ـ وقت تدوين الرّحلة ـ.

ـ وأول من يُذكر من رحالة الأندلس يحيى بن حكم الغزال[1]، فقد قام برحلتين: إلى بلاد النورمانديين، وإلى القسطنطينيّة. وليس لدينا إلا أخبارٌ عن هذه الرّحلة، وطرائف تدلُّ على ذكاء ذلك السّفير الرّحّالة وخبرته الدبلوماسيّة.

ـ وفيهم أحمد بن عمر العُذري الدلائي (ت ٤٧٨ هـ)، صاحب كتاب: (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البُلدان، والمسالك إلى جميع الممالك)، نشر الدكتور عبد العزيز الأهواني قطعاً باقية. وقد بيّن المحقق في مقدّمته أنه في أصله شامل للممالك الإسلامية؛ والباقي منه قطعٌ عن الأندلس ومصر والشام.

(١) له ترجمة في هذا الكتاب.

- وفيهم ابن سعيد (أبو الحسن علي بن سعيد ٦١٠؟ ــ ٦٨٥؟ هـ)، وألّف كتاباً سمّاه: (النفحة المسكية في الرحلة المكيّة) بقيت منه نقول يسيرة.

- وفيهم أبو حامد الغرناطي (محمد بن عبد الرحيم القيسي)؛ وله أكثر من كتاب في غرض الرحلة منها: (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب).

ويعدُّ كراتشوفسكي في تاريخ الأدب الجغرافي أبا بكر بن العربي أوّل مَن وضع الأساس لفنِّ الرِّحلة في الأندلس[1].

على أن أشهر الرّحالة الأندلسيّين هو ابن جُبَيْر.

رحلة ابن جُبَيْر[2]:

مؤلف هذه الرّحلة أبو الحسين محمد بن جُبَيْر الكناني (٥٤٠ ــ ٦١٤ هـ)، ولد في بلنسبة. وتلقى علومه في مدن شرق الأندلس، واستقرّ كاتباً عند حاكم غرناطة: أبي سعيد بن عبد المؤمن الموحّدي.

وكان لابن جبير ثلاث رحلات: قام بالرّحلة الأُولى بقصد أداء الفريضة سنة ٥٧٨، ومكث في رحلته إلى أن عاد سنة (٥٨١ هـ).

ولما فتح صلاح الدّين الأيّوبي القدس (رجب ٥٨٣ هـ) رحل ثانيةً وزار القدس، وهنّأ صلاح الدّين بشعرٍ بقي بعضُه، وضُمّ إلى مجموع شعره.

وخَرج ثالثة بعد وفاة زوجته، فقصد إلى الديار الحجازية، وحجّ، وزار، ثم استقرّ في الإسكندريّة، التي كانت مستقرّ كثير من علماء الأندلس، حتى وفاته سنة (٦١٤ هـ).

وابن جبير كاتب ديوان، مترسّل، وأديب شاعر، وفقيه من أهل العلم، وقد جُمع الباقي من شعره في مجموع صغير.

---

(١) الجزء الأول: ٢٩٨

(٢) تنظر دراسة د. محمد مصطفى زيادة عن رحلة ابن جبير المطبوعة مع دراسة أُخرى عن رحلة ابن بطوطة (مطبعة لجنة التأليف والنشر، بالقاهرة ١٩٣٩).

ورحلةُ ابن جُبَيْر المدوّنة هي تسجيل لأحداث رحلته الأُولى التي سمّاها: (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار).

وقد تحدّث الجغرافيون، والأُدباء، عن قيمة هذه الرحلة، وذكروا خصائصها وأُسلوب الكاتب فيها؛ وقوّموها أدبيّاً:

من الناحية الجغرافيّة والاجتماعية، فالرحلة تعدُّ ((من عُمد العِلم الجغرافي، فإن ابن جُبَير يحتلّ عن جدارة مكاناً صَدْراً في تاريخ الجغرافية في الأندلس على هذا الأساس، وإن لم تكن مادة كتابه جغرافية صِرْفاً، بل إن التاريخ والآثار هما الغالبان...))(١).

وقوّم د. ضيف الرحلة من الناحية الأدبية فقال: إنها كُتبت بلغة سهلة بسيطة ملائمة تماماً لموضوعها؛ وطريقته في السّرد محبّبة إلى النفس وهو يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً(٢).

والحقيقة أن ابن جبير كتب رحلته بالأسلوب السهل المرسل الخالي من الصَّنعة والزُّخرف والتوشية في معظم تلك الرّحلة، غير أنّه استعمل السَّجع شيئاً قليلاً، كالكلام الذي قاله عند رؤيته دمشق أوّل ما رآها. وكأنه أراد أن يُثبت للقارئ أنه قادر على انتهاج الأسلوب الشائع السائد عند المجوّدين آنذاك في كتاباتهم الأدبية؛ قال عند وصفه مدينة دمشق وما يكتنفها ويحيط بها من الغوطة الغناء:

((جَنّة المَشْرِق، ومطلع حسنة المونق المُشْرِق. وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استَقْرَيْناها، وعروس المدن التي اجتليناها؛ قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسيّة من البساتين؛ وحلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزيّنت في منصّتها أجْمَلَ تزيين... ظل ظليل وماء سلسبيل؛ تنساب مَذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل؛ ورياض يحيي النفوس نسيمُها العليل...)).

(١) الجغرافية والجغرافيون... د. حسين مؤنس: ٤٣٨

(٢) الرّحلات (سلسلة فنون الأدب العربي).

فهذا من الأسلوب المنمّق، المحسّن والمؤنّق، الذي تكتنفه الصنعة، وتزينه السّجعة؛ ويخرج عن الإرسال إلى التقييد، وعن البَساطة إلى التجويد...

ومن رحلته في وصف حمص، سالكاً طريقه إلى دمشق:

وتجدُ في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بُعد، في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها، بعضَ شبهٍ بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس، يقعُ للحين في نفسك خيالُه، وبهذا الاسم سُميت في القديم، وهي العلة التي أوجبت نزول الأعراب أهل حمص فيها حَسبما يُذكر. وهذا التشبيه وإن لم يكن بذاته، لمحةٌ من إحدى جهاته.

فأقمنا بها يوم الأحد المذكور ويوم الإثنين بعدَهُ، وهو الثاني ليوليو، إلى أول الظهر. ورحلنا منها، وتمادى سيرُنا إلى العشيّ، ونزلنا بقريةٍ خربةٍ تُعرف بالمشعر، فعشّينا بها الدّواب ثم رحلنا عند المغرب، وأسرينا طول ليلتنا، وتمادى سيرُنا إلى الضُّحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور، ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تُعرف بالقارة، ليس فيها من المسلمين أحد؛ وبها خانٌ كبير كأنه الحِصنُ المشيد، في وسطه صهريج كبير مملوءٌ ماءً يتسرب له تحت الأرض من عينٍ على البعد، فهو لا يزال ملآن.

فأرحنا بالخانِ المذكورِ إلى الظهر، ثم رحلنا منه إلى قرية تعرف بالنبك، بها ماءٌ جارٍ ومحرث متّسع، فنزلنا بها للتعشية. ثم رحلنا منها ـ بعد اختلاس تهويمةٍ خفيفة ـ وأسرينا الليل كلّه، فوصلنا إلى خان السلطان مع الصباح. وهو خانٌ بناه صلاحُ الدين صاحبُ الشام، وهو في نهاية الوثاقة والحُسن بباب حديدٍ على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها، واحتفالهم في تشييدها وفي هذا الخان ماءٌ جارٍ يتسربُ إلى سقايةٍ في وسط الخان كأنها صهريج، ولها منافسُ ينصبُّ منها الماءُ في سقاية صغيرةٍ مُستديرة حول الصهريج ثم يغوص في سربٍ في الأرض.

والطريقُ من حمص إلى دمشق قليلُ العمارة، إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة، منها هذه الخانات المذكورة. فأقمنا يوم الأربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور مُريحين ومستدركين للنوم إلى أول الظهر، ثم رَحلنا وجزنا بثنيةِ العُقاب، ومنها يُشرف على بسيطِ دمشق وغوطتها، وعند هذه الثنية مفرقٌ في طريقين: إحداهما التي جئنا منها، والثانية آخذةٌ شرقاً في البريّة على السّماوة إلى العراق. وهي طريقٌ قصدٌ، لكنها لا تُدخَلُ إلا في الشتاء، فانحدرنا منها بين جبالٍ في بطنِ وادٍ إلى البَسيط، ونزلنا منه بموضع يُعرف بالقصير، فيه خانٌ كبير، والنهرُ جارٍ أمامه. ثم رحلنا منهُ مع الصُّبح، وسرنا في بساتين متصلة لا يوصفُ حُسنها، ووصلنا دمشق في الضحى الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الأول، والخامس ليوليو، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

شهر ربيع الآخر

استهلّ هلالُه يوم الأربعاء بموافقة الحادي عشر ليوليه، ونحن بدمشق نازلين فيها بدارِ الحديث غربيِّ جامعها المكرّم.

ذكر مدينة دمشق، حرسها الله تعالى

جَنةُ المشرق، ومطلعُ حُسنه المؤنقِ المشرق، وهي خاتمةُ بلادِ الإسلام التي استقر بناها، وعرُوسُ المدنِ التي اجتليناها، قد تحلَّتْ بأزاهير الرياحين، وتجلّتْ في حُلل سُندسية من البساتين، وحلّت من موضع الحسن بالمكان المكين، وتزيّنت في منصّتها أجمل تزيين، وتشرّفت بأنْ آوى الله تعالى المسيح وأمّه، صلى الله عليهما، منها إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعين، ظلٍ ظليلٍ، وماءٍ سلسبيلٍ، تنساب مَذانبه انسيابَ الأراقم بكلّ سبيلٍ، ورياضٍ يحيي النفوسَ نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيلٍ، وتناديهم. هلموا إلى معرّسٍ للحسن ومقِيلٍ، قد سئمتْ أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظّماء! فتكادُ تُناديك بها الصُّمُّ الصّلاب: اركُض برجلكَ هذا مغتسلٌ باردٌ وشراب، قد أحدقَتِ البساتينُ بها إحداق الهالةِ بالقَمر، واكتنفَتها اكتنافَ الكِمامةِ، وامتدّت بِشرقيّها غُوطَتُها الخَضراء

امتدادَ البصر، فكلُّ موضعٍ لحظتهُ بجهاتها الأربع نضرتُه اليانعة قَيْد النَّظَر، و لله صِدْق القائلين عنها: إن كانت الجنّةُ في الأرضِ فدمشقُ لا شكَّ فيها، وإن كانت في السَّماء فهي بحيثُ تُسامِتُها[1] وتُحاذيها.

ذكر جامعها المكرم، عمره الله تعالى:

هو من أشهرِ جوامعِ الإسلام حُسناً، وإتقانَ بناء، وغَرابةَ صنعةٍ، واحتفالَ تنميقٍ وتَزيين. وشُهرتهُ المتعارَفةُ في ذلك تُغني عن استغراق الوصفِ فيه. ومن عَجيبِ شأنه أنَّهُ لا تنسجُ به العنكبوتُ ولا تَدخله، ولا تُلِمّ به الطيرُ المعروفةُ بالخُطّاف. انتدبَ لبنائه الوليد بن عبد الملك، رحمه الله، ووجّه إلى ملك الروم بالقُسطنطينيّة يأمرُه بإشخاصِ اثنَيْ عَشر ألفاً من الصُّنّاعِ من بلادِه، وتقدَّم إليه بالوَعيد في ذلكَ إنْ توقّفَ عنه. فامتثلَ أمرَهُ مُذْعِناً بعد مراسلةٍ جرَتْ بينهما في ذلك مِمَّا هو مذكورٌ في كُتبِ التّاريخ. فَشرع في بنائه، وبُلغت الغاياتُ في التّأنّق فيه، وأُنْزِلَت[2] جُدُره كلّها بفصوصٍ من الذّهبِ المَعروف بالفسَيْفساء، وخُلِطت بها أنواعٌ من الأصْبغة الغَريبة، قد مُثلت أشجاراً، وفرّعَتْ أغصاناً منظومةً بالفصوص، ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وَصْفَ كلّ واصف، فجاء يغشي العيونَ وميضاً وبصيصاً. وكان مبلغُ النفقةِ فيه، حَسْبَما ذَكره ابن المَعَلّى الأسديَ في جُزْء وَعه في ذكر بنائه، مئةُ صندوقٍ، في كلِّ صُندوق ثمانيةٌ وعشرون ألفَ دينارٍ ومئتا ألف دينار، فكان مبلغُ الجميعِ أحدَ عشرَ ألفَ ألفِ دينار، ومئتي ألف دينار!))...

ـ رحلة البلوي: (تاج المفرق بتحلية علماء المشرق)

وصاحب الرحلة من رجال القرن الثامن، وهو أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي، من أهل قَنُّورية، اشتغل بالقضاء، والعلم، والكتابة الديوانية، وكتب مدّة ـ في أثناء رحلته ـ كاتب إنشاء في تونس (٧١٣ ـ ٧٦٨ هـ).

---

(١) تسامتها: تقابلها.

(٢) أنزلت: رصّعت.

بدأ البلوي رحلته سنة (٧٣٧ هـ)، واستمرت أربع سنوات تقريباً، وكان الحج هو غرض الرحلة الرئيسي، ثم كان مع الحجّ والعمرة والزّيارة لقاء العلماء والرّواية عنهم. والأخذ عن جلّتهم في موضوعات شتى من الفُنون التي يهتمّ المؤلف بها.

وزار في رحلته بلدان المَغْرِب ومصر والدّيار الحجازيّة وفلسطين وبلاد الشّام؛ وكانت رحلةً بريّةً وبحريّة؛ وقد روى أبو البقاء البلوي ذلك كلّه من مجريات الرّحلة، ومصادفاتها؛ ومن لقاء العلماء والشيوخ والأدباء، ودوّنه بأسلوب مجوّد، مسجوع غالباً؛ ولكنه كان أسلوباً قادراً على الإفصاح والإبانة والدلالة بصفة عامة؛ ولو جرى على الأسلوب المرسل لكان كلامه أحلى وأجْلى؛ ويبدو أنه أراد مجاراة كتابة العصر التي غلبت على الرسائل الديوانية، وكثير من الرسائل الإخوانية، ودخلت أيضاً إلى المؤلفات والمصنفات كالذي نجده في تراجم كتاب (الكتيبة الكامنة في شعراء المئة الثامنة) للسان الدين بن الخطيب وغيره.

وهذه قطعة من رحلة البلوي (تاج المفرق...) تصف رحلة العودة إلى الأندلس: تبين طريقته في التدوين، والعرض، وأسلوبه في الكتابة والتّعبير؛ ويظهر للقارئ أثر الأسلوب المنمّق المسجوع، الذي قد تضيع معه أحياناً معالم الخبر، أو تفصيلاته، وتقلّ الفائدة حين تكون الحاجة ماسّة إلى معرفة الأحوال والأرقام والمجريات الدقيقة:

نزلنا بمصرٍ وهي أحسن كاعبٍ ... فقيدة مِثْلٍ زانَها كرمُ الفعلِ
فلَمْ أرَ أمضى من حسامِ خليجِها ... يلوحُ على إفرنده صدأُ الصَّقلِ
إذا سالَ لابل سُلَّ في متهالكٍ ... من الأرضِ جدبٍ طلّ فيه دمُ المحلِ!
غداةَ جلا تِبرَ الشُّعاع مُتونه ... ولا شكَّ أن الماءَ والنارَ في النصلِ
ولا مثلَ أعطافِ الغصونِ كأنّها ... شمائلُ معشوقٍ تثنّى منَ الدلِّ
ينظَمُ تعويذاً لها سبجُ الدُّجى(١) ... وينثرُ إعجاباً بها لؤلؤُ الطّلِ!

(١) السبج: الخرز السود.

ورحنا على البحر وقد سكن هائجهُ، وركن مائجهُ؛ وأقبلت الزوارق تهفو بقوادم غربان. وتعطو بسوالف غزلان، تخالها في سمائه أهلةً مكسوفة، وتحسبها فوق مئة جريدة دهم مصفوفة! وزورقنا بينها يسرع في اندفاعه. وقد استدرنا تحت ظل شراعه فحسبته خوف العواصفِ طائراً مدّ الحنان على بنيه جناحه، وما برحنا نسرع سفراً، ونسير نفراً، ونرتشف من ماء النيل كوثراً، ونتجلى من حبابه زُهراً، ومن جوانبه زَهراً، ونتبوأ من جناته منازل فتحت أبوابها فدخلناها زمراً، وأنشدتها حين ودعتُها:

وفتحت أبواب السُّهادِ لناظري وجعلت ليلي بالنُّجومِ مُسمّرا!

إلى أن وصلنا إلى (فوهة) ضحوة يوم الجمعة الثاني والعشرين لصفر المذكور وهي بلدة من أحسن بلاد ذلك الساحل مرأى وأخصبها مرعى، وأملحها مرسى، وأمنحها أنساً وأينعها روضاً، وأنفعها أرضاً...)) إلخ.

فأقمنا بها بُرهةً ثمَّ، قطعنا النّيل أمامها عشيّة، وسِرنا في الخليج راكبين بينَ جنّاتٍ مَعْرُوشات وغيرِ مَعْرُوشات، وبلدانٍ مُوشَّاةٍ بالبطاح منقوشات، وروضات هي مَرتعُ النواظر، ومتنفَّس الخواطر. قد أخذت أدواتِ الجنان، وضحكنْ عن العبقريّ الحِسان. وأتت من الحسن والإحسان بما يقصر عن وصفِهِ لسانُ القلَم وقلمُ اللّسان. إلى أن وصلنا الإسكندرية فدخلناها في صبيحة يوم الأحد الرابع والعشرين لصَفر المذكور. ونزلنا بالمدرسة الموسومة بالعسمية منزلاً تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، وتسبح من حُسنه الأفواه والألسن، وأقمتُ متردّداً: هل يتسنّى لي السفرُ أم القعود؟ وهل أعودُ في البحر أم أبقى على تربتي منهُ لا أعود؟ يدبّر ابن آدم والقضاء يَضحَكُ. إلى أن تهيّأ مركبُ ابن خلاص للسَّفر إلى تونس، فلما كَمل فيه الوَسق وركب فيه الخَلق، قلت: الدخولُ فيما دَخل الناس فيه هو الحَقّ، وجعلتُ أفضَل البحر فنقرب الأوطان، ونسيتُ هوله وما أنسانيه إلا الشيطان فاستخرتُ الله تعالى وركبت فيه أنا وأخي محمد بمرسى المنار في عشي يوم الأحد ثاني يوم من شهر ربيع النبوي المبارك من عام

ثمانية وثلاثين المذكور. ثم رُفع الشراع وسرنا حتى إذا كنا بالمواسط أمر الله باجتماع الرّياح المختلفة، وتفريق تلك الأمة المؤتلفة، فضربنا في البحر يميناً ويَساراً، وسرنا إقبالاً وإدباراً، ورأينا بُروقاً وأمطاراً، وكسرنا أقساطاً وجراراً، وقَدرنا الهلاك إمّا انطماراً، وإمّا انكساراً! فلما انتهَينا إلى قريبِ طرابلس الغَربيّة بعث الله تعالى ريحاً شديدة غريبة ضربت من تجاهنا في وجوهنا، ورَدَّتنا على أعقابنا وأدبارنا، إلى أن دخلنا بها في مرسى العمارة في عشي يوم السبت الموفي عشرين لشهر ربيع الآخر من العام المذكور بعد أن كابَدنا نَصباً وعناء، وعدمنا زاداً وماء، وكَدنا نموتُ غَرقاً وجوعاً وظماء. والأخبار كلما كانت أشدّ على شاهدها كانت أطْربَ على من سَمِعها. والأسفار تُسفِرُ عن أخلاق الرِّجال، وتحولُ بالمرء في كل محال. لا جَرم أني لقيتُ بها أنجاداً وأغواراً، وظُلماتٍ وأنواراً!

والناسُ كالناس إلا أن تجرّبهم ... وللبصيرة حكمٌ ليس للبصرِ
كالأيكِ مُشتبهاتٍ في منابتها ... وإنما يقع التفضيل بالثمرِ

وهذا المرسى لّما رسَينا به قام رئيس الجفْنِ[1] المذكور، رجلٌ من الأرذلين يُلقّب بألفنش. فقال: يا قوم قد رمنا السفر فما تيسر لنا، فلا بدّ لي من الإقامة أيام الشتاء هنا على كل حال وهي ثلاثة أشهر لا محالة. فمن أراد السفر في البرّ غرباً أو شرقاً فليفعل. ثم أظهر لنا العزم من القعود، وأعطانا جميع المواثيق والعهود، وأشهد على نفسه شهود السفينة وناهيك بالشهود، وحلف باللازمة المغلظة، وأيمان الطّلاق المؤكّدة ثم رفع إلى السّماء يديه وشرع في سبِّ والديه، والدعاء بالذبح على ولديه. فهبط عند ذلك من المركب نحو المئتي رجل مشرّقين ومغرّبين:

تُقيّضُ لي من حيث لا أعلمُ النّوى ... ويسري إليَّ الهَمُّ من حيثُ أعلمُ!

(١) الجفن: المركب.

ثم قامَ فقال لي: يا سيدي حفظكَ الله، وأصلحك إني والله أحبك فوجب عليّ أن أنصحك. فقلت: وما ذاك جُعلت فداك؟ فقال: أرى أن تنزل البر لتستريح، وتُكفى هذا الماء وهذا الريح، وهنا في هذه البراري دشار يقال له العماري فَصِلْ إليه، فإنْ صلح بك أخذتَ حوائجك وعزمتُ عليك. فقلت له: لَعمري لقد نصحتَ وبيّنت وأوضحت. وعجبتُ من فضله، وشكرتُه على قوله، ولم أدرِ أنّه تحيَّل فيما تخيَّل، ومكرَ فيما ذَكر:

ومهما تَكن عندَ امرئٍ من خَليقةٍ ولو خَالها تَخفى على النّاس تُعلَمِ

فبادرتُ مُسرعاً ونهضت لا مُودّعاً، ونزلت أنا وأخي على أن نعود، ونرتاد حيث نلتزم القعود[1]:

وقد كان حسنُ الظّن بعضَ مَذاهبي فأدّبني هذا الزمانُ وأهلُهُ!

ابن بطوطة ورحلته:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللّواتي (نسبة إلى لواتة من قبائل البربر) الطَّنْجي؛ نسبةً إلى طنجة نسبةً إلى طنجة بالمغرب الأقصى (ولد ٧٠٣ وتوفّي ٧٧٩). وهذه الرّحلة تدخل في أدب المغاربة، غير أنَّ لهذه الرحلة خبراً طريفاً. فالرَّحالة ابن بطوطة طنجي، ألقى مجريات رحلته شفاهاً، فسمعها مع الجمهور كاتب السلطان المريني أبي عنان، وهو محمد بن محمد بن جُزَيّ الكلبي الغرناطي الأندلسي، فدوّنها بقلمه، وصاغها بأسلوبه، ولوّنها بطريقته.

وتُعدّ رحلة ابن بطوطة أعظم الرحلات المعروفة في العصور الوسيطة. وقد دُعِيَتْ هذه الرحلة باسم (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)[2] وتعدّ وثيقة مهمة لهذا العصر (القرن الثامن الهجري) في ما يخصّ الأندلس والمغرب والبلاد العربية وأقطار الإسلام في آسية وأطراف أوربة، وفي بعض البلاد الإفريقية.

---

(١) ويرجع البلوي ليجد ألفنش قد هرب بالمركب وما فيه.

(٢) طبعت مراراً. واشتهرت بعنوان: رحلة ابن بطوطة.

والرحلة في مجملها مكتوبة بقلم سَهْلٍ، مُفْصِحٍ؛ ابتعد فيه عن الصنعة والسجع والتكلّف؛ ولكنّه زيّن المقدّمة: وأوّليات وصف البلدان، بشيء من السّجع، غالباً، مجاراة لبعض الذّوق السائد.

وفي نصّ طريف سجّله حين كان في دمشق، قال:

((مررتُ يوماً ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يُسَمّونها الصَّحن، فتكسرّت، واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها وذهب الرّجل معه إليه فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصَّحن. وهذا من أحسن الأعمال...)).

وقال في مكان آخر:

((وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد، والزوايا، والمدارس، والمشاهد؛ وهم يُحْسِنون الظن بالمغاربة، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد، وكل من انقطع بجهةٍ من جهات دمشق لا بدّ أن يتأتى له وجهٌ من المعاش من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة... إلخ..)).

رحلة ابن الحاج النُّميري(*) الغرناطي:

(فيض العُباب وإفاضة قِدَاح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قُسنطينة والزّاب)

صاحب الرحلة فقيهٌ محدّث وأديب شاعر كاتب، ورحّالة أندلسيّ، هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن الحاج النميري الغرناطي. ولد بغرناطة سنة (٧١٣ هـ)، ودخل ديوان الإنشاء سنة (٧٣٤ هـ)، وطاف داخل الأندلس (٧٣٧ هـ). وقصد إلى المشرق فأدّى فريضة الحج، وطاف بالبلاد. وكثُر تردّده على البلاد المشرقية ووصلت أسفاره إلى ما وراء الشام والعراق. وروى عن عدد من العلماء الكبار مثل علم الدين البرزالي (ت ٧٣٩ هـ) والحافظ المزّي (ت ٧٤٢ هـ) والحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ).

(*) ترجمته في نيل الابتهاج ٤٤ ـ ٤٦، والوافي بالوفيات ٦/٤٠، والإحاطة ١/٣٥٠، والكتيبة الكامنة: ٢٦٠، ونثير فرائد الجمان: ٣٠٣

عدد من العلماء الكبار مثل علم الدين البرزالي (ت ٧٣٩ هـ) والحافظ المزّي (ت ٧٤٢ هـ) والحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ).

واشتهرت براعته في الكتابة والإدارة فعمل في الدّواوين، وأُعجب به سلطان المغرب أبو عنان المريني. واصطحبه معه في رحلة شملت أقطاراً كثيرة في بلاد المغرب الأقصى والأوسط والأدنى؛ وهي التي عنونها بـ (فيض العباب)[1].

وقد وصف المقّري صاحب هذه الرحلة فقال فيه: ((الشاعر المُفلق له النظم الرائق العذب الجامع بين جزالة المغاربة ورقّة المشارقة)).

ومن تأثُّره بالمشرق، وعناية المشارقة به حظي بلقب (برهان الدّين) على طريقتهم في اتّخاذ الألقاب إضافةً إلى الأسماء والكُنى.

وقد تمّت هذه الرّحلة سنة (٧٥٨ هـ)؛ بدأت في ٢٠ جُمادى الأُولى وانتهت في غُرّة ذي الحجّة.

وهي رحلةٌ سياسيّةٌ قصد منها السُّلطان أبو عنان المريني أن يوطّد سلطته ويقضيَ على فتن الأعراب التي كانُوا يقومون بها، ويُزعجون السّلطة والأَمن؛ ومع الهدف السياسي كان للرّحلة جوانب اجتماعية وثقافية متعدّدة.

وكانت الرّحلة ـ إضافة إلى غرض الوصف العام وتسجيل الوقائع ـ معرضاً للقاء الشخصيات العامّة، ولقاء الأدباء والشعراء والفقهاء. وكانت الرّحلة معرضاً لوصف مشاهدات كثيرة من الآثار والعمائر القديمة ومن كل ما يلفت النّظر ويجلب الاهتمام.

وقد غلب الأسلوب المسجوع على لغة هذه الرّحلة فكان لا يحيدُ عنه ((لا في الخبر ولا في الحكاية ولا في الوصف وتحليل المواقف، ولا في مديح أبي عنان والدولة المرينيّة))[1].

---

(١) صدر هذا الكتاب في المغرب، دراسة وإعداد د. محمد بن شقرون، دون تاريخ ودون اسم الناشر أو مكان الطبع.

((... وفي يوم الجمعة المذكور كان نزولنا بعيون القصب، ولا عين إلا وقد قَرّت، ولا صدرَ إلا وقد أناخت به المَسرّات واستَقَرّت. وبينما مولانا ـ أيّده الله ـ في مجلسِ مُلكه، ونحن بين يديه وأبصارنا مُحدقة إليه، وهو متفكّر في أحوال مَنْ بالشّرق من البُغاة الذين شَهرُوا سيوف الفتن، وأجنفوا[1] عن النهج الواضح والسَّنن، والحُسّاد الذين خَبُثت بطانتهم وظهارتهم، وعَظُمت للحرب العَوان إثارتهم. إذا بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني قد وصَل إلى الباب الكريم، ووفدت منه خزانةُ آداب هي أبدع من الدُّر النَّظيم، فتناول ـ أيّده الله ـ منه سِفْراً، وفتحه على وجه التفاؤل الذي أبْقى في بطون الأوراق ذِكراً، فلم تقع عينُه الكريمة إلا على هذين البيتين؛ وهُما من قصيدة لأعشى هَمْدان وهي هذه:

بِجُنْد أمير المؤمنين وخيله ... وسُلطانه أضحى مُعاناً مؤيّدا

لِيَهْنِ أميرَ المؤمنين ظهورُه ... على أمّة كانت طغاةً وحُسّدا

فشكر الله على ذلك مولانا الذي رحم الله به البُلدان، وزاد إمضاءً لعزائمه التي ظاهرت الإسلام والإيمان.

وكان بالبساط الكريم[2] الشّيخ الفقيه العدل الأديب أبو محمد البرطال أحد شهود البيت، فأنشد ارتجالاً مبلّغاً بالسّرور آمالاً:

تهنَّا بزجرٍ يا خليفة رَبّنا ... يبلّغك المقصود والله فأحْمَدا[3]

وعلى أثر ذلك تسابق الأصحاب في ميدان النَّظم والتّوطئة بقصائد هذين البيتين اللذين أحييا للإجادة أوضح الرّسم؛ فأتوا في ذلك بقصائد تفتّحت عن كمائم الأفكار زهراً، وطلعت بسماءِ القراطيس زُهراً[4]، وثنت قُدود الأقلام

---

(١) أي حادوا ومالوا.

(٢) يعني في حضرة السلطان أبي عنان.

(٣) يطلب إليه التفاؤل بالخير من ذلك الشعر الذي صادفه.

(٤) أي كالكواكب المشرقة المضيئة.

وقد كادت تميل سكراً. فممّا حضرني الآن من ذلك قول الفقيه الحسيب الكاتب البارع المُجيد أبي عبد الله العزفي:

لك السّعدُ بالآمال أصبحَ مُسعدا فلا زلتَ تعدُو كلّ حين على العِدا
وعلياك شمسٌ قد أنارت فطالما بها أوضحَ اللهُ السبيلَ إلى الهدى
سريتَ بحزم تنشرُ العدلَ في الورى وتطوي بساطَ الجَوْر ممّن قد اعتدى
إلى وطنِ الأعرابِ في الشّرق كي تُرى تَصُدّ الذي منهم لظلمٍ تعمّدا[1]
وظل لسبلِ الحَجِّ بالجَوْرِ قاطعاً فضلل عن ذاك السبيل من اهتدى
وبالعسكر الجرار دوخت أرضهم فملكتها بالبأس فيهم وبالندى
إلى وطن قد كان بالجور خالياً فأصبحَ معمورَ النّواحي ممهّدا
ولّما أخافوا السّبل يَمّمت أرضَهُم وصَيَّرت حربَ القوم فرضاً مؤكّدا
فراعَتْهُمُ تلك الكتائبُ إذ أتت تجرُّ قناةً أو حساماً مهنّدا
وجاؤوكَ أفواجاً يرومون بيعةً فَمُدّ بعون الله للبيعةِ اليَدا
بجندِ أمير المؤمنين وخيله وسلطانه أمسى مُعاناً مؤيّدا
ليهنِ أميرَ المؤمنين ظهورُه على أمّةٍ كانت بغاةً وحُسّدا!

وقال الفقيه البارع الشاعر المُجيد أبو العباس بن عبد المَنّان:

إليكَ وإلاّ لا طوى الركبُ فَدْفدا عليكَ وإلاّ ما الثناء مردّدا؟
وعنك وإلا ما المآثِرُ والعُلا ومنكَ وإلاّ ما المواهبُ والجَدا
أ (فارس) يا أعلى الملوك مناقباً وأعلاهمُ كعباً وأطولهم يدا
ملكت فأوسعتَ البلادَ وأهلها أماناً ومَنّاً بالحماسةِ والنّدى...

وقال الفقيه العدل الكاتب أبو العباس بن النعمان:

---

(١) يلتقي هذا الشعر مع غرض السلطان من حَمْلته السياسية والديبلوماسية والإدارية من ضبط شؤون البلاد والعباد، وخاصّة عدم انضباط أعراب المناطق الشرقية.

دعتك لنصر الدين عاديةُ العدا ... على أمّةٍ تدعوكَ مولىً وسيّدا
تمدُّ يدَ الآمال ترجو تخلُّصاً ... وقد نشبت في حبل مَنْ جارَ واعتدى
بها ظمأٌ للعدل لِمْ لا ولم تَرِدْ ... على بُعدها من عدلك الدهر موردا
لك الفضلُ إن أوليتَها نيل ما رَجَتْ ... وأنفذتَ سهماً للأعادي مسدّدا

وقال مؤلف الكتاب إبراهيم بن عبد الله بن الحاج قصيدة أوّلها:

سرى وعيونُ الشّهب تشكو التّسهُّدا ... خيال على الأكوار قد زار مُكْمَدا
وما راعَهُ إلاّ الصّباحُ كأنّه ... حسامٌ بغِمْدِ اللّيل قد كان مُغْمَدا
وومضةُ بَرْقٍ أَلْبَسَ الخدَّ فضةً ... من الدّمع لَمّا ألبسَ الأُفق عسجدا

وهكذا كانت الرحلة معرضاً لمجريات أَحداثها السياسية والدبلوماسية والإدارية، كما كانت مجالاً لرصد مداولات السّلطان أبي عنان مع الوُلاة والقادة، وزعماء الناس؛ وتسجيلاً لمجريات لقاء العلماء والأدباء والشّعراء. وهذا كلّه يعكس صورة الحياة العامّة من جهة وحركة الأدب والشعر والثقافة من جهة أُخرى.

القلصادي[١] :

تحدّث العلامة التونسي ابن عاشور عن هجرة العلماء الأندلسيين في أواخر زمان العرب والمسلمين في الأندلس فقال: ((كان علماء الأندلس لشعورهم بسوء العاقبة يعملون في الهجرة إلى ما جاورهم من بلدان، وكان مقصدهم من ذلك تلمسان والمغرب الأقصى ثم إلى تونس. وبدخول رحّالة الأندلس أصبحت هاته الأقاليم وارثة العلوم الأندلسية)). ولا شكَّ في أن عدداً من المهاجرين الأندلسيّين وصلوا إلى برِّ الشام ومصر. وإن كانوا في تلك المدّة أقل بكثير ممن قصد إلى الديار المغربيّة.

---

(١) راجع مقدمة تحقيق كتابه (تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب) المعروف برحلة القلصادي. وقلصادة هذه قرية قريبة من غرناطة، لعل أصله منها فنسبت أسرته إليها.

ومن هؤلاء المهاجرين: الرّحالة الأندلسي العالم الرياضي أبو الحسن القلصادي المتوفى سنة (٨٩١ هـ) قبل سقوط غرناطة بست سنوات فحسب، والمولود سنة (٨١٥ هـ) أو قبلها.

ـ وهو أبو الحسن علي بن محمد القُرَشي البسطي، الشهير بالقلصادي. ولدَ بمدينة بسطة (في الشمال الشرقي من غرناطة) وفيها تلقى علومه الأولى. وكان يتردّد على غرناطة عاصمة دولة بني الأحمر. التي حكمت الأندلس الباقية.

وقد رحل سنة (٨٤٠ هـ) إلى تلمسان فأقام ثماني سنوات، ثم أقام بها قريباً من سنة بعد عودته من الحج. وأقام بتونس سنتين بعد إقامته في تلمسان، واستقر بها سنة أخرى في عودته من رحلته المذكورة. وأقام بمصر في عودته أيضاً أكثر من سنة، ثم استقر بغرناطة بعد غياب استمر نحو خمس عشرة سنة، واشتغل بالتعليم والتأليف على رغم ظروف غرناطة القاسية آنذاك بسبب اشتداد حرب الاستغلاب؛ واشتداد الخلافات الداخليّة[1].

ورحل ثانية إلى الأندلس على نيّة الإقامة الدائمة في (باجة) من الديار التونسية وكان ذلك نحو (٨٨٨ هـ)، وقد يئس من صلاح الأحوال، وبعد أن أبلى مع جمهرة الفقهاء في رفع الخلافات الداخلية، والتشجيع على القتال والإسهام فيه.

ـ وتوفي القلصادي بعد سكناهُ باجة بسنوات قليلة (سنة ٨٩١ هـ). وله مؤلفات كثيرة في علوم شتّى.

ـ ورحلة القلصادي تعتمد على الإيجاز، والبعد عن الجزئيات، وهو لا يتوسع في ذكر الأحداث ووصف البلدان وأحوالها. فجاءت رحلته قصيرة مختصرة.

---

(١) راجع مثلاً: (آخر أيام غرناطة) أو: نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر لمؤلف أندلسي من القرن الهجري التاسع ـ طبع دار حسان ـ دمشق.

وصف مدينة بسطة:

((ثم ارتحلتُ عن مسقط رأسي، ومحلّ أنسي، مع أبناء جنسي بَسطة سقى الله أرجاءها المشرقة وأغصانها المورقة شآبيب الإحسان، ومهّدها بالهدنة والأمان: دارٌ تخجل منها الدُّور، وتَتَقاصرُ عنها القُصور، وتقرُّ لها بالقصور مع ما حَوتهُ من المحاسن والفضائل، من صحّة أجسام أهلها وما طُبعوا عليه من كَرَم الشّمائل، هوائها الصحيح، وفضائها الفسيح، وبحسبك فيها عَدمُ الحرج، لأن داخلها باب الفرج[1] .

ولذلك قال فيها ابنُ الخطيب: إنها محلّ خَصيب، ومنزلُ حبيب، وكفاها بمسجدِ الجنة دليلاً على البركة، وباب المسك دليلاً على الطيب، ولها من اسمها نصيب، إذ هي بحر الطعام وينبوع العيون المتعدّدة بعدد أيام العام:

دارٌ مشى الإتقانُ في تنجيدها ... حتى تناسَب روضُها وبناؤها
مرموقةُ الجَنباتِ ذاتُ قرارةٍ ... يمتدُّ قدّام العيونِ فضاؤها
ما زال يضحكُ دائماً نُوّارُها ... في وجهِ ساحتِه ويلعبُ ماؤها

ولبعضِ أصحابنا فيها، الأديب الكاتب ابن الأزرق[2] :

في بسطةٍ حيث الأباطحُ مشرقةْ ... أضحت جُفوني بالمحاسنِ معلقةْ

وله أيضاً في تورية:

قل لمنْ رامَ النّوى عن وطنٍ ... قِبلةً ليس بها من حرَجِ
فرّج الهمَّ بسُكنى بَسْطةٍ ... إنْ في بسطةَ باب الفَرَجِ

---

(١) مفهوم أن (باب الفرج) أحد أبواب المدينة، ومواضعها.

(٢) ابن الأزرق هو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي الأصبحي الغرناطي المالقي. نشأ بمالقة مسقط رأسه وبها تعلم، كان ممن أخذ عنهم أبو إسحاق إبراهيم البدوي وأبو عمرو محمد بن منظور، وأبو إسحاق إبراهيم بن فتوح، وأبو عبد الله محمد السرقسطي وغيرهم. وتولى القضاء والسفارة وكان يدرس ويفتي - من أشهر مؤلفاته (شفاء الغليل في شرح المختصر الخليلي) و (بدائع السلك في طبائع الملك). وتوفي بالقدس سنة (٨٩٦ هـ) ودفن بها.

وبعد ذلك صار يعرض لي قولُ القائل:

كـانَتْ لنـا أعـوامُ وصْـلٍ بـالحِمَى فكأنّهـا مـن طيبهـا أيّـامُ
ثـم انثنـتْ أيـامُ هجـرٍ بعدَهـا فكأنّهـا مـن طولِهـا أعـوامُ
ثـم انقضَـتْ تلـك السّنون وأهلُهـا فكأنّهـا وكـأنّهمْ أحـلامُ

[الارتحال إلى تلمسان ووصفها]:

وذلك عام (٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦ ـ ١٤٣٧ م)، وجعلت كلّما لاح بارقٌ ارتحتُ إليه، أو ذرّ شارق سلمت من البعد عليه، إلى أن ركبت البَحْرَ من المُنَكّب[١]، وسَهلَ اللهُ أمرَنا في ذلك المركب، فحللنا بوَهران[٢]، وأقمنا بها أياماً في سُرورٍ وأمان؛ ثم توجّهنا إلى المقصودَةِ بالذات، المخصوصة بأكمل الصفات: تلمسان[٣]، ياها من شان؛ ذات المحاسن الفائقة، والأنهار الرائقة، والأشجار الباسقة، والأثمار المحدقة، والناس الفضلاء الأكياس، المخصوصين بكرم الطباع والأنفاس، ولا يُنكر وجود الفاذّ[٤] من جميع الأجناس، وأدركت فيها كثيراً من العُلماء، والصلَحاء والعُبّاد والزُّهّاد، وسوقُ العِلم حينئذٍ نافقة، وتجارةُ المتعلمين والمُعلمين رابحة، والهِممُ إلى تحصيلهِ مُشرفة، وإلى الجدّ والاجتهاد فيه مُرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعِلم على أكثرِ الأعيان، المشهودِ لهم بالفصاحةِ والبيان...))

(١) المنكب: مرفأ ساحلي مرتفع في جنوب شرقي الأندلس بمقاطعة غرناطة. وهو أقرب مرفأ إلى غرناطة.
(٢) وهران بفتح أوله وسكون ثانيه، وآخره نون: مدينة على ضفة البحر ببلاد المغرب (في القطر الجزائري).
(٣) تلمسان بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة: مدينتان متجاورتان مسورتان. كانت مركزاً علمياً وحضارياً أيام ملوكها من بني عبد الوادي.
(٤) الفاذ: الشاذ ـ يقال كلمة فاذة: شاذة.

الفصل الرابع

تَراجِم أنْدَلُسِيّة

يحي بن حَكَم الغزال ٢٨٩

سعيد بن جودي السعدي ٢٩٥

ابن عبد ربه القرطبي ٣٠٠

ابن زيدون ٣١١

ابن خفاجة ٣٣١

ابن أبي الخصال ٣٤٢

أبو البقاء الرندي ٣٥٦

لسان الدين بن الخطيب ٣٦٧

يحيى بن حكَم (الغَزال)*

(١٥٦ - ٢٥٠ هـ)

١ - هو يحيى بن حكم، البَكْري، الجَيّاني[١]، المشهور بلقب الغزال. فالبكري نسبة إلى أصله العربي، والجيّاني نسبة إلى مدينة جَيّان التي ينتمي إليها وإن كانت سكناه في قرطبة. والغزال لقب لزمه لحسنه، وجماله الذي حافظ عليه إلى زمان متأخر من حياته.

وكان الغزال ذكيّاً، ألمعيّاً، حاضر البديهة (وهذا يفسّر قدرته على ارتجال الشعر)، وكان جريئاً صريحاً يقول ما يعتقده، ويصرّح بما يجول في نفسه، ومن هنا برز في ديوانه شعر النقد الاجتماعي والهجاء والتّعريض.

وكان الغزال مثقّفاً ثقافة واسعة في العلوم العقلية والعلوم النقليّة. وقد وُصِف بالعرّاف لخبرته في علم النجوم.

وقد كان مُقَرَّباً إلى البيت الأمويّ، فتولى عدداً من الأعمال، وذهب سفيراً إلى بلاد المَجُوس، وإلى القسطنطينيّة[٢].

وهناك خبر عن رحلة للغَزال إلى المشرق، وليس بين أيدينا تفصيلات عنها.

---

* يُنظر ديوانه (مجموع شعره)، ومقدّمتنا لدراسة حياته وشعره (الطّبعة الثانية - دار الفكر - دمشق ١٩٩٣).

(١) تنظر ترجمته في المقتبس (تح الدكتور محمود علي مكي) ١١ - ١٣، وجذوة المقتبس ٣٥١، وبغية الملتمس ٤٨٥ - ٤٨٦، والمغرب في حُلى المغرب ٢/٥٧، والبيان المغرب ٢/٩٣، ونفح الطيب ٢/٢٥٤ - ٢٥٦، والمطرب من أشعار أهل المغرب ١٣٢، ويتيمة الدهر ٢/٥٦

(٢) هناك تفصيل لخبر سفاراته في مقدمة الدّيوان ١٥ - ١٧

- واختلف في بلاد المجوس أهي الدانمارك أم إيرلنده، وهما من مناطق نفوذ النّورمانديين.

٢ - شعر الغزال الباقي يدل على نظمه في أغراض شتّى، فيها الغزل، والهجاء، والمدح، والوصف، والحكمة والتأمّل في شؤون الحياة، وتبرز مقدرة الشاعر على معالجة النّقد الاجتماعي في موضوعات مختلفة.

- والهجاء - والتّعريضُ فَرْعٌ لاحقٌ به - من أغراض الشاعر البارزة في شعره الباقي.

ومن يراجع شعر الغزال يتنبّه إلى أن الهجاء عنده - في ما بين أيدينا منه - موظّف في قضايا اجتماعيّة غالباً. فقد هجا المغني (زرياب) بشعر لم يصل إلينا. وعدداً من ذَوي المكانة والسُّلطة كالقائد ابن أبي العطاف لهروبه من بعض الوقائع، ونَصْر الخصيّ، والقاضي يُخامر (لغفلته) وبعض عُدول القاضي يُخامر...

ويظهر للمتابع أنّ الغزال لم تكن له مع هؤلاء وأمثالهم قضايا شخصية، ولكنه كان يعالج حالات عامّة أو ينتقد ظواهر محدّدة[١].

- ويبرز في شعره عنصر النقد الاجتماعي مثل الغنى والفقر، وعلاقة الرجل بالمرأة، وألعاب التسلية التي لا هدف لها، واختلط نقده الاجتماعي بالسخرية اللاّذعة، والدّعابة.

- وفي شعر الغَزال الباقي قطع غير قليلة تتعلّق بحياته من سفر وغُربة، ومن طُول الزمان الذي عاشه فتقلّبت به الأحوال مع أمراء خمسة حكموا الأندلس، ومع أجيال متوالية تمرّ به وهو ثابت كشجرة زيتون عتيقة.

ومن هذا الشعر المعبّر، قصيدة على بحر الرجز (أُرجوزة) يقول فيها[٢]:

(١) يلاحظ أن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ترجم للغزال في (شعراء الهجاء) انظر كتابه عن الأندلس في سلسلة تاريخ الأدب العربي ٢٣٠

(٢) الديوان ٤٧ - ٤٨

تَسـأَلني عـن حـالتي أمُّ عُمَـرْ
وهـي تَرى مـا حـلّ بـي مـن الغِـيَرْ (١)
ومـا الَّـذي تَسـأَلُ عنـهُ مـن خَـبرْ
وقـد كَفاهـا الكشـفُ عـن ذاكَ النَّظـرْ
ومـا تكـونُ حـالتي مـع الكِـبَرْ
اربـدَّ مـني الوجـهُ وابيـضَّ الشَّـعرْ (٢)
وصـار رأسـي شُـهرةً مـن الشُّـهَرْ
ويَبسـت نضـرةُ وَجهـي واقْشَـعَرْ (٣)
ونقـصَ السّـمعُ بنقصـان البَصـرْ
وصِـرْتُ لا أنهـضُ إلاّ بعـدَ شَـرّ
لـو ضـامني مَـنْ ضـامني لم أنْتَصِـرْ (٤)
فـانظُرْ إليّ واعتـبرْ ثـمّ اعتـبرْ
فـإنَّ للحليـمِ فيَّ مُعْتَـبَرْ! (٥)

فهذه صورةٌ تجمع بين تصوير الظاهر الخارجي لرجل تقدمت به السنّ جداً؛ وبين التصوير الداخلي الذي يفسّر الشكوى، ويقدم لها الأسباب والعلل. والقصيدة تدلّ على طبيعة شخصية الغزال: الواضحة، والواقعيّة. وهي صورةٌ مرسومة بيد صاحبها الذي يسوق الكلام بين الحقيقة الماثلة (الصعبة) وبين الدُّعابة المرحة أيضاً.

وتبلغ السخرية مداها حين يتصوّر كيف سيعامله أقاربه بعد موته! لقد استطالوا حياته، وخلّف جيلاً بعد جيل حتى جاء من أهله وذويه من لا ينسجم

(١) الغير: هي غير الدهر وأحواله وحدثانه المتغيّرة.
(٢) اربدّ من الرُّبدة وهي الكُدرة. ويكون ذلك من غضب؛ وأراد هو أثر كبر السنّ.
(٣) اقشعرّ الجلد: قفّ وتقبّض.
(٤) ضامه حقه، وضامه في حقه: نقصه إياه وظلمه.
(٥) الحليم: العاقل (يريد من ينتفع بأحوال غيره).

معه (لاختلاف السنّ والمشرب والاهتمام). وانظرْ إلى آخر بيت، وصورته الحركيّة: التي تنضح أسىً، ولا تخلو من تخيّل ابتسامة استغراب!

قال[١]:

أصبحتُ والله مَحسُوداً على أمدٍ … مِن الْحَياةِ قصيرٍ غيرِ مُمتدِّ
حتّى بقيتُ بحمدِ الله في خَلَفٍ … كأنّني بينهمْ من خَشيةٍ وَحْدي
وما أُفارقُ يوماً مَنْ أُفارقُه … إلا حسبتُ فراقي آخِرَ العهدِ
انظرْ إليَّ إذا أُدرجتُ في كَفَني … وانظرْ إليّ إذا أُدرجتُ في اللّحدِ
واقعدْ قليلاً وعاينْ مَنْ يُقيم مَعي … ممّن يُشيّعُ نَعشي مِن ذوي وُدّي
هيهاتَ كُلّهُم في شأنِهِ لعِبٌ … يَرمي التّرابَ ويحثوهُ عَلى خَدّي![٢]

وهذه صورةٌ أخرى[٣]، ولكنها - الآن - لإنسان كما يراه الشاعر؛ وهو إنسان تغلبه شهواته، ويتصرّف من وحي مصلحته الشخصية دون اعتبار لغيره: إنسان أنانيّ تكثر فيه الآفات (الاجتماعية). ولا تخلو الصورة من المبالغة:

إذا أُخْبِرتَ عن رَجُلٍ بَريءٍ … مِن الآفاتِ ظاهِرُهُ صَحيحُ
فَسَلْهُم عنهُ: هَلْ هو آدميٌّ؟ … فإنْ قالوا: نَعَمْ، فالقولُ رِيحُ![٤]
ولكنْ بعضُنا أهلُ استِتارٍ … وعندَ الله أجمَعُنا جريحُ[٥]
ومِن إنعامِ خالِقنا عَلينا … بأنَّ ذُنوبَنا ليست تَفوحُ[٦]
فلو فاحتْ لأصبَحْنا هُروباً … فُرادى بالفَلا ما نستريحُ
وضاقَ بكلِّ مُنتحلٍ صلاحاً … لنَتْنِ ذُنوبِه البَلدُ الفسيحُ![٧]

---

(١) الديوان ٤٦ - ٤٧
(٢) حثا عليه التراب: هاله.
(٣) الديوان ٤٢
(٤) فالقول ريح: لا قيمة له، لا يثبت.
(٥) أهل استتار: ستر. وجريح: مجروح أي فيه قولٌ أو طعن (يريد: لا أحد بلا ذنوب).
(٦) جعل الشاعر الذنوب كالرّائحة المُنتنة؛ ولكن من إنعام الله تعالى أنّ رائحتها لا تفوح (وفي هذا سَتْرٌ أيضاً).
(٧) انتحل الصلاح: ادّعاه وهو ليس من أهله.

تعليق: يُنظر في الغرض العام للقطعة، وفي معاني بعض الأبيات شعر لأبي العتاهية (ديوانه ٩٧) وفيه:
أحْسَنَ الله بنا أنّ ..... المنايا لا تفوحُ!

- وهذه صورة لمغنّية تقدمت بها السنّ[١]؛ ذهب رونقها، وشاهت صورتها، و لم يُحْسن لسانُ قولها. فهي - عنده - تستحق السُّخرية والوصف الضاحك:

جَرداءُ صلعاءُ لم يُبقِ الزّمانُ لها … إلا لساناً مُلِحّاً بالْمَلاماتِ[٢]
لَطمْتُها لَطْمَةً طارتْ عِمامَتُها … عن صَلْعَةٍ ليس فيها خمسُ شعراتِ[٣]
كأنّها بَيضةُ الشّاري إذا بَرقت … بالمأزقِ الضَّنْكِ بينَ الْمَشْرفيّاتِ[٤]
لها حُروفٌ نواتٍ في جوانِبها … كقسمةِ الأرض حِيزَتْ بالتّخوماتِ[٥]
وكاهلٌ كسنامِ العِيْسِ جَرَّدهُ … طولُ السِّفار وإلحاحُ القَتوداتِ![٦]

ولا شك في أنّ هذه القطعة، تؤكّد ما ينتبه إليه القارئ في سائر شعر الشاعر من ظهور موهبة التصوير، والتقاط الصُّور الغريبة، اللافتة، ومن مزج الصورة الحقيقية الواقعية بشيء من السُّخرية التي تقتضي نوعاً من المبالغة في الأشكال والأحوال والألوان.

- وهذه قطعة قصيرة تعبّر عن موقف كامل. وكان الغزال يكتفي بالقطعة، ولو كانت البيتين والثلاثة، إذا استطاع بها أن يصور الموقف أو يقدّم الفكرة.

والقطعة تتحدث عن فقيه ولاّه القاضي معاذ الشعباني على الأحباس (الأوقاف) فلم يكن نزيهاً في الحفاظ على أموال الناس بَين يديه وهي تغضّ من معرفة القاضي معاذ بالنّاس؛ وتصفه بطيب القلب وسلامة النية التي تُطمع (فقهاء السُّوء): قال[٧]:

(١) الديوان ٤٢
(٢) الْمَلامُ والملامة: العَذْلُ. ويريد الشاعر أيضاً ما وراء ذلك من الثرثرة وما يتبعها.
(٣) العمامة - في اللغة -: ما يُلَفُّ على الرّأس.
(٤) الشاري: الخارجي. والبيضة: الخوذة. وشبهها - لامعةً - بخوذة أحد الخوارج لعنايتهم بالحرب واستعدادهم وترتيب آلتهم.
(٥) لها حروفٌ نواتٍ: أصلها نواتئ بالهمزة فحذف. ولعلها نواتي على التسهيل. والتّخوم: مفصل ما بين القريتين والأرضَيْن... ولم أقف على جمع الكلمة بـ (تخومات).
(٦) القَتَدُ: خشب الرَّحْل، والجمع - في كتب اللغة -: أقتاد وأقْتُد وقُتود.
(٧) الديوان ٦٧ - ٦٨

يقــول لي القــاضي معــاذٌ مشــاورا —وولّى امرءاً— فيما يرى—من ذوي العَدْلِ—:
فديتُـكَ! مـاذا تحسـب المرء صانعــاً؟ فقلت: وماذا يفعـل الـدبُّ في النحـلِ
يــدقُّ خلاياهــا ويــأكلُ شــهدها ويـترك للذبّـانِ مـا كـان مـن فضـلِ!

لقد كان الغزال صوتاً اجتماعياً عالياً، لا يستنكف عن الجهر بالرّأي، ولا يوارِبُ، ولا يهادن، ويسمّي الأشياء بأسمائها ولو كانت التسمية جارحة. إنه يضحّي بالكياسة الاجتماعية في سبيل قول الرأي الصريح، وتقديم الصّورة على حالها ولو كانت قبيحة!

سَعيد بن جُودي
السَّعدي الإلبيريّ الأندلسي*
(نحو ٢٤٠؟ - ٢٨٤ هـ)

١ - هو أبو عثمان سعيد بن سليمان جودي السّعدي(١)؛ وينتمي في قبيلة هوازن العربيّة، من جُند دمشق الداخلين إلى الأندلس. وكان جدّه الأعلى أسباط بن جعفر السعدي من أهل العلم والفقه، وتولى قضاء إلبيرة لعبد الرحمن الدّاخل. وكان لأُسرته صلة بدولة بني أُميّة وخدمةٌ عاليةٌ فيها.

عاش سعيد بن جودي في القرن الثالث الهجري، ومات غيلةً سنة (٢٨٤ هـ) وكان بين (٢٧٧ و٢٨٤ هـ) زعيماً للدّعوة العربية ورجالها في منطقة إلبيرة وما حَوْلها. وهي الدّعوة التي تصدّى فيها العرب لجماعة المولّدين الذين انقلبوا على الدّولة، وعاثوا فيها - وخصوصاً عمر بن حفصون - والذين عادَوا العرَب، ونهَضُوا بالفِتنة ضدّهم.

---

* ينظر كتاب (سعيد بن جودي السعدي الإلبيري الأندلسي) بتحقيقنا وفيه دراسة لسيرته، ومجموع شعره. ط دار الفكر بدمشق، صدر في مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث (ط ١: ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م).

(١) انظر ترجمة سعيد بن جودي وأخباره في: جذوة المقتبس ٢١٣، والمقتبس لابن حيان (القسم الذي نشره ملشور أنطونية)، وبغية الملتمس ٢٩٤، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، الحلة السّيراء ١٥٤/١، والمغرب ١٠٥/٢، وأعمال الأعلام ٣٥، والإحاطة ٢٧٥/٤

- وإشارة إلى حياته وشعره في تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ ١٤٥/٤، تاريخ الأدب العربي - د. شوقي ضيف (الأندلس) ٢٠٦، تاريخ الأدب الأندلسي ٩٢/١، وفصول في الأدب الأندلسي ٩٥، والأدب الأندلسي ٦٠

وتقدّر ولادته بنحو سنة (٢٤٠ هـ) تقريباً، أعني أواخر حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط (ت: ٢٣٨ هـ) أو أوائل عهد الأمير محمد (حكم من ٢٣٨ إلى ٢٧٣ هـ).

وكانت أيام الأمير محمد، وابنه المنذر، وابنه الآخر عبد الله أياماً صعبة على الدولة لكثرة الفتن والثوّار وطالبي الانفصال والانعزال.

واتخذت فتنة المولّدين طابعاً شعوبياً، وأسهمت في إضعاف الدولة الأمويّة، واتجهت نحو العرب في ما يشبه حرب الإبادة والسيطرة. فقام من العرب من قاومهم؛ وفيهم سعيد بن جوذي السّعدي(١).

وقد كان سعيد فارساً بارع الفُروسية، ومحارباً عنيداً، وسياسيّاً مقنعاً. وقد تسلّم رياسة العرب في منطقته بعد وفاة سلفه سوّار بن حمدون.

وكان إلى ذلك شاعراً بارعاً وخطيباً مفوّهاً، ونقرأ في ترجمته أنه كانت تُعَدّ له عشر خصال تفرّد بها في زمانه ولا يُنكرها أحد وهي (الجود، والشجاعة، والفروسية، والجَمال، والشِّعر، والخطابة، والشدّة، والطعن، والضرب، والرّماية).

وقد وصل سعيد يده بيد الإمارة الأمويّة، وولاّه الأمير عبد الله على جُند دمشق. وانتظم سعيد في ولاة الدولة الأموية يُعين جيوشها ضدّ أصحاب الفتن، ويحارب الثائرين عليها، ويوفّر الطاعة للدولة والنظام في منطقته.

وقد دُبّرت عليه مؤامرة انتهت بمقتله سنة (٢٨٤ هـ).

٢ - وصف سعيد بن جودي بأنه كان شاعراً مفلقاً (بارعاً) وخطيباً بليغاً. ولكنْ: لم يبق لنا من شعره إلا قصائد قليلة وقطع أخرى، منها ستّ تتصل بالقضية العربية، وهي أشعار حماسيّة فيها فخر بالعرب وهجوم على المولّدين وحلفائهم، وثناء على بعض أصحابه من قادة الدعوة العربية مثل سوّار ويحيى بن صقالة. وله شيء من الرثاء، والغزل.

---

(١) انظر تفصيلاً لهذه الأحداث، ومجرياتها، في دراستنا عن الشاعر.

٣ - شعر سعيد بن جُودي الحماسيّ يستحضر المعاني العربيّة الحماسية، ويمزج بعضها ببعضها الآخر في تناسق وتسلسل، ويصف الأحداث بمقدرة شاعر بارع قادر على استخدام الأدوات الفنية، واستحضار المشاهد المتحركة، والانتقاء من الألفاظ الدالّة، الموحية، في براعة تذكّرنا بالشعراء الكبار.. ناهيك عن حرارة انفعال الشاعر بالموقف، وصدور ذلك كلّه عمّن حمل السيف يلتمع في يده وجهر بالصّوت يتردّد في حلقه...»[١].

وشخصية الشاعر ماثلة بخصائصها وخصالها في شعره، وخصوصاً في جانبه الحماسيّ.

وفي شعره الدال على القدرة والبراعة في اختيار الألفاظ، وسَوْق الأفكار من خلال العبارات المتأنية قوله[٢] وقد وقع في الأسر:

خليليّ صَبْراً راحةُ الحرّ في الصَّبْر ... ولا شيء مثل الصّبر في الكَرْبِ للحُرّ
فلا تيأسا من فرحةٍ بعد تَرْحةٍ ... وأن تبأيا باليُسْرِ من بَعْدِما عُسْرِ[٣]
فكم من أسيرٍ كان في القِدّ مُوثقاً ... فأطلقَهُ الرّحمنُ مِن حَلَقِ الأَسْرِ[٤]

- سمع سعيد بن جودي يوماً[٥] منشداً يُنشد قول أبي قيس بن الأسلت[٦]:

قد حصّت البيضةُ رأسي فما ... أَطْعَمُ نوماً غير تهجاعِ
أسعى على جُلّ بني مالكٍ ... كلُّ امرئٍ في شأنه ساعِ

فقال معارضاً على البديهة، وضمن الشطر الأخير:

(١) سعيد بن جودي ٦٠ - ٦١
(٢) مجموع شعره ٨٤
(٣) بأى الشيء: أصْلحه وجمَعه.
(٤) القِدّ: القَيْد.
(٥) سعيد بن جودي ٨٧ - ٨٨
(٦) أبو قيس من زعماء الأوس في المدينة (في الجاهلية) وكان شاعرهم وخطيبهم.

الدّرع قد صارت شعاري فما أبْسُط حاشاها لتهجاعي![1]
والسَّيفُ إن قصّره صانعٌ طوّله يومَ الوغى باعي
وما كُمَيْتي لي بمستقصرٍ إذا دعاني لِلّقا داعِ
هذا الذي أسعى له جاهداً «كل امرئٍ في شأنه ساعِ»

يقول – من باب الفخر، وتحت ظلال الحماسة والفروسية: إنّه صار حليف سلاح وربيب حروب، وصارت الدرع لباسه الذي يباشر جسده على قساوتها وشدّتها، فهو أقوى وأشدّ؛ وصارت دِرْعُه هي نفسها فراشه الذي يباشر به الأرض.

واستفاد سعيد بن جودي من معانٍ سابقة مرّ بها شعراء فرسان، كقول أحد بني مازن:

مقاديمُ وصّالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمانِ!

وقول قيس بن الخطيم:

إذا قَصُرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضاربُ!

– وله قصيدة أثنى فيها على صديقه زعيم العرب قبله سوّار بن حمدون وافتخر بشجاعته وشجاعتهم، يقول فيها واصفاً لقاء خصومهم[2]:

ولَمّا رأونا راجفين إليهمُ تولّوا سِراعاً خوف وقع المناصلِ
فسرنا إليهم والرماح تنوشُهم كوقع الصياصي تحت رهج القساطلِ
فلم يبق منهم غيرُ عانٍ مصفّدٍ يقادُ أسيراً موثقاً في السلاسلِ
وآخر منهم هارب قد تضايقت به الأرض يهفو من جوىً وبلابلِ!

ويصف الكتيبة العربية التي ائتلف داخِلَها العدنانيةُ والقحطانيةُ في لقاء عربيّ موحّد ضدّ المولّدين، ويضفي عليها صفات عظيمة من الشجاعة والفروسية وطيب الأصْل:

---

(١) الشعار: الثوب الذي يباشر البدن (الملابس الداخلية) والتهجاع: النومة الخفيفة.
(٢) الديوان ٩٣ – ٩٤

بها من بني عدنان فتيان غارةٍ ... ومن آل قحطان كمثل الأجادل
يقودهم ليثٌ هِزَبْرٌ ضُبارِمٌ ... مِحَشُّ حروبٍ ماجدٌ غير خاملِ
أرومَتُه من خير قيس نَما بهِ ... إلى المجد قِدْماً والعُلا كلُّ فاضلِ

فهذا صوتٌ عربيٌّ، يرفع شعار الفخر، ويدعو بالحماسة ويُثني على صاحبه بالشجاعة، وعلى أتباع سوّار وصاحبه الشاعر سعيد بكلّ صفةٍ مُستحسنة في مثل هذه المواقف.

ابنُ عبدِ ربِّه*

(٢٤٦ هـ - ٣٢٨ هـ)

أدرك ابنُ عبد ربه زمناً من عهد الإمارة الأموية المروانية، وزمناً آخر من عهد الخلافة، وكان في جملة شعراء الدولة، مادحاً، مدافعاً، مسجّلاً الأحداث والفتوحات، وكان من جهة ثانية في الشعراء: يغني أحلامه وشؤون ذاته. ويعدّ في أشهر شعراء المرحلة من تاريخ الأدب الأندلسيّ. ويدخل ابن عبد ربه في شعراء هذه المدة شاعراً بارزاً، ويدخل أيضاً مؤلفاً مصنفاً فهو صاحب كتاب (العقد) الشهير.

١ - وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (١٠ رمضان ٢٤٦ - ١٨ جمادى الأولى ٣٢٨ هـ)، ولد بقرطبة لأسرة تنتمي إلى (سالم) أحد موالي الأمويّين. ونشأ فقيراً مغموراً. ولكنه كان أحد من بلغ المكانة والحظوة بشعره وأدبه، فاغتنى بعد فقر، وظهَر بعد خمول. وسرعان ما تفتحت له أبواب الأمراء، والممدّحين من رجال الدولة: الولاة، والوزراء، والقواد.

---

* ترجمته في جذوة المقتبس ٩٤، وبغية الملتمس ١٣٧، ومطمح الأنفس ٢٥١، ومعجم الأدباء ٤/٢١١، ووفيات الأعيان ١/١١٠، ورايات المبرزين ٤٧، والمطرب ١٤١، ويتيمة الدهر ١/٣٦٠، ونفح الطيب ٥/٥٩٥، ومواضع أخرى منه.

- وانظر مواضع متفرقة من المقتبس لابن حيان، وتاريخ الناصر (مدونة من عهد النّاصر) وكتاب التشبيهات لابن الكتاني الطبيب...

- وانظر في الدّراسات ما في: تاريخ الأدب الأندلسي - الجزء الأول - الدكتور إ. عباس، ومقدمة الديوان، وكتاب (ابن عبد ربه للدكتور جبرائيل جبور)، وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس (د. رضوان الداية).

٢ - تمكن ابن عبد ربه من ثقافة معاصرة متينة رُكناها: العلوم الدينية الشرعية من جهة، وعلوم العربية وآدابها من جهة أخرى. وقد تمكن ابن عبد ربّه من الثقافة العربية، واطلع على الشعر العربي قديمه ومحدثه. وتظهر آثار تلك الثقافة الواسعة في كتابه العقد[1]. كما تظهر في إشاراته الفقهية والتاريخية، ومعارضاته الأدبية في شعره المتبقّي.

وقد ترك ابن عبد ربه ديوان شعر كبيراً رآه الحميدي صاحب (جذوة المقتبس)، ولكنه فُقد ولم يتبق لنا منه سوى نتف قليلة مبثوثة في كتب الأدب، والتاريخ، وفي كتاب (العقد)، وسوى ذلك من المصادر[2].

٣ - ويستطيع الدارس أن يكوّن صورة مقربة لشخصية ابن عبد ربه، وأن يتلمّس عدداً كبيراً من خصائص تلك الشخصية ومقوّماتها. فهو إنسان معتدل، أقرب إلى الهدوء والاتزان. وتشعر من خلال أخباره، وشيء من مساجلاته الشعرية أنه إنسان قادر على إنشاء العلاقات الاجتماعية، والوصول إلى رجال الدولة الكبار من الأمراء (الحكام من بني أمية) وغيرهم من القادة والوزراء. وكان لتديّنه وورعه أثر في أسلوب معاملة الناس له، وحسن إجابته وقضاء حاجاته.

ومع ذلك فقد كان في طبع ابن عبد ربه شيءٌ من سرعة الاستجابة وسرعة ردّ الفعل. وفي شعره شيءٌ من التعريض، والهجاء، تدل، على رغم تديّنه، على هذه الزاوية من طبعه.

٤ - أدرك ابن عبد ربه من أمراء بني أمية عهد الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) والأمير منذر (٢٧٥ هـ) والأمير محمد (٣٠٠ هـ) وأدرك شطراً من عهد عبد الرحمن الناصر الذي تلقب بالخلافة (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ).

---

(١) طبع كتاب العقد مراراً، وأشهر طبعاته في ستة أجزاء، وجزء سابع إضافي للفهارس في (لجنة التأليف والترجمة والنشر).

(٢) جمع شعر ابن عبد ربه تحت عنوان (ديوان ابن عبد ربه) بتحقيق د. محمد رضوان الداية - الطبعة الثالثة - دار الفكر - دمشق.

وصلة ابن عبد ربه بالدولة المروانية وثيقة، والقدر القليل الباقي من مدائحه فيهم يدل على ثقتهم به، وعلى اعتقاده بخلافتهم ومحبته فيهم. وقد عرفوا له مكانته فقربوه إليهم. وتجد مصداقاً لذلك في مدائحه في الخليفة الناصر عبد الرحمن وتسجيل فتوحاته وانتصاراته.

وفي شعره أيضاً مدائح لعدد من الوزراء والقواد، والفقهاء من رجال الدولة المروانية، وفيه مدائح في بعض حكام الأقاليم الذين أطلقت الدولة أيديهم في حكمها لمساعدتها في بسط سلطانها وفي توفير النظام.

فمدح من القواد: عبد الله بن محمد بن أبي عبدة، وأبا العباس أحمد بن محمد ابن أبي عبدة، ومدح الوزير الكاتب عبد الله بن محمد الزجالي. ومدح أيضاً ابن حجاج الذي فوّض إليه الأمويون حكم إشبيلية وقرمونة، ومدح الفقيه أبا صالح المعافري وسواهم.

قال مثلاً في إبراهيم بن حجاج (وبنو حجاج لخميون من اليمن)[1]:

كتابُ الشوقِ يطويهِ الفؤادُ ... ومن فيضِ الدُّموعِ له مِدادُ
تخطُّ يدُ البكاءِ به سُطوراً ... على كبدي ويُمليها السُّهادُ
وكيفَ وبي فؤادٌ مستطيرٌ ... لمنْ لا يستطيرُ لهُ فؤادُ
أمِنْ يَمنٍ يكونُ الجودُ خلواً ... وإبراهيمُ حاتِمُها الجوادُ
زيارتُه لمن يأتيهِ حجٌّ ... ومدحتُه رباطٌ أو جهادُ
وما لي في التخلّفِ عنه عذرٌ ... ولي في الأرض راحلةٌ وزادُ

وقد كان ابن حجّاج مقرِّباً للشعراء، مثيباً لهم، وتشعر في هذا النص بروح التكسّب والمبالغة في إسباغ الصفات الحميدة على الممدوح، واستخدام ألفاظ الحج والجهاد وما أشبه ذلك لتوكيد المدح وعضد معانيه.

وأجمل ما قاله في المديح تلك القصائد المطوّلة التي سجّل فيها فتوحات الناصر لدين الله عبد الرحمن الناصر في معاقل خصومه كابن حفصون، وفي غزواته، وغزوات قواده ما وراء الحدود.

---

(١) ديوان ابن عبد ربه ٥٢

ومن هذه القصائد مطولة جيميّة قالها في شأن غزوة (الْمُنتلون) وكانت غـزاة للناصر افتتح فيها سبعين حصناً. قال فيها[١]:

قـد أوضـح الله للإســلام منهاجـا ... والناسُ قد دَخلوا في الدّيـنِ أفواجـا
وقــد تزيّنــت الدُّنيــا لســاكِنها ... كأنمـا أُلبسـتْ وَشـياً وديباجـا
يا ابن الخلائفِ إنّ الْمُزن لو علمتْ ... نداكَ ما كـان منهـا المـاءُ ثجّاجـا[٢]
والحَربُ لو علمت بأساً تَصـولُ بـه ... ما هيَّجتْ من حُمياك الذي اهْتاجـا[٣]
مـاتَ النّفـاقُ وأعطى الكفرُ ذمّتـهُ ... وذلّـت الخيـلُ إلجامـاً وإسـراجا
وأصبـح النصـرُ معقـوداً بألويـةٍ ... تَطوي المراحـل تهجيراً وإدلاجـا[٤]
أدخلْـتَ في قبـة الإسـلام مارقـةً[٥] ... أخرجْتها من ديـار الشّـرك إخراجـا
بجحفـلٍ تَشـرَقُ الأرض الفضـاءُ بـه ... كـالبحر يقـذفُ بـالأمواج أمواجـا
يقـودُه البـدر يسـري في كواكبـهِ ... عَرمرمـاً كسـوادِ الليـل رجراجـا[٦]
يَرونَ فيــه بـروق المـوتِ لامعـةً ... ويسـمعونَ بــه لـلرَّعدِ أهزاجـا[٧]
غـادرتَ في عقوتـي جيّـان ملحمـةً ... أبكيت منها بأرض الشِّـركِ أعلاجـا[٨]
في نصفِ شهرٍ تركت الأرض ساكنةً ... من بعدِ ما كان منها الظهرُ قـد ماجـا
وُجـدت في الخَبرِ المـأثور منصلتـاً ... مـن الخلائـف خرّاجـاً وولّاجـا
تُملأ بك الأرض عدلاً مثل ما مُلئـت ... جَوراً وتوضـحُ للمعروف منهاجـا
يا بـدْرَ ظُلمتهـا يـا شمسَ صُبحتهـا ... يـا ليـثَ حَومتهـا إن هـائجٌ هاجـا
خُلقتَ من جوهـر العقيـان خالصـةً ... ولم تكنُ نطفةً في الصُّلـب أمشاجا
إن الخلافةَ لن ترضى – ولا رضيـتْ- ... حتّى عقدتَ لهـا في رأسكِ التّاجـا

(١) ديوان ابن عبد ربه ٣٥ - ٣٧
-وهناك تفصيلات عن هذه الغزوة في البيان المغرب ٣٢٤، والمدونة ٢٤
(٢) ثج الماءُ: سال.
(٣) الحميا: شدة الغضب.
(٤) التهجير: السير في الهاجرة.
(٥) أي فئة مارقة.
(٦) العرمرم الشديد. وجيش عرمرم: كثير.
(٧) استعار الشاعر الهزج لصوت الرعد.
(٨) العقوة: ما حول الدار والمحلة.

فقد جمع الشاعر في هذه القصيدة مديح الخليفة بأمرين اثنين معاً: انتصاره على من سماهم (المارقين) من المخالفين الذين كانت لهم صولات في أنحاء الأندلس، واعتمدوا على تضعضع هيبة الدولة مدّةً من الزمن، حتى جاءهم الناصر بحزمه وعزمه، والتفاف عدد من الأعوان والقواد حوله. والأمر الثاني: مكانة عبد الرحمن في الأمة والدولة، وقدرته على سياسة الدولة وانفراج أزمة الناس بوجدانهم الأمن والطمأنينة وسطوة الدولة من جديد.

وقد كرّر الشاعر هذه المعاني، وما يشبهها في قصائده التي رفعها إلى الناصر في حركاته الجهادية، أو في أعمال قواده. كقوله في صنيع حاجبه (بدر) سنة ٣٠٠ هـ في إعادة الاستقرار إلى مدينة (إستجة):

ألا إنّهُ فتحٌ يُقرّ له الفَتْحُ ... فأوّلُه سَعدٌ وآخره نُجْحُ
سرى القائدُ الميمون خيرَ سريّةٍ ... تقدَّمها نصرٌ وتابعها فتحُ
ألم ترهُ أودى بإستجةَ العِدى ... فلاقَوا عذاباً كان موعده الصُّبحُ؟!

ولا يخفى تضمينه بعض المعاني القرآنية، وسلاسة الأسلوب وتدفقه أيضاً. وشعره المدحي في بني مروان وقوّادهم ووزرائهم داخل في جملة شعر المديح في الشعر العربي من حيث كونه شعر مناسبات، مقصوداً به الثناء والولاء، ونيل الأعطيات. وهو - أيضاً - يعبِّر عن موقفه من الدولة، ويسجّل الأحداث تسجيلاً رائعاً يخلد الفتوحات والانتصارات، ويقدم مادة مساعدة، بالإضافة إلى القيم الأدبية - في تاريخ الفترة وأحداثها.

وقد ألّف ابن عبد ربه أرجوزة مطوّلة في غزوات الناصر، وصل بها إلى سنة (٣٢٢ هـ) تطرق فيها إلى مكانة الناصر في تاريخ الأندلس المعاصر (للمؤلف) ورتبته في الخلافة، وتشوّف الناس إلى سلطانه، منها:

هو الذي جَمّعَ شملَ الأمّهْ ... وجاب عنها دامسات الظُّلمهْ
وجدّد الملك الذي قد أخلقا ... حتى رَست أوتاده واستوسقا[1]
وجمّعَ العُدّةَ والعديدا ... وكثّف الأجناد والحشودا

(١) استوسق الأمر: انتظم. ويقال: استوسق له الأمر: أمكنه.

وتحدث عن غزو (جَيَّان):

تـم انتحـى جَيّـانَ في غزاتـهِ   بعسكرٍ يُسعرُ من حُماتـهِ
فاستنزلَ الوحشَ من الهضابِ   كأنما حُطتْ من السَّحابِ

٥ – وغلب على أغراضه الشعرية الرئيسية: غرضُ الغزل. فقد كان يُعنى به في مقدمات بعض قصائده المطولة، وفي مقطوعات كثيرة، وتشعر أحياناً أن تلك المقطوعات مصنوعة، وخصوصاً تلك القطع التي بناها لتكون أمثلة أو تكملة لأمثلة العروض (راجع الجزء الخامس من العقد. وديوان ابن عبد ربه).

وقد ميز الدارسون، والقدماء قبلهم، فقرتين من حياة ابن عبد ربه:

أ – مدة الشباب التي قال فيها الشاعر شعر الغزل، ووصف في شعره الخمرة وأطلق للسانه العنان.

ب – ومدة الشيخوخة والسنّ المتقدمة. وقد أدركه في هذا السن الورع الشديد حتى إنه نقض كل قصيدة قالها في شبابه في غرض الغزل والخمرة والمجون بشعر آخر يكفّر به عما سلف من قول، وسمى تلك القصائد (المُمَحِّصات) أو المكفّرات، قال في شبابه قطعة غزلية، فيها:

هلا ابتكرتَ لبينٍ أنتَ مبتكرُ   هيهاتَ يأبى عليك الله والقدرُ
ما زلتُ أبكي حذارَ البين ملتهفاً   حتى رثى لي فيكَ الريحُ والمطرُ
يا بَرْدَهُ من حيا مزن على كبدٍ   نيرانُها بغليل الشَّوقِ تستعرُ
آليتُ ألا أرى شمساً ولا قمراً   حتى أراك فأنت الشمس والقمرُ

فمحّصها في شيخوخته بقصيدة على الوزن والرّوي، وأنهى الممحّصة بمطلع القطعة السابقة فقال[1]:

(١) القصيدتان في ديوانه ٦٨ .

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدرُ ... ولا يُقضّى لـه من عيشهِ وطَرُ
عاينْ بقلبك إن العينَ غافلةٌ ... عن الحقيقةِ واعلمْ أنها سقَرُ؟
سوداءُ تزفرُ من غيظٍ إذا سعرتْ ... للظالمين فلا تُبقي ولا تذرُ
إن الذين اشتروا دنيا بآخرةٍ ... وشقوةً بنعيم ساء ما تَجروا
يا من تلهّى وشيبُ الرأس يندبهُ ... ماذا الذي بعد شيب الرأسِ تنتظرُ؟
لو لم يكن لك غير الموتِ موعظةٌ ... لكان فيه عن اللّذات مزدجَرُ
أنت المقولُ له ما قلت مبتدئاً: ... «هلاّ ابتكرتَ لبينٍ أنت مبتكرُ»

وهو على رغم ممحصاته كان كما يقول الدكتور إحسان عباس «متصاوناً متديناً آخذاً بحظه من المتع المباحة وقد كان مغرماً بالغناء ويرى إباحته. أما الخمرة فلا أظنه كان يشربها، وإن أكثر من ذكرها في شعره... على أنه قد يستشف من ندمه عندما كبر أنه كان مقبلاً على اللذات، ولكني أعتقد أن توبته كانت توبة الفقيه المتحرِّج لا توبة اللاهي العابث.. إلخ»[1].

وإشارته إلى حبه الغناء، إشارة إلى قطعة مرتجلة قالها ابن عبد ربه بديهة حين سمع مغنية في دار رجل لا يعرفه، وبعث بها إليه مكتوبةً فأدخله، وعرفه، وقام بحقه. والقطعة هي:

يا من يضنُّ بصوتِ الطائرِ الغَردِ ... ما كنتُ أحسبُ هذا الضنّ من أحدِ
لو أن أسماعَ أهل الأرض قاطبةً ... أصغتْ إلى الصّوت لم ينقصْ ولم يزدِ
لولا اتّقائي شِهاباً منك يُحرقني ... بنارهِ لاسترقتُ السَّمعَ من بُعدِ
لو كان زريابُ[2] حَياً ثم أُسمِعَهُ ... لماتَ من حسدٍ أو ذاب من كمدِ
فلا تضنَّ على أذني تقرّطُها ... صوتاً يجول مجال الروح في الجسدِ
أمّا الشراب فإني لستُ أقربه ... ولسْتُ آتيك إلا كسرتي بيدي!

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ١٨٤/١

(٢) زرياب هو علي بن نافع: موسيقي بارع ومغن مجيد. رحل من المشرق إلى الأندلس، وحظي عند أمراء بني أمية. وذاع صيته جداً. وكان له أثره في الحياة الأدبية والاجتماعية أيضاً.
- وانظر دراسة عنه وعن أثره في الموسيقى العربية في عدد مستقل من سلسلة أعلام العرب.

٦ - والهجاء، والتعريض غرضٌ من أغراض شعره، ولعله كان غرضاً رئيسياً في مرحلة الشباب، ثم اضمحلّ بعد ذلك. وتجد الشاعر قادراً على اصطياد المثالب وعلى التلميح إن شاء دون التصريح، ممّا يستدرّ منه ما يريد: مادياً كان طلبه أم معنوياً. ويعينه في ذلك أسلوب متدفّق، وقوة نافذة في معرفة جوانب الشخصية، وألفاظ دالة متلاحقة، كقوله (في بعض حواشي السلطان - و لم يسمه - وقد سأله إطلاق محبوس فتلكأ):

حاشا لمثلك أن يَفكّ أسيرا ... أو أن يكون من الزّمان مُجيرا
لبستْ قوافي الشعرِ فيك مدارعاً ... سُوداً وصكّت أوجهاً وصدورا[١]
هلا عطفتَ برحمةٍ لَمّا دعتْ ... ويلاً عليك مدائحي وثُبورا[٢]
لو أن لؤمك عادَ جوداً عُشرُه ... ما كان عندك حاتِمٌ مذكورا[٣]

ومن طريف ما يذكر في باب التعريض أنه أثبت عند أحد القضاة عقداً لتسجيله فأبطأ بانتظار رجل ثبت (عدل)، فلم يحتمل ابن عبد ربه الانتظار، وأخذ ورقة طويلة كتب في رأسها أربعة أبيات وترك باقيها فارغاً على بياضه، قال:

تبرّمتِ الوثيقةُ بالوثاق ... وصار الروحُ منها في التّراقي
فلو أنْصَصتَها نظراً وحزماً ... إلى مَنْ بالمدينة والعِراق
لعلّ القومَ يتفقون فيها ... وكيفَ لهم؟ وأنّى باتفاق
فِجاجُ العلمِ واسعةٌ عليكم ... وهنّ عليّ ضيقةُ الخِناق!

---

(١) صكه: ضربه شديداً. والمدارع جمع مدرع، ومدرعة وهي ثوب من صوف.
(٢) الثبور: الهلاك.
(٣) الإشارة إلى حاتم الطائي.
- «يستبعد الشاعر من المخاطب، ويستكثر عليه أن يكون من الأجواد الذين يفكون الأسير أو يجيرون من ريب الزمان وصرفه؛ ويجعل قوافي الشعر كائناً لبس السّواد من غيظ أو أسف لأن المخاطب ردّ رجاء شعر الشاعر، ويعاتبه لأنه خيّب رجاء مدائحه التي انقلبت إلى لوم وعتاب وهجاء. ثم يختم ببيت شديد: إن لؤم هذا الرجل لو انقلب عُشره إلى مديح لغلب بفخره - إذن - حاتماً الطائي في جوده!...».

فلما قرأها القاضي استغرب البياض، واستدعى أحد أصدقائه يشاوره فقال له: إنه يُوعِدُك إن لم تنفذ قضيّته ملأ باقي الصحيفة بهجائك!.. فأسرع بإنفاذه!.

٧ - وفيما تبقّى من شعره خطراتٌ ذاتية هنا وهناك، تحدث الشاعر فيها عن مواقِفه في الحياة، وما يشغله منها. وتظهر فيها آفاق ثقافته، الفقهية بخاصّة.

ولكن هذه الخطرات لا تمثل فلسفةً خاصّة، وإنما هي آراء الشاعر، ذي الثقافة العربية - الإسلامية الواسعة، الذي يعود باستمرار إلى منظومة من القواعد الأخلاقيّة، والذي لا تكاد تجد الفوارق واسعةً في سلوكه الحياتي بين شبابه وشيبه في كثير من جوانب تلك الحياة.

وهذا نموذج من شعره الذي صبّ فيه آراءه ومواقفه في الحياة. وجعل عنوان هذه القطعة: «من قولنا في وصف الدنيا»:

ألا إنما الدّنيا نَضارةُ أيكةٍ ... إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ[1]
هي الدّارُ ما الآمالُ إلا فجائعٌ ... عليها ولا اللَّذاتُ إلا مصائبُ
فكم سَخِنتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ ... وقرّت عيونٌ دمعُها اليوم ساكبُ

وهي قطعة تمثل موقفاً واضحاً من الحياة. فهي أيام معدودات، لا تستوي أحوالها، فهي بين إقبال وإدبار. ولهذا فأيّ معنىً للسُّرور المغرق أو للحزن الشديد، وكل الناس يرون أن لا شيء في هذه الحياة باق؟. ويربط هذه الآراء البسيطة بمواقفه الرصينة، وثقافته الدينية، كما يظهر ذلك أكثر جلاء في قوله[2]:

مدامِعٌ قد خدّدتْ في الخدودْ ... وأعينٌ مكحولةٌ بالهجود
ومعشرٌ أوعدهم ربّهم ... فبادروا خشيةَ ذاك الوعيدْ
فهم عكوفٌ في محاريبهم ... يبكونَ من خوف عقاب المجيدْ
قد كاد أن يعشبَ من دمعهمْ ... ما قابلت أعينهم في السُّجودْ!

---

(١) ديوان ابن عبد ربه ٢١

(٢) الديوان ٦٠

٨ - ويتصل بهذه العواطف ما نجده مبثوثاً في ديوانه، في غرض الرثاء. ويلفت نظر قارئ الديوان قصائد ومقطعات قالها في رثاء ابنين له. أحدهما توفي طفلاً، والآخر يافعاً. فمن قوله في ذلك(١):

واكبدا قد تقطعتْ كبدي ... وحرّقتها لواعجُ الكمدِ
ما ماتَ حيٌّ لميّتٍ أسفاً ... أعذرُ من والدٍ على ولدِ
يا رحمةَ الله جاوري جدثاً ... دفنتُ فيه حُشاشتي بيدي
ونَوِّري ظلمةَ القبورِ على ... من لَمْ يَصِلْ ظُلمه إلى أحدِ

وتظهر لك عواطف (عقلانية) أكثر مما تظهر عواطف مسرفة، مجهشة، عالية الصَّوت. وما ندري أهي السنّ المتقدّمة، وتؤدة الشيوخ، أم هي شخصية الأديب المتفقّه، والمتزن، الداخل تحت مظلة القناعة بالقضاء والقدر. ولكنه في رثائه أولاده يميل إلى الحديث عن أثر فقد الوالد في نفسه، وخيانة صبره له، ثم تجمّله بعد ذلك؛ ويستمطر له الرحمة والغفران، ويخرج إلى مناجاة رقيقة مؤثرة مع الموت الذي لم يمهل المتوفى. وإلى تعداد مناقب الفقيد ومآثره، وملامح الذكاء، والغَد الذي صار أمساً.

٩ - ابن عبد ربه شاعر عصره (مدة حياته) بلا منازع. وقد كان مكثراً، مشاركاً في التعبير عن أحداث عصره، وتدوين أيام الناصر لدين الله بخاصة، كما كان الشعر زاده الشخصي في التعبير عن نفسه، وفي صلته بالناس على اختلاف وجوه الصّلة والعلاقة.

وقد نُقل عن المتنبي وقد سمع شعره قوله: يا ابن عبد ربّه لقد يأتيك العراق حبواً. وكان الأندلسيون يعدونه في وقته (مليح الأندلس)، يعنون مليح شعرائهم.

وكانت مشاركة ابن عبد ربه في أغراض الشعر المختلفة من أسباب غلبته، وشهرته، ونفاذه في نواحي الحياة الثقافية. كما كان لكتابه (العقد) أثر في شهرته بعد أن ذاع الكتاب وصار أشبه بالكتاب المقرر كما نقول بلغة اليوم.

---

(١) الديوان ٦١

وقد كان ابن عبد ربه أولع بتقليد بعض شعراء المشارقة ومعارضتهم في سبيل إثبات التفوق والتقدم. كمعارضته مسلم بن الوليد في قصيدته:

أديرا عليّ الراح لا تَشربا قبلي ولا تَطلُبا من عندِ قاتلتِي ذَحْلي(١)

فعارضه بقصيدة (نقلها في العقد) أوّلها:

أتقتلني ظُلماً وتجحَدُني قتلي وقد قامَ من عينيكَ لي شاهدا عَدْلِ؟

وجارى أبا تمام في صفته القلم. وكان أبو تمام قد مدح محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدة طويلة وصف في أثنائها القلم، ومنها:

لكَ القلمُ الأعلى الذي بِشَباتِهِ تُصابُ من الأمرِ الكُلى والمفاصلُ

فوصف القلم، على روي آخر، ووزن مختلف(٢):

بكفِّهِ ساحرُ البيان إذا أدارَهُ في صحيفةٍ سَحَرا

وقد كان شعر ابن عبد ربه مختلفاً من حيث عنايته به، فهو حيناً وليد البديهة والارتجال، وكان مولعاً بهذا، وهو في أحيان أخرى وليد الأناة والصنعة. ولكن صنعة ابن عبد ربه تقصد إلى العبارة الجميلة والجملة الأنيقة. وأن تأتي الأفكار متناسقة، متسلسلة بشكل منطقي، لا نبوّ فيها ولا اضطراب. فقصيدته نسق متصل. ولعلّ لغلبة العنصر الذهني أثراً في هذه الخصائص.

ومن جهة ثانية فإن ابن عبد ربه لم يُغرق في طلب الصورة، ولم يجعلها الأساس دائماً لتقديم الفكرة الجديدة أو المعنى المولّد. وبمعنى آخر، كان عنصر التصوير عنده عنصراً معتدلاً. لم يسرف في الأخذ منه، ولم يدعه إلا في القليل، وبخاصة في مقطعات البديهة والارتجال.

والرّصانة والأناة في تناول الفكرة، والدماثة في العبارة من أهم خصائص أسلوب ابن عبد ربه، وما يتميز به شعره الباقي.

---

(١) الذحل: الثأر.

(٢) ديوان ابن عبد ربه ٨٧

ابْنُ زَيْدُون*

(٣٩٤ هـ - ٤٦٣ هـ)

اشتهر ابن زيدون بعدد من المواهب الشخصية والأدبيّة؛ ويُعَدُّ نموذجاً لتكامل هذه المواهب والخصال في نتاجه الأدبي من جهة، وفي حياته العملية من جهة ثانية.

وقد بقي لنا من آثاره الأدبية ديوان شعر، ورسالتاه: الجدية والهزلية؛ ونتف أخرى من رسائله؛ وهي على قلّتها تسوّغ له المكانة المرموقة التي وصَل إليها في زمانه، والتي احتفظت بها ذاكرة التاريخ السياسي والاجتماعي والأدبي في الأندلس والمشرق معاً.

وهو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومي، القرشي، القرطبي. وأبوه - الذي كان أول أساتذته - من فقهاء مدينة قرطبة المعدودين في زمانه، ومن ذوي النفوذ لدى الدولة الأموية، كما كان من ذوي اليسار أيضاً.

في بيئة ملائمة، وفي ظلّ أُسرة علميّة، ذات مكانة اجتماعيّة نشأ ابن زيدون وتعلّم، وتدرّج بين لداته في علومه، وفي ظهور شخصيّته. فقد لفت إليه الانتباه:

---

* ترجمته في الذخيرة ١-١/٢٨٩، وجذوة المقتبس ١٢١، وبغية الملتمس ١٧٤، والمطرب ١٦٤، والمعجب ١٦٢، والمغرب ١/٦٣، وقلائد العقيان ٨٠، وإعتاب الكتاب.

- وانظر ابن زيدون: علي عبد العظيم، ود. شوقي ضيف، وابن زيدون: رؤية في الشخصية ودراسة في الفن - د. محمد رضوان الداية.

- و: الغزل الأندلسي في القرن الخامس الهجري - د. علي دياب - ط ٢ - ١٩٩٤ م - دمشق.

بذكائه وفطنته، ومعرفته بفن الكتابة الديوانية والأدبية، وبراعته في نظم الشعر، وكياسته في ربط العلاقات مع الناس.

وكانت المدّة التي عاش فيها ابن زيدون مدّة صعبة على الأندلس: فحين ولد ابن زيدون كان الحكم تحت قبضة أسرة الحاجب (المنصور) ابن أبي عامر وكانت الخلافة الأموية قد آلت إلى شكل خارجي صوري. وما لبثت الفتنة أن ذرّت قرنها بانقضاء دولة العامريين، وكانت الفترة بين (٤٠٠ و ٤٢٢ هـ) فترة قاسية كثر فيها الخلفاء الأمويون، وتدخل بعض الحسنيين الواردين من المغرب في بعض المناطق وأقاموا لأنفسهم دويلة، واستطال بعض الولاة والقادة وسيطروا على بعض المناطق، وبدأ ما يُعْرَف في التاريخ الأندلسي باسم دول الطّوائف.

واشتهر من دول الطوائف: بنو جَهْوَر الذين سيطروا على قرطبة وما والاها. وبنو عَبّاد الذين اتّخذوا إشبيلية لدولة تضم مساحة واسعة.

ولا تلبث أخبار ابن زيدون حتى تعلن عن وجوده في ديوان الحكم الذي يديره أبو الحزم بن جَهْوَر حاكم قرطبة[1].

ويظهر في شعر ابن زيدون في هذه المدّة (منذ نبوغه في الشعر إلى هجرته من قرطبة إلى إشبيلية) أثر موقفين مهمين في حياته:

أحدهما: دخوله السّجن (أقلّ من سنتين) في قضية حقوقيّة على يد قاضٍ متشدّد إلى أن نجا من السّجن بالفرار (أو بمساعدة أبي الوليد بن جَهْوَر بما يُشبه الفرار).

والثاني: إعجابه بالأميرة الأموية ولّادة بنت المستكفي، وقد وُصِفَت بالكياسة والذّكاء وقوة الشّخصية، والمشاركة في الأدب (نظم الشعر).

(١) انظر كتاب محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني: دول الطوائف. وكتاب الدكتور عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي.

وقد أشار ابن زيدون إلى هذه الخصال بعبارة الشَّرف التي توحي بالمعاني الحقيقية والمجازية من النسب والحسب والتمكّن والحفاظ على المكانة، فقال:

ما ضرّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً ... وفي المودّة كافٍ من تكافينا[(١)]

وقد رجع ابن زيدون إلى عمله في الديوان[(٢)] مدة حياة أبي الحزم، وشطراً من مدة حكم ابنه أبي الوليد بن جَهْوَر. وخاف ابن زيدون عواقب فتنة نشبت في قرطبة اشترك فيها بعض أصحابه، فترك قرطبة، ولحق بإشبيلية عند بني عباد مرحّباً به. واستمر هناك إلى أن احتل بنو عباد قرطبة سنة (٤٦١ هـ).

وفي إشبيلية حظي ابن زيدون بمقام رفيع في الوزارة والسفارة، كما كان في قرطبة، مع زيادة تقدير وتوقير أيام المعتضد بن عباد، وابنه المعتمد بن عَبّاد.

لم يكد ابن زيدون ينعم بالعودة إلى مدينته المحبوبة قرطبة حتى اضطر إلى الذهاب لإشبيلية لعمل يتعلق بوظيفته، سنة (٤٦٣ هـ)، ولكنه مرض في هذه الرحلة، وتوفي. وخَلَفَهُ ابنه أبو بكر عند بني عَبّاد بمثل ما كان لوالده من تقدير وتكريم.

كانت ثقافة ابن زيدون واسعة، ومعرفته كبيرة: علمه أبوه (ت ٤٠٥ هـ) وكفله جدّه لأمّه أبو بكر محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي (ت ٤٣٢ هـ) فأخذ عنه، وأفاده شيوخٌ، فيهم أبو العَبّاس أحمد بن عبد الله بن ذكوان (ت ٤١٣ هـ) وأبو بكر مُسلم بن أحمد القرطبي النّحوي (ت ٤٣٢ هـ)؛ وأساتذة آخرون، إضافة إلى قراءات ابن زيدون الخاصّة في مكتبات الأسرة، وفي مصادر العلم والمعرفة الغزيرة في مدينة قرطبة العريقة؛ وإلى دروس العلم التي كانت تلقى في المسجد الجامع بقرطبة، وبالزّهراء. وألمح د. ضيف[(٣)] إلى موارد ثقافة ابن زيدون فقال: إنه من صنع قرطبة وجامعتها، وما كان يُلقى فيها من الدروس

---

(١) من قصيدته: أضحى التنائي؛ وتجدها في هذا الكتاب.

(٢) «وزَر ابن زيدون لأبي الحزم جهور وزارة استشارة لا وزارة عمل»: تاريخ الأدب العربي - د. عمر فرّوخ - ٤/٥٩٠

(٣) ابن زيدون ١٧

وضروب التعليم إذ كان يختلف - كغيره من شباب عصره - إلى العلماء والأدباء هناك فينهل من معارفهم وثقافاتهم ويأخذ من آدابهم وعلومهم ما يصقل به لسانه ويشحذ فكره، وفي ذلك يقول مفاخراً:

ونجّذني علم توالت فنونه   كما يتوالى في النظام سخاب[1]

عالج ابن زيدون عدداً من الأغراض الشعريّة:

- فأوسع فنون شعره: الغزل والنّسيب، والمديح؛ ومعه شيء من الاستعطاف والاعتذار.

- وتتدرّج الأغراض الأخرى بعد ذلك: من الإخوانيات (ومعها ألغازٌ وأحاجٍ ومُباسطات) والتعريض والهجاء، والحنين إلى قرطبة ووصفها.

الغزل والنّسيب:

يشكّل هذا الفن نحو ثلث شعر ابن زيدون؛ وهو في تقدير الدكتور عمر فرّوخ[2] : أجملَها، وأصدقها تعبيراً عن نفسه وألصقها بأحداث حياته.

وإشارات كتب الأدب والتراجم الأندلسيّة القديمة مثل (قلائد العقيان) و (الذخيرة) و (المغرب) تدل على أن قسماً كبيراً من غزل ابن زيدون كان لاسم ولاّدة، وهي الأميرة الأموية ابنة المستكفي، أحد الخلفاء، الضّعاف الذين نصبوا في مدة الفتنة (٤١٤ - ٤١٦ هـ).

ويتردّد في هذه الكتب، وغيرها، كما تشير نصوص الديوان نفسها بأن هذا القدر العظيم من شعر الغزل هو في وَلاّدة، إذ يُذكر اسمها صراحة، أو يشار إليها فيه إشارة (فقد كانت ترفض أن يذكر اسمها في الشعر)، ومن جهة أخرى فإن هناك إشارات أخرى من ذكر نسبها (عبد شمس) أو مكانتها (سليلة الدوحة

---

(١) نجّذني: صقلني وهذبني. والسخاب: قلادة تُتَخَذُ من أزهار عطرة.

(٢) تاريخ الأدب ٥٩٤/٤

الأموية) أو شكلها ولونها وملامحها (كما تصورها أبيات كثيرة في قصيدته: أضحى التنائي).

وتعضد الدراسة الموضوعية والأسلوبية للشعر هذا التوجّه؛ فإن ولادة كانت موجودة في شعر الصّبا، والشباب بكثرة وقوّة؛ وتوجد لها ملامح كثيرة في الشعر الذي نظمه الشاعر بعد القطيعة.

على أنّ في الباحثين من يظنّ أنّ ولادة لم تظفر إلا بالنزر اليسير من شعر ابن زيدون. وفيهم د. محمود صبح الذي يبالغ ويقول دون دليل: إن قصيدة (أضحى التنائي) و (إني ذكرتك بالزهراء) ليستا في ولادة[1]!

أما الدكتور إحسان عباس فيثير تساؤلات كثيرة لحصر الشعر الذي قيل في ولادة ومحاولة تخليصه من الشعر الذي قيل في غيرها (؟) على الرغم من صعوبة ذلك في قصائد كثيرة[2].

والدكتور شوقي ضيف[3] يقسم شعر الغزل عند ابن زيدون ثلاثة أقسام:

- ما قيل في المرحلة الأولى من اللّقاء والقبول.

- ما قيل في المرحلة الثانية من القطيعة.

- ما قيل في المرحلة الثالثة من اليأس أو ما سمّاه (دور الذّكرى) وينتظم هذا الدور مقدمات مدائحه.

ويؤكّد ما ذهب إليه د. ضيف، بصفة عامّة، انسجام كل قسم أو مرحلة في مقاصده وعواطفه، وأنّ ابن زيدون لم يذكر بعد ولادة اسماً آخر، ولا يلمح قارئ الدّيوان شبحاً آخر تجنب الشاعر الإشارة إليه.

---

(١) ابن زيدون شاعر قرطبة ٦٣

(٢) دراسات في الأدب الأندلسي ١٩٢ وما بعدها، في بحث عقده لولاّدة.

(٣) ابن زيدون ٣٥ - ٣٦

١) من شعر الغزل في الدور الأول: قوله:

هـــل لداعيـــك مجيـــبُ أم لشـــاكيك طبيـــبُ
يـــا قريبـــاً حـــين ينـــأى حـــاضراً حـــين يغيـــبُ
كيـــف يســـلوك محـــبٌّ زانـــه منـــك حبيـــبُ

- وقوله في قطعة أخرى:

لئن كنت في السنّ تِرْبَ الهلالِ لقد فقت في الحسن بَدْرَ الكمالِ
لقــد بلّغتــني دواعــي هــواك إلى غايــة مــا جــرتْ لي ببــالِ
فقـل للهـوى يَجْـر مِـلْءِ العنـان فَمَيْدانُ قلبي رحيـبُ المجـالِ!

وشِعْرُ هذه المدّة، في الديوان الذي بين أيدينا، قليل، ويغلب عليه شكل المقطوعة، فكأن كل قطعة تعبير موجز، أو بطاقة سريعة يختزن فيها الشاعر خواطره، ولمحات نفسه.

٢) وتظهر قطع وقصائد بعد ذلك تنضح بالشكوى والألم: «فالدُّنيا عابسة من حوله، وكبده تتفتّت حسرة وقلبه يتقطع ألماً...»(١) ومن هذه الأشعار:

يـــا غـــزالاً أصـــارني موثقـــاً في يـــد المِحَـــنْ
إنّـــي مُـــذ هَجرتـــني لم أذقْ لـــذّة الوســـنْ
ليـــت حظـــي إشـــارة منـــك أو لحظـــةٌ عَنَـــنْ(٢)
ليـــس لي عنـــك مذهـــب فكمـــا شـــئت لي فكـــنْ!

ومنها قَوْلُه:

كـــم ذا أُريـــد ولا أُرادْ يـــا ســـوء مـــا لقـــي الفـــؤادْ
أُصفـــي الـــودادَ مدلّـــلاً لم يَصْـــفُ لي منـــه الـــوِدادْ
يقضـــي علـــيَّ دلالُـــه في كـــل حـــينٍ أو يكـــاد

(١) ابن زيدون: د. شوقي ضيف ٣٤
(٢) العنن: العارضة.

وواضحٌ أن هذه الصورة من غزله تباينُ الصورة الأولى. فقد فرّت منه السعادة التي كان يَنْشُدها، ولم يعد له منها إلا عذابُ السجن والألم والفراغ...

٣ - والقصيدتان المشهورتان: (أضحى التنائي)، و (إني ذكرتك بالزّهراء) نظم الأولى بَعد القطيعة، ونظم الثانية بعد السّجن، وهو في حال صعبة من ضياع الآمال والأحلام: في السياسة من جهة وفي العاطفة من جهة أخرى. وهو - إن عاد إلى عمله بعد استِرضاء أبي الحزم بن جهور - بقي مفرداً وحيداً بعد قطيعة لم تغيّرها الأيّام التالية.

وابن زيدون، في تَقْدير الْمُعْتَدلين من دارسي فن الغزل عنده، نظم شعره الغزلي هذا عن تجربة صادقة[1] ضغطت على شعوره وقلبه ولم تلبث أن حطمت فؤاده، وقصيدته (أضحى التنائي): قصيدة تفيض بالحنين والحب والولاء... وكأنما يصب فيها زفراته، وينفث لوعاته... قال الدكتور ضيف: ونلتقي دائماً في ديوانه بمثل هذه القصيدة؛ ومن أروع ما فيه قصيدته (إني ذكرتك بالزهراء) كتبها إليها بعد خروجه من السّجن، وقبل العفو عنه..

والقصيدة القافيّة هذه قصيدة تعاطف فيها الشاعر مع الطبيعة وبثّها أحزانه، وجعلها تشاركه في ما ينتابُه؛ فكان له فيها تخفيفٌ عما به، وتعبير عن أشواقه إلى الذكريات الماضية.

والشاعر في هذا النص - وإن كان قد مال إلى شيء من وصف الطبيعة - يريد أن يتحدّث عن ولاّدة في المقام الأول: وهكذا نجده يجعل النسيم يرقّ له، ويجعل قطرات الندى على الأزاهير دموعاً تبكي بها على حاله، ولما حَلّ به؛ ويطلب إلى النّسيم أن يحمله إليها:

---

(١) ابن زيدون: د. شوقي ضيف ٤١

إنّـي ذكرتُـكِ بـالزهراءِ مشـتاقا والأفق طَلق ووجه الأرضِ قـد راقـا
وللنسـيمِ اعتـلالٌ في أصائلـه كأنّـه رقّ لي فـاعتَل إشـفاقا(١)
والروضُ عـن مائه الفضيِّ مبتسم كما شققتِ عـن اللّبّات أطواقـا(٢)
نلهـو بما يستميلُ العينَ مـن زهـرٍ جال النـدى فيـه حتـى مـال أعناقـا
كـأن أعينـه إذْ عـاينتْ أرقـي بكتْ لما بـي فجالَ الدمـع رقراقـا
وردٌ تـألقَ في ضـاحي منابتـهِ فازدادَ منه الضُّحى في العين إشـراقا(٣)
سَـرى ينافحـهُ نيلوفـرٌ عبـقٌ وسـنانُ نبّـهَ منـه الصبـح أحداقـا(٤)
كـلّ يهيـجُ لنـا ذكـرى تشـوّقنا إليكِ، لم يعُد عنها الصدر أن ضاقـا
لا سكّن الله قلبـاً عـن ذكركُـم فلـم يطـرْ بجنـاحِ الشـوقِ خفّاقـا
لو شاء حملي نسيمُ الصبح حين سَرى وافـاكُم بفتـىً أضنـاه مـا لاقـى
يـوم كأيـامِ لـذاتٍ لنـا انصرمـتْ بتنـا لهـا حيـن نـامَ الدهـر سُـرّاقا
لو كان وفّـى المنى في جمعنا بكـم لكـان مـن أكـرم الأيـام أخلاقـا
يا عِلْقي الأخطرَ الأسنى الحبيب إلى نفسي، إذ ما اقتنى الأحباب أعلاقا(٥)
كان التجازي بمحض الودِّ مذْ زمـن ميـدانَ أنـسٍ جرينـا فيـه أطلاقـا(٦)
فـالآن أحمَـد مـا كنـا لعهدكـم سَـلَوْتُم، وبقينـا نحـن عشّـاقا!!

يستمر ابن زيدون إذن على هذا النحو شاكياً إلى الطبيعة، جاعلاً إياها جسراً ينقل أفكاره إلى محبوبته، وكأنه يقول: إن الدنيا قد تجاوبت معي فيما أنا فيه، ويدعو ولادة إلى العودة إلى الماضي، أو على الأقل إلى مشاكلة الطبيعة فيما حنّت به عليه.

(١) الأصائل ج أصيل: وهو العشي.
(٢) اللبات ج لبة: وهي موضع القلادة من الصدر.
(٣) ضاحي منابته: من «ضحا» إذا برز للشمس.
(٤) النيلوفر: ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة.
(٥) العلق: الغالي النفيس. الأخطر والخطير: الرفيع. الأسنى: الأضوأ.
(٦) أطلاق: جمع طِلق (بالكسر): الشوط. يقال: عدا طلقاً أو طلقين. والتجازي: التقاضي. والمحض: الخالص.

– وقصيدة (أضحى التنائي)[١] من القصائد الطويلة في ديوان ابن زيدون، وموضوعها شخصيّ (غزلي): ولا تكاد تختلف أخبار القصيدة وملاحظات النقاد أنها قيلت في ولادة بنت المُستكفي، بل إن فيها إشارات واضحة إليها. ولولا الحرج لذكر اسْمها (انظر البيت ٣٤ من القصيدة).

– وهي قصيدة تمثل حياته الحاضرة، وتلخص حياته الماضية من جوانب متعدّدة، وكان حديث ابن زيدون عن أيامه الماضيات بما فيها من نعيم، وأيامه الحاضرة وما فيها من شقاء حديثاً فيه شيءٌ من المبالغة.

– وقد شاعت هذه القصيدة – مع (إني ذكرتك بالزهراء) – في المشرق والمغرب، ومن أسباب ذلك الشيوع: سهولة النصّ وكونه في غرض الغزل، وظهور أسلوب الشاعر فيه، وتجلّيه للقارئ في أجلى صوره إلى موسيقيّةٍ رنّانة ناعمة حالمة تشيع في القصيدة كلّها؛ وخيالٍ جامح.

أضْحى التَّنائي بديلاً من تَدانينا ... ونابَ عن طيْبِ لُقيانا تَجافينا
ألاّ وقد حانَ صُبحُ البينِ صَبَّحنا ... حَيْنٌ، فقام بنا للحَين ناعينا[٢]
مَنْ مُبلِغُ الْمُلبسينا بانتزاحِهِمُ ... حُزناً مع الدّهْرِ لا يَبْلى ويُبلينا
أنّ الزّمانَ الذي ما زالَ يُضحكنا ... أُنساً بقربهِمُ قد عاد يُبكينا
غِيْظَ العِدا من تَساقينا الهوى فدَعَوْا ... بأنْ نَغصَّ، فقال الدهرُ: آمينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبَتّ ما كان موصولاً بأيدينا[٣]
وقد نكونُ وما يُخشى تفرّقنا ... فاليوم نحنُ وما يُرجى تلاقينا
يا ليتَ شعري و لم نُعتب أعاديكم ... هل نالَ حظّاً من العُتْبى أعادينا[٤]

---

(١) القصيدة في الديوان ١٤١ – ١٤٨

(٢) ألاّ: حرف تحضيض. الحين: الهلاك. وفي الديوان: «داعينا» في موضع «ناعينا»؛ وهذه رواية نفح الطيب.

(٣) انبتّ: انقطع.

(٤) العُتبى: الرضا. وأعتبه: أعطاه العتبى. يريد لم نأت ما يسر أعاديكم.

لم نعتقدْ بعدكم إلا الوَفاءَ لكمُ ... رأياً، ولم نتقلَّدْ غيرهُ دينا
ما حقُّنا أن تُقِرّوا عينَ ذي حسدٍ ... بنا، ولا أن تَسُرّوا كاشحاً فينا[1]
كنا نَرى اليأس تُسلينا عوارِضُه ... وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا
بنتمْ وبِنّا فما ابتلَّتْ جوانحنا ... شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا[2]
نكادُ حين تُناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا[3]
حالت لفقدكمُ أيامنا فغدَتْ ... سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا[4]
إذ جانبُ العيش طلقٌ من تألُّفنا ... ومربعُ اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هَصرنا فُنونَ الوصلِ دانيةً ... قطافُها، فجَنينا منه ما شينا[5]
لِيُسْقَ عهدكُم عهدُ السّرور فما ... كنتمْ لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرُنا ... إنْ طالما غيّرَ النأيُ المحبِّينا[6]
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً عنك يَشغلُنا ... ولا اتخذنا بديلاً منك يُسلينا
يا ساريَ البرق غادِ القصرَ واسق به ... من كان صرف الهوى والودِّ يسقينا[7]
واسأل هنالك هل عَنَّى تذكُّرنا ... إلفاً تذكُّره أمسى يعنّينا[8]
ويا نسيمَ الصِّبا بلِّغ تحيّتنا ... من لو على البُعد حَيّى كان يُحيينا
فهل أرى الدهرَ يقضينا مُساعفةً ... فيه، وإن لم يكن غِبّاً تقاضينا[9]

---

(١) الكاشح: مضمر العداوة.
(٢) بان القوم: فارقوا. يريد: ابتعدتم، وابتعدنا.
(٣) الأسى: الحزن. وتأسّي: تحمّل وتجلّد، وتعزى وتصبر.
(٤) حال الشيء: تحوّل من حال إلى حال.
(٥) هصر الغصن: أماله. وفنون الوصل: ضروبه وأنواعه. (والفنون ج فنن وهو الغصن وما تشعب منه).
(٦) وفي رواية: إذ طالما.
(٧) غاد القصر: أي باكره بالغمام (أول النهار).
(٨) عنّى: آلم وأتعب.
(٩) غب الرجل: جاء زائر أيام، أو كل أسبوع.

ربيبُ ملكٍ كأنَّ اللهَ أنشأه ... مِسْكاً، وقدَّر إنشاءَ الورَى طينا
أو صاغَهُ وَرِقاً محضاً وتوَّجَهُ ... من ناصعِ التِّبرِ إبداعاً وتحسينا(١)
إذا تأوّدَ آدَتْهُ رفاهيةً ... تُومُ العقودِ، وأدْمَتْهُ البُرى لينا(٢)
كانتْ له الشّمسُ ظِئراً في أَكِلّتهِ ... بل ما تجلّى لها إلا أحايينا(٣)
كأنّما أُثْبِتَتْ في صحنِ وجنتِهِ ... زُهْرُ الكواكبِ تعويذاً وتزيينا(٤)
ما ضَرَّ أن لم نكنْ أكفاءهُ شرَفاً ... وفي المودّة كافٍ من تَكافينا
يا روضةً طالما أجنَتْ لواحظَنا ... ورداً جلاه الصِّبا غضّاً ونسرينا
ويا حَياةً تَملَّيْنا بزهرتها ... مُنىً ضُروباً ولذاتٍ أفانينا(٥)
ويا نعيماً خَطَرْنا من غضارتِهِ ... في وَشْيِ نُعْمى سحَبنا ذيله حينا(٦)
لسنا نُسمّيكِ إجلالاً وتكرمةً ... وقدْرُكِ المُعتَلي عن ذاك يُغنينا
إذا انفردْتِ وما شُوركتِ في صفةٍ ... فحَسْبُنا الوصفُ إيضاحاً وتبيينا
يا جنّةَ الخُلْدِ أُبدِلنا بسدْرَتِها ... والكوثرِ العذبِ زَقُّوماً وغِسْلينا(٧)
كأنّنا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنا ... والسّعدُ قد غَضَّ من أجفانِ واشينا
سِرّانِ في خاطرِ الظّلماءِ يكتُمنا ... حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفشينا
لا غروَ في أنْ ذكرنا الحزنَ حين نهَتْ ... عنهُ النُّهى وتركْنا الصّبرَ ناسينا

---

(١) الورق: الفضة. التبر: الذهب.

(٢) تأود: تمايل. آدته: أثقلته. تؤم العقود: مزدوجة من اللؤلؤ. (والتؤام ما تشابك من اللؤلؤ). البرى ج برة: الخلاخيل.

(٣) الظئر: المرضعة. الأكلة جمع كلة: وهي ستر رقيق.

(٤) زُهر الكواكب: أي النيرة المشرقة. وزُهر جمع أزهر.

(٥) تملينا: تمتعنا. ضروب: صنوف (ج ضرب).

(٦) خطر في مشيته خطراناً: رفع يديه ووضعهما، واهتز وتبختر. الغضارة: النعمة والسعة والخصب وطيب العيش.

(٧) السّدرة (سدرة المنتهى) شجرة في السماء السابعة. والزقوم: شجرة في جهنم، منها طعام أهل النار، الكوثر: نهر في الجنة، الغسلين: ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم ودمائهم.

إنّا قَرأنـا الأسـى يـومَ النّـوى سُـوَراً ... مكتوبـةً، وأخذْنـا الصَّـبْرَ تلقينـا
أمّـا هـواكِ فلـم نَعـدِلْ بمَنهلـهِ ... شِرباً، وإن كـان يَروينا فيُظمينا[١]
لم نَجْفُ أُفقَ جمـالٍ أنـتِ كوكبُـهُ ... سـالينَ عنه؛ ولم نهجُـرْه قالينـا[٢]
ولا اختيـاراً تجنَّبْنـاهُ عـن كثَـبٍ ... لكن عَدتْنا - على كُرهٍ - عوادينـا[٣]
نأسى عليكِ إذا حُثَّتْ مشعشـعةً ... فينـا الشَّـمولُ، وغنّانـا مُغنينـا
لا أكؤسُ الرّاحِ تُبدي من شمائلنا ... سيما ارتيـاحٍ، ولا الأوتـارُ تلهينـا
دومي على العهد - ما دمنا - محافظةً ... فـالحرُّ مَنْ دانَ إنصافـاً كمـا دِينـا
فما استَعَضْنا خليلاً منك يَحْبِسنا ... ولا اسـتفَدْنا حبيبـاً عنـك يَثْنينـا
ولـو صَبا نحوَنـا من عُلْـو مَطْلعـهِ ... بدرُ الدجى لم يكن حاشاك يُصبينا
أَوْلي وفـاءً وإن لم تبـذُلي صِلَـةً ... فـالطيفُ يقنعُنـا والذِّكْـرُ يَكفينـا
وفي الجـوابِ مَتـاعٌ إن شـفعتِ بـه ... بيضَ الأيادي الـتي مـا زلـتِ تُولينا
عليـكِ منّـا سـلامُ الله مـا بقيـتْ ... صَبابـةٌ بـكِ نُخفيهـا فتُخفينـا

المدح[٤]:

يُعَدّ المدح الغرض الثاني في أغراض ابن زيدون، في الديوان الماثل بين أيدينا. ولم يكن ابن زيدون من الشعراء المتكسبين بالشعر، ولكنه كان يقدّمه في وفادةٍ على حاكم، أو تقرّباً إلى أمير، أو تثبيتاً لمكانته السياسيّة، أو اعتذاراً ممزوجاً بالمديح (كما نعرف من حاله مع أبي الحزم بن جهور)، ومن هذا قولُه في أواخر قصيدةٍ له في أبي الحزم:

عُتبـاكَ - بعـد العتـب - أمنيّـةٌ ... مـا لي-على الدهـر-سـواها اقـتراح!

(١) الشرب: المورد، والماء المشروب.
(٢) قلا يقلو قلاء وقلاً: أبغض.
(٣) العوادي: الشواغل (ج عادية) الشغل يصرفك عن الشيء، وعدتنا: صرفتنا.
(٤) انظر (المدح) في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

فهو لا يريدُ أكثر من رضى الأمير عنه، ومعاملته كسابق عهده.

وقوله من قصيدة أخرى:

فاشفعْ أكنْ مثل ممطورٍ ببلدته جَذْلانَ بالوَطنِ المألوفِ والوطرِ!

و لم يطلب في هذه القصيدة أكثر من حسن المعاملة، وقبول الشّفاعة من أي تهمةٍ ألصقت به أو ظنّ في حُسن ولائه.

- وقد مدح ابن زيدون أبا الحزم بن جهور وابنه أبا الوليد (وكان أبو الوليد صديقاً له) ومدح المعتضد بن عبّاد صاحب إشبيلية وابنه المعتمد (وكان المعتمد صديقاً لابن زيدون وتلميذاً على مدرسته الشعريّة). ومدح المظفر بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس، والأمير باديس بن حبوس صاحب غرناطة.

خصائص شعر الغزل عند ابن زيدون:

إذا نظرنا إلى القصيدة الغزلية عند الشاعر لاحظنا أن الشعر الغزلي عند ابن زيدون لم يتخذ شكلاً واحداً.. إذ لم تكن القصيدة على وتيرة معينة من حيث طولها وقصرها وعدد أبياتها والبحور التي يستخدمها. إننا لا نجد تناسقاً في أشكال القصائد من طول ومن قصر. فهناك المقطوعات الصغيرة القصيرة التي يعبر فيها الشاعر عن لحظة انفعالية معينة دون أن يكون ذلك ساحة لعرض أفكار كثيرة أو جوانب متشابكة.. فموقف ما من المواقف، أو إحساس من الإحساسات يرصده الشاعر فيعبر عنه بسرعة ويكتفي بما صنع؛ وإننا لنجد ظاهرة غلبة المقطوعات على القصائد في المرحلة الأولى بشكل خاص، فنحن لا نظفر بقصيدة كاملة في هذه المرحلة كلها؛ كما نلاحظ تفشي هذه الظاهرة بشكل واضح في شعر المرحلة الثالثة.

أما شعره الذي تردد فيه بين الأمل واليأس وكان يحاول به إرضاء ولادة، فنجد فيه القصائد الطوال التي تلائم مثل ذلك الظرف من دفاعٍ ومناقشةٍ وبسطٍ لمعاني الغزل الكثيرة. ونلاحظ أيضاً أن هنالك القصائد والمقطوعات الخاصة

بالغزل أي التي تنفرد بموضوع واحد. وهذا كثير في شعر ابن زيدون، غير أننا نلمح أن الشاعر كان يتحدث عن ولادة ويتحدث إليها في ثنايا الأغراض الأخرى كالمديح وشعر الاستعطاف ووصف الطبيعة، وغير ذلك من الموضوعات. ولنأخذ نماذج سريعة على هذا: في إحدى قصائده في السجن قال:

ما جالَ بعدكِ لحظي في سَنا القَمرِ إلا ذكرتُكِ ذِكْرَ العين بالأثرِ
ولا استطلتُ ذَماءَ[1] الليل من أسفٍ إلاّ على ليلةٍ سَرّت مع القِصَرِ

وكتب في رسالته الجدّية التي رفعها إلى أبي الحزم بن جهور أبياتاً منها:

الهوى في طُلوعِ تلكَ النُّجومِ والْمُنى في هبوبِ ذاكَ النسيمِ
سرَّنا عيشُنا الرقيقُ الحواشي لو يدومُ السُّرور للمستديمِ

إلى أن يقول طارقاً غرضه الأصلي:

أيّهذا الوزيرُ ها أنا أشكو والعَصا بدءُ قَرعِها للحليمِ

كما أننا نلاحظ أن الشاعر تحدث عن ولادة في أثناء حديثه عن مدينة قرطبة وفي أثناء وصفه للطبيعة ومن الأمثلة البارزة على ذلك قصيدته القافية التي مطلعها:

إنّي ذَكرتك بالزهراء مشتاقا والأفقُ طلقٌ ووجهُ الأرضِ قد راقا

ونلاحظ أيضاً أن ابن زيدون في هذا يحافظ على ظلّ قويّ للمقدمات الغزلية المألوفة، ولكنه كان يصوغها بشكل خاص، ويتحدث فيها عن حبّ حقيقي وتجربة ذاتية واضحة. ونلاحظ أن بعض القصائد، وخاصة في شعر المرحلة الثانية امتازت بشيء من الطول الظاهر الواضح كما في قصيدته (أضحى التنائي).

---

(١) الذماء لغة: بقية الرّوح، يعني البقية الباقية من آخر الليل.

ومما نلاحظه أن ابن زيدون عارض بعض الشعراء المشارقة وقلدهم أو حاول الإفادة منهم.. من ذلك معارضته للبحتري في قصيدته أضحى التنائي.. ومن ذلك أيضاً صياغته على نمط قصيدة للمتنبي اقتبس فيها بيتاً له إذ يقول:

هل تذكرونَ غريباً عادَهُ شجَنُ   من ذكركمْ وجَفا أجفانَه الوسَنُ
يُخفي لواعجه والشّوق يفضَحُه   فقد تساوى لديه السرّ والعَلَنُ!

إلى أن يختم هذه القصيدة ببيت المتنبي:

* بمَ التعلّلُ لا أهلٌ ولا وطنُ *

ومن الملاحظات البارزة أن القصيدة الغزلية أخذت عند ابن زيدون شكل الرسالة أو شكل الكتاب المفتوح من حيث إن الشاعر جعلها عرضاً لموضوع فيه سِمات الكتاب وخصائصه، إلا أن هذا الشعر لم يفقد بذلك رونقه أو طلاوته التي نعرفها في شعر ابن زيدون.

- ومن أغراض شعر ابن زيدون: الاستعطاف. وهو لجأ إلى هذا الغرض حين سُجن في ظلّ دولة أبي جهور، وقد توسل ابن زيدون - في محاولاته لإقالة عثرته - بالنثر والشعر. وفي هذه المدة - مدّة سجنه ومدة قليلة بعدها اختفى فيها إلى أن سوّي الأمر مع ابن جهور - أصدر ابن زيدون عدداً من الرسائل والقصائد الاستعطافية إلى ابن جهور، وعدداً آخر من الرسائل والقصائد التي لها علاقة بسجنه وفراره من السجن، ليست من أدب الاستعطاف؛ ولكنها لمّا كانت في ظلّ تلك المدة، وتوسلاً ببعض أصدقائه لإنقاذه؛ سلكنا دراستها في أثناء موضوع الاستعطاف والاعتذار.

في السجن تعرض الشاعر لمعاملة قاسية: ذلك أنه سجن في البداية في مكان يليق بالسجين السياسي، ثم نزلوا به إلى سجن جمعوا فيه بينه وبين اللصوص والسراق وقطاع الطرق؛ فكان هذا أمراً شديداً جداً عليه. ولعله أيضاً مُنع من أن يزوره أقاربه كالعادة؛ وتذكّر أمه المريضة الطاعنة في السن. فكان هذا يزيده حسرةً، ويزيده ألماً. يقول في مخاطبة أمه:

أمقتولةَ الأجفان ما لك والِهاً ... ألم تُرِكِ الأيام نجماً هوى قبلي؟

وقال من قصيدة أخرى يذكر فيها كم مضى عليه من أيام في السجن:

أفَصبراً مئين خمساً من الأيا ... م نـاهيكَ من عذابٍ مُقيمِ
ومُعَنّى من الضّنى بهناه ... نكأتْ بالكُلوم قرح الألومِ
سقَمٌ لا أُعاد فيه وفي العا ... ئدِ أنس يفي ببرءِ السّقيمِ

وكان لا بدّ للشاعر من أن يخرج من ذلك السجن. ولقد حاول لخروجه محاولات عديدة فاتصل بالأمير أبي الحزم مباشرة برسائل وقصائد كان يبعث بها إليه، ولكنها لم تُجد نفعاً، فاتصل بعدد من أصدقائه ممن لهم صلات وثيقة بالأمير محاولاً أن يجعلهم وُسطاء بينهما. وكان من الذين كلفهم بهذه المهمة صديقه الكاتب الوزير أبو حفص بن برد الأصغر في قصيدته:

ما على ظنّيَ باسُ ... يجرحُ الدهرُ وياسو

ولكن محاولاته جميعاً لم تفلح، فكان لا بدّ له من ثاني الخطتين فلجأ إلى الفرار. وفي هربه روايات؛ فبعضهم يقول إنه هرب مستعيناً بحارس السجن مطمعاً إياه بالمال، وبعضهم يرى أنه ما كان ليستطيع الفرار دون معاونة من ذي سلطة في قرطبة. ويبدو - وهذا رأي له مرجّحاته الكثيرة - أن الشاعر «إنما هرب من السجن بمساعدة خفية من صديقه وليّ العهد أبي الوليد بن جهور» ولم يكن هذا غريباً في ذلك الزمان الذي يغصّ بالملابسات السياسية المتشابكة.

وقد اعتذر في إحدى قصائده عن الفرار من السجن (فقد لامه بعضهم لذلك الفرار وعدوه عيباً) قال:

وقد وسَموني بالتي لستُ أهلها ... ولم يُمْنَ أمثالي بأمثالِها قَطُّ
فررتُ فإن قالوا: الفِرار إرابةٌ ... فقد فَرّ موسى حين هَمَّ به القِبطُ[1]

---

(١) إرابة: أي اتهام وشكّ. أي هو فرَّ مضطراً كما فرَّ موسى عليه السلام.. إلخ.

وقال من رسالة مطولة له معتذراً عن فراره من السجن مصوّراً تلك الحادثة: فلم أستطع صبراً، وعلمت أني أبليت عذراً؛ و لم يبق إلا أن يعذرني لبيد وكاد، ورأيتُ أن «العاجز من لا يستبد»، «فالمرء يعجز لا المحالة»، و لم أستجز أن أكون ثالث الأذلّين: العَير والوتد، وذكرتُ أن الفِرار من الظّلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين؛ قال الله، عز وجل، على لسان موسى، عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُم لَمَّا خِفْتُكُم﴾ [الشعراء ٢٦/٢١].

وقال الشاعر:

لا عارَ لا عارَ في الفرار فقدْ ... فرَّ نبيُّ الهدى إلى الغارِ

إلى آخر الرسالة.

قوله: أبليت عذراً، أي أديته إليه فقبله - وقد أشار إلى قول لبيد:

إلى الحولِ ثم اسم السلام عليكما ... ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

وإشارته إلى أن العاجز من لا يستبد معنى من قول عُمَر بن أبي ربيعة:

* إنّما العاجزُ مَن لا يستبد *

وإشارته إلى الأذلّين معروفة عند العرب ومن ذلك ما قاله المتلمس:

ولا يقيمُ على ذُلٍّ يُراقبُهُ ... إلا الأذلاّنِ عَيْرُ الحيّ والوتدُ

وهرب ابنُ زيدون من سجنه، ولجأ بصورة مؤقتة إلى دولة بني عباد - وقيل إلى مكان آخر - إلى أن عاد إلى قرطبة مرة أخرى.

وهذه قصيدةٌ كان بعث بها إلى صديقه أبي حفص بن برد الكاتب، ليتوسط لدى أبي الحزم لعله يفك إساره.

والنصّ يصور حال الشاعر النفسية وثورته العارمة على ظروفه.

قال*:

مـا عَلـى ظَنّـيَ بـاسُ   يَجْـرحُ الدَّهـرُ وياسـو[١]

رُبَّمـا أشْـرَفَ بـالْمَرْ   ءِ علـى الآمـالِ يـاسُ

ولقـد يُنْجيـكَ إغْفـا   لٌ، ويُرْديـكَ احْـتِراسُ

والمحـاذيرُ سِـهامٌ   والْمَقـاديرُ قِيـاسُ[٢]

ولَكَـمْ أجـدى قُعـود   ولَكـم أكْـدى التِماسُ[٣]

وكـذا الدَّهـرُ إذا مـا   عَـزَّ نـاسٌ ذَلَّ نـاس

وبنـو الأيّـامِ أخيـا   فٌ: سَـراةٌ وخِسـاسُ[٤]

نَلْبَـسُ الدُّنيـا ولكـنْ   متْعَـةٌ ذاكَ اللِّبـاسُ

يـا أبـا حَفْـصٍ ومـا سـا   واكَ في فَهْـمٍ إيـاسُ[٥]

مـن سَـنا رأيـكَ لي   في غَسَقِ الخَطْبِ اقتباسُ[٦]

وَوِدادي لـكَ نَـصٌّ   لم يُخالِفْـهُ قِيـاسُ[٧]

أنـا حَـيْرانُ وللأمْـ   ـرِ وضُـوحٌ والتِبـاسُ

مـا تـرَى في مَعشـرٍ حـا   لُوا عن العهْـدِ وخاسـوا[٨]

ورَأوني سـامِرِيّاً   يُتّقـى منـه المسـاسُ[٩]

---

* الديوان ٢٧٣ - ٢٧٧

(١) ياسو (يأسو): يداوي.

(٢) المحاذير ج محذور: وهو ما يُحذر منه. قياس ج قوس. المقادير ج مقدار: الأمر المحتوم.

(٣) أكدى الرجل: بخل وقلّ خيره، أو قطع عطاءه. أجدى: أغنى وأفاد.

(٤) هم أخياف أي مختلفون. (وإخوة أخياف أي أمهم واحدة والآباء شتى)، سراة جمع سري: وهو الماجد السخي، وخساس جمع خسيس: الدني، والدون لا يعبأ به.

(٥) إياس: هو إياس بن معاوية يضرب به المثل بالزكن (الفطنة والتفرس وسرعة الفهم).

(٦) الغسق: الظلمة. والسنا: الضياء.

(٧) النص: القول المحكم من القرآن الكريم أو الحديث الشريف، ولا مجال للرأي معه. والقياس أن تقيس المشكلة الحاضرة على مثيلاتها مما ورد فيه نص صريح.

(٨) خاس: غدر ونكس.

(٩) السامري: هو الذي أضلّ بني إسرائيل ودعاهم إلى الشرك لما خرج موسى عليه السلام لمناجاة ربه، وعاقبه الله بأنه لا يمس إنساناً إلا أدركتهما الحمى معاً، فكان يتحاشى الناس.

كُلُّهمْ يسأل عن حا — لي، وللذِّئب اعتساسُ(١)
إنْ قسا الدهرُ فلِلما — ءِ من الصخرِ انبجاسُ(٢)
ولَئنْ أمسَيْتُ محبو — ساً فللغيثِ احتباسُ
أذؤبٌ هامت بلحمي — فانتهاشٌ وانتهاسُ(٣)
يلبدُ الوَرْدُ السَّبَنْتى — وله بعدُ افتراسُ(٤)
فتأمَّلْ كيف يَغْشى — مُقلة المجدِ النّعاسُ
ويُفتّ المِسْكُ في التُّرْ — بِ، فَيُوطا ويُداسُ
لا يكنْ عَهدُكَ وَرْداً — إنّ عَهدي لك آسُ
وأدِرْ ذكريَ كأساً — ما امتَطَتْ كفّك كأسُ
واغتَنِمْ صَفْوَ الليالي — إنّما العَيشُ اختلاسُ
وعَسى أنْ يسمحَ الدّهـ — ـرُ فقد طالَ الشِّماسُ(٥)

صنع ابن زيدون النص في هذا الجو النفسي الخاص: جو السجن الخانق الذي ضيق فيه على الشاعر تضييقاً شديداً. لنقل إذن في مناسبة النص: سجن الشاعر ورأى أنه مظلوم، فكتب إلى الأمير أبي الحزم يستعطفه ويسترضيه، فلم يفلح فيما حاول. وكتب إلى بعض أصدقائه من ذوي المكانة فلم يستمعوا إليه. وبلغه عن بعض أصدقائه القدامى ما ينالونه به من وقيعة لدى الأمير فحزّ ذلك في نفسه. وكتب بهذا المعنى إلى صديقه الكاتب أبي حفص بن برد الأصغر هذه الأبيات التي بين أيدينا.

---

(١) اعتس: طاف بالليل.
(٢) انبجس الماء: انفجر.
(٣) الانتهاش: الأخذ بالأضراس. والانتهاس: الأخذ بمقدم الأسنان.
(٤) السبنتى: الجريء. والورد: من أسماء الأسد.
(٥) شمس الرجل: امتنع وأبى، والفرس الشموس إذا كان لا يمكن أحداً من ظهره، ولا من الإسراج والإلجام ولا يكاد يستقر.

وهذه القصيدةُ تُعدُّ في القصائد غير الطويلة التي بين أيدينا من شعر ابن زيدون. وهي بالقياس إلى شعره في السجن قصيدة أقل طولاً وأقصر عدد أبيات من غيرها، وهو استعمل بحراً قصيراً نظم عليه[١]، وهي على حالها هذه أشبه بأن تكون حكايةَ حالٍ من أن تكون شكوى واستجداء. ذلك أن الشاعر آنس من صديقه أبي حفصٍ وفاء وحسن بلاء وغَيْباً حسناً، فشكا إليه سوء تلك العلاقات الإنسانية مع كثير من الناس.. شكا له أولئك الأشخاص الذين ربّاهم فكانوا وبالاً عليه.. وأنه في نصه هذا ليث جريح حبيس لا يقوى على الصَّولة، لكنه لم يفقد حماسة المؤمن بقضيته؛ المقتنع من حسن الختام.. وفي تقديري أن الشاعر قد أنشأ هذا النص في مرحلة متأخرة من أيام سجنه. ذلك أننا نجده في هذا النص في حالٍ من الغضب الشديد، لم يكن غضبه لأنه سُجن ولكن من تلك العلاقات التي انبتت من أصدقاء قُدامى وجدوا في سجنه (الذي طال أمده) وسيلة للطعن عليه، والتقرب إلى السلطان بالكيد له، وشتمه والانتقاص منه.

والشاعر لا يزال على أمل قوي في أن تنفرج الكربة، وأن تزول الغشاوة وأن تتزحزح تلك الصخرة التي سدت أمامه السبل.. وهو يحدثنا عن الزمان الغادر والحظ البائس الذي كان من نصيبه. وهو إذ يلقي التبعات على الزمان إنما يدلنا على أمور فهو حين تضيق به السبل يجد الزمان هدفاً سهلاً قريب المتناول. وقد يكون الهجوم على الزمان ستاراً للهجوم على أشخاص قد لا يستطيع أن يهاجمهم مباشرة؛ فهو لن يهجو أبا الحزم بن جَهْوَر ولن يناله بسوء، وهو سجين على كل حال. وإن في (الدهر) و (الزمان) و (القدر) و (الأيام) و (اللّيالي) و (الحظّ) وسائل كافية لكي ينفّس بها عمّا في مكنونه ودخيلة نفسه.

---

(١) مجزوء الرمل

ابن خفاجة

(٤٦١ هـ - ٥٣٣ هـ)

١ - ترجمت كتب الرّجال والتراجم الأدبية لابن خفاجة باعتباره من العلماء من جهة، وباعتباره من نبهاء الأدباء وفحول الشعراء من جهة ثانية. فقد تلقّى العلم عن أهله في زمانه، وكانت له رواية عالية، ولازم أهل الأدب ونبغ في الشعر فَعُرِفَ بهذا الفنّ، واسترسل تحت مظلته طوال حياته.

ولد أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبيد الله الهوّاري(١) في بلدة تدعى شُقر، أو جزيرة شُقر، القريبة من بلنسية الْمُطلة على البحر المتوسّط سنة (٤٥١ هـ) والمنطقة كلها من المناطق الغنية بالأنهار ومساقط المياه والينابيع، الغارقة في الخضرة الطبيعيّة، والعناية الزراعية الفائقة.

واكتفى الشاعر من الدّنيا برزق قليل تدرّه عليه قطعة أرض، واستغنى، وتعفّف، عن انتجاع الأمراء والحكام، وعن مدّ يده إليهم. على أنه مدح المرابطين، وقد أسهموا في إنقاذ الأندلس من السقوط في يد العدو، واستنقذوا مدينة بلنسية وما حولها بعد أن احتلّها المغامر القشتالي السِّيْد القمبيطور كما كان يلقّبه العَرب. وهو أفّاق مرتزق انتهز فُرصة ضعف المنطقة سياسيّاً وعسكريّاً.

---

(١) له ترجمة في قلائد العقيان ٢٤١، ٣٠٤، ومطمح الأنفس ٨٦، والمعجم لابن الأبار ٥٩، والتكملة ٧٠/١، والروض المعطار ٤٨، ١٠٣، ووفيات الأعيان ٣٩/١، والمغرب ٣٦٧/٢
- وانظر دراسة موسّعة عنه في: (ابن خفاجة) د. محمد رضوان الداية.
- و: حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة - لحمدان حجّاجي.

وقد خرج عن الأندلس إلى المغرب في مدّة وجود ذلك المغامر في شرق الأندلس، وذاق مرارة الاغتراب، وأثمرت هذه التجربة ظهور شعر الحنين في ديوانه بشكل واُضح.

٢ - كان لابن خفاجة مكانته في عصره عند الحكّام من أُمراء الطوائف وعند المرابطين من الحكام والقادة وطبقتهم. وكانت له صداقات مع كبار رجال عصره من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء مثل ابن السِّيد البطليوسي، وابن أبي الخصال، وابن خاقان، وابن باجة، وابن وهبون...

وكان له معجبون بفنّه وأدبه وشعره، واجتمع له عدد كبير من الأُدباء والمحبّين من أنحاء الأندلس يحملون عنه شعره، ويقرؤونه عليه، وقد أثنوا عليه، وأفادوا من طريقته (المذهب الخفاجي)، وأطلقوا عليه لقب (جَنّان الأندلس) لكثرة وصفه للطبيعة الأندلسية، وارتباطه النفسي والحياتي ببلدته شُقر، وبلاده: الأندلس.

٣ - وابن خفاجة يُصَنّف في الشعراء، فهو في طليعة شعراء الأندلس ذوي التميّز والتفرد وظهور الشخصية، وشارك في الترسُّل، والنقد الأدبي. ولديوانه مقدمة أنشأها وكتبها بقلمه تنم عن خبرة بهذا الفن ورأي واضح.

ووصف ابن خفاجة - من خلال تراجمه وتراجم تلامذته وتراجم أساتذته وأصحابه - بأنّه يُحيط بعدد من فنون المعرفة: الحديث، والفقه، واللغة، والنّحو، والمنطق، وغيرها.

٤ - وفنون شعر ابن خفاجة الْمَدْحُ، والرثاء، والغزل، والنسيب، والهجاء (وقد حذف أكثره من نسخة ديوانه التي اعتمدها وأذاعها) والعتاب والحكمة والزهد.

على أنه برع في وصف الطبيعة[1]، (وأكْثَر من هذا الغَرض)، وفي شعر الحنين.

---

(١) انظر بحث (وصف الطبيعة في الأندلس) من هذا الكتاب.

المدح[1]:

الممدوحون في شعر ابن خَفاجة: أمراء من المرابطين، ووزراء، وقضاة. ومدح من أبناء يوسف بن تاشفين (أمير المسلمين، صاحب دولة المرابطين) إبراهيم، وتميماً، وأمراء آخرين، كما مدح السيّدة مريم بنت تيفلويت.

وتدور قصائد المديح حول التهنئة بالولاية، أو الشكر على صنيع، أو التوسّل بقبول شفاعة لأحد الناس..

ومدح الحُرّة مَرْيم، زوج الأمير تميم يدل على المكانة التي بلغتها المرأة المرابطية، وعلى ثقافة القوم العربية، ومن قصيدته فيها:

وكفى احتماءً مكانة وصيانةٍ ... أني علقتُ بذمّة من مريمِ
ذات الأمانة والديانة والتقى ... والخلق الأشرف والطريق الأقومِ
من أسرة يتلفّعون إلى الوغى ... يوم الحفيظة بالعجاج الأقتمِ!

وقد مدح ابن خفاجة هؤلاء الممدوحين بالمعاني المألوفة في الشعر العربي من الشجاعة والكرم والنسب، وركّز على صفات الممدوح الشخصية، ونوّه بالمقوّمات الخُلقية والدينية من ورع وتقوى وإغاثة ملهوف... وكان يضع قصائد المديح في مواضعها التاريخيّة وفي مناسباتها الملائمة: بعد معركة ظافرة، أو بمناسبة احتفال هام أو حدَثٍ ذي بال.

وأثبت ابن خفاجة في مدحه المرابطين نسبتهم العربيّة، كما أكد ابن خلدون ذلك في ما بعد من اتصال نسب البربر بنسب العرب، وربط بين هؤلاء الممدوحين وبين نسب في قريش كقوله في إبراهيم بن يوسف بن تاشفين:

من قريش في الصميم ومن ... فتية أهيجاء في الصّمم!

وترتبط هذه المعاني كلها برباط شعوري متكامل:

(١) انظر (المدح) في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

إمــامٌ تدانــى رأفــةً وسمــا بــه ... إلى المجد بيتٌ طاول النجمَ أروَعُ
جلــيّ ومــن بطحــاء مكّــةَ حنّــةٌ ... إليــه، وللبيــت الحــرام تطَلُّــعُ
تــرى لقريــش فيــه بَــرْقَ مخيلــةٍ ... يلــوحُ وعرقــاً للخلافــة يــنزعُ!

وتبلغ قصيدته التي عَنْوَن لها (في الاعتبار) الذروة في وصف الطبيعة، وفي الإعجاب بطبيعة بلاده، والاستغراق في الائتلاف معها، والاستظلال بظلالها ماديّاً ومعنويّاً. ولقد تجلّى امتزاجه بالطبيعة في تفاعله مع مُعطياتها، والعيش في أجوائها المرحة الجميلة كما تجلى في محاولة استكناه غوامضها وغرائبها، وفي الوقوف موقف المعتبر لعظمة ما صنع الله تعالى فيها وأبدع.

ولا بدّ ونحن نقبل على مراجعة قصيدته (في الاعتبار) والغوص في معانيها ومقاصدها أن ننتبه إلى أن الشاعر عُمّر طويلاً، وكان إذْ مات أصحابه عنه واحداً بعد واحد يترقب مجيء الموت على كُرْهٍ منه ورأى أنّه على الرغم من رحلة حياته الطويلة، لم يكد يلبث في هذه الحياة إلا عشيّةً أو ضُحاها، كما قال[1]:

ثم ولّت كأنها لم تكد تلبث ... إلاّ عشيّةً أو ضُحاها

وجعل ابن خفاجة نفسه كذلك الجبل الذي يُؤوي الشريد والطريد، والعابد والزاهد، فأنْطَق الجبل، واستمع إلى حديثه ووعظه في تشخيص متقن، واندماج رائع. وانتهى الشاعر إلى الاستسلام الْمُطلق عن شخص رجل زاهد، تائب، عابد، مُعتبِر[2].

شعر الحنين:

تدل أخبار ابن خفاجة، وتنمّ أشعاره عن رجل: مرهف الإحساس، مضطرم العاطفة، سريع التأثر والانفعال. لقد كان الشاعر مغرقاً في محبة وطنه الأندلس، وحبّ وطنه الصغير: جزيرة شُقر. وكان أيضاً وفياً لأصدقائه، مرتبطاً بهم، كثير العودة في شعره إلى ذكرياته معهم، وإلى ذكريات الصبا وأيام الشباب.

---

(١) سنورد القصيدة كاملة في غرض الحنين.

(٢) انظر: ابن خفاجة ٦٢ - ٦٤

ومن هنا كان ابن خفاجة مشغولاً بدائرتين متشابكتين: هما دائرة المكان ودائرة الزّمان. أمّا دائرة المكان فإطارها شُقر، والأندلس. وأما دائرة الزمان فإطارها يدور حول أيام الصّبا والشباب، وما كان يكون في الشباب من صَبوات، وما يكون معها من صداقات وأصدقاء!

ولا يغيبُ عن البال أنّ ابنَ خَفاجة عانى من الغُرْبة واكْتَوى بنارها وذاقَ مرارتها، وهو الإنسان الألوف؛ وها هو ذا يضع في أوّل آماله وغاية أمانيه: رؤية الوطن ولقاء الديار:

فيا ليت شعري هل لدهري عطفةٌ ... فتجمع أوطاري هناك وأوطاني
ميادين أوطاري ومعهد لَذّتي ... ومنشأ تهيامي، وملعب غزلاني

وينادي بأعلى صوته:

ألا هَلْ إلى أرض الجزيرة أَوْبَةٌ ... فأسكنَ أنفاساً وأهدأ مضجعا؟!

ونظَر ابنُ خَفاجة إلى وطنه نظرةً شاعريّةً شموليّة:

إنّ للجنة بالأندلس ... مجتلى حسن وريّا نفَس
فسنا صُبحتها من شنبٍ ... ودُجا ليلتها من لعسِ(١)
فإذا ما هبت الريح صبا ... صحتُ: واشوقي إلى الأندلس!

ويكثر في شعر ابن خفاجة ذكر مواضع في بلدته شُقر مثل: باب الزخارف، والشطّ، والكنيسة، والمَرْج... (انظر قصيدته: بين شقر وملتقى نهْريها).

وقد أكثر الشاعر من ذِكر الماضي، ومن الكلام عن أشباحه الماثلة في الفكر والذّهن، التي لا تغيب على الرغم من تقادم الأيام والأعوام. ومن شعره في هذا المقصد قوله:

---

(١) الشَّنَبُ: جمال الثغر وصفاء الأسنان. واللعس: ميل باطن الشفة إلى السواد (وهي صفة مستحسنة عندهم).

ويــا رُبّ ذيــل للشــباب سَــحَبْتُه ... ومــا كنــت أدري أنّــه سَــيُقَلَّصُ
ولمحـة عيــشٍ بـين كــأس رويّــةٍ ... تــدار، وظــبي بــاللّوى يُتقَنَّـصُ
ألا بانَ عيــشٌ كــان ينـدى غضـارةً ... فيا ليت ذاك العيش لو كان ينكصُ!

فالزّمان - وهو تعبير آخر عن العُمر عند الإنسان - ينسحب من بـين يديـه؛ فإن التقدم في السن يعني النقصان من سنوات العُمر!

وفي شعر الحنين يلاحظ القارئ اضطرام نفـس الشـاعر، فـإذا مـا زاد الحنـينُ وغلب تحوّل إلى تشخيص الشبيبة أو زمان الشباب، في صـور تتحـرّك، وتتكلـم وكأنها شخوص حقيقية؛ في إطار شعري بالغ الروعة وعطاء وجدانيّ عميق.

ويكثر وصف الزمان الماضي (وفيه الشباب الرائـق) بكلمـات دقيقـة مؤثـرة مثـل «شهيّ» و «قصير» و «طيّب» و «نديّ». ويرى الشاعر أن الشباب رَسْمٌ أو طلَـل يمكن أن يبكيه كما يبكي الشاعر عادة عند الأطلال. وفي هذا يقول من قصيدة:

ولم أدْرِ مــا أبكـي أرسـمَ شــبيبةٍ ... عفا أم مَصِيْفاً من سُـليمى ومَرْبعـا؟
وأوجَــعُ توديــع الأحبّــة فُرْقــةً ... شباب على رغـم الأحبّـة وَدّعـا
وما كان أشهى ذلـك الليـل مَرْقـداً ... وأنـدى مُحَيّـا ذلـك الصبـح مَطْلَعـا
وأقصــر ذاك العهــد يومــاً وليلــةً ... وأطيـب ذاكَ العيـش ظِـلاً ومكرعـا

ويقول في قصيدة أخرى:

فــآهٍ طويــلاً ثــم آهٍ لِكَــبْرَةٍ ... بكيتُ على فقـد الشباب بهـا دَمـا

ويجتمع الحنين إلى الوطن، بالحنين إلى الشباب في مواقف كثيرة فتظهر عاطفة الشاعر الحزينة، ويرتفع صوته الباكي في تعبير شـعري مفعـم بخلجـات إنسـانية. وتلتقي عند الشـاعر أحاديث غربتين: غرْبـة المكـان (ووحشـته أحيانـاً) بغربـة الزمان وصيرورة الشباب إلى ذكريات مؤرّقة حزينة!

-اشتهرت في كتب المختارات الأدبية، وفي كتب تاريخ الأدب، قصيدةٌ لابن خفاجة، بائيّةٌ: أسْهَبَ الدّارسون في تقويمها واجتلاء جَوانبها المختلفة، وكثيراً ما

تَرِدُ في النُّقول تحت عنوان (وَصف الجَبَل)؛ أمّا الشّاعِرُ فقد قدّمَ لها بقوله: «وقال في الاعتبار» وهي قصيدةٌ رائعةٌ، بالِغَةُ الدّلالَةِ على حال الشّاعر ونفسِهِ في تلكَ الحقبة مِن حياتِهِ، وجَعَلَ الْجَبَلَ مُعادِلاً مَوْضوعياً لنفسِهِ وعُمُرِهِ الطَّويلِ وما مرَّ عليه من حوادث الخير والشّرّ والسَّرَّاء والضَّرَّاء*:

١- بعَيْشكَ هَلْ تَدْري أهُوجُ الْجَنائِبِ ... تَخُبُّ برَحْلي أمْ ظُهُورُ النَّجائِبِ[1]
٢ - فَما لُحْتُ في أُولَى الْمَشارِق كَوْكَباً ... فَأَشْرَقْتُ، حَتّى جُبْتُ أُخْرَى المَغارِبِ
٣ - وَحيداً تَهاداني الفَيافي فَأَجْتَلي ... وُجوهَ الْمَنايا في قِناعِ الغَياهِبِ[2]
٤ - وَلا جارَ إلاَّ مِنْ حُسامٍ مُصَمِّمٍ ... وَلا دارَ إلاَّ في قُتُودِ الرَّكائِبِ[3]
٥ - وَلا أُنْسَ إلاَّ أنْ أُضاحِكَ ساعةً ... ثُغورَ الأماني في وُجوهِ الْمَطالِبِ
٦ - بلَيْلٍ إذا ما قُلْتُ قَدْ بادَ فَانقضى ... تَكَشَّفَ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الظَّنِّ كاذِبِ
٧ - سَحَبْتُ الدَّياجي فيهِ سُودَ ذَوائِبٍ ... لأَعْتَنِقَ الآمالَ بيضَ تَرائِبِ[4]
٨- فَمَزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيلِ عَنْ شَخْصِ أَطْلَسٍ ... تَطَلَّعَ وَضّاحَ الْمَضاحِكِ قاطِبِ[5]
٩ - رَأَيْتُ بِهِ قِطْعاً مِنَ اللَّيلِ أَغْبَشا ... تَأَمَّلَ عَنْ نَجْمٍ تَوَقَّدَ ثاقِبِ[6]
١٠ -وَأَرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤابَةِ باذِخٍ ... يُطاوِلُ أعْنانَ السَّماءِ بغارِبِ[7]
١١- يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ... وَيَزْحَمُ لَيْلاً شُهْبَهُ بِالْمَناكِبِ
١٢ -وَقُورٍ عَلى ظَهْرِ الفَلاةِ كَأنَّهُ ... طَوالَ اللَّيالي مُطْرِقٌ في العَواقِبِ

---

* القصيدة في الدِّيوان ٢١٥ - ٢١٧

(١) هوج الجنائب: رياح الجنوب الهوجاء. والنّجائب: جمع نجيبة، وهي الناقة الكريمة، وتَخُبُّ: مِن خَبَّ الفَرَسُ أي مشى الْخَبَبَ، وهو ضربٌ مِنَ العَدْوِ.

(٢) أجتلي: أنظر. والغياهب: جمع الغيهب، وهو الظلمة، واللَّيْل.

(٣) صمَّم السيفُ: مضى في العظم وقطعه. والقتود: جمع القَتَدِ، وهو عيدان الرَّحْلِ.

(٤) التّرائب: جمع تريبة، وهي عظامُ الصَّدْرِ ممّا يلي الترقوتَيْن، وموضع القلادة.

(٥) الجيب: ما يلي العُنُقَ مِنَ الثَّوْبِ. والأطلس: الذي في لَوْنِهِ غُبْرَةٌ إلى سَوادٍ؛ يريد: عن شخص أُفقٍ أطلس، قد اختلط فيه آخر سواد الليل بأوَّل بياض النَّهار.

(٦) الأغبش: الذي لونُهُ الغُبْشة، وهي لون ظُلْمةِ آخر الليل، وأراد بالنجم هنا الزّهرة أو عطارد، لظهورها عند مطلع الفجر.

(٧) الأرعن: الجبل الشديد النتوء. والباذخ: العالي. والطّامح والطَّمّاح: المرتفع. والغارب: الكاهل، وأعلى كلّ شَيْءٍ.

١٣ - يَلُوثُ عَلَيْهِ الغَيْمُ سُودَ عَمائِمٍ لَها مِنْ وَمِيضِ البَرْقِ حُمْرُ ذَوائِبِ[(١)]
١٤ - أَصَخْتُ إليهِ وَهْوَ أخرَسُ صامِتٌ فَحدَّثَني لَيْلَ السُّرَى بالعَجائِبِ[(٢)]
١٥ - وَقالَ: ألا كَمْ كُنْتُ مَلْجأَ فاتِكٍ وَمَوْطِنَ أوّاهٍ تَبَتَّلَ تائِبِ[(٣)]
١٦ - وَكَمْ مَرَّ بي مِنْ مُدْلِجٍ ومُؤَوِّبٍ وَقالَ بِظِلّي مِن مَطِيٍّ وراكِبِ[(٤)]
١٧ - وَلاطَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّياحِ مَعاطِفي وَزاحَمَ مِنْ خُضْرِ البِحارِ جَوانِبي
١٨ - فَما كانَ إلاَّ أنْ طَوَتْهُمْ يَدُ الرَّدى وَطارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوائِبِ
١٩ - فَما خَفْقُ أيْكي غَيْرَ رَجْفَةِ أضْلُعٍ وَلا نَوْحُ وُرْقي غَيْرَ صَرْخَةِ نادِبِ[(٥)]
٢٠ - وَما غَيَّضَ السُّلْوانُ دَمْعي وَإنَّما نَزَفْتُ دُموعي في فِراقِ الأصاحِبِ[(٦)]
٢١ - فَحَتَّى مَتَى أبْقَى وَيَظْعَنُ صاحِبٌ أُوَدِّعُ مِنْهُ راحِلاً غَيْرَ آيِبِ[(٧)]
٢٢ - وَحَتَّى مَتَى أرْعَى الكَواكِبَ ساهِراً فَمِنْ طالِعٍ أخرى اللَّيالي وَغارِبِ
٢٣ - فَرُحْماكَ يا مَوْلايَ دَعْوَةَ ضارِعٍ يَمُدُّ إلى نُعْماكَ راحَةَ راغِبِ[(٨)]
٢٤ - فَأسْمَعَني مِنْ وَعْظِهِ كُلَّ عِبْرَةٍ يُتَرْجِمُها عَنْهُ لِسانُ التَّجارِبِ
٢٥ - فَسَلَّى بِما أبْكَى وَسَرَّى بِما شَجا وَكانَ عَلَى لَيْلِ السُّرَى خَيْرَ صاحِبِ[(٩)]
٢٦ - وَقُلْتُ وَقَدْ نَكَّبْتُ عَنْهُ لِطِيَّةٍ: سَلامٌ، فَإنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذاهِبِ[(١٠)]

(١) يلوثُ: يَلُفُّ. والذَّوائب: جمع الذُّؤابة، وهي النّاصية.
(٢) أصاخ له: استمع وأصغى.
(٣) الفاتك: الجريء الشجاع. والأوّاه: الذي يتأوّه من ذنوبه، وتَبَتَّل: تَنَسَّكَ وانقطع للعبادة.
(٤) المدلج: السائر ليلاً. والمؤوِّب: الذي يسير جميع النّهار وينزل الليلَ. وقالَ: نامَ في القائلة، وهي منتصف النهار.
(٥) الأيك: الشجر الكثير الملتفّ. وخَفَقَ الأيكُ: تَحَرَّكَ واضطربَ. والوُرْقُ: جمع الوَرقاء، وهي الحمامة التي يضرب لونها إلى الخُضْرَة.
(٦) وغاضَ الدَّمعُ: قَلَّ، ونقص. والسُّلْوان: النّسيان.
(٧) يظعن: يرتحل. وآبَ: رَجع.
(٨) الضارع: الخاشع الخاضع.
(٩) سَرَّى عَنْهُ: كَشَفَ عنه هَمَّهُ. وشَجا: أحْزَنَ.
(١٠) الطِّيَّةُ: الجِهَةُ أو النّاحية البعيدة.

– «وقالَ، وقد طلع عليه القمر في بعض ليالي أسفاره، فجَعَلَ يُطْرِقُ في معنى كُسوفِهِ وإقمارِهِ، وعِلَّةِ إهْلالِهِ تارَةً وسِرارِهِ، ولزومه لمركزه مع انتقاله في مَدارِهِ، مُعْتَبراً بحَسْبِ فَهْمِهِ واستطاعته، ومُعتقداً أنَّ ذلكَ معدودٌ في عبادة الله وطاعتـه، لقوله تعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألْبابِ﴾ [آل عمران ١٩٠/٣]. فقال، وقد أقام معاينة تلك النصبة واسْتَشْرَفَ تلكَ الحالَةِ والهيئةِ مُقامَ الْمُناجاةِ لِمَنْ خَلا بنفسِهِ يُفكِّر، ونَظَرَ نظرةَ الْمُوَفَّقِ يعتبر»*:

١ – لَقَدْ أصَخْتُ إلى نجواكَ مِنْ قَمَرِ ... وَبِتُّ أُدْلِجُ بَيْنَ الوَعْيِ والنَّظَرِ (١)
٢ – لا أجْتَلي لُمَحاً حَتَّى أعِي مُلَحاً ... عَدْلاً مِنَ الْحُكْمِ بَيْنَ السَّمْعِ والبَصَرِ (٢)
٣ – وَقَدْ مَلأْتَ سَوادَ العَيْنِ مِنْ وَضَحٍ ... فَقَرِّطِ السَّمْعَ قُرْطَ الأُنْسِ مِنْ سَمَرِ (٣)
٤ – فَلَوْ جَمَعْتَ إلى حُسْنٍ مُحاوَرَةً ... حُزْتَ الْجَمالَيْنِ مِنْ خُبْرٍ وَمِنْ خَبَرِ
٥ – وَإنْ صَمَتَّ فَفي مَرآكَ لي عِظَةٌ ... قَدْ أفْصَحَتْ لِيَ عَنْها ألْسُنُ العِبَرِ
٦ – تَمُرُّ مِنْ ناقِصٍ حَوْراً، ومُكْتَمِلٍ ... كَوْراً، وَمِنْ مُرْتَقٍ طَوْراً ومُنْحَدِرِ (٤)
٧ – والنَّاسُ مِنْ مُعْرِضٍ يَلْهَى ومُلْتَفِتٍ ... يَرْعَى، ومِنْ ذاهِلٍ يَنْسَى وَمُدَّكِرِ
٨ – تَلْهُو بساحاتِ أقْوامٍ تُحَدِّثُنا ... – وَقَدْ مَضَوْا فَقَضَوْا – أنَّا عَلى الأثَرِ
٩ – فَإنْ بَكَيْتُ – وَقَدْ يَبْكي الْجَليدُ – فَعَنْ ... شَجْوٍ يُفَجِّرُ عَيْنَ الماءِ في الْحَجَرِ (٥)

– وقالَ يصف مُتَفَرِّجاً**:

---

* المقدّمة النثرية للشاعر نفسه، والنصّ في الديوان ١٣٠ – ١٣١

(١) أصختُ: استمعتُ. وأُدْلِجُ: أسيرُ مِنْ أوّل الليل.

(٢) أجتلي: أنظر.

(٣) الوَضَحُ: بَياضُ الضَّوْءِ.

(٤) الْحَوْرُ: النَّقْصُ. والكَوْر: الزِّيادة؛ يُقال: نعوذ بالله من الْحَوْرِ بعد الكَوْرِ؛ أي: مِنَ النَّقص بعد الزِّيادة.

(٥) الْجَليدُ: الصَّبور على المكروه، والقويّ. والشَّجْوُ: الْهَمُّ والْحَزَنُ.

** المقطوعة في الديوان ٢٨١

١ - وَصَقيلَةِ النُّوَّارِ تَلْوي عِطْفَها ... ريحٌ تُلِفُّ فُروعَها مِعْطارُ(١)
٢ - عاطى بها الصَّهْباءَ أحْوى أحْوَرٌ ... سَحَّابُ أذْيالِ الصِّبا سَحَّارُ(٢)
٣ - وَالنَّوْرُ عِقْدٌ، والغُصونُ سَوالِفٌ ... وَالجِزْعُ زَنْدٌ والْخَليجُ سِوارُ(٣)
٤ - بِحَديقَةٍ مَثَلَ اللَّمَى ظِلاًّ بِها ... وَتَطَلَّعَتْ شَنَباً بِها الأَنْوارُ(٤)
٥ - رَقَصَ القَضيبُ بها وَقَدْ شَرِبَ الثَّرَى ... وَشَدا الْحَمامُ وَصَفَّقَ التَّيَّارُ
٦ - غَنَّاءَ أَلْحَفَ عِطْفَها الوَرَقُ النَّدِي ... وَالتَفَّ في جَنَباتِها النُّوَّارُ(٥)
٧ - فَتَطَلَّعَتْ في كُلِّ مَوْقِعِ لَحْظَةٍ ... مِنْ كُلِّ غُصْنٍ صَفْحَةٌ وعِذارُ(٦)

- وقالَ يصف شَجَرَةً مُنَوِّرَةً وماءً سائحاً*:

١ - يا رُبَّ مائِسَةِ الْمَعاطِفِ تَزْدَهي ... مِنْ كُلِّ غُصْنٍ خافِقٍ بِوِشاحِ(٧)
٢ - مُهْتَزَّةٍ يَرْتَجُّ مِنْ أعْطافِها ... ما شِئْتَ مِنْ كَفَلٍ يَموجُ رَداحِ(٨)
٣ - نَفَضَتْ ذَوائِبَها الرِّياحُ عَشِيَّةً ... فَتَمَلَّكَتْها هِزَّةُ الْمُرْتاحِ(٩)
٤ - حَطَّ الرَّبيعُ قِناعَها عَنْ مَفْرِقٍ ... شَمِطٍ كَما تَزْبُدُ كَأْسُ الرَّاحِ(١٠)
٥ - لَفَّاءُ حاكَ لَها الغَمامُ مُلاءَةً ... لَبِسَتْ بِها حُسْناً قَميصَ صَباحِ(١١)
٦ - نَضَحَ النَّدى نُوَّارَها فَكَأنَّما ... مَسَحَتْ مَعاطِفَها يَمينُ سَماحِ
٧ - ولوى الخليجُ هناك صفحةَ مُعْرِضٍ ... لثمت سوالِفَها ثغورُ أقاحِ!(١٢)

(١) يصف في هذا البيت شجرةً منوَّرةً (مزهرة)؛ والنُّوّار: الزَّهر الأبيض.
(٢) الصهباء: الخمر. والأحوى: مَنْ به حُوَّة، وهي السُّمْرَةُ الْمُحَبَّبَةُ في الشَّفَةِ.
(٣) الجزْع: منعطف الوادي. والخليج: النَّهْر.
(٤) اللَّمى: سُمْرَةٌ في الشَّفَةِ، وهو مما يُسْتَحْسَنُ. والشَّنَبُ: عذوبةٌ في الأسنان. والأنوار: جمع نَوْرة، وهي الزَّهرة البيضاء.
(٥) أَلحفَ عِطْفَهُ الوَرَقُ: أي غَطَّاهُ؛ تقول: ألحَفْتُ فلاناً الثَّوْبَ إذا ألبسته إيّاه.
(٦) العِذار: جانب اللِّحية.
* القطعة في الديوان ٢٨١ - ٢٨٢
(٧) ماسَ يميسُ: تَبَخْتَرَ.
(٨) الكَفَلُ: العَجُز. والرَّداح: الثقيلة الأوراك.
(٩) الارتياح: النَّشاط والرَّحمة.
(١٠) الشَّمِطُ: الّذي خالَطَ سَوادَهُ بَياضٌ.
(١١) اللَّفَّاء: الْمُلْتَفَّةُ المجتمعة.
(١٢) الأقاح جمع الأقحوان: نوع من الأزاهير تشبّه به الزهور، والأسنان.

- وقالَ يَنْدُبُ مَعاهِدَ الشَّبابِ، ويَتوجَّعُ لوفاة الإخوان والأتراب، بعقب سَيْلٍ عَفا الدِّيارَ وَمَحا الآثارَ*:

١ - ألا عَرَّسَ الإخْوانُ في ساحَةِ البِلَى ... وَمَا رَفَعوا غَيْرَ القُبورِ قِبابا(١)

٢ - فَدَمْعٌ كَما سَحَّ الغَمامُ وَلَوْعَةٌ ... كَما ضَرَبَتْ ريحُ الشَّمالِ شِهابا(٢)

٣ - إذا اسْتَوْقَفَتْني في الدِّيارِ عَشِيَّةً ... تَلَدَّدْتُ فيها جيئَةً وَذَهابا(٣)

٤ - أكُرُّ بطَرْفي في مَعاهِدِ فِتْيَةٍ ... ثَكِلْتُهُمُ بيضَ الوُجوهِ شَبابا

٥ - فَطالَ وُقوفي بَيْنَ وَجْدٍ وَزَفْرَةٍ ... أُنادي رُسوماً لا تُجيرُ جَوابا(٤)

٦ - وَقَدْ دَرَسَتْ أجْسامُهُمْ وَدِيارُهُمْ ... فَلَمْ أرَ إلاَّ أقْبُراً وَيَبابا(٥)

٧ - وَحَسْبِيَ شَجْواً أنْ أرَى الدَّارَ بَلْقَعاً ... خَلاءً وَأشْلاءَ الصَّديقِ تُرابا(٦)

- وقالَ، وأعَدَّها لِتُكْتَبَ عَلى قَبْرِهِ*:

١ - خَليلَيَّ هَلْ مِنْ وَقْفَةٍ لِتَألُّمِ ... عَلى جَدَثي أوْ نَظْرَةٍ لِتَرَحُّمِ

٢ - خَليلَيَّ هَلْ بَعْدَ الرَّدى مِنْ ثَنِيَّةٍ ... وَهَلْ بَعْدَ بَطْنِ الأرْضِ دارُ مُخَيَّمِ(٧)

٣ - وَإنَّا حَيينا أوْ رَدينا لإخْوَةٌ ... فَمَنْ مَرَّ بي مِنْ مُسْلِمٍ فَلْيُسَلِّمِ

٤ - وَماذا عَلَيْهِ أنْ يَقُولَ مُحَيِّياً ... ألا عِمْ صَباحاً أوْ يَقُولَ ألا اسْلَمِ

٥ - وَفاءً لأشْلاءٍ كَرُمْنَ عَلى البِلَى ... فَعاجَ عَلَيْها مِنْ رُفاتٍ وَأعْظُمِ(٨)

---

* القصيدة في الديوان ١٧٧ - ١٧٨

(١) عَرَّسَ: نَزَلَ لَيْلاً.

(٢) سَحَّ المَطَرُ: انصبَّ.

(٣) تلدَّدَ: تلفَّتَ يميناً وشمالاً، وتلدَّدَ أيضاً: تحيَّر.

(٤) لا تُجيرُ جواباً: لا تردُّ جواباً.

(٥) دَرَسَتْ: امَّحت آثارُها. واليباب: الخَراب.

(٦) الشجو: الحزن والهَمّ. والبلقعُ: البَلَدُ القفْرُ.

* الأبيات في الدّيوان ٣٦٣

(٧) الثنيّة: الطريق في الجَبَل. ودارُ مُخيَّم: دار مُقام، وأصله من قولهم خيَّمَ القومُ إذا نصبوا خيامَهُمْ.

(٨) عاجَ على المكان: مرَّ بهِ، وعَطَفَ رأسَ بعيره إليه.

ابن أبي الخِصال[1]

١ - أبو عبد الله محمد بن مَسْعود بن خَلَصَة الغافقي، المشهور بابن أبي الخِصال. والغافقي نسبة عربية إلى غافق. وأسرته من قرية فَرْغَلّيط من جهة شقورة التابعة لمدينة جيّان. ولد في قريته سنة (٤٦٥ هـ) في أسرة علميّة مشهورة. وقد ظهر من أسرته الصغيرة: هو، وأخوه أبو مروان وأخوه الثالث أبو جعفر. وقد انتقل بعد مدّة إلى قرطبة، ونجد كتب التراجم تنسبه إلى أصله (الفرغلّيطي الشقوري) أو إلى سكنه (القُرطبي).

وابن أبي الخصال أحد أعلام القرن الخامس والسّادس: ثقافةً، وعلماً، وكتابةً، وشعراً، وإدارةً، وصلةً بالعلماء والأدباء تأثّراً بمن سبق وتأثيراً بمن لحق.

برَع ابن أبي الخصال في فن الكتابة، وكتب لكثير من الأُمراء والولاة والحكام، وممن كتب لهم أمير المسلمين وزعيم دولة المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين. وتنقّل في خدمته بين الأندلس والمغرب (فقد كان القطران دولةً موحّدة) ومن المُدن التي خدم فيها: قرطبة، وبلنسية، وسرقسطة، وفاس، وسبتة...

وامتدت حياة ابن أبي الخصال إلى سنة (٥٤٠ هـ) حيث قتل على يد بعض الجنود - وهم لا يعرفونه - مع ابن أخته عبد الله بن عبد العزيز.

---

(١) قلائد العقيان ١٩٩، والمعجم في شيوخ الصدفي ١٤٤، والمغرب ٦٦/٢، والمطرب ١٨٧، وبغية الملتمس ١٢١، والخريدة (قسم الأندلس) ٤٥٩/٢، والإحاطة ٢٦٤/٢، والمعجب ١٢٤، وبغية الوعاة ١٠٤

- ولنا عليه دراسة: (ابن أبي الخصال).

٢ - يعدّ ابن أبي الخِصال مثالاً جيّداً للمثقّف الأندلسي في زمانه. فقد أخذ عن شيوخ كبار في علوم شتّى: في العلوم الشرعية - وخصوصاً علوم الحديث النبوي -، وفي علوم اللغة، وفي الدراسات الأدبيّة.

وأجمل ابن بشكوال صورة الرّجل بعبارة موجزة فقال: «كان مفخرة وقته وجمال جماعته: حسن العِشرة، واسع المبرّة، من أهل الخصال الباهرة، والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، حلو الكلام، أحد رجال الكمال؛ وله تآليف حسان»[(١)].

ولَخّص د. شوقي ضيف معالم شخصيته، ومجال إبداعه الأدبي، ووصل بين ثقافته وعلومه من جهة وبين إبداعه في كتابته وتآليفه فقال[(٢)]: إنه درس على شيوخ الأندلس عامة وشيوخ قرطبة خاصة، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفنناً في العلوم مستبحراً في الآداب واللغات، عالماً بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسير والأشعار..

٣ - ومن آثاره الباقية ديوان كبير[(٣)] فيه: من آثاره النثرية والشّعرية، رسائل ديوانية، ورسائل إخوانية، ومقامات، وخطب، ورسائل نبويّة، وقصائد متفرقة، ومعارضة لبعض مؤلفات المعرّي.

١) معارضة (مَلْقى السَّبيل) لأبي العلاء المعرّي:

و (ملقى السبيل) رسالة قصيرة للمعري رتبها على حروف المعجم. وفي كل حرف يورد شيئاً من النثر ويردفه بشيءٍ من الشعر، وهكذا حتى يستوفي الحروف كلّها.

---

(١) الصّلة (الترجمة ١١٨٧).

(٢) الأندلس ٤٠٩

(٣) بقي منه مخطوطة وحيدة ناقصة، طبعت بعنوان (رسائل ابن أبي الخصال) حقق الكتاب د. محمد رضوان الداية، ونشرته دار الفكر بدمشق: ١٩٨٧ م.

وهو في كل حرف يلتزم السجع بالحرف نفسه، وتكون قافية الشعر على الحرف نفسه أيضاً.

ومن ذلك قول ابن أبي الخصال في **حرف الراء**[١]:

الحازمُ إذا ورَد صدَر، وإذا رأى فرصةً ابتدَر؛ لا يعاف الكَدر ولا يُسخِطُ القدَر، ويعفو إن قدَر.

لله من لم تنم حَزامَتُه ... مهما يَرِدْ في ملمّةٍ صَدرا
إذا رأى فُرْصَةً قد ابتدرت ... قام لها في الركاب وابتدرا
وليس شيء إليه من كرم ... أحبّ من عفوه إذا قدرا
يؤثر بالصفو ذا مودّته ... عن طيب نفس ويشرب الكدرا
إن جرّ ما لا يريده قدرٌ ... أبدى رضاه وأكرم القدَرا

٢) من شعره النبوي في آخر رسالة كتب بها إلى مقام رسول الله ﷺ، على نسق الرسالة التي أوردْناها، غير أنّ هذه الرسالة التي نختار منها قد ذُيّلت بعدد من القصائد الشعريّة في الغرض نفسه[٢].

قال:

يا رسولَ الإلهِ هل ... أنا في الرّكْب مُغتدي؟
ليت شعري تلهّفاً ... من شَجٍ عنك مُبْعَدِ
هل أقولنْ لمقلتي ... وهي بالدمع ترتدي
والسُّرى قد رمتْ بها ... في حمى ذلك النديّ
اجزعي أو تجلّدي ... هذه دارُ أحْمدِ
هذه تُربةُ الْهُدا .... ةِ فضِلّي أو اهتدي!
أين دعواك في الهوى ... اصدُري عنه أو رِدي[٣]

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٧٥ - ٣٧٦

(٢) القصيدة في رسائل ابن أبي الخصال ٣٩٥

(٣) ردي فعل أمر من (وَرَد). والشعر يجري على مقصد تحدّي النفس والتلوّم الذاتي.

ربّ دمــــــعٍ أرقْتُــــــه ... في ظــــــــلال وفي دَدِ[١]
وســـــــوامٍ ســـــرَحْتُه ... في حمـــى الله مُغْتَدِ[٢]
لســتِ مــني ولســت منــ .... ــكِ متـى خنـت مَوْعـدي
فاســتمدّي حُمْــرَ الدُّمــو .... ع مــن القلـب تمْـدَدي
وانضحـي عنـك مـا مضـى ... واغســلي اليــوم بــالغدِ!

– وهذه رسالة إخوانية كتبها ابن أبي الخصال، وهي رسالة جوابية عن رسالة لأحد أصدقائه يُخبره بوصولها؛ وبدأها بأربعة أبيات من الشعر، استهلالاً للغرض المقصود، وجمعاً بين الشعر والنثر[٣]:

أيهـا السـاطع نشـراً وأرَجْ ... كيف يَسْتأذِنُها مَنْ قد وَلَجْ؟[٤]
كيـف يسـتأذن مَـنْ مَسْـكَنُه ... في عُيـون ونفـوسٍ ومُهَـجْ؟
ما على المِسْكِ ولا البَدْر ولا الصّــ ... ـبْحِ من إذْنٍ إذا الصّبْحُ انْبَلَجْ
إنّما أنـتَ متى تُهْدي شـذىً ... في سنىً بالقلب والرُّوح امتزجْ!

وافتني لسيّدي وظهيري – لا زالت همّته تعلو الهمم وتَفُوتُها[٥]، ونفاسَتُه تغذو النفوس وتقوتُها – رفعةٌ خلع عليها سناه، وعُنيت بحَوْكها يُمْناه؛ فجاءت كالْحُلّة يضاحك الشمسَ إبريزُها[٦]، ويحاسِنُ الرَّوْض تَفويفُها وتطريزها[٧]: بدائع ينحط عن ذروتها البديع[٨]، ويقتبس من جُذوتها الأشقر الصَّديع[٩].

---

(١) الدد: اللهو واللعب.
(٢) السّوام جمع السّائمة: كل إبل أو ماشية تُرسل للرَّعي (ولا تُعلف).
(٣) رسائل ابن أبي الخصال ٤١٥ – ٤١٧
(٤) الأرج: الرائحة العطرة.
(٥) تفوتها: تسبقها.
(٦) الإبريز من الذهب: الخالص.
(٧) المفوّف من الثياب: الرقيق أو ما فيه خيوط بيض.
(٨) يعني بديع الزمان الهَمذاني: الكاتب، صاحب المقامات.
(٩) الأشقر الصّديع: الفجر.

سامَرها الأدب مُعينا، وخامَرها الطبْعُ مَعِيْنا، فجَلاها حُوراً عينا. فلله طِرْسُكَ وما نَسق، وبِرُّكَ لقد علا وبَسق.

وأهلاً بك من عريقٍ سبَق، وسليل خطِّي صدق؛ لشدَّ ما استوليتَ على مداك، واستوليت إلى سَماء مُنْتَداك، وتقيّلْتَ أباك[١]، وطعنت في ثغر النحور عداك. و لعاً لك[٢] من مُنْتَمٍ إلى سابقٍ لم يلحقه عثار، ولا شُقَّ له غبار. لا تُرَعْ! فمن الشعاب تحتفل فتزخر الأنهار؛ وأوّل قرّح الخيل المِهار[٣]. وحبّذا منتماك! لقد ذكّر جواراً، وحرّك من عهدنا الماضي حُواراً[٤]. لا جَرمْ! إن عهدي لك ناضر، وإنّه بك على الغيبة القصيّة حاضر. ويا ماءُ من أنبأك أنّي صادٍ[٥]، ويا صُبْحُ قد كانت عيني لكَ بمرصاد. ومُحالٌ أن يستأذن على النفس مناها، وعلى الكبد الحرّى ريُّها وبُشراها، وعلى العين الساهرة كراها وسناها:

أنت الكرى مؤنساً عيني وبَعْضُهم ... مثلُ القذى مانعاً عيني من الوسَنِ

– ورعى الله داعياً إلى البرّ دعا، ورحم مَنْ نبَتَ على دِمْنَتِهِ الْمَرْعى[٦].

– وأقرأ عليكَ سلاماً هو المِسْكُ فتيتا، والدرّ نظيماً وشتيتا، يُواليك مقيلاً ومبيتا، ويطاولك العُمْرَ كريتا[٧]؛ إن شاء الله عزّ وجل.

وله من رسالة زرزوريّة[٨] :

«.... إليَّ – لعمري – قصْدُ كل عجيبة، ومني استفادَ الناس كل غريبة؛

---

(١) تقيّل أباه: أشبهه وعمل عمله.

(٢) «لعاً لك» عبارة تقال للعاثر إعانة له.

(٣) القُرّح من الخيل: ما بلغ خمس سنوات (جمع قارح) والمهار جمع الكثرة للْمُهر.

(٤) العبارة تذكر بقول ابن زيدون:

لا يكن عهدك ورداً ... إنّ عهدي لك آسُ

(انظر القصيدة في مكانها من هذا الكتاب).

(٥) صادٍ: اسم فاعل من صَدِيَ بمعنى: عطش.

(٦) الدمنة: آثار الدار والناس. وتستخدم لمعنى القبر. وانظر المقامة البغدادية لبديع الزمان الهمذاني في قول عبارة ثمة «قد نبت الربيع على دمنته».

(٧) الكريت من السنين والشهور والأيام: التامّ.

(٨) رسائل ابن أبي الخصال ٣٣٤ – ٣٣٥؛ وانظر (الرسائل الزرزورية) في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

فاشكروا الله كما هداكم للخير، وعلّمكم منطق الطير، فها أنتم تزجرون سنيحها[١]، وتفقهون تسبيحها!

لعلك امْتَرَيْتَ[٢] وقلت: زور ما حكيت. كلاّ، ما هو زور إنما هو زرزور. عليه الليل مزرور. رشّته النجومُ بأندائها، وذرّت عليه من صفائها. فهو مُنَمْنَمُ الدّواج[٣] بديع الائتلاف والازدواج، يباسطكم البعيد والقريب، ويطارحكم المُستعمل والغريب. يلقطُ الإحسانَ حَبّاً، ويُضمره حُبّاً، ويلفظه لؤلؤاً حبّاً.

لا جَرَمَ! أنّه سابقُ الحبشة، المصلّي بعد أنْجَشه. يحدو القلوب إلى تقاها، وينفُث على الذنوب بِرُقاها، ويكحلُ العيون بألذّ من كراها، ويسري إلى الأرواح بألطف من سُراها، بنغمةٍ تغني عن الزمر وتعدل حلاوة النهي والأمر، فالأيام معه أنس وأجر، والليالي شفَقٌ وفجر...».

وفي أثناء الرّسالة الزرزورية عدد من القطع والقصائد الشعرية تتناسق مع الرّسالة، وتخدم غرضها العام، ومن ذلك قوله في هذه الرسالة:

هل كنتَ تَعْلَمُ قَبْلَ اليوم زرزورا ... يهدي لكَ السّحر منظوماً ومنثورا
منغّم الصوت من يأذَنْ لنغمته ... لم يقترح بعدها بَمّاً ولا زيرا[٤]
من أين أُقْصى ولي فيها كلّ قاصية ... شدوٌ تركتُ به المحزون مسرورا
وربّ مولىً جميل قد سجعت به ... وكان لولا افتضاح الشكر مستورا
وليلة كحلت منّي نواظِرَها ... بحكمة ملأت أجفانها نورا
كفأتُ ظلماءها مني بساطعةٍ ... شقّتْ عن الصبح جيباً كان مزرورا[٥]
لله تلك! فكم من أنْفُسٍ رَبَقَتْ ... وأعين غادَرَتْها نَحْوَها صُورا[٦]

(١) زجر الطير: أثارها ليتيمّن بسنوحها أو يتشاءم ببروحها. والسنيح الطائر الذي يمرّ من مياسرك إلى ميامنك.
(٢) امترى: شك.
(٣) الدواج - بتشديد الواو وتسهيلها - نوع من الثياب. استعاره الكاتب لريش الزرزور.
(٤) البَمّ والزّير: من أوتار العود.
(٥) كفأها: طردها.
(٦) ربقه: ربطه. وصُور: مائلة.

ذخـيرة خبّأتهـا الصّالحـات لكـمْ والعِلْقُ مـا زال مخبـوءاً ومَذْخـورا[١]
مهـلاً! فمـا نحـن إلا مثلكـم أمـمٌ تســبّح الله تغريــداً وتصفــيرا[٢]
تغــدو خِماصــاً لأرزاق مقــدّرةٍ فَتَقتضي فضـل رزقِ الله موفـورا[٣]
من كلّ أرقـط عنوان السّجود به يقطّعُ الليـل توشـيحاً وتكفـيرا[٤]
مـا زال مُغْـرىً بـبُرّ البَرّ يكرمـه إذا غـدا الـبُرُّ مَجْفُـوّاً ومهجـورا
إذا نــثرتَ لــه حَبّــاً تتبّعــهُ لَقْطاً، وأودعـه صدراً وتـامورا![٥]

– في رسائل ابن أبي الخصال **رسالة أدبية** ردّ فيها علـى رسالة كتبهـا أحـد معاصريه، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن القاسم الفهري. كـان مـن أسـرة حكمت حصن البونت في مدة الطوائف إلى أن ضمه المرابطون في حركة توحيد الأندلس سنة (٤٨٥ هـ).

وكان ابن القاسم قد كتب رسالة قصيرة يفضّل فيها بديـع الزمـان الهمذانـي (صاحب المقامات) على أبي إسحاق الصّابي. فـانتصر ابـن أبـي الخصـال لأبـي إسحاق وفضّـل أسلوبه بخصائصه المختلفة علـى أسلوب بديع الزّمـان، وهـو تفضيل للأسلوب المرسل الذي لا يَطْغى عليه السّجع، ولا تُثقله المحسّنات.

بدأ ابن أبي الخصال رسالته بتحية ابن القاسم، ومحاورتـه في أصـول متّبعـة لا بدّ منها عند التصدّي للمفاضلة أو لإطلاق حكم من الأحكام. وأشار إلى رسالة ابن القاسم، ومضمونها، فأثنى عليه، وبيّن في الوقت نفسه رأيه، وقـال لـه: إنـه ظلم أبا إسحاق الصابي:

---

(١) العِلْق: النَّفيس.

(٢) في البيت إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَما مِنْ دابَّةٍ في الأرضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحَيْهِ إلاّ أُممٌ أمثالُكُمْ﴾ [الأنعام ٦/١٥٩].

(٣) إشارة إلى الحديث: «... يرزقُكم كما يرزقُ الطَّيرَ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً..».

(٤) الأرقط: ما كان في لونه سواد يشوبه نقط بياض. والإشارة إلى الزّرزور.

(٥) التامور: القلب.

«.. ووقفت لك منذُ أيّام على نفثاتٍ غُرّ، وكلام بين الصابي والبديع حُرّ: عال تناوله خاطرك من علو، ووقعت طير القلوب منه على ثمر حلو. لكنك - وا لله يغفر لك - جرّعت الصابي منه صاباً، وملأت صدور شيعه أوصاباً؛ فهم بين جموع منفضّة، ودُموع مرفضّة، ونواظر كليلة، وخواطر فليلة. ينظرون من طرف خفيّ، ويتظلّمون منك من بَرٍّ حَفِيّ، لا يستقلّ لهم لواء، ولا يرتدّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتهم هواء!

مهلاً! فداكَ الأقوام، ولا عداك القَصْدُ والقَوام. فالقضاء جدّ عسير، والخطب - وإن اجتهدتَ - غير يسير. وإذا استقادك هواكَ فلا تَهِمْ، وإذا نظرت بعين رضاك فاتّهِمْ. فالموازنة كالمبارزة إنّما تكون بالوفاء، ومقارعة الأكفاء بالأكفاء... .. وأبو الفضل وإن كان - كما سمّي - بديعا، ولأخلاف البلاغة رضيعا لا يقاس بأبي إسحاق رأساً ولا يجعل له سلماً ولا بأسا. لأنهما وإن جمعهما أصل اللسان ومزاولةُ الإحسان كالثريا وسهيل لا يلتقيان، ولا يشتبهان فيما ينتقيان. أبو إسحاق مَعِيْنُ القول، مُقْدِمٌ على الهول...»[١].

- **ومن رسائل ابن أبي الخصال* النبوية**، الموصولة الغرض بالنظر إلى المشاعر المقدسة في الديار الحجازية:

إلى الرَّؤوفِ الرَّحيم، الرَّسولِ الكريم، ذي الْخُلُق العَظيم، والْحَسب الصَّميم؛ والصَّفح الْجَميل، والْمَنّ الْمُوفي على التَّأميل. صَريح الصَّريح، ورقُوء[٢] دَم الذَّبيح، المخصوص بالْمَقامِ الْمَحْمود، والْحَوضِ الْمَورود؛

---

(١) النص بتمامه - وهو طويل - في رسائل ابن أبي الخصال ١٤٠ - ١٥٦

- وانظر دراسة عنه في تاريخ النقد الأدبيّ في الأندلس - ط ٢ - مؤسسة الرسالة.

* رسالةٌ بعَث بها الكاتب، مع قاصدٍ حاجّ إلى الدّيار الْمُقَدَّسة يُبدي فيها أشواقه إلى الحرمين الشّريفين ودعاءه الله تعالى أن ييسّر له أداءَ الفريضة والصَّلاة في الحرم النّبويّ، وأداء مناسك الحج والعُمرة. وقد أكثر الأندلسيون من توجيه مثل هذه الرّسائل، والالتفات بالخِطاب إلى مقام رَسول الله ﷺ.

(٢) الرُّقوء بضمّ الرّاء: مصدر رقأ (الدمع والدم) إذا جَفَّ. والرَّقُوء (بفتح الراء): دَواءٌ يُوضع على الدم فيسكن. ويقال: فلانٌ رَقُوء بين القوم: أي مُصلح.

وخَطيب الأنبياء، وإمامِهم في اليوم الْمَشهود. المكين الأمينِ الذي لَيسَ «على الغَيبِ بضَنين»[١] . النازل عَنْ خَيرِ الظُّهورِ إلى خيرِ البُطون. والمتَردّد من الأب الأقصى إلى الأب الأدنى بينَ كُلّ مَصُونةٍ ومَصُون. الذي تَسَلَّمَهُ الآتي عن الماضي أمانةً حَملها من كُلِّ سَلَفٍ خِيارُه[٢]، ونُوراً عُرِفت في جباهِ السُّؤددِ سِيماهُ وآثاره؛ إلى أن أَذِن اللهُ سُبحانَهُ فظهَرت أسرارُه الكامِنَةُ، وأدتهُ إليه صَلواتُ اللهِ عليهِ الطاهرة آمِنَة. الذي «جُعلت لهُ الأرضُ مَسْجداً وطَهُوراً»[٣] ، وأُحِلَّتْ لَهُ الغَنائِم، وكانت «حِجْراً مَحْجُوراً»[٤] و «نُصِرَ بالرُّعبِ» سِنينَ وشُهوراً[٢]. وأُوتي «جوامِعَ الكَلِم»[٥] فانتظمت لفظَتُه سُطوراً. وبُعث «إلى الأحمرِ والأسودِ»[٢] فضْلاً كانَ لَهُ مَذْخُوراً. ونُسِخت بِمِلّتِه الْمِلَلُ: إما مُؤمناً وإمّا كَفُوراً. وأنزلَ عليه الفُرقان هُدىً ونُوراً. فأحْيا نُفوساً وشَفى صُدوراً. الذي وجَبت نُبوَّتُه وسِتْرُ الغَيب عَليهِ مُنسَدِل. وآدَمُ - صَلواتُ اللهِ عليه - في طينتهِ مُنجدل. لَبِنَةُ التّمام التي انْعَقد بها التَّأسيسُ، ويتيمةُ النظامِ الّتي ادُّخِرَ لَها الوضعُ النَّفيسُ؛ إمامُ وفدِ الرَّحمنِ وفَرَطُ ورّادِ[٦] الإيمان. الذي نكَلتْ عن بَسالَتِه

(١) ﴿وَما هُوَ عَلى الغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير ٨١/٢٤].

(٢) إشارة إلى ما روي عن النبي ﷺ، وأنه «خيار من خيار من خيار».

(٣) روى الإمام أحمد (المسند ٣٠١/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ نبي قبلي ولا أقولهنَّ فخراً: بُعثت إلى الناس كافّة: الأحمر والأسود، ونُصِرتُ بالرُّعب مسيرة شهر، وأُحِلّت لي الغنائم، لم تحلّ لأحد قبلي، وجُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهُوراً، وأُعطيت الشّفاعة، فأخّرتها لأمّتي، فهي لمن لا يشرك با لله شيئاً».

(٤) من الآية ٥٣ من سورة الفُرقان ٢٥. وحِجْراً محجوراً: أي حَرامٌ ممنوعة.

(٥) من حديث أنس رضي الله عنه: «أُعطيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً». (ورواه الإمام أحمد في مسنده ١٧٢/٢) من حديث عبد الله بن عمرو: «أُوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه...».

(٦) روى الإمام أحمد في مسنده (١٤٩/٤) من حديث عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلّى على أهل أُحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فَرَط لكم وإني شهيدٌ عليكم، وإني وا لله لأنظر إلى الحوض...» إلى آخر الحديث.

- وفي النّهاية (٣٣٤/٣) من الحديث: «أنا فَرَطُكم على الحوض» أي متقدّمكم إليه، يقال: فرط يفرط... فهو فَرط إذا تقدَّم وسَبق القوم ليرتادَ لهم الماء...

الضِّراءُ[١]، وسلّمتْ لَهُ في الْخَفَرِ العَذْراء. واعْتَرفَت لواقِحُ الرِّياح لِيَمينه، واغْتَرفت لوائِحُ الصَّباح من نُورِ جَبينه. الآخذ بالْحُجزاتِ[٢]، الوارد بالْمُعْجزات. الّذي سَلّمَ عَليه الْحَجرُ[٣] والتأمَ إليه الشّجَر، وانشقّ لِبُرهانِه القَمر، وحَنَّ إلى حَضْرته الجذع الْمُنقَعِر. وأَنْبَأَهُ بِسَوْرَتِهِ السّمُّ الْمُستَعِر[٤]. ونَبعَ من أنامِله الماءُ، وأجابت بدَعْوَته ثم انجابَت السَّماء: أبي القاسم خِيرَة الخير، وسيّد البَشر، الْمُصطفى من أكرمِ العِتَر[٥]، جاشِم الْمَجاشِم، وذُؤابة هاشِم. هامَة العَرب، ومُنتهى مَجْد الأبْعَد والأقرب. الحاشِر العاقِب، ذي الْمَجْدِ الثّاقِب، وزُهر المآثِر والمناقِب. الّذي فازَ الْمُحْسِنون بطاعَتِه واستُنْقِذَ الْمُذنبون بشفاعته. صَلّى الله عَلَيهِ، حِساب كَرامَتِه لديه، وكِفاءَ ما يُدْني منهُ ويُقَرِّبُ إليه. مِن عَتيقِهِ المعلنِ بتَصْديقِهِ، الدّاعي في قُربه، الْمُستَشْفي بريح تُرْبه الْمُستَشْفِع بهِ إلى رَبِّه، المؤمنِ بما آمَن بهِ، من رسُلِهِ وكتُبِهِ: فُلان بن فلان.

كتبتُه يا واضعَ الإصرِ والأغلال، ورافعَ راياتِ الْهُدى على الضّلال، ومُبدلنا بالظّلّ من الحَرُور[٦] ومُخْرِجنا «من الظُّلمات إلى النُّور»[٧] ومُرْوِينا من الرَّحيق المختوم[٨]، والحَوْضِ الذي آنِيَتُه بعَدَدِ النّجوم. ومُحظينا بالنّظرِ إلى الحَيِّ القَيُّوم؛ عن دمعٍ يسفح، ونفَسٍ يلفح، وصَدْرٍ بأشواقِه ملآن يطفَح، وعَرْفٍ عَليك من

(١) الضِّراء جمع الضرو، وهو الضّاري من السِّباع.

(٢) في مسند الإمام أحمد (٤٢٤/١) من حديث ابن مسعود «... ألا وإني ممسكٌ بحجزكم أن تهافَتوا في النار كتهافت الفَراش والذُّباب...».

(٣) في هذه العبارة وفيما يتلوها يراجع (الشفا للقاضي عياض) الباب الرابع في خصائصه ﷺ وكراماته، ٤٧٩/١ وما بعدها.

(٤) السَّورة: الحِدّة. والْمُستعر: من استعرت النّار: التهبت واتّقدت.

(٥) العِتْرَة: نسل الرّجل وأقرباؤه من ولد غيره، أو ولده وذريته وعقبه من صلبه أو رهطه وعشيرته الأدنون ممّن مضى وغَبر.

(٦) إشارة الآية الكريمة ٢١ من سورة فاطر ٣٥

(٧) اقتباس من الآية الكريمة ٢٥٧ من البقرة ٢

(٨) إشارة إلى الآية الكريمة ٢٥٠ من سورة المطففين ٨٣

الصَّلاةِ والتّسليم ينفَح؛ وأسفٍ إليك يتلهّبُ، وزفرةٍ بأحناءِ الضُّلوع تجيءُ وتَذْهَب، وحُشاشَةٍ بعوائقِ البُعْدِ عنكَ تُنْهَبُ.

وكيف لا أقضِي حُزناً، ولا أُرسلُ دُموعَ الوجْدِ والتلَهُّفِ مُزناً؟ أم كيفَ أَلَذُّ حياةً، وأؤملُ نَجاةً؛ ولم أَعْبُر إلى زيارتكَ لُجّة، ولا مَوماةً؛ ولا أَخْطَرْتُ في قصدك نفْساً أنتَ مُنقِذُها ومُحْيِيها، ولا مَثْلتُ بمعاهِدِكَ المشَهّدةِ، ومَشاهِدك المطهَّرةِ أُحيّيها. ولا نَزلتُ عن الكُور[1] كرامة للبُقْعَةِ المقدّسةِ التي ثَوَيْتَ فيها.

فوا أسفا ألاّ أَخُبّ(٢) إلى ذَراكَ(٣) مُستَقبلاً، وألاّ أُكِبّ على ثَراك مُقَبّلاً، وألاّ أُصافِحُ من تِلكَ العَرَصاتِ مدارسَ الآيات(٤)، ومَهْبِط الوَحْيِ والْمُناجاة. حيث قُضِي فَرضُ الصَّوم والصَّلَوات، حيثُ انتَشَر التَّنزيل، وسَفَر بالوَحْيِ جبريل، وبَرزَت خَبيّةُ الدَّهر، وأُوثِرت بليلة «خير من أَلْف شهر» أسَفاً لا يَعْفُو رَسْمَهُ، ولا يَمحُو نَدْبَهُ ووسْمَهُ إلاّ الوقوفُ بحَرم اللهِ وحَرمك، والتَّوسُّل هناكَ إلى كَرمِه بكرمك.

اللّهمّ كَما جعلتَني من أُمّتِهِ، واستَعْمَلتني بسُنّتِه؛ وشَوّقتَني إلى آثاره، وشَغَلْتَ قَلبي بتخيُّلِهِ وتَذْكاره؛ وأريْتَني تلك المعالِمَ المنيفةَ خَيالاً، وخَططتَ مِنها في الضَّمير مِثالاً؛ وأشهدْتَنيها ملْءَ السَّمعِ والفُؤادِ جمالاً: فاشْفِ بمَرْآها بَصَراً ضريراً، واكحَلْه بسناها «يَرْتَدّ بَصيراً». واجْعَل لي فيها مُعَرّساً ومَقيلاً. وضَعْ عنّي من شَوْقِها إصراً ثقيلاً.

اللهمّ يَسّرْني إلى قَصْدِه، وأَعِدني بالقُرْبِ على بُعده، واعمُرْ بي ما بَيْنَ قَبْرِه ومِنْبَرِه[5]، ومَبْداه ومَحضره، ومُصَلاّه ومَنْحَره.

---

(١) الكور: رحلُ البعير أو الرَّحْلُ بأداته.

(٢) الخَبَب: نوعٌ من العَدْو.

(٣) الذَرا: الكنف.

(٤) في ديوان دعبل الخزاعي ٧١

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مقفرُ العرصاتِ

لآل رسول اللهِ بالخيف من مِنىً وبالركن والتعريف والجَمراتِ

(٥) في حديث أبي هُريرة رضي الله عنه: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة».

اللهمّ شرِّفني بقضاء الفريضة، ومَضاء في تلكَ الأرضِ الأريضة[١] اللهمّ لا تحرِمْني طِيبَ طَيْبَة، وأنخْ هذه الشّيبة ببابِ بَني شيْبَة[٢] واغسِلْها هناكَ من ذُنوبها وخَطاياها، وفِرْ من ثَوابكَ الجزيل حظُوظها وعَطاياها، وعُجْ إلى خاتم أنبيائك صُدورَ مَطاياها. وهَبْ لي عَزْمَةَ من أطاع، وبَسْطَةَ مَن استطاع، وادْفعْ عنّي الضَّررَ والضَّرورة؛ ولا تُمِتْني حِلْسَ البَيْتِ صَرُورة[٣].

لو أُوتِيْتُ يا رَسُولَ اللهِ سُؤْلِي، لسَبَقْتُ إليك كِتابي ورُسولي، لكن قلَّ الوَفْرُ، واستقلَّ[٤] السَّفر، وغادروني حَرَضاً[٥] ولسهامِ الأسى والوجْدِ غَرضاً. أُتْبعُهُم نفساً لا يَؤُوب، وقَلْباً يستخِفُّه القَلَقُ والوُثوب. وأتشبَّثُ بهم تشَبُّثَ الأسيرِ بالطَّلِيق، وألحَظُهمْ لَحْظَ السَّقيمِ للْمُفيق، وأتَعَلَّقُ تَعلّق الغَريق. فلم أملِكْ - يا رسول الله! - إلا رُقعةً تَشكُو بثَّ التَّبْريح[٦]، وتَحِيَّةً خفيفة المَحْمَلِ طيِّبة الرِّيح؛ تتأرّجُ بأرجائكَ، وتتدَرَّجُ إلى قَبولك ورجائك.

فأتوسَّلُ بكَ يا رسولَ اللهِ إلى مُصْطَفِيك بالرِّسالةِ والوَسيلة[٧]، ومختصِّك بالدَّرَجةِ الرَّفيعة والفَضِيلة، ومُؤتَمنكَ على إقامَةِ حَقِّه، ومُبْتَعِثِكَ بالْهُدى والنُّور إلى جميعِ خَلْقِه؛ ليُسعِدَني بجوارِكَ، ويُكرمَني بحُلولِ دارِ هِجْرَتِك وأنصارِك، وأفرُغ بعد حُقوقِه من حُقوقِك. وأُلِمَّ بصِدِّيقكَ وفارُوقك، وأُعَرِّج على الصِّهرَيْن: أبي عمرو ذي النُّورين، وأبي السِّبطين الحسَن والْحُسَين. وأندُبَ الشَّهيدَ المقْتول، وأُعَزِّي الزّهراءَ البَتُول[٨].

---

(١) أرض أريضة: زكيّة.

(٢) باب بني شيبة هو باب السّلام. ومنه يدخل الحاجّ أول ما يَدْخُل إلى البيت الحرام، وتطالعه من ثمة الكعبة المشرّفة.

(٣) حلس البيت: ملازمه. والصّرورة: الذي لم يحجّ.

(٤) أي تحمّلوا وسافروا.

(٥) الحرَض: الكالُّ الْمُعْيى، الْمُضنى سُقماً.

(٦) يقال: بَرّح به الشوق: جَهده.

(٧) في حديث الأذان «اللّهم آتِ مُحمّداً الوسيلة...»: الوسيلة في الأصل ما يُتَوَصَّلُ بهِ إلى الشيء ويُتَقرَّبُ به وجمعها وسائل، والمرادُ به في الحديث: القُرْبُ من الله تعالى.

(٨) البَتُول: لقب فاطمة الزّهراء لانقطاعها عن نساء زَمانِها فضلاً وديناً وحَسَباً؛ أو لانقطاعها عن الدُّنيا.

وأقِفُ بحوارِيّكَ[١] المودُود وأسَدِ الأُسُود، وبابنِ عبيد اللهِ ذي الجودِ والفَضْلِ الْمُبين[٢] وبالأمينِ حقّ الأمـين[٣] وبقَرِيْعَـيْ زُهْـرَةَ في التُّقـى والدِّيـن[٤] وبِسَعيد ذي[٥] الفضل الْمُبين.

وأقضـي حَـقّ الأمّهـات، والأزواجِ الطّـاهِرات، وسـائرِ أهـلِ الكرامـات، وأتقرّى[٦] منازل السُّعَداء، ومَشْـهدَ سَـيِّد الشُّـهَداء[٧]. وأدعـو رَبَّـك في جَبَـل أحبَبْتَهُ[٨] وأحبّك. وأحُطّ بـوارثِ الـرَّأي والرَّايـة، وصـاحِبِ السُّـقْيا والسِّـقاية، وحائِز العُقْبى والغاية[٩]. وأعْتَمِد عِصْمَةِ الْهُلاّك، وأبا أبـي الأمـلاك حَـبْر العِلْـم والتّأويل وفاتِحُ أغْلاقِ التّنْزيلِ وبَحر النّدى الْجَزيل[١٠].

طالعْتُكَ يا رسولَ اللهِ بنيّتي، وأعملتُ في قصدِكَ أُمنِيّتي، واستأنَسْتُ برجـاءِ يُعمل إليكَ مَطِيّتي، ويحلّ عِقالَ عَزْمتي وطيّتي[١١]. وغير عَزيزٍ على مـن شَـفَّعَكَ في القِيامة، وأقطعك دارَ الْمُقامة، وأعطاك لواءَ الْحَمْـدِ والْكَرامـة: أن يَجْمَـع لي بكَ بين الشّفاعَتين، ويؤتيني في الدنيا بلُقْياك وفي الآخرة بسُقياكَ الْحُسْنَيَيْن.

اللهـمَّ بَلّغْ عَنّي الْمُبلّغَ الأمين، والرَّسُولَ القَوِيّ الْمَكـين مـا أُظْهِـرُه مـن محبّتـه وأُبطِنُه، وأُسِرُّه وأُعْلِنُه، وبَيّنْ عَنّي ما لا أستطيعُ أُبيّنه. اللهمَّ اشهَدْ بِصَلاتي عَليـه وسَلامي، ومَحبّته فيه وإلمامي واشدُدْ وَسيلتي لَديْه وذِمـامي. وصَـلِّ اللهـمَّ عَليـه وعلى أصحابه أعلام الإسلام ومَصابيح الظّلام، وعلى أهـلِ قُرباه ومـن نصـرَه

(١) حواري النبي ﷺ: الزبير بن العوّام، رضي الله عنه.
(٢) طلحةُ بن عبيد الله أحد العَشْرةِ الْمَشْهُود لهم بالْجَنّة، رضي الله عنه.
(٣) أمين الأمّة: أبو عبيدة بن الْجَرّاح.
(٤) هما سعد بن أبي وقّاص، وعبد الرّحمن بن عَوف. ينتميان في بني زُهْرَة من قريش. رضي الله عنهما.
(٥) سعيد بن المسيب صهر أبي هريرة رضي الله عنه، وكان فقيه الفقهاء في زمانه.
(٦) أتقرّى: أتتبّعُ.
(٧) سيّد الشهداء: حمزة بن عبد المطلب، ودفن حيثُ استُشهد عند أُحد، رضي الله عنه.
(٨) إشارة إلى الحديث عن جبل أحد: «هذا جَبلٌ يُحبُّنا ونحبّه» (مسند أحمد ٣/٣٤٠).
(٩) يعني العَبّاس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، رضي الله عنه.
(١٠) هو عبد الله بن عبّاس، حبر الأمّة، رضي الله عنه.
(١١) الطيّة: المنزلُ الذي تنتويه.

وآواه وعلى أزواجهِ الصّالحاتِ الصَّابِرات السّائحات[1] صَلاةً تُباري وتُفاوِحُ ثناءَهم وتُغادي وتُراوِحُ فِناءهم: يَتضوّعُ شَذاها بِقُبورِهم، ويَسْطَعُ نَشْرُها عليهم، إلى يَوْم نشُورِهم، مشفوعاً عَبَقُها بالدَّوام والتّمام إلى دار السَّلامِ.

ثمّ سَلامُ اللهِ عَددَ خلقه، ورضى نفسه، على نبي رحمته، ووليِّ عصمته، المخصوص بتمام نِعْمَتِهِ الْمَكينِ عندَ رَبِّه، الْمَغْفُورِ لَهُ ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ من ذَنبه؛ ورحمَةُ اللهِ وبَركاتُه، وأنهارهُ وجَنّاتُه، ورَوْحُهُ ورَيْحانُه، ومَغْفِرَتُه ورِضوانُه، صَلّى اللهُ عليه وسلّم.

(١) السائح: الصّائم، الملازم للمسجد (والعبادة).

أبو البقاء الرُّندي[1]

(٦٠١ هـ - ٦٨٤ هـ)

اشتهر الرّندي بقصيدته التي رثى فيها عدداً كبيراً من المدن الأندلسيّة التي سقطت لزمانه بيد العدوّ؛ وهي القصيدة التي اخترناها في الكتاب لتمثّل هذا النوع من الشعر الذي عبّر فيه أصحابُه عن مشاعر الأندلسيين بعد أن مالت شمس السيادة العربيّة الإسلامية في الأندلس إلى المغيب، وصَوَّر ما حلَّ بهم من ضروب العسف والهوان، وما تبدّل من وجه الأرض ووجه الزَّمان.

والشاعر هو صالح بن يزيد بن صالح.. بن شريف الرُّندي. وتختلف كنيته بين أبي البقاء وأبي الطَّيب. وهو مشهور في المشرق، وخصوصاً في هذا العصر بأبي البقاء.

وهو أديب، شاعر، ناقد. قضى معظم أيامه في مدينة رُنْدة - بضم الرّاء - واتصل ببلاط بني نصر (بني الأحمر) في غرناطة، وكان يفد عليهم ويمدحهم، وينال جوائزهم. وكان يُفيد - حين يدخل غرناطة - من مجالس علمائها، ومن الاختلاط بأدبائها، كما كان يُنشدهم من شعره أيضاً.

وقد ترجم للرُّندي، ابنُ عبد الملك المراكشي في (الذّيل والتكملة) قال في ترجمته: «وكان خاتمة الأدباء بالأندلس[2]، بارع التصرّف في منظوم الكلام

---

(١) انظر كتابنا (أبو البقاء الرُّندي شاعر رثاء الأندلس) - دار سَعد الدّين - الطبعة الثانية.

(٢) أي: آخر أدبائها المشهورين المهمين لزمانه (القرن السّابع) ولقد ظهر في الأندلس أدباء وشعراء مذكورون بعد ذلك.

ومنثوره، فقيهاً، حافظاً.. وله مقامات بديعة في أغراض شتّى. وكلامه نظماً ونثراً مدوَّن». وقال ابن الزّبير في ترجمته - كما نقل ابن الخطيب -: شاعر مُجيد في المدح والغزل وغير ذلك. ووصف لسان الدين شعر الرُّندي فقال: «شعره كثير، سهل المأخذ، عذب اللفظ، غير مؤثر للجزالة».

لقد كان الرّندي شخصية مرموقة في عصره، علماً وأدباً وشعراً. واشتهر أمره في الأندلس، والمغرب، وكانت جوانبه متعدِّدة كما يظهر لنا من ثبت تواليفه. فمن كتبه: (الوافي في نظم القوافي)، وهو مؤلف نقدي بلاغي (مخطوط). وله تآليف في العروض والفَرائض وغيرها. وقد أثبت لسان الدّين في ترجمة الرُّندي قطعةً من كتاب له سَمّاه: (روض الأُنس ونزهة النفس)، وهو مخطوط اطّلعت عليه وأفدتُ منه.

لأبي البقاء الرّندي شعر جيِّد، ولم أقف في ترجماته على أنه جَمع ديوان شعره. وقد جَمعتُ له من مؤلفه (الوافي) ومن كُتب الأدب والتراجم والتاريخ قَدْراً صالحاً من الشّعر، يكوِّن (ديواناً) للشاعر[1].

- وله القصيدة الطّنّانة في استنهاض الهمم والدعوة إلى الجهاد ورثاء ما سقط إلى زمانه من مدن الأندلس الكبرى.

جو النص:

منذ أن قامت دويلات الطوائف في الأندلس (القرن الخامس الهجري) وقوة الأندلسيين تتضاءل في الجزيرة أمام ازدياد قوة أعدائهم من الدول المجاورة. وقد طال عمر الإسلام في الجزيرة الأندلسية بسبب موجتين اثنتين قدمت الواحدةُ بعد الأخرى من المغرب: وهما دولة الْمُرابطين ودولة الموحدين.

---

(١) ترجمته في نفح الطِّيب ٤٧/١، وأزهار الرياض ٤٧/١، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (بقية السفر الرابع ١٣٦٠ - ١٣٩)، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب.

- وانظر: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس (د. محمد رضوان الداية) ٣٣٢ - ٤٧٠ الطبعة الثانية؛ و:أبو البقاء الرّندي - د. محمد رضوان الداية.

ومنذ أن انحلت دولة الموحدين ودبّ الضعف فيها من أوائل القرن السابع؛ والمدن الأندلسية تتساقط في أيدي الدول المجاورة في الحملة الصليبية على المغرب والتي عاصرت الحملات الصليبية على المشرق. فسقطت جزيرة ميورقة (٦٢٧ هـ) والبونت (٦٣٣ هـ) وقرطبة (٦٣٣ هـ) وبلنسية (٦٣٦ هـ) وشاطبة ودانية (٦٣٨ هـ) وبياسة (٦٣٣ هـ) ولورقة وقرطاجنة (٦٤٠ هـ) وإشبيلية (٦٤٦ هـ) ومرسية (٦٦٨ هـ)... وكانت من قبل قد سقطت مدن هامة مثل طليطلة (٤٧٨ هـ) التي فرّط فيها المعتمد بن عباد ومثل شلب (٥٩٣ هـ) وغيرها من المدن.

وانحصرت دولة الإسلام في الأندلس منذ النصف الثاني من القرن السابع على القسم الجنوبي الشرقي من الجزيرة، تحت حكم بني نصر. وكان أميرهم الأول ثبّت ملكه في تلك المقاطعة (وعاصمتها غرناطة) بعد التنازل عن عدد كبير من المدن والحصون. وانتفعت دولة بني الأحمر بالتعاون مع بني مرين في الدفاع عن الأندلس ومهاجمة العدو المشترك. لكن هذه الرابطة ضعفت في القرن التاسع.

- أدرك الشاعر هذا كله ورأى بعينه ما يجري في تلك الأرض من قتل الأندلسيين وسفك دمائهم، وارتداد المستضعفين منهم، ورأى امّحاء الحضارة العربية الإسلامية. وكان يخشى بلا شك أن يستفحل الأمر فأنشد قصيدته هذه، مُستثيراً الهمم، داعياً أهل المغرب، ومَنْ وراءهم إلى نجدة تلك البلاد المنكوبة.

(راجع تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين): وعصر المرابطين والموحدين (جزآن) من تأليف الأستاذ عنان.

القصيدة:

أثبت المقرّي قصيدة الرُّندي في أزهار الرياض ١/٤٧ - ٥٠ وفي نفح الطيب ٤/٤٨٦ - ٤٨٨. ونبّه في الكتابين على زيادات طرأت على القصيدة، أضافوها

إليها بعد توالي سقوط المدن الأندلسية. وقد نشر هذه الزيادات الأستاذ المحقق عبد الله كَنّون - رحمه الله - في (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية) في مدريد (المجلد السادس ١٣٧٨ - ١٩٥٨) نقلاً عن نسخة شخصية في خزانته من أزهار الرياض.

وفي كتاب (رَيْحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا) لشهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ) ترجمة لأحد الأدباء واسمه يحيى القُرطبي، نسبت إليه هذه القصيدة النونية، ولكنها ليست مقصورة على أبيات الرّندي، بل فيها الزيادات التي نشرها الأستاذ كنّون. ومن ترجمة يحيى القرطبي المسجوعة في الكتاب نستطيع أن نتبين أنه أندلسي ممن صار يطلق عليهم اسم (الموريسكيين) - على الأغلب - وعبارة الخفاجي هي «السيد يحيى القرطبي: هو فيما بلغني روض مخصب ربيع من فرع بالفضل فريع، من فروع الدوحة العليّة العلويّة، وثمرة تلك الشجرة النبوية الباسقة بما سقاها من ماء الندى، والمورقة المثمرة بالعلم والهدى ... أسر بالأندلس في موقعة أسرت أفراح القلوب، وشقّت قلوب المؤمنين قبل الجيوب، فأصبح في حال تَعُدّ المنايا أمانيا، ويرى لضعف الدين الموت طبيباً شافياً، إذ عثرت خيول الفتن والنقم بذوي المروءة والنعم، فأرسل قصيدة نعى بها الإسلام، ونادى ملوك الروم[1] وعلماءها الأعلام فلم يجد بها صفيّاً، يقول له: لقد أسمعت لو ناديت حيّاً. وذلك في عهد السلطان سليمان الذي دخل في خبر كان، وهي هذه: لكل شيء...». ريحانة الألبا ١/٣٧٠ - ٣٧٤ طبعة الأستاذ عبد الفتاح الحلو (مصر - عيسى البابي الحلبي).

والقصيدة التي تحقق المقري من نسبتها، وعدد أبياتها إلى الرُّندي تبلغ ٤٣ بيتاً. وهي حيث نسبت إلى يحيى القرطبي ٦١ بيتاً. ويظهر لي أن السيد يحيى القرطبي أضاف زيادات على قصيدة الرّندي ليحكي حالَ الأندلس بعد سقوطها كلها، وليحرّض على الجهاد لاستنقاذها. ولعلّ مما يدعم هذا الرأي أنه رفعها

(١) يريد الأتراك العثمانيين.

إلى أكبر ملوك الإسلام لزمانه، سلطان الدّولة العثمانية، وقد توسّم المقري شيئاً قريباً من هذا النفح والأزهار:

والقصيدة هي:

لكُلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ ... فلا يُغرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتَها دولٌ[1] ... من سرَّه زمنٌ ساءتهُ أزمانُ
وهذه الدّار لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
يمزِّقُ الدهرُ حَتماً كلَّ سابغةٍ ... إذا نَبت مشرفيّاتٌ وخرصانُ[4]
وينتضي كلّ سيفٍ للفَناء ولو ... كان ابن ذي يزنٍ والغمد غمدانُ[5]
أين الملوك ذوو التيجان من يَمنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ
وأين ما شادَهُ شدّادُ في إرَمٍ[2] ... وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ[6]
وأين ما حازهُ قارونُ من ذَهبٍ[3] ... وأينَ عادٌ وشدّادٌ وقحطانُ[7]
أتى على الكُلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ له ... حتى قضوا فكأنَّ القومَ ما كانوا
وصار ما كانَ من مُلكٍ ومن ملكٍ ... كما حكَى عن خيال الطَّيف وسنانُ
دار الزَّمانُ على دارا وقاتِلهِ ... وأمَّ كِسْرى فما آواهُ إيوانُ[8]

---

(١) دال الزمان: انقلب من حال إلى حال. ودول ج دولة: انقلاب زمان.

(٢) نقل البكري في المقصود بإرم عدداً من الأقوال منها أنها دمشق، والإسكندرية: ونقل أنه «وجد بالإسكندرية حجر نقش فيه: أنا شداد بن عاد الذي نصب العماد..» البكري ٢/٤٠٨ - ٤٠٩. ووردت الكلمة هكذا «أيرم» في الكتاب نفسه ١/٢١٥

(٣) قارون: هو الذي ذكره الله تعالى في سورة القصص: ويضرب به المثل في كثرة المال وعظيم الكنوز.

(٤) السابغة: الدرع الكامنة. المشرفيات: السيوف المنسوبة إلى المشارف، وهي مشارف الشام: قرى من أرض العرب تدنو من الريف، منها السيوف المشرفية. والخرصان: جمع خرص، وهي الرمح.

(٥) سيف بن ذي يزن: من ملوك اليمن، وغمدان قصر كان له. قال البكري: هو (قصبة صنعاء). انظر: معجم ما استعجم ٣/١٠٠٢

(٦) ساسان: أبو طائفة عظيمة من ملوك الفرس.

(٧) عاد: أبو رهط من العرب البائدة.

(٨) هو دارا الأصغر بن دارا الأكبر، قتله أصحابه في معركته مع الإسكندر المكدوني (الكامل لابن الأثير ١/٢٨٢). الإيوان: هو إيوان كسرى الذي بالمدائن، مدائن كسرى. قال ياقوت: إنه قصر الأكاسرة بالمدائن، وإنه تعاون على بنائه عدد من ملوكهم. وانظر ما ذكره ابن الأثير (الكامل ١/٤٨٠).

كأنَّما الصّعبُ لم يَسْهُلْ له سَبَبٌ ... يَوماً ولا مَلَكَ الدُّنيا سليمانُ
فَجائعُ الدَّهرِ أنواعٌ منوَّعةٌ ... وللزَّمانِ مسرَّاتٌ وأحزانُ
وللحَوادثِ سُلوانٌ يُهَوِّنُها ... وما لِما حلَّ بالإسلامِ سُلوانُ
دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ لهُ ... هوى له أحدٌ وانْهدَّ ثهلانُ(١)
أصابها العينُ في الإسلام فارتُزئت ... حتى خلَتْ منه أقطارٌ وبُلْدانُ
فاسْأل بَلَنْسيةً ما شأنُ مُرسيةٍ ... وأينَ شاطِبةٌ أم أينَ جَيّانُ
وأينَ قُرطبةٌ دارُ العُلومِ فكم ... من عالمٍ قد سَما فيها له شانُ
وأين حِمصٌ وما تحويهِ من نُزَهٍ ... ونهْرُها العذبُ فياضٌ وملآنُ*

(١) أحد: جبل قريب من المدينة. وثهلان: جبل باليمن.

* زاد في الريحانة بين هذين البيتين عدداً آخر من الأبيات، هي من زيادات يحيى القرطبي على القصيدة، وهي:

كذا طليطلة دار العلوم فكم ... من فاضل قد سما فيها له شان
وأين غرناطة دار الجهاد وكم ... أسد بها وهم في الحرب عقبان
وأين حمراؤها العليا وزخرفها ... كأنها في جنان الخلد عدنان

قواعد كن.. (البيت ٢٠ في النص)

والماء يجري بساحات القصور بها ... قد حفّ جَدْوَلها زهرٌ وريحانُ
ونهرها العذبُ يحكي في تسلسلِهِ ... سيوفَ هندٍ لها في الجوّ لمعانُ
وأين جامعها المشهور قد تليت ... في كلّ وقت به آيٌ وفرقانُ
وعالمٍ كان فيه للجهول هدىً ... مدرِّسٌ وله في العلم تبيانُ
وعابدٌ خاضعٌ لله مبتهلٌ ... والدمعُ منه على الخدين طوفانُ
وأين مالقةٌ مَرسى المراكب كم ... أرست بساحتها فلكٌ وغربانُ
وكم بداخِلها من شاعرٍ فطنٍ ... وذي فُنونٍ له حذقٌ وتبيانُ
وكم بخارجها من منزهٍ فرجٍ ... وجنةٍ حولها نهرٌ وبستانُ
وأين جارتُها الزهرا وقُبَّتها ... وأين يا قوم أبطالٌ وفرسانُ
وأين بسطةُ دارُ الزعفران فهل ... رأى شبيهاً لها في الحُسنِ إنسانُ
وكم شجاعٍ زعيمٍ في الوغى بطلٍ ... بدا له في العدا فتكٌ وإيمانُ
كم جندلت يده من كافرٍ فغدا ... تبكيه من أرضهِ أهلٌ وولدانُ

وحمص هي مدينة إشبيلية – سميت كذلك لنزول جند حمص الشام بها – وهي عند نهر الوادي الكبير.

قواعدٌ كُنّ أركانَ البلادِ فما ... عسى البَقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
تَبكي الحنيفيّةُ البيضاءُ من أسفٍ ... كما بكى لفراقِ الإلفِ هيمانُ[1]
على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ ... قد أُسلمتْ ولها بالكفرِ عمرانُ
حيثُ المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما ... فيهنّ إلاّ نواقيسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تَبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابرُ تَرثي وهي عيدان[2]
يا غافلاً وله في الدّهرِ موعظةٌ ... إن كنت في سِنة فالدهرُ يقظانُ
وماشياً مَرحاً يُلهيه مَوطنهُ ... أبعد حمصٍ تغرُّ المرءَ أوطانُ
تلك المصيبةُ أنسَتْ ما تقدّمها ... وما لَها مع طولِ الدّهرِ نسيانُ
يا أيها الملكُ البيضاءُ رايتهُ ... أدركْ بسيفك أهلَ الكفرِ لا كانوا[3]
يا راكبينَ عتاقَ الخيلِ ضامرَةً ... كأنها في ظلالِ النقعِ نيرانُ
وحاملينَ سُيوفَ الهِنْدِ مُرْهفةً ... كأنّها في مجالِ السّبق عقبانُ
وراتعينَ وراءَ البحرِ في دعَةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسُلطانُ
أعندكَم نبأٌ من أهلِ أندلسٍ ... فقد سرى بحديث القوم رُكبانُ
كم يستغيث بنو المستضعفين وهمْ ... أسرى وقتلى، فما يهتزُّ إنسانُ
ماذا التقاطعُ في الإسلامِ بينكمُ ... وأنتم يا عبادَ الله إخوانُ
ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هِمَمٌ ... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ
يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزِّهمُ ... أحالَ حالَهم كفرٌ وطغيانُ
بالأمسِ كانوا مُلوكاً في منازلهمْ ... واليومَ هم في بلاد الكفرِ عُبدانُ
فلو تراهم حَيارى لا دليلَ لهمْ ... عليهمُ من ثيابِ الذلِّ ألوانُ

(١) الحنيفية: الإسلام.

(٢) عيدان ج عود: الغصن بعد أن يقطع، الخشب.

(٣) هذا البيت قريب من مطلع قصيدة ابن الأبار التي دعا فيها المستنصر الموحدي صاحب إفريقية (تونس) لإنقاذ بلنسية من يد ملك أرغون (جاقمة) ومطلع تلك القصيدة:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وقد اخترنا منها في ترجمته.

ولـو رأيـتَ بُكـاهم عنـد بيعهـمُ ... لهـالك الأمـرُ واستهوتْك أحـزانُ
يـا ربّ أمّ وطفـلٍ حيـلَ بينهُمـا ... كمـا تفـرّقُ أرواحٌ وأبـدانُ
وطفلةٍ ما رأتهـا الشمسُ إذ برزتْ ... كأنمـا هـي يـاقوتٌ ومرجـانُ(١)
يقودُها العلجُ للمكروهِ مُكرهـةً(٢) ... والعينُ باكيـةٌ والقلـبُ حيرانُ(٣)
لمثل هذا يـذوبُ القلبُ من كمدٍ ... إن كـان في القلبِ إسلامٌ وإيمـان

-وفي أغراض الرُّندي المديح، فقد كان على صلـة حسنة بدولـة بني نصر، وكان يفِدُ عليهم في غرناطة وينال جوائزهم، ومن شعره المَمْدحي، قوله من قصيدة بدأ بالغزل الرقيق:

ألثـامٌ شـفّ عـن وردٍ نـدِ ... أم غمـامٌ ضحكـت عن بَـرَدِ
أم علـى الأزرار مـن حُلّتهـا ... بَـدْرُ تِـمٍّ في قضيـب أملـدِ(٤)
بـأبي لـينٌ لـه لـو أنّـه ... نقلـت عِطفتُـه للخَلَـدِ(٥)
لا وألحـاظٍ لهـا سـاحرةٍ ... نفثـت في القلبِ لا في العُقَـدِ(٦)
لا طلبـتُ الثـأرَ منهـا ظالمـاً ... وأنـا القـاتلُ نفسـي بيـدي

ثم ينتقل إلى غرض المديح:

لا أرى بالسُّـكر إلاّ مـنْ هـوى ... أو هبـاتِ الملـكِ المؤيّـدِ
مَلِـكُ العليـا ولـو أنصفتُـه ... فتحـت الـلاّمَ لمـن أُفنّـدِ(٧)

---

(١) الطفلة: الرخصة الناعمة. ورواية النفح: وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت

(٢). العلج: ارجل الضخم من أهل العجم..

(٣) بعد هذا البيت من ريحانة الألبا، من الزيادات على النص:

هـل للجهـاد بهـا مـن طـالب فلقـد ... تزخرفـت جنـة المـأوى لهـا شـان
وأشرف الحـور والولـدان مـن غـرف ... فـازت لعمـري بهـذا الخـير شـجعان
ثـم الصلاة علـى المختـار مـن مضـر ... مـا هـبّ ريـح صبـا واهـتز أغصـان

(٤) الأملد: الناعم الليّن.

(٥) الخلد: البال والنفس.

(٦) النّفث: النّفخ مع ريق قليل. والعُقَد ج عقدة: من العقد ضدّ الحلّ.

(٧) فتحتُ اللامَ؛ أي قلت: مَلَكَ. والتفنيدُ: الكذب.

وله غزل رقيق يقاربُ منهج الشعراء العذريّين قديماً، ومن قطعه الغزليّة قوله(١):

يا سالبَ القلب منّي عندما رمَقا | لم يُبق حبّك لي صبراً ولا رمَقا
لا تسأل اليوم عمّا كابدت كبدي | ليتَ الفراق وليتَ الحُبَّ ما خُلِقا
ما باختياريَ ذُقْت الحُبّ ثانيةً | وإنما جارت الأقدارُ فاتّفقا
وكنتُ في كلَفي السّاعي إلى تلفي | مثلَ الفَراشِ أَحبَّ النار فاحترقا
يا مَنْ تجلّى إلى سِرّي فصَيّرني | دَكّاً وهزّ فؤادي عندما صعقا
انظُرْ إليَّ فإنّ النفسَ قد تلفتْ | وارْفُقْ عَليَّ فإنَّ الرُّوْحَ قد زَهِقا!

قال الرُّندي في تقديمه للقصيدة: ولما بويع بالحضرة النصرية بولاية العهد الأمير المعظّم أمير المسلمين - أيده الله - واقترن بذلك مولد ابنه الأمير المعظم - أسعده الله - قلت في ذلك في عروض قصيدة أبي الطيب*.

مَنِ الظّباءُ تَرُوع الأُسدَ بالْمُقلِ | وما رَمتْها بغيرِ الغُنْجِ والكحَلِ
من كلّ رَوْدٍ تَرُدُّ السُّمر مشرعةً | وما اتّقها بغيرِ الحَلْيِ والحُلَلِ(٢)
وربّما أقْدَمتْ والخَيْلُ مُحْجمةٌ | فتطعَنُ الطَّعْنَةَ النجلاءَ بالنَّجَلِ(٣)
تلك الشُّموسُ التي قد أطلعتْ قُزَحاً | أذيالهنَّ ولا غَيْمٌ سِوى الكِلَلِ(٤)
يُريكَ شَرْخَ الصِّبا منهن رأدُ ضُحىً | وهُنّ من مُذهباتِ العَصْبِ في أُصُلِ(٥)
كم للجَمالِ بها من آيةٍ تُليت | على الْمُحِبّ فجلّت شبهةَ العَذلِ

---

(١) أبو البقاء الرُّندي شاعر رثاء الأندلس ١٣٦ - ١٣٧

* قصيدة الرّندي معارضة لقصيدة المتنبّي التي مطلعها:

أجابَ دَمعي وما الدّاعي سوى طَلَلِ | دعَا فلبّاه قبلَ الخَيْلِ والإبلِ

(٢) في القاموس: الرئدة والرؤودة: الشابة الحسنة.

(٣) النَّجَلُ (بالتحريك) سعة العين.

(٤) الكلل ج كلة: الستر الرقيق.

(٥) رأد الضحى: ارتفاعه. وأصل جمع أصيل.

وقُضب بان على كثبٍ لها زهرٌ ... يُسقى - ولا ظمأٌ - بالأدمُع الهمُلِ
خفَّت لها وُشحٌ جالتْ على هيفٍ ... فوقَّرتها من الأرْدافِ بالثِّقَلِ
ونَظْرَةٍ يُشْتَفى منها بثانيةٍ ... كما تداويتَ بالصّهباءِ من ثَمَلِ!
بعثُ الحياةَ بها من لحظِ جاريَةٍ ... إذا رنَتْ فجِذاراً مِن بني ثُعَلِ[1]
ولّى عزائي مِن أجفانها فَرَقاً ... كأنّما هُو عمرٌو وهي سيفُ علي!
وليلةٍ باللّوى ما كانَ أطْيَبها ... زالتْ معاهِدُها والعهدُ لم يَزلِ
بتنا نُساقي المنى والأنسُ ثالثنا ... والرّاحُ من شَنبٍ والنُّقْلُ من قُبَلِ[2]
حتى بَدتْ غُرَّةٌ للصُّبْحِ مُشْرِقةٌ ... كمثلِ وجهِ ولي العهد يوم وَلي
يا يوم سَعْدٍ كأنّ العيدَ عادَ به ... والنّاسُ في مَرحٍ والدَّهْرُ في جَذَلِ
شَهِدْتُه، فرأيْنا الأرْضَ قد بَهرتْ ... والشّمس قد سَترتْ وَجْهاً من الخَجلِ
وللطُّبول به خَفْقٌ يُساجلُهُ ... خفقُ البنودِ على الخَطِّيَّةِ الذُّبُلِ
وكلّ أشوسَ ساجي الطّرف من أدبٍ ... يهوي للثم يدٍ أشْهى من الأملِ
ويَجْتَلي غُرّة بالبِشْرِ مُشْرقَةً ... كما تجلّتْ إياهُ الشّمسِ في الحَمَلِ[3]
للهِ للهِ من عيدين في نَسَقٍ ... لِهذه الدولةِ الغَرّاءِ في الدُّولِ
أهلاً بذا الولدِ الميمون مولِدُهُ ... والصّارمِ المُنْتضى من أكرمِ الخللِ
أهلاً بذا الملكِ النَّصْريّ محتِدُهُ ... والفارسِ البطلِ بن الفارسِ البطلِ
وبيعةٍ عُقِدَتْ والسّعدُ يُسعِدُها ... فما تَرى في خلالِ الأمن من خَللِ
على تقلّدها أوْلى الأنامِ بها ... ووارث المجدِ من آبائهِ الأُوَلِ
الفاعل الفعلَ لا يُعْزى له خَطأٌ ... والقائل القولَ لا يُؤتى من الخَطلِ

(١) بنو ثعل حي من أحياء العرب، وهم الذي عناهم امرؤ القيس بقوله:
رب رام من بني ثعل ... مخرج كفيه من ستره
(٢) الشنب: عذوبة في الأسنان.
(٣) إياة الشمس: نورها وحسنها.
(٤) الغمر (بالضم): الذي لم يجرب الأمور.
(٥) الأيم: الأفعى.

مُحيي الغَريبين من دِيْنٍ ومن أدَبٍ … وقاتلِ القاتِلَيْن: الجُبْنِ والبَخَلِ
وباعث الجَيْش بعدَ النَّذر مُتَّئِداً … فينثني وهو في ثانٍ من النَّفَلِ
ما نامَ عن بأسهِ قَوْمٌ على غَرَرٍ … إلا وأيْقظَهُمْ طيفٌ من الوَجَلِ
ولا انْتَضى عَزْمَهُ سَيفاً لِهَيْبَتِهِ … إلا تَغَلْغَلَ في الأحشاءِ كالغَلَلِ
ولا هَمى جُودُهُ من سُحْبِ أنْمُلهِ … إلاّ وأغْنتْ أياديه عن السبل
صفاتُ ملكٍ صِفاتُ المكرمات له … كالنّعْتِ، كالعطفِ، كالتوكيد، كالبدل
وخُلق من خُلقتْ للسَّعدِ غُرَّتهُ … وللعُلى يَدهُ، والجودِ، والقُبَلِ
كالغيثِ لكنّها نفعٌ بلا ضَررٍ … كالبحرِ لكنّها أحْلى من العَسَلِ
كأنّ راحَتهُ روضٌ؛ ولا زهَرٌ … غير اليَراعِ بها والبيْضِ والأسَلِ
من أصفرٍ حُبّه للمَجْد أنحَلَهُ … فلو يَراهُ الهوى ما شاءَ لم يَحُلِ
أخُو الرُّدَيْنِيِّ من شَكْلٍ ومَكْرُمَةٍ … وربّما طالَهُ فِعلاً ولم يَطُلِ
وأبيض صِيْغ من ماءٍ ومن لَهبٍ … على اعْتمال فلم يجْمَدْ ولم يَسِلِ
ماضي العِذارِ يَهابُ الغُمر صولتَهُ … كأنّما هو مَطْبوعٌ من الأجلِ! (١)
أبْهى من الوَصْلِ بعد الهجر مَنْظَرُهُ … حُسْناً وأقطع من بَيْنٍ على مَلَلِ
وأسمر ظَنَّ ماءً كلَّ سابغة … فحاصَ كالأيْمِ يَسْتَسقي من النَّهَلِ (٢)
هامَ الكماةُ به حُبّاً ولا عَجَبٌ … من لوعةٍ بمليحِ القَدِّ معْتَدِلِ
إذا الطَّعِينُ تلقّاه فأرْعَفهُ … حسبْتَهُ عاكِفاً يَبْكي على طَلَلِ
يا ابن الهُمام الذي له حُلىً حَسُنت … بها الإمارةُ حُسْنَ الْمَدْحِ بالغزَلِ
ومنْ له كَرمٌ ريشَ الشّتاءُ به … فطارَ حتّى سَرى في الأرضِ كالْمَثَلِ
اهْنأ بها نِعَماً في إثْرها نِعَمٌ … وسرّ واسْمُ وصِلْ وجُدْ وسُدْ وصِلِ
وخذْ إليكَ حُلىً فصَّلْتها حُلَلاً … الفَضْلُ فيها لِتلْكَ الْمَكْرُماتِ، وَلِي
واستَقْبلِ السَّعْدَ بالبُشْرى التي طَلعتْ … وابلغْ بتلْكَ العُلى ما شئتَ من أمَلِ

---

(١) الغمر (بالضم: الذي لم يجرب الأمور.
(٢) الأيم: الأفعى.

لِسانُ الدّين بنُ الخَطِيْب(1)

(٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ)

يرد اسم لسان الدين بن الخطيب في عالم السّياسة فقد كان لمدة طويلة وزيراً خطيراً ذا شأن، ويُذكر في عالم الكتابة والنثر الفني فقد شغل منصب كاتب، ثم صار رئيس الكتّاب، وهو أحد شعراء الأندلس في القرن الثامن الهجري وله موشّحات كثيرة. ومن جهة أخرى فهو مؤلف مصنف مَدّ يده إلى موضوعات متعدّدة من جوانب العلم والثقافة والمعرفة والأدب.

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله السّلماني، كانوا يُعْرَفُون ببني الوزير، وغلب عليهم لقب الخطيب نسبة إلى لقب اكتسبه أحد أجداده (سعيد).

ولد في (لوشة)، إحدى المدن التابعة لغرناطة سنة (٧١٣ هـ). وسرعان ما انتقل إلى غرناطة، وكان أبوه كاتباً في الدّيوان السُّلطاني. فنشأ في رعاية والده وتلقّى علومه على عدد من شيوخ العصر وأكابر العلماء. وتنوعت ثقافته، وكثرت العلوم التي تلقّاها ما بين الطبّ والحكمة من جهة والشعر والموشح من جهة، إضافة إلى فنون وقضايا مختلفة متعدّدة.

تدرّج لسان الدين في الخدمة السُّلطانية كاتباً مع أبيه وأخيه في الدّيوان السُّلطاني. فلما استشهد أبوه وأخوه في معركة طريف سنة (٧٤١ هـ) حلّ محلّ

---

(١) ترجمته في نثير الجمان (أعلام المغرب والأندلس) ١٢٩، ونثير فرائد الجمان ٢٤٢، والدرر الكامنة ٤٤٩/٣، والتعريف بابن خلدون ٨٥، ونفح الطيب للمقري (مواضع كثيرة فالكتاب مؤسّس على ترجمته) وانظر تاريخ الفكر الأندلسي ١٣٨، والشعر الأندلسي (غارثيا غومز) ٣٦.

- وأصدر محمد عبد الله عنان كتاباً مفرداً عن (لسان الدين بن الخطيب) في مكتبة الخانجي.
- و: لسان الدين بن الخطيب - د. عصام قصبجي - طبع جامعة حلب ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

أبيه في الدّيوان. وزادت صلته بأستاذه ومعلمه أبي الحسن بن الجَيّاب وارتقت مكانته تدريجاً. وكان قد نبغ في الشُّعراء مثلما نبغ في الكُتّاب.

ولما توفّي ابن الجَيّاب سنة (٧٤٩ هـ) في الطاعون الجارف، اختار سُلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف: لسانَ الدين بن الخطيب رئيساً للكُتّاب. واستمر نجمُه في الصُّعود، واسمه في اللمعان في الأندلس، وفي المغرب أيضاً.

وفي عهد الغني با لله محمد (الخامس) من بني نصر عَلا نجم لسان الدين. فقرّبه الأمير؛ وقلده المهم من أموره: ومنحه رتبة الوزارة إضافةً إلى رياسة الكتّاب، والسفارة، وما يليق بذلك من ألقاب ورسوم.

وترك لسان الدين غرناطة مع محمد الخامس من (٧٦١ إلى ٧٦٣ هـ). وبقي في المغرب بعد انقلاب حصل على محمد الغني با لله. فلما عادَ الأمير إلى غرناطة - بعد أن تدبّرَ أمور نفسه - عاد معه أثيراً لديه كما كان.

ولكن لسان الدين غادر غرناطة سنة (٧٧٣ هـ) دون أن يُعلم الأمير بوجهته، واستقرّ في المغرب في حالٍ تُشبه حال اللاّجئ السياسي (كما نقول اليوم).

وكان لسان الدين قد أحسّ تألّباً عليه من قبل القاضي النُّباهي؛ وتلميذه ابن زَمْرَك؛ وكانا صديقين قديمين؛ وخشيَ أن يصيبه من الأمير سوء، فهرب بنفسه، ثم لحق به أهله وأولاده إلى المغرب.

غير أنّ الظروف تتغير في المغرب (الأقصى) ويأتي إلى الحُكم أمير ووزير يدينان بالولاء للغنيّ با لله النّصري. وتنتهي حياة لسان الدين بأن يموت صَبْراً على يد وفدٍ قصَد من غرناطة إلى فاس خصّيصاً لتصفية قضية لسان الدين، وكان هذا سنة (٧٧٦ هـ).

٢ - على كثرة مشاغل لسان الدين وتشعب اهتماماته السياسية والاجتماعية كان كاتباً غزير النتاج، كثير التواليف، متعدد الاتجاهات. وله آثار في الكتابة

الديوانية والإخوانية (في الترسُّل). وله شعر كثير، وله مؤلفات في التراجم والتواريخ والطلب والأدب والتصوف وسوى ذلك من وجوه التأليف.

- فمن كتبه: الإحاطة في أخبار غرناطة (طبع في أربعة أجزاء) وهو كتاب تراجم. وجيش التّوشيح (طبع بتحقيق أ. هلال ناجي) وهو مختارات من الموشحات الأندلسية مع مقدّمات وملاحظات. وروضة التعريف بالحب الشريف (طبع مرتين): في التصوف، وعارَض به ديوان الصَّبابة لابن أبي حجلة. وله (ريحانة الكُتَّاب ونُجْعَةُ الْمُنتاب) مجموعة رسائل - مطبوع[1]. ونفاضة الجراب (وهو أشبه بالمذكرات الشخصية عن حياته في المغرب في رحلته الأولى) طبع بمصر. وله (رقم الحلل في نظم الدول) مطبوع: في التاريخ، و (اللمحة البدرية في الدولة النصرية) مطبوع. وله كتاب ترجم فيه للشعراء المعاصرين له سماه: (الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة) طبع ببيروت. وله مؤلّفات أُخَر بين مطبوعٍ ومخطوط ومفقود.

٣ - لسان الدين بن الخطيب شاعر، وشّاح، مترسل، كاتب. وهو يمثّل - على أكثر من وجه - حركة الأدب في القرن الثامن الهجري، وإن لم يكن المقدَّم على شعراء عصره. ولكن غزارة نتاجه ووفرة شعره بين أيدينا تجعل الحديث عنه صالحاً للمقايسة والمقابلة[2] .

ويسيطر على شعر لسان الدين جانبان: الوجدانيات الخاصة به من شعر ذاتي، كالتأمل، والغزل، ووصف الطبيعة الأندلسية؛ غرناطة وما حولها. والتعبير

---

(١) أخرجه الأستاذ محمد عبد الله عنان في جزأين في مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٢) طبع ديوان لسان الدين بن الخطيب في الجزائر بعنوان: الصيّب والجَهام والماضي والكهام. حققه محمد الشريف قاهر، ونشرته الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ط١ ١٩٧٣ م في جزء واحد. ثم صدر في الدار البيضاء بالمغرب ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م بتحقيق محمد مفتاح ونشرته دار الثقافة في جزأين بعنوان: ديوان لسان الدين بن الخطيب.

بالشعر عن جوانب الحياة من وجهة نظر الشاعر المتأمّل... وما يخص نفسه وأسرته وحياته الخاصة.

والجانب الآخر: استخدام الشعر وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي وخصوصاً شعر المديح الذي كان يقدّمه - كغيره من شعراء العصر - إلى البلاط النصري في المناسبات والاحتفالات والأعياد... والشعر الذي جعله تصويراً للأحداث العامة، ومشاركةً في علاقاته الشخصية والسياسيّة.

ويُتابع لسان الدين سلسلة الشعراء الذين سخّروا الشّعر لتدوين التاريخ؛ وكتابه: (رقم الحلل في نظم الدول) مثالٌ لذلك؛ لأنه منظومة في تلخيص التاريخ الإسلامي، وتلخيص تاريخ الأسرة النصرية إلى زمانه.

ومن هنا اتسم شعره أحياناً بما يتّسم به شعر البديهة من السُّرعة والارتجال أحياناً. وكان صورة عصريّة حيّة تُعين على تكميل تاريخ الفترة ودراستها.

٤ - ولسان الدين بن الخطيب، على العموم، شاعر طويل النّفس، مقتدرٌ على إطالة القصائد. وفي شعره لمحاتٌ دالةٌ باستمرار على ثقافته الواسعة، ومخزونه التراثي الغزير الذي يُحسن استخدامه.

ويمتاز الشاعر على الجملة بالتمكن اللغوي؛ وتراصّ البناء الشعري، وسيطرة الفكرة أحياناً على حساب العاطفة. ويحاولُ الشاعر باستمرار أن يعتمد أسلوب التّصوير والتخييل؛ وأن يشحن القصيدة - أو القطعة - بما يستطيع من طاقة غنائية موسيقية.

٥ - لابن الخطيب قصيدة مشهورةٌ ألقاها بين يدي سلطان بني مرين أبي عنان، حين وفَد من الأندلس على المغرب في رسالةٍ سلطانية: وقدّم لها بما نصّه في الديوان (ص ٥٤٣):

«وقفت أمام سلطان المغرب أمير المسلمين أبي عنان رحمةُ الله عليه (أمدحه) بها في المحفل المشهود قبل أن ألقي له مضمّن الرسالة التي تحملتُها عن سلطاني بالأندلس:

خليفـــةَ اللهِ ســـاعدَ القـــدَرُ عُـلاكَ مـا لاحَ في الدُّجـى قمـرُ
ودافعـتْ عنـك كـفُّ قُدرتِـه مـا ليسَ يَسـطيعُ دَفْعَـهُ البشـرُ
ليـس لنـا ملجـأ نُؤمِّلـه سـواكَ أنـتَ الثِّمـالُ والـوَزَرُ(١)
وجهـك في النائبـاتِ بـدرُ دُجـى لنـا، وفي المجـدِ كفُّـكَ المطـرُ
والنّـاسُ طـرّاً بـأرضِ أندَلُـسٍ لـولاكَ مـا أوطنـوا ولا عمـروا
وجملـةُ الأمـرِ أنّـه وطـنٌ في غـيرِ عُليـاك مـا لَـهُ وطـرُ
ومـن بـهِ مـذْ وصلـتَ حبلهـمُ مـا جَحـدوا نعمـةً ولا كفـروا
وقـدْ أهمَّتهُـمُ نفوسـهـمُ فوجّهونـي إليـكَ وانتظـروا!

وترى الشاعر يُحيي سنّة شعراء المديح؛ ويستعمل هنا قدرته باعتباره شاعراً متمكناً، ويستفيد من قدرته الأخرى باعتباره سفيراً يُتقن أصول مخاطبة الملوك، ويعرف أن لكل مقامٍ مقالاً.

ومن شعر لسان الدين المدحي، ما أنشده؛ وهو ما يزال في مقتبل الشباب، بمناسبة معركة منتصرة، هذه القصيدة؛ وقدم لها بقوله:

«وقلت أخاطبه - يعني أمير غرناطة - في الغزوة التي جَرَف فيها حصن إستبة؛ وفتح معقل بني بشير عام ثلاثة وأربعين، ونظمتها بظاهر إستبة»:

السـعدُ جنـدُكَ والقضـاءُ دليـلُ واللهُ بـالنّصرِ العزيـزِ كفيـلُ
فـإذا هممـتَ بلغـتَ كـلَّ مُمنّـعٍ وإذا رأيتَ الـرأيَ ليـس يفيـلُ(٢)
شـهدت لـك العليـاءُ أنـك ربُّهـا والديـنُ أنـكَ سـيفها المسـلولُ
والجـودُ أنّـك غيثـه الهـامي الحيـا هـذا وكـلُّ شـاهدٍ مقبـولُ
والحـقُّ يُغـني عـن شـهادةِ شـاهدٍ أنّـى يُـرامُ علـى الصَّبـاح دليـلُ
مـن اسـتجارَ عُـلاك عَـزَّ جـوارُه وعزيـزُ قـومٍ لم يُطعْـكَ ذليـلُ
وإذا توخَّيْـت السياسـةَ في الـورَى يومـاً؛ فمـا للعـدْلِ عنـك عُـدولُ
وإذا جنبـتَ المغريـاتِ إلى العـدى سـيان عنـدك فرْسَـخٌ أو ميـلُ

(١) يقال: فلان ثمال قومه: أي قوامهم وغياثهم.
(٢) إذا رأى الرأي كان ثاقباً لا يخيب، نافذاً غير ضعيف.

ولـو استعنتَ الدَّهـرَ واستنجدتَهُ ... لبـدا لأمـركَ طاعـةٌ وقبـولُ
وأتـى ومن قطع الظـلامِ كواكـبٌ ... ومـن الصبـاح أسـنةٌ ونصـولُ

ومنها:

إن رمـتَ في الله الجهـاد وطالمـا ... أرضـى الإلـهَ جهـادُك المقبـولُ
وأنفْـتَ للدّيـن الحنيـف وأهلـه ... مـن أن يَطيـح نجيعُـه المطلـولُ
وقدحـت زنـدَ عزيمـةٍ نصريَّـةٍ ... تركَـتْ ديار الكفر وهي طُلـول
وسـلكت للتقـوى سـبيلاً سـنَّها ... علـمُ الملـوك أبـوكَ إسمـاعيلُ
ورجعتَ والنصـرُ العزيز مصـاحبٌ ... لـك والملائكـةُ الكـرامُ قبيـلُ
في عسـكر لجْـبٍ كـأنَّ جموعـهُ ... فـوق الوهـاد إلا رجفـن سـيولُ
كـالبحر إلا أنّهـنَّ كتـائبٌ ... والريـح إلا أنهـنَّ خُيـولُ
والـبرق إلا أنّهـنَّ أسـنّةٌ ... والرَّعـد إلا أنّهـنَّ طبـولُ
فبكـلّ نجـد رايـةٌ منشـورةٌ ... وبكـلّ غـورٍ مقنـبٌ ورَعيـلُ

- وهذا نموذج ثالث من شعر لسان الدين في غرض الغزل. وهو يبدو، وإن ركب فيه قافية عويصة، متمكناً مجيداً. قال:

يـا هـلالاً، يـا قضيبـاً، يـا رشـا ... إن تبـدّى أو تثنـى أو مشـى
يـا غـزالاً وِردُهُ في أدمعـي ... كلمـا شـاءَ ومرعـاهُ الحشـا
قـد فشـا فيـكَ هُيـامي في الـورَى ... وهـو لـولا دَمـعُ عَيـني مـا فشـا
ولكـمْ آثـرتُ كتمـانَ الهـوى ... غـير أنّ الدمـعَ بالسـرِّ وشـا
كيـف بالكتمـانِ يومـاً لامـرئٍ ... سِـرُّهُ في خـدِّه قـد نُقِشـا
أو بسـلوانٍ لمـن في رُبَّـةٍ ... جسمُه والقلبُ في وادي الأشـا(١)
خـذْ فـؤادي لـك منّـي هِبـةً ... حُـرَّةً وافعـلْ بقلـبي مـا تَشـا

(١) ربة، ووادي الأشا أو وادي الأشاة من جهات جنوبي الأندلس الشرقي.

بعـتُ فيـكَ النـومَ بالسُّـهد فـلا | فـرْقَ عنـدي بـين صُبـحٍ وعشـا
كـم ليـالٍ بـتُّ في ظَلمائِهـا | أمتطـي مـن نـارِ شَـوقي فرُشـا
كلّمـا صحـتُ بهـا وا كبـدي | مـادت الأرضُ لمـا بـي دَهشـا
وكـأنَّ النجـمَ شَـرْبٌ ثمـلٌ | واصـلَ الثّملـةَ حتّـى ارتَعشـا
وكـأنّ الصبـحَ في الليـلِ وقـد | مـلأ الأرجـاء ممّـا جَيَّشـا
ثـائرٌ راقـبَ منـه فرصـةً | ثـمّ لمـا أمكَنَتْـهُ بطَشـا
وتخـالُ الأفـقَ ثغـراً قاصيـاً | غلـبَ الـرومُ عليـهِ الحبشـا
ملئـتْ مـن جوهـرِ الدّمـعِ يَـدي | عَجبـاً أقبَـلُ في قلـبي الرَّشـا!
وجَـرى مـن مـاءِ عيـني نَهـرٌ | حـين أرسلـتُ دُموعـي مُجهشـا
فـاعجَبوا مـن جوهـرٍ لا يُقتنـى | ولنهـرٍ ليـس يَـروي عطَشـا
يـا نَديمـيّ فـؤادي كُلمـا | نفحـت ريـحُ النّعـامى انتَعشـا
آنِسـاً قلـبي بتذكـارِ الحِمـى | فـالحِمى مـن أهلِـه قـد أوْحَشـا
ضـاعَ يـومَ البـينِ قَلـبي فاجْثيـا | بـين أخفـاف المطايـا وانبشـا
وامزُجاهـا قهـوةً عطريّـةً | كرُمـتْ كرمـاً وطـابت عرَشـا
فـإذا أبصرَهـا ذو قُـرَّةٍ | ظَنّهـا بـالبُعدِ نـاراً فعَشـا
وإذا قبّلهـا شـاربُها | قطّـب الوجـهَ لهـا وانكمشـا
فسـلا السّـاقي الـذي أترعهـا | حَببـاً أودعهـا أو حَنَشـا!

ومن شعره القصيدة التي مدح بها السلطان المريني أبا سالم، وجعلها مَدْخلاً لنزوله مع سلطان غرناطة الغني با لله حين جرت عليهما الحركة الانقلابيّة واستنجاده به، وفي أول القصيدة[1]:

«سلا» هل لديها من مخبّرةٍ ذكرُ | وهل أعشب الوادي ونمّ به الزهـرُ؟
وهل باكر الوسميُّ داراً على اللوى | عفـت آيُها إلا التوهّمُ والذّكـرُ
بلادي التي عاطيتُ مشمولة الهوى | بأكنافها والعيش فينان مُخْضَرُ

(١) الديوان (ط المغرب) ٢/٤١٤

وجَوّي الذي رَبّى جناحيَ وكُرهُ ... فها أنا ذا ما لي جناحٌ ولا وكرُ
نَبَتْ بيَ لا عَنْ جفوةٍ وملالةٍ ... ولا نسخَ الوصلَ الهنيَّ بها هَجْرُ
ولكنها الدنيا قليلٌ متاعُها ... ولذّاتُها دأباً تزور وتَزْوَرُّ!
و لله عَيْنا مَنْ رآنا وللأسى ... ضِرامٌ له في كل جانحةٍ جَمْرُ

فالشاعر يذكر مدينة (سَلا) إحدى حواضر المغرب، وفيها مقام سلطان بني مرين أبي سالم، ويتذكر بلاده (غرناطة والأندلس) بعد أن اضطرته الظروف إلى تركها (لا عن جفوة وملالة) ولكن لطارئ دهمهم، وانتزعهم من بلادهم... ومَدْخَل الشاعر في قصيدته بارع، لأنّه يوحي بالحديث عن الدّيار على عادة العرب، وهو في الحقيقة يمهّد لموضوعه الذي هيّأه من الاستنجاد وطلب اللجوء أوّلاً والنُّصرة ثانياً.

وقال في معرض المديح، وهو يذكر السلطان أبا سالم:

تناقلتِ الركبانُ طيبَ حديثه ... فلما رأته صدّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ
ندىً لو حواه البَحْرُ لذَّ مذاقهُ ... ولم يتعقّب مَدَّهُ أبداً جَزْرُ!
وبأسٌ غدا يرتاعُ من خوفه الردى ... وتَرْفُلُ في أثوابه الفتكةُ البِكْرُ

وفي جانب من القصيدة:

قصدناك يا خيرَ الملوكِ على النّوى ... لتنصفَنا مّما جنى عبدُكَ الدهرُ!
كففْنا بكَ الأيامَ عن غُلَوائها ... وقد رابنا منها التعسُّفُ والكِبْرُ
وعُذْنا بذاك المجدِ فانصرم الرّدى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الذّعرُ
ولَمّا أتينا البحر يُرْهَبُ موجُه ... ذكرنا نداك الغَمْر، فاحْتُقِرَ البحر

- وللسان الدين الموشحة المشهورة:

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ همى ... يا زمانَ الوصلِ بالأندلس
لم يكن وصلُكَ إلاّ حُلُماً ... في الكرى أو خلسة المُختلس

والموشحة ثابتة في هذا الكتاب: (انظر الفَصْل الثّاني: **الموشحات الأندلسية**).

خاتمة

كانت حياة الأدب في القطر الأندلسي، وعلى امتداد ثمانية قرون امتداداً لحياة الأدب العربي في سائر أقطار الدولة العربية الإسلامية المترامية الأطراف: النَّبع واحد، واللغة واحدة، والملامح الأدبية متقاربة، متداخل بعضها في بعضها الآخر.

وكانت أيضاً رافداً جديداً، فيه من محاولات الإبداع والتجديد مثل ما فيه من محاولات المحاكاة والمضاهاة، وبين هذين الجانبين: التقليد والمحاكاة من جهة، والإبداع والتجديد من جهة أخرى؛ كوّن الأدب العربي في الأندلس لنفسه تلك السّمات التي تشرب من النبع. وتصب فيه في آن معاً.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أعرض على القارئ الكريم أبرز جوانب الأدب العربيّ في الأندلس، وأن أقف عند جوانب من الجديد الذي حاولوه. وأن أعرّف بعدد من أعلام الأدب في الشعر والنثر من الأسماء التي أثرت في مجريات الحياة الأدبية، والتي ثبتت أيضاً في ذاكرة الناس على امتداد العصور الأدبية.

ولاشك في أنَّ للأندلس في نفوس الناس مكانة خاصة. فالأندلس في بلدانها وتواريخها وأحداثها ووجوه الإبداع فيها وكثير من شخصياتها؛ امتزجت بوجدان أبناء الأمة منذ زمان الفتح القديم (أواخر القرن الأول الهجري)، ثم التفت المشارقة إلى الأندلس شيئاً فشيئاً: في احتكاكهم بالوافدين من الأندلس لأسباب شتى، وفي أخبار أبناء المشرق الذين قصدوا إلى تلك البلاد زيارة أو تجارة، أو لتقديم الخبرة العلمية أو غير ذلك من الأسباب.

وكان لأحداث الأندلس التاريخية والحربية، واستمرار أحوال أهلها من المقاومة والجهاد أثر في الجانب العاطفي الشديد التأثر، وقد أسهم شعراء الأندلس في رسم صُور واقعية حيناً وصور قريبة إلى الخيال حيناً آخر.

هذا الكتاب تقدمةٌ أوليةٌ لمتابع مجريات الأدب الأندلسي. أرجو أن يكون فيه ما يُطفئُ الشوق، ويَبُلّ الصدى، ويمتّع النفس ويسرّ الخاطر.

على أن لنا عودة إلى القارئ الكريم ـ إن شاء الله ـ مع الكتاب الموسّع في «تاريخ الأدب الأندلسي» الذي يستوفي ويستوعب ويُقنع ويُرضي.

والحمد لله رب العالمين

محمد رضوان الداية

فهرس الأعلام

((أ))

إبراهيم بن حجاج ٣٠٢
إبراهيم بن عبد الله بن الحاج ٢٨٢
ابن الأبّار ٦٦، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠، ٣٦٢
ابن برد الأصغر ٢٢٠، ٢٤٠
ابن بسام ١٨٣، ١٨٤، ٢٢٩، ٢٥٦
ابن بشكوال ٣٤٣
ابن جبير ١٠٣، ٢٢١، ٢٣٩
ابن جحدر الإشبيلي ٢٠٤
ابن جزي ٦٧
ابن الجياب ٣٦٨
ابن الجنّان الأنصاري ١٠٢، ٢٢٢
ابن الحدّاد الوادي آشي ٥٨، ٨٣
ابن حزم ٥٦، ١٢١، ١٨٢، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩
ابن خاتمة الأنصاري ١٨٥، ١٩٩
ابن خفاجة = أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبيد الله الهواري ١٨، ٦٦، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٥، ١٤٩، ٢٣٤، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦
ابن خلدون ٤٢، ٢٦٨
ابن خير ٥٠
ابن دراج القسطلي ٦٢، ٢٢٧
ابن رشد ٤٧
ابن راشد ٢٠٢
ابن زيدون ٥٧، ١١٧، ١١٨، ١٤٦، ٢٣٤، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٥
ابن زمرك ٦٩، ١٢٩، ١٤٨
ابن السراج ٢٣٦
ابن سعيد أبو الحسن علي بن سعيد ٢٧٠
ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى ١٣٦

ابن سهل الإشبيلي ١٨٧
ابن السيد البطليوسي ١٠١
ابن شهيد = أبو عامر أحمد بن عبد الملك الأشجعي ٢١٨، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥
ابن عاشور ٢٨٢
ابن عبد ربه ٦٢، ١٠٦، ١٤٠، ١٤١، ١٤٧
ابن عبد الغفور الكلاعي ٤٧
ابن عبد الملك المراكشي ٣٥٦
ابن عبدون ١٧٥
ابن عذاري ٢١٥
ابن العسال ٨٥، ١٦٣
ابن عطية ٤٨، ٥٠
ابن عياش ٢٢١
ابن الفخار الجذامي ١٠٧
ابن فركون ٦٠، ٧٠، ١٣٨
ابن فضلان ٢٦٧
ابن قزمان ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤
ابن الكتاني الطبيب ١١٥
ابن ليون ١١١، ١٨٩
ابن مرج الكحل محمد بن إدريس ١٢٧
ابن المقفع ٢٤٤
ابن هردوس ٢٢١
ابن هود ٢٢٢
أبو إسحاق الإلبيري ٧٤، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ١٠٩، ١٥٩
أبو إسحاق = إبراهيم بن عبد الله بن الحاج النميري الغرناطي ٢٧٨
أبو إسحاق الصابي ٣٤٨
أبو البقاء = خالد بن عيسى البلوي ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٥
أبو البقاء = صالح بن يزيد بن صالح بن شريف الرندي ٤٧، ٦٧، ١٣٧، ١٤٣، ١٦٨، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٤
أبو بكر بن أزهر الحجري ٢٥٧
أبو بكر بن حزم ٢٤٤
أبو بكر بن العربي ٢٧٠
أبو بكر بن اللبانة ١٥٤
أبو بكر بن مالك الفهري ٢٥٧

أبو بكر بن إبراهيم بن سعيد القيسي ٣١٣
أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري = الأبيض ١٩٢
أبو بكر محمد بن عبد الله الكتندي ١٢٨
أبو بكر مسلم بن أحمد القرطبي النحوي ٣١٢
أبو جعفر بن طلحة ٢٢٢
أبو جعفر الوقشي ١٦٥
أبو حامد الغرناطي = محمد بن عبد الرحيم القيسي ٢٧٠
أبو الحزم = ابن جهور ٢٥٢، ٣١٢، ٣٢٣، ٣٢٤
أبو الحسن الششتري ٢٠٧، ٢٠٨
أبو الحسن علي بن الإمام ١٢١
أبو الحسن = علي بن محمد القرشي البسطي القلصادي ٢٨٢، ٢٨٤
أبو الحسين سراج بن عبد الملك ٢٣٤، ٢٣٦
أبو الحسين = محمد بن جبير الكتاني ٢٧٠
أبو حفص بن برد الأصغر ٣٢٦، ٣٣٠
أبو حفص عمر بن الشهيد ٢٥٦
أبو زيد السروجي ٢٥٨
أبو سالم ـ السلطان ٣٧٤
أبو صالح المعافري ٣٠٢
أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي المازني القرطبي ٢٥٩، ٢٦٠
أبو عامر بن الحمّارة ١٤٣
أبو عامر بن شهيد ٢٢٣
أبو العباس = أحمد بن عبد الله بن ذكوان ٣١٢
أبو العباس = أحمد بن محمد بن أبي عبيدة ٣٠٢
أبو العباس بن عبد المنان ٢٨١
أبو العباس بن النعمان ٢٨٢
أبو العباس الشريشي ٢٥٧
أبو عبد الله بن أبي الخصال الغافقي ١٢٣، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٥٧، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٤٩
أبو عبد الله العزفي ٢٨١

أبو عبد الله محمد بن سفر المريني ١٣٣
أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي ٢٧٨
أبو عبد الله محمد بن يخلفتن الفازاري القرطبي ٢٢١
أبو العتاهية ٨١
أبو العلاء المعري ٣٤٣
أبو علي القالي البغدادي ٤٦
أبو القاسم بن الجد ٢٢١
أبو القاسم بن جهور ٢٥٧
أبو عمر بن الباجي ٢٢٨
أبو عمر = أحمد بن محمد بن عبد ربه ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠
أبو محمد البرطال ٢٨٠
أبو محمد بن حزم ٢٤٦
أبو محمد = عبد الله بن محمد بن القاسم الفهري ٣٤٨
أبو محمد بن عبد البر ٢٢٠
أبو محمد بن مالك القرطبي ٢٥٦
أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري ٢٣٠
أبو المطرف بن عميرة المخزومي ٢٢٢
أبو المطرف بن مثنى ٢٢٠
أبو المطرف عبد الرحمن بن أبي الفهد الأشجعي ٣٤٤
أبو الوليد = أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومي ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠
أبو الوليد الباجي ١٤٤
أبو الوليد الحميري ١١٥، ٢٢٩
أبو هريرة ٣٥٢
أبو يحيى بن هشام القرطبي ١٢٢
إحسان عباس ٢٤٧
أحمد بن دراج القسطلي= ابن دَرّاج
أحمد بن عبد الله المخزومي ٢٢٢
أحمد بن عمر العذري الدلائي ٢٦٩
أحمد بن فرج الجيّاني ٥٤
أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي ٩٧

أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيري ٩٦
أخطل بن نمارة ٢٠٣
أصبغ بن الفرج ٧٥
الأزرق = عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي الأصبحي الغرناطي ٢٨٤
الأعمى التطيلي ١٤٢، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٤
الأعمى المخزومي (بشار الأندلس) ٧٥

((ب))

بديع الزمان الهمذاني ٢٤٤، ٢٤٧
البربر ٢٢
بقي بن مخلد ٤٨
بنو الأحمر ٣٨
بنو سعيد ١٨
البلديون ٢١

((ت))

تميم ـ الأمير ٦٦

((ج))

الجاحظ ٢١٥، ٢٤٤
جعفر بن عثمان المصحفي ١١٥
جعفر بن محمد بن مكي بن أبي طالب ١٤٧

((ح))

الحاجب المنصور ابن أبي عامر ٣١٢
الحارث بن همام ٢٥٨
حارثة بن الغلس ٢٤٥
حازم ٤٧
حازم القرطاجني ٦٦
حمزة بن عبد المطلب ٣٥٤
حميدة بنت النعمان الأنصاري ٢٣٢
الحميري ١١٧

((خ))

خلف بن فرج الإلبيري (السُّميسر) ٧٣

((د))

ديك الجن الحمصي ١٨٠

((ذ))

الذهبي ـ الحافظ ٢٧٩

((ر))

الرصافي البلنسي ٦٧، ٦٩، ١٣٦
الرعيني ٥٠

((ز))

الزبير بن العوام ٣٥٤
زرياب بن علي بن نافع ٤١، ٦١، ٣٠٦

الزمخشري ٢٦٦
زهير بن نمير ٢٤٤، ٢٤٥
((س))
السائب بن تمام ٢٦٠
السرقسطي ٢٦١
سعد بن أبي وقاص ٣٥٤
سعد بن جودي السعدي الإلبيري ١٤٦، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨
سعيد بن المسيب ٣٥٤
سليمان بن عبد الملك ٢٧
سوار بن حمدون ٢٩٨
((ش))
الشاميون ٢١
الشعوبية ٢٤
شنجول ٣٣
شوقي ضيف ٥٧، ٢٤٦
شهاب الدين الخفاجي ٣٥٩
الشيخ أبو حبيب ٢٦٠
((ص))
الصمَّة القشيري ٢٣٢
((ط))
طلحة بن عبد الله ٣٥٤
الطوائف ٣٥
((ع))
عبادة بن ماء السماء ١٨٣
العباس بن عبد المطلب ٣٥٤
عباس بن ناصح ١١٤
عبد الله بن بلقين ١٥٢
عبد الله بن سارة الشنتريني ٧٥
عبد الله بن الشمر ٧٢
عبد الله بن عباس ٣٥٤
عبد الله بن عبد العزيز ٣٤٢
عبد الله بن محمد أبي عبده ٣٠٢
عبد الله بن محمد الزجالي ٣٠٢
عبد الله بن كنون ـ ٣٥٩
عبد الحق بن سبعين ٩٦
عبد الحميد الكاتب ٢٤٤
عبد الرحمن الأوسط ٢٢٠
عبد الرحمن بن الحكم ٥٣، ١٦١
عبد الرحمن بن عوف ٣٥٤
عبد الرحمن الداخل ١١٤
عبد الرحمن الناصر ٦٢، ٣٠٢
عبد العزيز الأهواني ١٨١، ١٨٢

عبد الكريم القيسي الأندلسي ١٧١، ١٧٤، ١٧٦
عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري ١٥٧، ٢٢١
عبد الملك بن إدريس الجزيري ١٠٨
عبد الملك بن سراج ١٤٧
عبد الملك بن مروان ٩٣
عبد الله بن الحبحاب ٢١٣
العرب ٢١
علم الدين البرزالي ٢٧٩
علي بن حصن الإشبيلي ١١٩
علي بن عبد الله النمري الششتري ٩٨
علي بن عبد الرحمن = ابن حزمون ٧٦
عمر بن حفصون ٢٩٥
عياض ـ القاضي ٢٣٩
((غ))
الغني بالله ـ السلطان ٣٧٣
((ف))
فاطمة الزهراء ٣٥٣
((ق))
القرطبي ٤٨
قيس بن الخطيم ٢٩٨
((ل))
لسان الدين بن الخطيب = أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني ٦٧، ١٦٩، ١٨٦، ١٩٥، ١٩٨، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٦٦، ٢٨٤، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٤
((م))
مالك ـ الإمام ٤٨
مالك بن المرّحل ١٠٣
محمد بن أيمن ٢٢٠
محمد بن سفر ١١٢
محمد بن عبادة القزّاز ١٩٢
محمد بن عبد الله بن مسرة ٩٥
محمد بن مسعود ٢٣٤
محمد مجيد السعيد ١٠٤
محيي الدين = الشيخ الأكبر ٩٦
المرابطون ٣٦
المزي ـ الحافظ ٢٧٩
المستنصر الموحدي ٣٦٢
معاذ الشعباني ـ القاضي ٢٩٣

ON

ANDALUSIAN LITERATURE

Fī al-Adab al-Andalusī

Dr. Muḥammad Ruḍwān al-Dāyah

مرَّ أكثر من خمسة قرون على انطفاء شمعة الأندلس الزّاهية وانقضاء آخر دول الإسلام فيها: دولة بني الأحمر أو بني نصر في غرناطة. ولكنَّ إشعاع الأندلس بحضارتها، وثقافتها، وما تركه العلماء والفقهاء والأدباء من آثار مسطرة خالدة، هو إشعاع باق، يرفدُ تاريخ الآداب والعُلوم والفُنون والصَّنائع، ويسهم في حركة التجديد التي تحاولها الأمة وتُرسي قواعدها في العصر الحديث.

والجانب الإنساني عامة، والأدبي خاصة؛ من التراث الأندلسي الباقي: هو جزء أساسيّ من حركة تاريخ الأدب (بالمعنى الواسع)، وهو عامل له اعتباره الكبير في النهضة الأدبية الحديثة.

ثم إنّ آثار أدبائنا وشعرائنا من أهل الأندلس تلفت انتباه أبناء الأُمة، وتثير فيهم مكامن الذكريات، وتقدّم لهم الطريف والمبدع، وتغذي نفوسهم وقلوبهم، وتشبع فُضولهم في استقبال كل ما يصدُر في المكتبة الأندلسية التي تتسع وتَغْنى في اطّراد متواصل.

وهذا الكتاب صلة موصولة بين ذلك الأريج الأندلسي وبين القارئ المتشوّف إلى نسائم الأندلس العليلة.

فرات
WWW.FURAT.COM
موقع عربي رائد لتجارة الكتب والبرامج العربية

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

SROUR ALWANI 2000